

أَثَرُ القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ فِي الاخْتِيَارَاتِ التَّفْسِيرِيَّةِ فِي " جَوَاهِرِ الأَفْكَارِ لابْنِ بَدْرَانَ "

The Effect of Syntactic and Rhetoric Rules in Interpretive Choices in "Jewels Ideas of Ibn Badran"

إعداد الطَّالب : حسام خليل يوسف الخوَّار

الرَّقم الجامعي : 401220129

إشراف الأُستاذ الدكتور:

عبد الرَّؤوف زهدي

قُدِّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلَّبات الحصول على درجة الماجستير

في اللُّغة العربيَّة وآدابها

قسم اللُّغة العربيَّة

كليَّة الآداب والعلوم

جامعة الشرق الأوسط

أيار – 2015 م

التفويض

أنا حُسام خليل يوسف الخوّار أُفوّض جامعة الشّرق الأَوسط بتزويد نُسخٍ مِنْ رسالتي ورقياً والكترونياً للمكتبات، أو المُنظّمات، أو الهيئات، والمؤسّسات المعنيّة بالأَبحاث، والدّراسات العلميّة عند طلبها .

الاسم: حسام خليل يوسف الخوّار.

التّأريخ: 5 / شعبان / 1436هـ.

الموافق: 23 / 5 / 2015م.

التّوقيع:..................................... .

قرار لجنة المناقشة

نُوقشت هذه الرِّسالة وعنوانها (أَثَرُ القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ فِي الاخْتِيَارَاتِ التَّفْسِيرِيَّةِ فِي " جَوَاهِرِ الأَفْكَارِ لابْنِ بَدْرَان ")

وأُجيزت بتاريخ: ٥ / شعبان / 1436هـ.

الموافق: ٢٣/ ٥ / 2015م.

أعضاء لجنة المناقشة:	جهة العمل	التَّوقيع
1. أ. د. عبدالرؤوف زهدي	جامعة الشرق الأوسط	....
2. أ. د. سعود عبدالجابر	جامعة الشرق الأوسط	....
3. أ. د. كمال أحمد المقابلة	جامعة آل البيت	....

كلمة شكر وامتنان وثناء وعرفان

الحمد لله الذي بسط على عباده سوابغ النّعم، وأفاضَ عليهم من واسع الفضل، والكرم، وهو القائل في كتابه: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

وأصلّي، وأسلّم، وأبارك على إمام الشاكرين، وقُدوة المُتّقين محمد سيِّد الخلق أجمعين، وقد روى عنه أبو هريرة أنّه قال: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

أمّا بعد،

ولــو أنّــي أُوتيت كُـلَّ بلاغــةٍ　　وأفنيت بحر النّطق في النّظم والنّثرِ

لَما كنت بعد القول إلّا مُقَصّراً　　ومُعترفـاً بالعجـز عن واجب الشكرِ

وبعد أنْ اسْتَوَت هذه الرِّسالة على سُوقها، أشعر أنّ هناك من يُطوِّق عنقي بأفضاله، ويغمرني بعظم أفعاله... فتقف العبارات عاجزة عن بلوغ شكركم، وتعتذر الكلمات عن الثّناء لعظيم فضلكم، وحسبنا أنّ لكم من القدر في الفؤاد، ما يفوق ما جاد به المداد.

وإنّني لأتقدّم بأسمى آيات الشّكر والثّناء لكلّ يد عملت في الخفاء مُكثرة، أو مُقلة... كما وإنّني لأنظم عِقد الشّكر موصولاً بلا انقطاع، إلى أبي، وأمي قرة عيني كما ربّياني صغيراً... وإلى زوجي رفيقة دربي، ومهجة قلبي، وإلى أبنائي فلذات الكبد، ومزيلي الكمد... وإلى أستاذي الكبير الأستاذ الدكتور عبد الرؤوف زهدي الذي لم يتوانَ عن إسداء النصح، والإرشاد؛ للسير على طريق الرشاد... وإلى أخي الصديق الذي وهبني من وقته الكثير علي عيدة... وإلى صهري محمد بسام، وإلى الزميلين الفاضلين أحمد جرار، وسائد الحاج... فأنتم أصحاب الأيادي البيضاء، والصفات المشرقة بالبذل والعطاء.

كما وأتقدّم بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضّلوا عليَّ بقَبول مناقشة هذه الرسالة؛ لتقويم اعوجاجها، وسدّ ثُلُومِها... قائلاً لكم جميعاً :

وفقكم الله لما يحبّ ويرضى، وكساكم لباس الصّحة والتّقوى.

الإهداء:

إلى الأمّة الإسلاميّة، إلى خير الخلق والبريّة، إلى الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

إلى ابن بدران – ذلك الهرم الضّخم – الذي ذُكِرَ قليلاً، ونُسِيَ كثيراً.

إلى المهتمّين بعلوم القرآن... دستور كلّ إنسان.

إلى المُخلِصين المُخلَصين الذين انتدبهم الله – سبحانه – للدّفاع عن حَومة العربيّة التي اصطفاها ربُّ البريّة بأقلامهم، وأوقاتهم... فكانوا شموساً ساطعة، وأقماراً لامعة – بَدّدَت الظّلام، وحجَّمت الأقزام – تشبّثوا بالعربية، وحافظوا على الهويّة...

وأخيراً:

إلى مُحبِّي الضَّاد... أشرف لغات العباد.

أهدي هذه الرّسالة

الباحث

أَثَرُ القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَالبَلَاغِيَّةِ فِي الاخْتِيَارات التَّفْسِيرِيَّةِ فِي " جَوَاهِرِ الأَفْكَارِ لابْنِ بَدْرَانَ "

الباحث: حسام خليل يوسف الخوّار

المشرف: أ. د عبدالرَّؤُوف زهدي

الملخّص

تناولت هذه الدّراسة تفسيراً مهمّاً من تفاسير القرآن الكريم، لعالِم جليل من العلماء المعاصرين وهو عبد القادر بدران، إلّا أنّ هذا التّفسير لم يُتمّهُ مؤلّفه بسبب وفاته حيث انتهى به التّفسير إلى آية (189) من سورة البقرة. وحاولت الدّراسة تجلية العلاقة بين علمي النّحو والبلاغة، وعلم التّفسير، وإبراز مدى قوّة الرّابط بينهما، من خلال دراسة أثر القواعد النّحويّة والبلاغيّة في تفسير جواهر الأفكار.

إذ تبيّن للباحث بعد استقراء هذا التّفسير، أنّه يشتمل على كثير من القواعد النّحويّة والبلاغيّة التي اعتمدها المُفَسّر في توجيه معنى كثير من الآيات القرآنيّة؛ لبيان مُراد الله منها.

وقد عمل الباحث على دراسة بعضها كأنموذج تطبيقيّ؛ لبيان أهميّة علمي النّحو والبلاغة في توجيه المعنى المُراد.

وقام الباحث بتقسيم هذه الدّراسة إلى ثلاثة فصول وخاتمة:

أمّا الفصل الأوّل : فيحتوي على مقدّمة الدراسة، ومشكلتها، وأهدافها، وأهمّيتها، وحدودها، والتعريف بمصطلحاتها، ومنهجيَّتها، ونشأة علوم النحو، والبلاغة، والتفسير، وتطوّرها، وعلاقة كلّ علم منهما بالآخر، ثم ختم الباحث الفصل بنُبذة عن عبد القادر بن أحمد بن بدران، تضمّنت حياته ومكانته العلمية، ومؤلّفاته، وثناء العلماء عليه، والتعريف بتفسيره (جواهر الأفكار).

وأمّا الفصل الثاني : فيحتوي على الأدب النّظري، والدراسات السّابقة التي لها علاقة وثيقة بالدراسة.

وأمّا الفصل الثالث : فيحتوي على مبحثين :

المبحث الأول : أثر القواعد النَّحويَّة في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران ؛ إذ شملت عشر مسائل قامت على دراسة تطبيقية للقواعد النَّحويَّة، وأثرها في توجيه المعنى في تفسير الآيات القرآنيّة.

وأمّا المبحث الثاني : فهو أثر القواعد البلاغِيَّة في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران، إذ شملت خمس مسائل أظهرت أثر القواعد البلاغيَّة في الاختيارات التَّفسيريَّة عند ابن بدران من خلال الدراسة التطبيقيَّة التحليليَّة.

ثم أعقبت ذلك بالخاتمة التي تحتوي على أهم التوصيات، والنتائج التي توصّل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحيَّة:

- القواعد النَّحويَّة.
- القواعد البلاغيَّة.
- الاختيارات التَّفسيريَّة.

The Effect of Syntactic and Rhetoric Rules in Interpretive Choices in "Jewels Ideas of Ibn Badran"

Researcher: Husam Khalil Yousef Al Khawar

Supervisor: prof. Abd Alraoof Mustafa Zohdi

Abstract

This study deals with an important explanation of the interpretations of the Holy Quran, by one of contemporary scholars, Abdulkadir Badran however; the author did not finish his explanation because of his death, until he reached to Ayah 189 of Surat Al Bakara. His study tried to highlight the relationship between syntax, rhetoric and science of interpretation, and to highlight the strength of the link between them, through the study of the effect of grammatical rules and the interpretation of rhetorical"Jawaher Alafkar".

The researcher found out, after extrapolation of this interpretation that incorporates many of the rhetorical and grammatical rules adopted by the interpreter in directing the meaning of many of the Quranic verses to demonstrate Allah’s purpose. The researcher works on this study as an applied sample to demonstrate the importance of scientific grammar and rhetoric channeled to this effect. The researcher divided the study into three chapters and a conclusion.

Chapter One: Contains an introduction of the study, problems, goals, importance, the definition of terminology, methodology, and the emergence of syntax, rhetoric and interpretation, evolution, the relationship between each other. Then the researcher finished his chapter with an overview of the Abdulkadir bin Ahmed bin Badran including his scholarly career and prestige and the scholars’appraisal, and the definition of interpretation"Jawaher Alafkar".

Chapter Two: Contains the theoretical literature and previous studies that have a close relationship with the study.

Chapter Three: contains two sections:

First section: the impact of the grammatical syntax on the interpretations of Ibn Badran; it included ten cases depending on the applied study of grammatical rules and their effect on directing meaning.

The second section: is the impact of the rules in the rhetorical choices explanatory of Ibn Badran. Also it included five issues that showed its impact explanatory through analytical applied study.

The study ends with a conclusion that contains the most important findings and results presented here.

Key words:

- Syntactic Rules
- Rhetoric Rules
- Interpretive Choices

قائمـــة المحتويـــات

المقدمة:

إنَّ القرآن الكريم هو أَصل العلوم الشرعية كلِّها، وهو المعجزة الخالدة بنظمه وبيانه. وقد اقتضت حكمة الله – تعالى – أن يرسل رسله بلسان قومهم؛ ليبلّغوا شريعته، قال – تعالى –: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم:4]، وأرسلَ الله خاتمةَ رسله في قومٍ عُرفوا بالفصاحة، والبلاغة فجعل معجزته من جنسِ ما اشتُهروا به، قال – تعالى –: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:2].

والله – تعالى – أنزلَ القرآنَ على نظم هو غاية الفصاحة عندَهم على ما تعارفوهُ واعتادوه، بلسانٍ عربيٍّ مبين[1] قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء:192 –195]؛ ليثبت للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم، عجزهم عن مجاراته في نظمه وبيانه، في وقت كانوا فيه يتفاخرون بلغتهم وفصاحتهم التي وصلت ذروتها في عهدهم. ولقد شرَّف الله – عزَّ وجلَّ – اللّغة العربيّة بأنْ جعلها لغة كتابه العزيز المحفوظ من كلّ تحريف وتغيير، قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:9] ؛ فسخّر الله لكتابه من يقوم على خدمته منذ عهد الصّحابة – رضوان الله عليهم – إلى يوم الدين، فقد حظي بما لم يحظ به كتابٌ في القديم والحديث؛ لذا عكف العلماء على خدمته ببيان علومه، وأحكامه، وتفسير آياته، والوقوف على مكنوناته، وكل ما يتعلّق به، حتى أصبحت المكتبة التّفسيريّة من أوسع المكتبات، وأكثرها إنتاجًا، وأعمقها فكرًا. قال النيسابوري (ت850هـ) في غرائب القرآن: " ولقد انتصب جمٌّ غفيرٌ، وجمع كثير من الصحابة، والتابعين ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحقّقين، والأئمة المتقنين في كلِّ عصر وحين؛ للخوض في تيّار بحاره والكشف عن أستار أسراره، والفحص عن غرائبه، والاطلاع على رغائبه نقلاً، وعقلاً، وأخذاً، واجتهاداً، فتباينت مطامح همّاتهم، وتباعدت مواقع نياتهم، وتشعبت مسالك أقدامهم، وتفنّنت مقاطر أقلامهم

---

[1] الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ)، دَرْجُ الدُّرَرِ فِي تَفْسِيرِ الآيِ وَالسُّوَرِ، تحقيق القسم الأول طلعت صلاح فرحان، القسم الثاني مُحَمَّد أديب شكور أمرير، دار الفكر– عمّان، الأردن، ط1 1430، ج1، ص24.

فمن بين وجيز وأوجز، ومطنب ومُلْغِز، ومن مقتصر على حلِّ الألفاظ، ومن ملاحظ مع ذلك حظ المعاني والبيان ونعم اللحاظ، فشكر الله – تعالى – مساعيَهم، وصان عن إزراء القادح معاليهم " [1].

وقد تنوّعت خدمةُ المسلمينَ للقرآن وعنايتهم به، وفي سبيل هذه العناية نشأت علوم، وترعرعت علوم أخرى، ومن أشهرها: علم التّفسير، وعلوم العربيّة بفروعِها: النَّحْو، والصّرف، واللّغة، والبلاغة.

ولمّا كان من أسباب نشأة بعض العلوم خدمةُ القرآن الكريم، والمحافظةُ عليه، والعنايةُ به؛ فإنّه ممّا لا شكَّ فيهِ أنّ ثمّةَ علاقةً بين كلِّ هذه العلوم؛ إذ إنّها تشتمل في مضامينها على دراسة آي القرآن الكريمِ.

وبما أنّ علم التّفسير معنيٌّ بمعاني القرآن، وألفاظه إفرادًا وتركيبًا؛ كان لا بدّ من وضع قواعد عامّة تضبط ألفاظه، وتراكيبه من اللّحن، والتّحريف، والتّغيير، في وقت كان قد دخل اللّحن في لسان العرب؛ لاختلاطهم بغيرهم من الأعاجم. فظهرت علوم شتى، منها: علم النَّحْو؛ ليضبط اللّسان، ويحفظه من اللّحن.

وقد عُنِي العلماء بعلم النَّحْو أيّما عناية، وسطّروه في كتب لا يعلم عددَها إلّا الله، منذ نشأته إلى يومنا هذا، وقد حظي علماء النَّحْو بالرّفعة، والمكانة، والإجلال على ما قدّموه من حفظ اللّغة العربيّة من اللّحن والفساد، وقد سُطِّرت ذكراهم بصحائف كُتبت بمداد التّبجيل والتّكريم. قال ابن شُبرُمة(ت144هـ):" إذا سرّك أنْ تَعظُم في عين من كنت في عينه صغيرًا، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيمًا، فتعلّم العربيّة؛ فإنّها تجريك على المنطق، وتدنيك من السّلطان" [2].

وكان لزاماً على مَن يريد أن يلجَ باب تفسير القرآن الكريم أن يكون عالمًا بالعربيّة وعلومها؛ فأغنى هؤلاء المفسرون كتب التّفسير بالآراء النَّحْويّة، واللّغويّة التي كان لها أثر بارز في فهم كلام الله، وفي توجيه النّص القرآني، ويظهر ذلك جليًا في اختلاف آرائهم في بيانهم لمعاني القرآن الكريم.

---

[1] النيسابوري، نظام الدين الحسين بن مُحَمَّد الحسين القمي (ت850 هـ)، غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ ، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1416 هـ، ج1، ص5.

[2] ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت276 هـ)، عُيُونُ الأَخْبَارِ، شرحه وضبطه د. يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط3 1424هـ، ج2، ص172.

وفي سياق التدليل على أهميَّة علم النَّحو؛ إذ لا غُنْيَة عنه لفهم كتاب الله ، وسنَّة رسوله – صلى الله عليه وسلم–، يقول ابن هشام (ت761 هـ)[1] في المغني: " فإنَّ أولى ما تقترحه القرائح وأعلى ما تجنح إلى تحصيله الجوانح ما يتيسّر به فهم كتاب الله المنزَل، ويتضّح به معنى حديث نبيِّه المُرسل؛ فإنّهما الوسيلة إلى السّعادة الأبديّة، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدّينيّة، والدّنيويّة وأصل ذلك علم الإعراب الهادي إلى صوب الصّواب " [2].

وقد عُنيَ علماءُ النَّحْو بالتّفسير أيّما عناية منذ بدايات نشأتِه، بل إنّ المتَتَبِّعَ لجهودهم في تفسير القرآن الكريم يجدها أكثر من أن تُحصى قديماً وحديثاً؛ فهذا كتاب سيبويْه باكورة التأليف النَّحْوي نجده زاخراً في تفسير آي القرآن الكريم، من خلال التّحليل الفنّي لمعاني بعض آيات القرآن الكريم؛ فيكون بذلك قد وضع اللّبنة الأولى للتّفسير اللّغوي للقرآن الذي أعلى بنيانه علماء التّفسير والإعراب– فيما بعد –. ولقد أكثر سيبويه من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، ولم يكن ذلك عارضاً وإنّما كان بقصدٍ منه؛ لبيان صحّة القاعدة النَّحْويّة التي تبنّاها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان في كثيرٍ من الأحيان يقف موضِّحاً، ومحلّلاً ومستنبطاً. إذن لابدّ من إلمام المفسّر بهذه العلوم إذ بها تُفهم نصوص الشّريعة وآيات القرآن على ما أراد الله، وتُستنبط أحكامه الشّرعيّة التي يُتعبَّد بها.

ولم يقتصر الأمر على معرفة علم النَّحْو في تفسير القرآن فحسب؛ بلْ إنّ العلماء بيّنوا أهميّة العناية بعلم البلاغة لمن أراد تفسير القرآن الكريم، حيث إنّهم ربطوا بين القدرة على التّصدي لعلم التّفسير، والبراعة في علمي البيان والمعاني. وهذا ما أكّده الزّمخشري (ت538 هـ) في الكشاف بقوله:" واللّغوي وإنْ علك اللّغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطّرائق، ولا يغوص على شيءٍ من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في علميْن مختصّين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التّنقير عنهما أزمنة " [3].

---

[1] هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو مُحَمَّد، جمال الدين، ابن هشام: من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. من تصانيفه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) و (عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب). انظر: الزركلي، خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد ابن علي بن فارس (ت 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج4، ص146–147.

[2] ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبد الله بن يوسف بن أحمد (ت761هـ)، مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، ط 1424هـ، ص13.

[3] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو أحمد (ت538هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3 1407هـ، ج1، ص2.

وممَّا سبق يظهر لنا مدى علاقة العربيّة بالتّفسير لاسيّما في أهم عِلمَيْن من علومها: النَّحْو والبلاغة، وكيف أَنَّ العلماء ألّفوا المؤلّفات، وصنّفوا المصنّفات؛ خدمةً للقرآن الكريم، وبيان معانيه ومراميه، يقول أبو حاتم الرّازي (ت 322 هـ) في كتاب الزينة: " ورأيْنا العلماء باللّغة العربيّة قد كَفَوا النّاسَ مؤونة هذا الشّأن، وأحكموا إحكاماً بيِّناً لما دوّنوه من أشعارِ الشُّعراء، وألّفوه من المصنّفات، ووصفوه من الصّفات في كلِّ ما قدروا عليه، ممّا يحتاج النّاس إلى استدراكه... وذلك كلّه لشدّة حاجة النّاس إلى معرفة لغة العرب؛ ليصلوا به إلى ما ذكرنا من معاني القرآن الكريم، والألفاظ الغريبة فيه"[1].

ولا يخفى أنَّ هذه اللّغة هي لغة القرآن، وقد حُفظت بحفظ الله لكتابه؛ لذلك فإنّها ارتبطت بالقرآن بأوثق رباط؛ إذ إنّها لا تنفكّ عنه ألبتّة، ولا يمكن الخوض في غمار القرآن دون الإلمام بعلوم العربية وفنونها، وهذا ما أكّده الرّافعي (ت1356هـ)[2] بقوله: " فإنَّ هذه العربيّة لغة دين قائم على أصلٍ خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأوّلون والآخِرون على إعجازه بفصاحتِه، إلّا مَنْ لا حَفْلَ له به من زنديق يتجاهل، أو جاهلٍ يتزندَقْ" [3]. لذلك لا بدّ من فهم اللّغة العربيّة، ومعرفتها فهي شرط في فهم القرآن وتفسيره، إذ من المُحال فهمه، وتفسيره لغير عارف العربيّة؛ لأنّه لا شكَّ سيقع في الزلل، والخطأ بل سَيُحرّف الكَلِمَ عن مواضِعِه.

ومن هنا تظهر أهمية بيان أثر التوجيه النَّحْوي في العلاقة القويّة بين المعنى النَّحْوي (الإعراب)، والمعنى الدّلالي في التّفسير. فقضية العلاقة بين الجانب النَّحْوي، والجانب التّفسيري من المشكلات الدّقيقة التي أحسّ بها اللّغويون، والمفسرون، والدّارسون لعلوم القرآن، بل إن الدّارسين لهذه المسألة يجدون العلماء يلحّون على العلاقة القويّة بين الإعراب والمعنى. كيف لا؟! والإعراب فرع المعنى.

---

[1] الرّازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت322 هـ)، كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، عارضه بأصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدِّراسات والبحوث اليمنيّ، ط1 1415هـ، ص 134.

[2] هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكُتّاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، له (ديوان شعر)، و (تاريخ آداب العرب)، ثالثهما (إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة) و (تحت راية القرآن) و (رسائل الأحزان). انظر: الأعلام للزركلي 7 / 235.

[3] الرّافعي، مصطفى صادق بن عبد الرَزّاق(ت1356هـ)، تحت راية القرآن، المكتبة العصريّة – صيدا – بيروت، ط1 1423هـ، ص16.

و لقد عُني عدد من الباحثين، و الدَّارسين ببيان أثر القواعد النَّحويَّة، و البلاغيَّة في توجيه معاني الآيات القرآنية في تفاسير القرآن الكريم القديمة، و الحديثة. و لم يقف الباحث – بعد التّحرّي و التقصّي– على دراسة، أو بحث تناولت دراسة أثر القواعد النّحويّة، و البلاغيّة في توجيه معاني الآيات القرآنية في تفسير كتاب "جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبّار" لعبد القادر بن أحمد بدران، فوقع اختيار الباحث عليه؛ إذ يعدّ نفيسة من نفائس التفسير المتداولة بين خواصّ أهل العلم؛ فكان لهذا الكتاب من اسمه نصيب.

وسيقوم الباحث– بعد عون الله و توفيقه– على دراسة تفسير ابن بدران؛ لتجلية المنهج النَّحْوي والبلاغي في هذا التّفسير.

وبعد تقرّي المادة النَّحْويّة والبلاغيَّة في هذا التّفسير، ودراستها دراسة متأنية، تبيّن للباحث أنّه يشتمل على مسائل، وتدقيقات، وتحقيقات نحويّة، وبلاغيّة تستحق الدّراسة والتّحليل؛ لاسيّما أنّ هذه المسائل، والتّطبيقات تُبرز أثر النَّحْو والبلاغة في توجيه المعنى، وهذا ما اعتمده ابن بدران – رحمه الله تعالى – في تفسيره غير مُقَيَّدٍ، ولا مُلتَزِمٍ مذهب عالم من العلماء، أو رأي مُفسِّر من المفسِّرين، فتارة يأخذ برأي عالم في توجيه معنى آية، وتارة يردُّ عليه في توجيه معنى آية أُخرى؛ لذلك فإنَّ اعتماده في تفسير الآيات بُنِيَ على التفسير بالمأثور، وما أجمعت عليه الأمة، آخذاً بأقوال الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – والتابعين، فضلاً عن اللّغة العربيّة التي أفاد منها كثيراً في توجيه معنى الآيات القرآنيّة، معتمداً عليها في ترجيحاته التّفسيريّة التي يراها صواباً، وحقّاً في بيان مراد الله – جلّ شأنه – من الآية. غير آبهٍ بقول من خالفه من العلماء، والمفسّرين وإن كان الجمهور، على الرغم من نقله لكلام العلماء والمفسّرين قبله بتمامه، وكماله في كثير من الأحايين. وقد وافته المنيّة – رحمه الله– قبل إتمام تفسيره، حيث وقف عند تفسير الآية (189) من سورة البقرة. ويقع الكتاب في (552) صفحة. و أسأل الله– في علاه – أن يُقيِّض لهذا التفسير من طلبة العلم المجدِّين من يشمّر عن ساعد الجدّ، و يبسط راحات العمل؛ ليتمَّ إنجاز هذا السِفْر العظيم، الذي سَتُحَقَقُ بإتمامه الفوائد العظيمة، و الفرائد الجليلة. إنّه مولى ذلك و القادر عليه. و أسأل الله – الذي تتمّ بفضله الصالحات– أن يجعل لنا نصيبًا من ذلك.

وقد عَمَدَ الباحث في دراسته إلى بيان مدى اعتماد ابن بدران على القواعد النَّحْويّة والبلاغيّة في توجيه معنى الآيات القرآنيّة، مُستَقْصِياً لبعضها من غير حَصْرٍ لها، من خلال ذِكْر المسألة، وقول ابن بدران فيها، ثم بيان الخلاف بين العلماء في تلك المسألة، واستقراء أقوال العلماء مطيلاً النَفَس في ذلك، متتبّعاً ترجيحاتهم، وتأويلاتهم، ثم مبيّنًا القول الرّاجح فيما يراه الباحث، ومدى موافقته لقول ابن بدران.

و قد وقع اختيار الباحث على عشر مسائل نحويّة، و خمس مسائل بلاغيّة، و لعلَّ المسائل الأخرى تشقّ طريقها للبحث في مُقْتَبَلِ الأيام، لينتفع بها الأَنام.

و الله الموفِّق وهو الهادي إلى سواء السبيل

مشكلة الدّراسة:

ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما مدى العلاقة بين علمي النَّحْو والبلاغة والتّفسير؟
2. ما تأثير القواعد النَّحْوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية عند بعض علماء التفسير؟
3. ما القواعد النَّحْوية والبلاغية التي تبنّاها ابن بدران في منهجه التّفسيري؟

أهداف الدّراسة:

تهدف هذه الدّراسة إلى تجلية العلاقة بين علميّ النَّحْو والبلاغة وبين علم التَّفسير من خلال:

1. إظهار أهميّة النَّحْو والبلاغة في التّفسير، والعلاقة الوثيقة بينها.
2. إبراز أهم القواعد النَّحْويّة والبلاغية التي أفاد منها بعض المفسرين في اختياراتهم التّفسيريّة.
3. دراسة القواعد النَّحْويّة والبلاغية التي أفاد منها ابن بدران وبيان تأثيرها في اختياراته التّفسيريّة.

أهميّة الدّراسة:

تكمُن أهمية الدّراسة في النقاط الآتية:

الأولى: أنّها تمثّل أُنموذجًا تطبيقيًا لفهم النّصوص عن طريق القواعد النَّحْويّة، والبلاغيَّة المضطردة.

الثّانية: أنّها تتناول تفسيرًا متداولًا بين أهل العلم، يعتمد على النَّحْو والبلاغة في تحليل النّص القرآني. ولم يحظ بعناية أو دراسة سابقة من الجهة النَّحْويَّة أو البلاغيَّة، في حدود اطّلاع الباحث.

الثالثة: إثراء المكتبة العربيَّة بدراسة علميَّة مُحْكَمَة تتناول موضوعًا جديدًا تفتقر إليه.

حدود الدّراسة:

تقوم هذه الدّراسة على تتبع القواعد النَّحْويَّة والبلاغيَّة في كتاب " جواهر الأفكار" لابن بدران (1420هـ - 1999م)، مُبَيِّنَةً أهميَّتها ودورها في توجيه المعنى في ذلك التّفسير.

مصطلحات الدراسة:

القواعد:

عرفها السُّبكيّ (ت 771هـ) بقوله:

" الأمر الكلّي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يُفْهَم أحكامها منها" [1].

وعرّفها الجُرْجَانِيّ (ت 816هـ)[2] في التعريفات بقوله:

"هي قضيّة كليّة منطبقة على جميع جزئياتها" [3].

وعرّفها الكَفَوي (ت 1094هـ) بقوله:

"قضيّة كليّة من حيث اشتمالها بالقوّة على أحكام جزئيَّات موضوعها، وتسمى فروعًا، واستخراجها منها تفريعًا كقولنا: كل إجماع حق" [4].

إذًا، فالتَّعريف الإجرائيّ للقاعدة النَّحْويَّة هي:

مجموعة من الأحكام النَّحْوية الكليّة، التي يتم تطبيقها على ما لا ينحصر من الأحكام الجزئيَّة.

---

[1] السُّبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط1 1411هـ، ج1، ص11.

[2] هو علي بن مُحَمَّد بن علي، المعروف بالشريف الجُرْجَانِيّ: فيلسوف. من كبار العلماء بالعربية.ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور سنة 789هـ فرَّ الجُرْجَانِيّ إلى سمرقند. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفا، منها (التعريفات) و (شرح مواقف الإيجي) و (شرح كتاب الجغميني) في الهيئة. انظر: الأعلام للزركلي 5 / 7.

[3] الجُرْجَانِيّ، علي بن مُحَمَّد بن علي (ت816هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية – لبنان، ط1 1403هـ، ج1، ص171.

[4] الكفوي، أيوب بن موسى (ت1094هـ)، الكليَّات معجم في المصطلحات والفروق اللغويَّة، تحقيق عدنان درويش – مُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ص728.

النَّحْو:

عرَّفه ابن جنّي (ت392هـ)[1] بقوله:

" انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره: كالتّثنية، والجمع، والتّحقير، والتّكسير، والإضافة، والنّسب، والتّركيب، وغير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل اللغة العربيَّة بأهلها في الفصاحة؛ فينطق بها وإنْ لم يكن منهم وإنْ شذّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها" [2].

وعرَّفه ابن النَّاظم (ت686هـ) بقوله:

" عبارة عن العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب، أعني أحكام الكلم في ذواتها، أو فيما يعرض لها بالتركيب؛ لتأدية أصل المعاني من الكيفيَّة، والتقديم، والتأخير؛ لِيُحْتَرَزَ بذلك عن الخطأ في فهم معاني كلامهم، وفي الحذو عليه " [3].

وعرَّفه الجرجاوي (ت 905هـ) بقوله:

" علم بأصول يُعْرَفُ بها أحوال أبنية الكلم إعرابًا وبناءً "[4].

إذًا، فالتّعريف الإجرائي للنّحو هو:

علم تُعْرَفُ به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً.

---

[1] هو إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، صاحب التصانيف. لزم أبا علي الفارسي دهراً، وسافر معه حتى برع وصنف، وسكن بغداد، وتخرج مع الكبار. وله: سرّ الصناعة، واللمع، والتصريف، والتلقين في النَّحْو، والتعاقب، والخصائص، والمقصور والممدود، وما يُذكَّر ويُؤنَّث، وإعراب الحماسة. انظر: الذهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد(ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3 1405هـ، ج17، ص17-18.

[2] ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت392هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1، ص35.

[3] ابن النَّاظم، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد ابن الإمام جمال الدين مُحَمَّد بن مالك (ت686هـ)، شرح ابن النَّاظم على ألفيَّة ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان ط1 1420هـ، ص4.

[4] الجرجاوي، زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد المعروف بالوقّاد (ت905هـ)، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النَّحْو، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط1 1421هـ، ج1، ص11-12.

البلاغة:

عرّفها الجاحظ (ت255هـ)[1] بأنّها:

" إصابة المعنى والقصد إلى الحجة مع الإيجاز، ومعرفة الفصل من الوصل" [2].

وعرّفها العسكري (ت395هـ) بقوله:

" كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن" [3].

وعرّفها السكاكي (ت626هـ)[4] بقوله:

" هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوخية خواص التّركيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها" [5].

وعرّفه الكفوي (ت1094هـ) بقوله: " هي التّعبير عن المعنى الصّحيح لما طابقه من اللّفظ الرائق من غير مزيد على المقصد، ولا انتقاص عنه في البيان" [6].

إذاً، فالتَّعريف الإجرائي للبلاغة هو: إيصال المعنى المقصود إلى المتلقِّي بألفاظ فصيحة من غير تطويل أو تقصير.

---

[1] هو العلامة، المتبحِّر، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، المعتزلي، صاحب التصانيف. مات سنة خمس وخمسين ومئتين، كان من بحور العلم، وتصانيفه كثيرة جدًّا. قيل: لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنَّه كان يكتري دكاكين الكتبيين، ويبيت فيها للمطالعة، وكان باقعة في قوة الحفظ. انظر: سير أعلام النبلاء 526/11–527.

[2] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت255هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ، ج4، ص151. وانظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت 255هـ)، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2 1423هـ، ص295.

[3] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)،الصناعتين، تحقيق علي مُحَمَّد البجّاوي ومُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العنصريّة، بيروت 1419هـ، ص10.

[4] هو يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي السَّكَّاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، سراج الدين: عالم بالعربية والأدب. مولده ووفاته بخوارزم. من كتبه " مفتاح العلوم – ط " و " رسالة في علم المناظرة – خ " .انظر: الأعلام للزركلي 222/8 .

[5] السَّكَّاكي، يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي (626هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2 1407هـ، ص415.

[6] الكفوي، الكليَّات، ص236.

التَّفسير:

عرَّفه أبو حيّان الأندلسي (ت 745هـ) في مقدمة تفسيره بقوله:

" علم يُبحث فيه عن كيفيَّة النُّطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفراديّة والتّركيبيَّة، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التّركيب، وتتمَّات لذلك" [1].

وعرّفه الجُرْجَانِيّ (ت 816هـ) في التّعريفات بقوله:

" توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصّتها، والسّبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدلّ عليه دلالةً ظاهرة[2].

وعرّفه ابن عاشور (ت 1393هـ)[3] بقوله:

" هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفاد منها باختصار أو توسُّع" [4].

إذًا، فالتّعريف الإجرائي للتَّفسير هو:

علم يبحث في بيان معاني ألفاظ القرآن الكريم وآياته؛ لمعرفة مراد الله، واستنباط أحكامه.

---

[1] أبو حيان الأندلسي، مُحَمَّد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر – بيروت، 1420هـ ، ج1، ص26.

[2] التعريفات للجرجاني، ص63.

[3] هو مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، عُيِّنَ (عام 1932) شيخاً للإسلام مالكياً، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، صدر منه عشرة أجزاء، و (الوقف وآثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتب كثيراً في المجلات، وهو والد مُحَمَّد الفاضل. انظر: الأعلام للزركلي 174/6.

[4] ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد (ت1393هـ)، التّحرير والتّنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984، ج1، ص11.

منهجية الدّراسة:

تتبع الباحث في دراسته هذه المنهج الوصفي التّحليلي، حيث عَمَدَ الباحث إلى عرض المسائل النَّحْويَّة والبلاغيَّة التي أثّرت في الاختيارات التّفسيريّة، وقام بتحليلها تحليلاً علميّاً منهجيّاً، وقد التزم حدود المنهج العلمي.

الطرق والإجراءات:

تقع الدّراسة في ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: يحتوي على المقدّمة، وتشمل مشكلة الدّراسة، وأهدافها، وأهميّتها، وحدودها، ومنهجيتها، والتّعريف بالمصطلحات، ونشأة النَّحْو، والبلاغة، والتّفسير والعلاقة الوثيقة بينهما، ونبذة عن حياة المفسّر.

الفصل الثّاني: يحتوي على الأدب النّظري والدّراسات السَّابقة.

الفصل الثّالث: يحتوي على المسائل والتّطبيقات التي تُبْرِزُ أثر النَّحْو والبلاغة في توجيه المعنى في الاختيارات التّفسيريّة عند ابن بدران.

نَشْأَةُ النَّحْو وَتَطَوُّرُهُ:

أَهَمِّيَّةُ عِلْمُ النَّحْو:

يُعَدّ علم النَّحْو مِنْ أجلّ العلوم قدرًا، وأَنْفعها أَثَرًا، وصدق إسحاق النَّهرواني إذْ يقول:

النَّحْو يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ   وَالمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ العُلُومِ أَجَلَّهَا   فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيمُ الأَلسُن[1]

" وبه يسلم الكتاب والسّنّة من عادية اللّحن والتّحريف، وهما موئل الدّين وذخيرة المسلمين، فكان تدوينه عملًا مبرورًا، وسعياً في سبيل الدِّين مشكورًا "[2].

فالنَّحْو علم يقرّب الأفهام ويحدّد المعنى ويبعد الإبهام، وبه تعرف مقاصد الكلام، قال ابن خلدون(ت808هـ)[3] في مقدمته: " والذي يتحصَّل أنَّ الأهمَّ المقدَّم منها هو النَّحْو؛ إذ به يتبيّن أصول المقاصد بالدّلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه يُجْهَلُ أصل الإفادة "[4].

عوامل نشأة علم النَّحْو:

ظلّت اللّغة العربيّة نقيّة سليمة محفوظة من كلّ شائبة في قلب الصّحراء، خالصة لأبنائها يتحدّثون بها على سجيّتهم وسليقتهم، فبقيت نقيَّة صافية لم تَشُبْها شائِبة، حتّى بزغ فجر الإسلام على

---

[1] عُيُونُ الأَخْبَارِ لابن قتيبة 172/2-173.

[2] الطّنطاوي، مُحَمَّد كُنَيْشة (ت 1379هـ)، نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النّحاة، تحقيق أبي مُحَمَّد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط1 1426 هـ، ص11.

[3] هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحَّاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق. وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيّ بزيّ القضاة محتفظاً بزيّ بلاده. وعُزل، وأُعيد. وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية. ولمَّا رَحَلَ إلى الأندلس اهتزّ له سلطانها، وأركب خاصته لتلقيه، وأجلسه في مجلسه.اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر – ط) في سبعة مجلدات، أوّلها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع، ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية وغيرها. وختم (العبر) بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه، وسيرته، وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل، فتبسّط فيه، وجعله ذيلاً للعبر، وسماه (التعريف بابن خلدون، مؤلف الكتاب، ورحلته غرباً وشرقاً – ط). انظر: الأعلام للزركلي 330/3.

[4] ابن خلدون، عبد الرّحمن بن مُحَمَّد (ت808هـ)، مقدّمة ابن خلدون، حقَّق نصوصه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب – دمشق، ط1 1425 هـ، ج2، ص367.

جزيرة العرب وما حولها، وأخذ النّاس يدخلون في دين الله أفواجًا فاختلط العرب بالعجم في كلّ مناحي الحياة وتصاهروا حتّى أصبحوا شعبًا واحدًا. عندها بدأ اللّحن يتسرّب إلى ألسنة متكلّمي العربيّة من العرب وغيرهم وبدأ يسمع اللّحن في التّخاطب حتّى أصبحت ظاهرة لافتة للأنظار تُنْذِر بِشَرٍّ يُعَكِّرُ صفو العربيّة ونقاءها، قال أبو الطّيّب اللّغوي (ت351هـ): "واعلم أنّ أوّل ما اختلّ من كلام العرب فأحوج إلى التَّعلُّم الإعراب؛ لأنّ اللّحن ظهر في كلام الموالي والمتعرِّبين" [(1)].

فكان اللَّحن هو الباعث الأول على تدوين اللغة، وجمعها، وعلى استنباط قواعد النَّحْو وتصنيفها[(2)].

عندها صاحت الأصوات وانتفضت الأقلام، وسالت الأحبار نصرة للّغة العربيّة؛ لحفظها، وصونها والتّصدّي لعلاج ما يشوبها؛ فقعّدوا القواعد وليس ذلك إلاّ حفاظًا لكتاب الله وسنّة نبيّه – صلّى الله عليه وسلّم– مخافة أن ينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فنقّطوا الإعراب؛ مخافة اللّحن في القرآن ونقّطوا الإعجام؛ مخافة التّصحيف في القرآن. فكان حفظ كتاب الله هو الدّافعَ الرّئيسَ في تقعيد القواعد وحفظ اللّغة.

فلولا الإسلام والقرآن، لم تحظَ اللّغة العربيّة بما حظيت به من خدمة، بتدوين علومها، وتبويب مسائلها، وتتابعت الأجيال على النّظر فيها جمعاً، وتأليفاً، وتقعيدًا، وبحثًا عن أوجه جمالها، وإعجاز قرآنها، وتمجيدًا لها وتعظيمًا [(3)].

وقد اختلف العلماء واضطربوا في بدايات اللّحن على حكايات، وروايات كثيرة، ولكنْ ممّا لا شكّ فيه أنّ اللّحن ظهر بصورة واضحة بعد الفتوحات الإسلاميّة، ودخول كثير من غير العرب في

---

[1] أبو الطيب، عبد الواحد بن علي الُلغوي الحلبي (ت 351هـ)، مراتب النَّحْويين، حقَّقه وعلَّق عليه مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة – القاهرة، ص5، وانظر: السّيوطي، جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط1 1418هـ، ج2، ص341.

[2] الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد (ت1417هـ)، من تاريخ النَّحْو العربي، مكتبة الفلاح، ص8، وانظر: الصاعدي، عبد الرزاق بن فراج، أصول علم العربية في المدينة، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط28، العددان 105- 106، 1407هـ-1418هـ ج1، ص286.

[3] العايد، سليمان بن إبراهيم بن مُحَمَّد، عناية المسلمين باللّغة العربيّة خدمة للقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص6.

الإسلام كما أسلفنا؛ ممّا دفع العلماء لإرساء قواعد النَّحْو الذي تتطلبه الحوادث، وتقتضيه الحاجات خدمةً للقرآن والسّنة فيحسن قراءتهما ويُفهم مُرادهما.

من هنا نلحظ أنّ عوامل نشأة النَّحْو وأسبابه تكمن في ظهور اللّحن على ألسنة النّاس، وتفشّيه وانتشاره، ووصوله إلى القرآن، وتلاوته، وفهمه.

ولعلّ هذا ما بيّنه ابن خلدون في مقدّمته حيث أشار إلى أنّ اللّحن كان سببًا مباشرًا لنشأة النَّحْو، إذ يقول: " وخشي أهل الحُلُوم[1] منهم أن تفسد تلك المَلَكَة رأسًا ويطول العهد؛ فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك المَلَكَة مطّردة شبه الكلّيات والقواعد، يقيسون عليها أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل: أَنَّ الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثُمَّ رأوا تغيّر الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملاً، وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم فقيّدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النَّحْو " [2].

وروايات نشأة النَّحْو كثيرة جدًا، لا حاجة للاسترسال في تَقَصِّي ما ورد منها، إذ يكفي بيان سبب نشأة النَّحْو من خلالها والوقوف على اختلافات العلماء في مضامينها من حيث زمنها ومؤسّسها، ومن خلال هذه الرّوايات يتبيّن لنا أمران:

الأوّل: زمن نشأة النَّحْو:

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في زمن نشأة علم النَّحْو وتعدّدت آراؤهم، وأغلب الروايات [3] تشير إلى أنّ الصدر الأول من العصر الإسلامي هو زمن نشأة النَّحْو، وبالتحديد في عصر الخلفاء الراشدين.

---

[1] الحُلُوم: جمع حِلْم وهي الأَناة والعقل، انظر: لسان الرب 12 / 146، فصل الحاء المهملة.

[2] مقدمة ابن خلدون 2 / 368- 369.

[3] انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،ج2، ص537،: والذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1 2003م، ج2، ص735، وسير أعلام النبلاء للذهبي 4 / 83، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر (ت911هـ)، سبب وضع علم العربية، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، بيروت- دمشق، ط1، 1409هـ، ج1، ص42-43 و ص53-54، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1 1425هـ، ص139-140.

أمّا بالنّسبة لمكان النّشأة فيتّفق العلماء والباحثون قديمًا وحديثًا على أنّ العراق هي بلد النّشأة وتحديدًا البصرة. قال ابن سلّام:" وكان لأهل البصرةِ في العربيّة قُدْمَة، وبالنَّحْو وبلغات العرب والغريب عناية" [1].

ثانيًا: واضع علم النَّحْو:

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا حول الواضع الأوّل وصاحب السّبق لعلم النَّحْو، نتيجة لاضطراب الرّوايات وتعدّدها فمنهم من نسبه إلى عليّ بن أبي طالب، ومنهم من نسبه إلى أبي الأسود الدّؤلي، ومنهم من نسبه إلى نصر بن عاصم، ومنهم من نسبه إلى عبد الرّحمن بن هرمز، ومنهم من نسبه إلى يحيى بن يعمر اللّيثي، ومنهم من نسبه إلى غير هؤلاء. وقال آخرون: إنّه قديم قدم العرب.

قال السّيرافي:" اختلف النّاس في أوّل من رسم النَّحْو فقال قائلون أبو الأسود الدّؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الدّؤلي، ويُقال: اللّيثي، وقال آخرون: عبد الرّحمن بن هرمز" [2].

والذي إخاله قريبًا إلى الواقع ويرتضيه النّظر أنّ أبا الأسود الدُّؤلي[3] هو واضع علم النَّحْو.

وفيما يأتي الأدلة [4] القاطعة على نسبة وضع علم النَّحْو إلى أبي الأسود [5]:

أوّلًا: اتّفاق جمهور الرّواة من القدماء على ذلك، بل إنّ المبرّد جعله إجماعًا لعلماء العربيّة [6].

---

[1] ابن سلّام، أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي،(ت 232هـ)، طبقات فحول الشّعراء، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني- جدة، ج1، ص12.

[2] السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت 368هـ)، أخبار النَّحْويين البصريين، تحقيق طه مُحَمَّد الزيني ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، الناشر مصطفى الحلبي، ط1 1373هـ، ص11.

[3] هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الديل بن بكر الديلي، ويقال: الدؤلي، وفي اسمه ونسبه ونسبته اختلاف كثير؛ كان من سادات التابعين وأعيانهم، صحب علي بن أبي طالب- رضي الله عنه -، وشهد معه وقعة صفّين، وهو بصري، وكان من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً. وتوفي أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف، وعمره خمس وثمانون سنة- رضي الله عنه -، وقيل إنَّه مات قبل الطاعون بعلة الفالج، وقيل إنَّه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقيل لأبي الأسود عند الموت: أبشر بالمغفرة، فقال: وأين الحياء مما كانت له المغفرة. انظر: وفيات الأعيان 535/2-539.

[4] الدجني، فتحي عبد الفتاح، أبو الأسود الدّؤلي ونشأة النَّحْو، وكالة المطبوعات – الكويت، ط1، 1974م، ص173-174.

[5] انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلّام 12/1، وأخبار النَّحْويين البصريين للسّيرافي ص11، وابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ) الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ، ج3، ص455- 456، و وفيات الأعيان، 391/6-392.

[6] انظر: وفيات الأعيان 392/6، والموجز في نشأة النَّحْو ص21.

ثانيًا: رواية ابن النّديم (ت438هـ) في الفهرست. قال مُحَمَّد بن إسحق كان بمدينة الحديثة رجل يُقال له مُحَمَّد بن الحسين ويعرف بابن أبي بعرة، جمّاعةٌ للكتب، له خِزانة لم أرَ لأحد مثلها كثرة تحتوي على قطعة من الكتب العربيّة في النَّحْو، واللّغة، والأدب، والكتب القديمة. فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي... فرأيتها وقلّبتها، فرأيت عجبًا إلّا أنّ الزّمان قد أخلقها. وعمل فيها عملًا أدرسها وأحرفها،... ورأيت ما يدل على أنّ النَّحْو عند أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربع أوراق أحسبها من ورق الصّين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل، والمفعول من أبي الأسود– رحمة الله عليه– بخط يحيى ابن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: " هذا خط علان النَّحْوي "، وتحته:" هذا خط النّضر بن شميل[1]" "[2].

ثالثاً: قول علي بن أبي طالب لأبي الأسود: ما أحسن هذا النَّحْو الذي نحوت! [3].

تطوّر علم النَّحْو:

كان لأبي الأسود الفضل الوافر في بدء الغرس الذي نما وترعرع وازدهر على كرّ الزّمان بإضافة اللاحق إلى السّابق ما استدركه، وما ابتدعه، فازداد فيه التّدوين، والتّصنيف شيئًا فشيئا [4].

ولقد مرّ علم النَّحْو بمراحل وأطوار حتّى غدا يانعاً ناضجًا وقد تمّ تقسيمها إلى أربع مراحل وهي:

طور الوضع والتّكوين، وطور النّشوء والنّمو، وطور النّضج والكمال، وطور التّرجيح والبسط في التّصنيف [5].

---

[1] هو النضر بن شميل بن خرشه بن يزيد بن كلثوم بن عنترة بن زهير بن تميم، بصري الأصل، نزل مرو الروذ وهي بلاد مازن، أخذ عن الخليل وعن فصحاء الأعراب، توفي سنة أربع ومئتين أو ثلاث، وله من الكتب كتاب الصفات، وكتاب الأنواء، وكتاب المعاني، وكتاب غريب الحديث. انظر: ابن النديم، أبو الفرج مُحَمَّد بن إسحق بن مُحَمَّد الورَّاق (ت438هـ)، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط2 1417هـ ص74–75. وهو ثقة ثبت، صاحب غريب وشعر ونحو وحديث وفقه ومعرفة بأيام الناس. انظر: المزهر في اللغة 347/2.

[2] الفهرست لابن النديم ص62–63.

[3] سير أعلام النبلاء للذهبي 82/4.

[4] نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة، ص30.

[5] المرجع السابق ص36.

أولًا: طور الوضع والتّكوين:

ولقد انفردت البصرة وعلماؤها في هذا الطّور؛ إذ الكوفة منشغلة بالقراءة، والرّواية، والأشعار والأخبار، وقد بدأ هذا الطّور من الواضع الأوّل لعلم النَّحْو أبي الأسود الدّؤلي (ت68هـ)، إلى أوّل عصر الأفذاذ الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ)، ويقسّم هذا الطّور من حيث علماؤه إلى طبقتين:

أمّا الطّبقة الأولى: فقد شملت تلامذة الدّؤلي ومن أشهرهم: ونصر بن عاصم اللّيثي (ت89هـ)، عنبسة بن معدان الفيل(بُعَيدَ 100هـ)، وعبد الرّحمن بن هرمز(ت117هـ)، ويحيي بن يعمر العدواني(ت129هـ). ويتميّز منهج هذه الطّبقة بالخلوِّ من التوسّع والتشعّب والتعقيد [1].

وأمّا الطّبقة الثّانية: فبدأت من عهد عبد الله بن أبي اسحق(ت117هـ) إلى عهد أبي عمرو ابن العلاء (ت154هـ)، مروراً بعيسى بن عمر (ت149هـ). ويتميّز منهج هذه الطّبقة بالاستنباط واستعمال القياس، يقول ابن سلّام: " ثمّ كان من بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي، وكان أوّل من بَعَجَ[2] النَّحْو، وَحَدَّ القياس والعلل، وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وبقي بعده بقاءً طويلًا، وكان ابن أبي إسحق أشدّ تجريدًا للقياس، وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب، ولغاتها، وغريبها"[3].

"وبرزت عند رجال هذه الطّبقة ظاهرة الخلاف النَّحْوي بين مصوّب ومخطّئ؛ حيث لم تعد المسائل النَّحْويّة واللّغويّة متّفقًا عليها، وأنّ وجه الصّواب فيها لم يعد متّفقًا عليه"[4].

---

[1] نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة، ص32–33 وص59.

[2] قال الأزهري: لَعَجَهُ حبُّه أصوب من بَعَجَهُ لأنّ البعج الشقّ. يقال: بَعَجَ بطنه بالسكين، إذا شقّه وخضخضه فيه. انظر: الأزهري، أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق مُحَمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 2001م، ج1/ ص249، باب العين والجيم مع الميم، وقال ابن منظور: وبعجت بطني لفلان بالغت في نصيحته، وقيل في قول أبي ذؤيب وبطني بالكرام بعيج أي نصحي لهم مبذول. وتبعّج السحاب وانبعج بالمطر انفرج عن الوَدْق والوبل الشديد. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط3– 1414 هـ، ج1، ص308، مادة بَعَجَ.

[3] طبقات فحول الشعراء لابن سلّام 1 / 14.

[4] الخثران، عبدالله بن حمد، مراحل تطور الدرس النَّحْوي، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ط1413، ص81.

ثانيًا: طور النّشوء والنّمو:

ويبدأ هذا الطّور من عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي من البصريّين، وأبي جعفر الرّؤاسي من الكوفيّين، إلى أوّل عصر المازني البصري، وابن السِّكّيت الكوفي [1]. إذ يضمّ هذا الطّور ثلاث طبقات من البصريّين وثلاثاً من الكوفيّين.

أعلام طبقات البصريّين:

الطّبقة الثّالثة وأشهر أعلامها: أبو الخطّاب عبد الحميد بن عبد المجيد (الأخفش الأكبر) (ت172هـ)[2]، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، ويونس بن حبيب (ت182هـ)، وقد تزامنت هذه الطّبقة مع الطّبقة الأولى من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو جعفر الرؤاسي(ت175هـ)، ومعاذ ابن مسلم الهراء(ت187هـ).

الطّبقة الرّابعة وأشهرهم: أبو بشر عمرو بن عثمان (سيبويه) (ت180هـ)، وأبو مُحَمَّد يحيى ابن المبارك اليزيدي (ت202هـ) وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (ت215هـ)، وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت216هـ). وقد تزامنت هذه الطّبقة مع الطّبقة الثّانية من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي(ت189هـ).

الطّبقة الخامسة وأشهر علمائها: سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت211هـ)، وأبو علي مُحَمَّد بن المستنير المعروف بقطرب (ت206هـ).

وتتزامن هذه الطَّبقة مع الطَّبقة الثّالثة من الكوفيّين ومن أشهر علمائها: أبو الحسن علي بن المبارك الأحمر(ت194هـ)، وأبو زكريا يحيى بن زياد المعروف بالفراء (ت207هـ)، وأبو الحسن علي بن المبارك اللحيّاني (ت220هـ).

---

[1] انظر: نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة ص35.

[2] هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد من أهل هجر من مواليهم، وكان نحوياً لغوياً وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب وأخذ عنه سيبويه – وحمل عنه النَّحْو، ولولاه لما اشتهر – وأخذ عنه أيضا: عيسى بن عمر النَّحْوي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، ومن في طبقتهما وغيرهم. شيخ العربية، ومن كبار علمائها . مولى قيس ابن ثعلبة. لقي الأعراب وأخذ عنهم. وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها. ولم يظفر له ابن خلّكان والحافظ الذهبي بوفاة. انظر: وفيات الأعيان 301/3، وسير أعلام النبلاء 323/7، والأعلام للزركلي 288/3.

ثالثًا: طور النّضج والكمال:

ويبدأ هذا الطّور من عهد أبي عثمان المازني البصري (ت249هـ)[1]إمام الطّبقة السّادسة، ويعقوب بن السكّيت الكوفي (ت244هـ) إمام الرّابعة، إلى آخر عصر المبرّد البصري (ت285هـ) شيخ السّابعة، وثعلب الكوفي (ت291هـ) شيخ الخامسة [2]. ويتميّز منهج هذا الطّور بالفصل بين المباحث النَّحْويّة والصّرفيّة.

رابعًا: طور التّرجيح:

ظهر هذا الطّور نتيجة للخلافات القائمة بين المَذْهَبَيْنِ البصري والكوفي في الطّور السّابق فجاء علماء هذا الطّور وهم من بغداد فعملوا على المفاضلة بين المَذْهَبَيْنِ، وإيثار المختار منهما، وقاموا بمسألة التّرجيح بينهما، ومن أشهر علماء هذا الطّور: أبو إسحق إبراهيم بن السَّرِي بن سهل الزّجاج (ت311هـ)، والحسن بن عبد الله بن المرزباني السّيرافي (ت368هـ)، ومُحَمَّد بن القاسم بن الأنباري (ت327هـ)، وأبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت267هـ) [3].

وتميّز منهج هذا الطّور بكثرة تآليفه وتصانيفه، إذ عملوا على التّرجيح بين المذهبَيْن البصري والكوفي، وشرحوا المختصرات، وعلّقوا عليها بالتّقارير والحواشي.

---

[1] هو أبو عثمان بكر بن مُحَمَّد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النَّحْوي، كان إمام عصره في النَّحْو والأدب، وأخذ الأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي الأنصاري وغيرهم، وأخذ عنه أبو العباس المبرّد، وله من التصانيف كتاب ما تُلحن به العامة وكتاب التصريف وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج، توفي سنة تسع وأربعين ومئتين، وقيل ثمان وأربعين، وقيل ست وثلاثين ومئتين بالبصرة. النظر: وفيات الأعيان 283/1-286.

[2] انظر: نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة ص39-40، ومراحل تطور نشأة النَّحْو ص111-112.

[3] انظر: مراحل تطور الدرس النَّحْوي ص125-127، ونشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النحاة ص150-156.

نشأة علم البلاغة

" يرجع تاريخ نشأة البلاغة العربيّة إلى نشأة النّقد الأدبي عند العرب، وقد ولد النّقد الأدبي بميلاد الشّعر العربي، ولازمه في جميع مراحله المختلفة، يرسم له المنهج القويم، ويلحّ عليه بالإصلاح ويوضِّح له أسباب النّماء والاكتمال، كما يتبيّن له عوامل الضّعف والفساد؛ ليجتنبهما... ولذلك طُبع النّقد في العصر الجاهلي بطابع العجلة والارتجال، فهو من قبيل" النّقد الذاتي" " [1].

وهذا ما أكّده الصّعيدي[2] في قوله:" ليس من البعيد أن يكون العرب في الجاهليّة قد عرفوا بعض مسائل البلاغة والفصاحة، وممّا يُروى من ذلك أنّ النّابغة الذّبياني كانت تُضْرَبُ له قبّة حمراء بسوق عكاظ، فتأتيه الشّعراء فتعرض عليه أشعارَها" [3].

وهذا دليل على معرفة العرب في جاهليّتهم بالبلاغة، تلك البلاغة التي يعرفونها بفطرتهم وسليقتهم بعيدة عن التّقعيد والتّعقيد، وظلّ الأمر كذلك في صوره الأولى، ثمّ أخذ ينمو شيئًا فشيئًا بمرور الأيّام واختلاف العصور الأدبيّة والنّقديّة والتي استنبطت منها المقاييس البلاغيّة " فيما بعد"[4].

ولمَّا جاء الإسلام ونزل القرآن بدأت العلوم الإسلاميّة تظهر شيئًا فشيئا إمّا حفاظًا على كتاب الله– عزَّ وجلَّ– مثل: علم القراءات القرآنيّة، وعلم النَّحْو، وإمّا تبيانًا وفهمًا لآياته ومعرفة سرّ إعجازه مثل العلوم القرآنيّة التي عُنيت بشرح كتاب الله وتفسيره وهي كتب التّفسير، وأيضًا ببلاغته وبيان وجوه إعجازه، وهي كتب الإعجاز القرآني.

ويؤكد ذلك العايد بقوله: " أمَّا ما يتعلق بالإعجاز والبلاغة، فهذا الأمر من الوضوح بما يكفينا ويغنينا عن أن نردِّد ما قاله الآخرون، فلولا القرآن لم يكن ثمَّ بحث في إعجاز، ولا عمل في بلاغة، فالبلاغة إنما وُلِدت لتبيِّن عن إعجاز القرآن " [5].

---

[1] الحربي، مُحَمَّد رمضان، ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، مكتبة الآداب– القاهرة، ط1، 2010م، ص61.

[2] هو عبد المتعال الصعيدي عالم إصلاحي من شيوخ الأزهر بمصر، ولد في قرية " كفر النجبا " من الدقهلية، ومات أبوه وهو ابن شهر فربته أمه، وتخرج بالجامع الأحمدي (1336) ودرّس فيه، ثم كان أستاذا بكلية اللغة العربية بالأزهر (1368) وألف كتبا كثيرة طبعت كلها، منها " نقد نظام التعليم الحديث للأزهر " و " العلم والعلماء ونظام التعليم ". انظر: الأعلام للزركلي 148/4.

[3] الصعيدي، عبد المتعال، البلاغة العالية (علم المعاني)، قدم له وراجعه عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها، ط2 1991م، ص34.

[4] ابن قتيبة ومقاييسه النقدية، ص62.

[5] عناية المسلمين باللغة العربية للعايد، ص64.

من خلال ذلك نلحظ أنّ الهدف من دراسة البلاغة لا يعدو أن يكون هدفاً من الأهداف الآتية:

أوّلًا: هدفٌ فنّيٌّ: يتمثّل في التّعليم والتّدريب والإرشاد، لمن أراد إصابة القول من الخطباء والدّعاة الذين يتصدّرون الكلام أمام الجموع الغفيرة من النّاس. هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى فيتمثّل في تمييز جيّد الكلام من رديئه، وبيان مواطن الحسن والجمال والإبداع.

ثانيًا: هدفٌ دينيٌّ: وذلك للوقوف على سرّ إعجاز القرآن وبلاغته وبيان أحكامه وفهم معانيه.

واضع علم البلاغة:

إنّ أوّل من أصّل أصول البلاغة وصاغها فناً له قواعدُه ومبادئُهُ هو الإمام عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، ولقد شهد له بذلك كثير من العلماء، منهم: يحيى بن حمزة الطّالبي (ت745هـ) صاحب كتاب "الطّراز في علوم حقائق الإعجاز"، بقوله: " وأوّل من أسّس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتّب أفانينه، الشّيخ العالم النّحرير عَلَم المحقّقين عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، فلقد فكّ قيد الغرائب بالتّقييد، وهدّ من سور المشكلات بالتّسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها" (1). فتكاد تجتمع كلمة العلماء قديمًا وحديثًا على أنّ واضع علم البلاغة، ومؤسّسها هو عبد القاهر الجُرْجَانِيّ.

أطوار نشأة علم البلاغة:

لم تظهر البلاغة العربيّة وليدًا مكتمل الخلق، ولا واضح الملامح؛ بل اكتنفها الإيجاز، والغموض، والخفاء (2). وما دامت البلاغة العربيّة وجدت منثورة في مسائل العلوم الأخرى، ولم تولد

---

[1] الطالبي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الملقب بالمؤيد باللّه (ت 745هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، ط1 1423 هـ، ج1، ص6، وانظر: الرافعي، مصطفى صادق(ت 1356هـ)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، ج2، ص14–15، ومراد، وليد مُحَمَّد، نظرية النظم وقيمتها العالية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، دار الفكر،ط1، 1983م، ص55.

[2] الخولي، كامل، صور من تطور البيان العربي، دار الأنوار للطباعة والنشر، 1962م، ص1.

واضحة المعالم كبقيّة العلوم الأخرى؛ لذا فإنَّنا نجدها قد مرّت بأطوار مختلفة، تزداد في كلّ طور حيويّة ووضوحاً، إلى أنْ بلغت أوج مجدها في القرن الخامس الهجري [1].

الطّور الأوّل: الوضع والتّكوين:

من المعلوم أنّ البلاغة وجدت منذ العصر الجاهلي في أُناس تميّزوا بالبلاغة والفصاحة، وكانت الأحكام البلاغيّة تظهر على فلتات ألسنتهم في الحكم على حسن الشّعر من رديئه، ولعلّ النّابغة الذّبياني كان من أوائل أولئك الذين يصدرون هذه الأحكام، إلّا أنّها كانت تتّسم بالأحكام الفطريّة غير المعلّلة، وظلّ الأمر كذلك حتّى جاء أبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت208هـ)[2] في كتابه "مجاز القرآن"، إذ إنّه بيّن سبب تأليفه لكتابه، وأنّه أراد الكشف عن أسرار البيان في القرآن الكريم.

ثمّ تتابعت جهود العلماء تترى، من غير الالتفات إلى وضع القواعد، والقوانين لعلم البلاغة، وإنّما كان هدفًا دينيًّا [3].

الطّور الثّاني: طور النّشوء والنّموّ:

بدأ الطّور الأوّل في الدّفاع عن القرآن الكريم، وكشف أسراره وبيانه، ثمّ أخذت الأنظار تتّجه نحو أسرار الجمال وصور البيان في القرآن، وغيره من كلام العرب، سواء أكان شعرًا أم نثرًا، ولعلّ أوّل من طرق هذا الباب وخاض فيه هو بشر بن المعتمر (ت210هـ) فيما عُرف " بصحيفة بشر ابن المعتمر"، تحدّث فيها عن مدى تصوّره للأدب، واستعداد الأديب وأحوال المخاطبين، والأصول التي يجب مراعاتها في كلّ أولئك [4]، فكانت بمثابة بداية التّكوين للبيان العربي، لاسيّما أنّه تناول

---

[1] انظر: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ص68.

[2] الإمام، العلامة، البحر، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولاهم، البصري، النَّحْوي، صاحب التصانيف. ولد في سنة عشر ومائة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري. قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة في كتاب المعارف: كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره، وكان يخطئ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتباً، وكان يرى رأي الخوارج. وقيل: إنّ الرشيد أقدم أبا عبيدة، وقرأ عليه بعض كتبه، وهي تقارب مائتي مصنف، منها: كتاب (مجاز القرآن) ، وكتاب (غريب الحديث) ، وكتاب (مقتل عثمان) ، وكتاب (أخبار الحجاج) ، وكان ألثغ، بذيء اللسان، وسخ الثوب. قارب مائة عام، أو كملها. فقيل: مات سنة تسع ومائتين. وقيل: مات سنة عشر. وفيات الأعيان235/5، وسير أعلام النبلاء445/9–447.

[3] ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية، ص75.

[4] طبانة، بدوي، دراسات في نقد الأدب العربي، المطبعة الفنية الحديثة، ط5، 1969م، ص138.

قضايا بلاغيّة من أهمّها "قضيّة اللّفظ والمعنى" بقوله: " ومن أراد معنىً كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإنّ حقّ المعنى الشّريف اللّفظ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجّنهما " [1].

وأيضًا من القضايا التي تطرّق إليها ابن المعتمر" قضيّة مطابقة الكلام لمقتضى الحال" [2]. وقد سار على منواله الجاحظ، فسال قلمه في إثارة القضايا الأدبيّة والفنّيّة في ميدان البلاغة والنّقد[3].

ثمّ جاء بعد الجاحظ ابن المعتز (ت296هـ) في كتابه "البديع" وقد عدّه العلماء أوّل كتاب في البلاغة العربيّة.

الطّور الثّالث: طور النّضوج والكمال:

جادت قريحة العلماء، وارتفعت هممهم، وازداد بحثهم؛ لإرساء قواعد هذا الفنِّ، فأخذ ينمو ويترعرع حتى جاء الجُرْجَانِيّ، فأرسى قواعده وبيَّن غوامضه، وحدَّ حدوده، كما بيَّن ذلك الحربيُّ بقوله: " توالت جهود الباحثين في ميدان النّقد والبلاغة آخذة في النّمو والازدهار شيئًا فشيئا، إلى أنْ طلع الإمام عبد القاهر الجُرْجَانِيّ (ت471هـ)[4] في القرن الخامس الهجري، فوضّح الغامض، وفصّل المجمل، وابتكر الجديد " [5]. والجُرْجَانِيّ تميّز بذكائه وسعة اطّلاعه، فاستطاع أن يتوصّل إلى ما لم يستطع أحد أن يتوصّل إليه من سابقيه ومعاصريه؛ لقدرته على تقدير القيم الجماليّة والفنّيّة بحسّه المرهف وذوقه المثقّف.عكف على كتب سابقيه فكان قارئًا نهمًا ينظر في التّراث، وينتقي، ويناقش، ويحلّل آراء العلماء بكلّ موضوعيّة وأمانة علميّة في نقله لكلام سابقيه، وبيان جهودهم وآرائهم، وذكر فضلهم، حتّى أولئك الذين كانوا يخالفونه في المذهب والمعتقد، فقد عمل الجُرْجَانِيّ على لملمة آراء سابقيه التي كانت منثورة في كتبهم، وقد اكتنفها الخفاء والإيجاز، كما بيّن ذلك الجُرْجَانِيّ بقوله:" واعلم أنّك لا ترى في الدّنيا علمًا قد جرى الأمر فيه بديئًا وأخيرًا، على ما جرى عليه فيه "علم

---

[1] الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال- بيروت، 1423هـ، ج1، ص129.

[2] انظر: المرجع السابق، 129/1.

[3] انظر: المرجع السابق،82/1.

[4] هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد الجُرْجَانِيّ، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللّغة، من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان) له شعررقيق، من كتبه " أسرار البلاغة – ط " و " دلائل الإعجاز – ط " و " الجمل – خ " في النَّحْو، و " التتمة – خ " نحو، و " المغني " في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءا، اختصره في شرح آخر سماه " المقتصد – خ " في الظاهرية، و " إعجاز القرآن – ط " و " العمدة في تصريف الأفعال، و " العوامل المئة – ط ". انظر: الأعلام للزركلي 48/4-49، والذهبي 432/18-433.

[5] ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية، ص78.

الفصاحة والبيان". أمّا البديء: فهو أنّك لا ترى نوعًا من أنواع العلوم إلّا وإذا تأمّلت كلام الأوّلين الذين علّموا النّاس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتّصريح أغلب من التّلويح، والأمر في علم "الفصاحة" بالضّدِّ مِنْ هذا فإنّك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جلّه أو كلّه رمزًا ووحيًا، وكناية وتعريضًا، وإيماءً إلى الغرض من وجهٍ لا يفطن له إلّا من غلغل الفكرة، وأدقّ النّظر"[1].

وبذلك تكون البلاغة العربيّة قد وصلت إلى نضجها وكمالها وبلغت ذروتها على يد عبد القاهر الجُرْجَانِيّ [2].

أقسام علم البلاغة:

جاء بعد الجُرْجَانِيّ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السَّكَّاكي (ت626هـ) بكتابه "مفتاح العلوم" حيث عمل على تقسيم علم البلاغة وبوّبه ونظّمه وجعله في قواعد وقوانين، حتّى ظنّ بعضهم أنّه مؤسّس علم البلاغة.

وقد قسّم البلاغة إلى ثلاثة أقسام:

أوّلًا: علم المعاني:

هو علم يبحث في كيفيّة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وهو بالتّالي الطّريق التي يجب أن يسلكها الأديب للوصول إلى هذه الغاية [3]. وأوّل من صرّح بعلم المعاني هو الزّمخشري في قوله: " ولا يغوص على شيءٍ من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في عِلْمَيْنِ مختصّين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان [4].

---

[1] الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت471هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة، ط3، 1992، ص455.

[2] انظر: صور من تطور البيان العربي، ص2.

[3] مطرجي، عرفان، الجامع لفنون اللغة العربية والعروض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت– لبنان، ط1 1407هـ، ص27.

[4] الكشاف، ج1، ص2.

ثانيًا: علم البيان:

البيان لغة: هو الكشف والإيضاح.

واصطلاحًا: هو إيراد المعنى الواحد بطرق متعدّدة [1].

وواضع هذا العلم هو الشيخ عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، أمَّا موضوع هذا العلم فهو اللفظ العربي[2].

ثالثًا: علم البديع:

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح دلالته بخلوّها من التّعقيد المعنوي. وواضع هذا العلم هو الخليفة أبو العبّاس عبد الله بن المعتز (ت296هـ) صاحب كتاب "البديع" [3].

[1] الجامع لفنون اللغة العربية والعروض للمطرجي، ص105.

[2] المرجع السابق، ص105.

[3] المرجع السابق، ص175.

نشأة علم التّفسير:

إذا كانت علوم القرآن هي أجلّ العلوم الشّرعيّة وأفضلها، فإنّ علم التّفسير هو أجلّ علوم القرآن وأعلاها منزلة، ذلك أنّ موضوع هذا العلم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فازداد هذا العلم شرفًا وفضلًا بموضوعه. ويظهر ذلك جليًّا من اسمه الذي تميّز به للكشف والتّبيين عمّا جاء في كتاب الله – عزّ وجلّ – لبيان مراده – سبحانه وتعالى – كما بيّن ذلك الزّرقاني (ت1367هـ) بقوله:" وسمّي علم التّفسير لما فيه من الكشف والتّبيين، واختصّ بهذا الاسم دون بقيّة العلوم مع أنّها كلّها مشتملة على الكشف والتّبيين؛ لأنّه لجلالة قدره واحتياجه إلى زيادة الاستعداد وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه كان كأنّه هو التّفسير وحده دون ماعداه" [1].

مراحل التّفسير:

من المعلوم أنّ علم التّفسير نشأ بالتّزامن مع نزول القرآن الكريم، ولمّا كان القوم الذين نزل فيهم القرآن الكريم أهل فصاحة وبلاغة كان لزامًا أن يكونوا على دراية في فهم ما أُنزل عليهم فكانوا يفهمون القرآن بمقتضى السّليقة العربيّة، قال – تعالى –: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[يوسف:2]. ومع ذلك فإنّ هناك آيات وألفاظاً استشكلت عليهم فكان لا بدّ من بيانها ومعرفة مرادها فنشأ علم التّفسير؛ ليبيّن ذلك وقد مرّ بمراحل أهمّها:

المرحلة الأولى: التّفسير في عهد النّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

تعدّ هذه المرحلة أفضل مراحل تفسير القرآن، إذ كانت تعتمد في التّفسير على الوحييْن الكتاب والسّنّة. وقد تكفّل الله بحفظ كتابه بقوله:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:9]، وكان من لوازم حفظ الله لكتابه جمعُه وبيانُه لقوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾ [القيامة:17–19]، فتكفّل الله – عزّ وجلّ – ببيان كتابه وذلك من وجهيْن:

---

[1] الزُّرْقاني، مُحَمَّد عبد العظيم (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، ج2، ص10.

أوّلًا: بيان الله – عزّ وجلّ – آياته وهو بيان القرآن الكريم بعضه بعضًا، وهو أولى طرق التّفسير، " فالنّاظر في القرآن الكريم يجد أنّه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتّبيين، وعلى الإطلاق والتّقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أُوجِزَ في مكان قد يُبْسَطُ في مكان آخر، وما أُجْمِلَ في موضع قد يُبَيَّنُ في موضع آخر، وما جاء مطلقًا في ناحية قد يلحقه التّقييد في ناحية أخرى، وما كان عامًّا في آية قد يدخله التّخصيص في آية أخرى " [1].

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا في كتاب الله – عزّ وجلّ – نذكر منها على سبيل الذّكر لا الحصر: قال – تعالى –: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[الفاتحة:6–7]. فقد فسّر المُنعَم عليهم بقوله﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ﴾ [النساء:69]

ثانيًا: بيان النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – آيات الله:

وكان ذلك امتثالًا لأمر ربّه – سبحانه وتعالى – بقوله: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:44] فكان – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يبيّن لأصحابه – رضوان الله عليهم – ما استُشكل عليهم في فهم آيات الله – عزّ وجلّ – والأدلّةُ الصّحيحةُ على ذلك كثيرة جدًا.

ولم يكن الرّسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُطْنِبُ في تفسير الآية، أو يخرج إلى ما لا فائدة في معرفته ولا ثمرة في إدراكه، فكان جُلّ تفسيره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بيانًا لمجمل، أو توضيحًا لمشكل، أو تخصيصًا لعام، أو تقييدًا لمطلَق، أو بيانًا لمعنى لفظ أو متعلّقه [2].

ومن الأمثلة على ذلك قوله – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢ ﴾ [الأنعام:82] شقّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أَيُّنا لا

[1] الذهبي، مُحَمَّد السيد حسين (ت1398هـ)، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج1،ص31.

[2] الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، ص19

يظلم نفسه؟ قال:" ليس ذلك إنّما هو الشّرك. ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾ [لقمان:13] (1).

المرحلة الثّانية: التّفسير في عهد الصّحابة رضي الله عنهم:

لا شكّ أنّ الصّحابة كانوا أعرف النّاس بكتاب الله وسنّة نبيّه؛ لأنّهم كانوا ينهلون ويَفيدون من النّبع الصّافي؛ فهم ملازمون للوحييْن، فضلاً عن معرفتهم بأصول العربيّة، ومواطن الحسن والجمال فيها، فهم البلغاء الفصحاء.

ولمّا انقطع الوحيان كان الصّحابة يعتمدون تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بأقوال النَّبِيّ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأيضًا يعتمدون الاجتهاد والاستنباط (2). وقد برز مجموعة من الصّحابة اشتهروا بالتّفسير. فكان أكثرهم شهرة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عبّاس، وأُبَيُّ بن كعب – رضي الله عنهم–. فظهرت مدرسة علي بن أبي طالب وابن مسعود – رضي الله عنهما– في الكوفة وظهرت مدرسة أبيّ بن كعب – رضي الله عنه– في المدينة. وظهرت مدرسة عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – في مَكَّة.

المرحلة الثّالثة: التّفسير في عهد التّابعين – رحمهم الله تعالى–:

لم يكن ثمّة فارق كبير بين منهج الصّحابة – رضي الله عنهم– ومنهج التّابعين، فقد تلقّى التّابعون تفسيرهم من الصّحابة – رضي الله عنهم – (3). فكان التّابعون يعتمدون تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسّنّة، والتّفسير بأقوال الصّحابة، إذ كانوا يقدّمون أقوال الصّحابة على أقوالهم، ومن التّابعين من تلقّى جميع التّفسير عن الصّحابة، كما قال مجاهد:" عرضت المصحف على ابن عبّاس

---

[1] البخاري، أبو عبدالله مُحَمَّد بن اسماعيل (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسننه وأيامه، تحقيق مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1 1422هـ، ،ج4، ص163، حديث رقم 3429، باب قول الله تعالى:" ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله "، والنيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحقيق مجموعة من المحققين، دار الجيل – بيروت، الطبعة : مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة 1334 هـ،ج1، ص80، حديث رقم 242، كتاب الإيمان، باب إن الشرك لظلم عظيم .

[2] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 45/1.

[3] بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص30

من فاتحته إلى خاتمته أُوقِفُه عليه عند كلّ آية منه، وأسأله عنها [1]. فإن لم يجدوا اعتمدوا على الفهم والاجتهاد. وهم أهل لذلك؛ لأنّهم عاصروا صحابة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وخالطوهم. قال ابن تيمية (ت728هـ)[2] في حجية تفسير التّابعين:" أمّا إذا أجمعوا على الشّيء فلا يُرْتاب في كونه حجّة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجّة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السّنّة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصّحابة في ذلك" [3].

ومن أشهر المفسّرين من التّابعين:

سعيد بن جبير (ت95هـ)، ومجاهد بن جبر (ت104هـ)، وعكرمة البربري (ت104هـ)، والحسن البصري (ت110هـ)، وعطاء بن رباح (ت114هـ)، وقتادة بن دعامة السَّدوسِيُّ (ت117هـ)، وغيرهم.

المرحلة الرّابعة: التّفسير في عهد التّدوين:

لم يكن التّدوين مشهورًا في المراحل الثّلاث الأولى، وإنّما كان تفسير القرآن الكريم بالرّواية والتّلقين. وقد مرّ تدوين تفسير القرآن الكريم بمراحل عدّة، حتّى صار عِلْمًا له مصنفاته وأصوله.

وأهمّ هذه المراحل هي:

أولاً: بدأ تدوين العلوم في القرن الأول الهجري حيث دُوّنت بعض علوم القرآن الكريم، كالقراءات وغريب القرآن، والنّاسخ والمنسوخ وغيرها، كما بدأ تدوين حديث النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم– وقد شمل أبوابًا متنوّعة، منها: باب الطّهارة والصّلاة والصّيام وغيرها وكان علم التّفسير بابًا

---

[1] الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، ج11، ص77،حديث رقم 11097

[2] هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها،فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة 712 هـ واعتقل بها سنة 720 وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، وفي الدرر الكامنة أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرّس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد، منها (الجوامع – ط) في السياسة الإلهية والآيات النبويّة، ويسمى (السياسة الشرعية) و (الفتاوى – ط) خمس مجلدات، و (الإيمان – ط)، انظر: الأعلام 144/1.

[3] ابن تيمية، تقي الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم (ت728هـ)، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1980م، ص46

من هذه الأبواب. واشتدّت عناية جماعةٍ برواية التّفسير المنسوب إلى النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم– أو إلى الصّحابة، أو إلى التّابعين، مع عنايتهم بجمع الحديث، وفي مقدّمة هؤلاء: سفيان بن عيينة(ت198هـ)، وعبد الرّزاق بن همّام (ت211هـ)، وعبد بن حُمَيد (ت249هـ)، ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شيءٌ، وإنما رُوي ما نُقل مسنداً إليهم في كتب التفسير بالمأثور[1].

ثانيًا: في هذه المرحلة بدأ النّظر إلى التّفسير على أنّه علم قائم بذاته منفصلاً عن الحديث فبدأ تدوين التّفسير في مصنّفات خاصّة مشتملة على تفسير آيات القرآن مرتّبة حسب ترتيب المصحف. وتمّ ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه (ت273هـ)، وابن جرير الطّبري (ت310هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت318هـ)، وابن أبي حاتم (ت327هـ)، وغيرهم من أئمّة هذا الشّأن [2].

ولعلّ ابن جُرَيْج هو أوّل من صنّف في التّفسير كما بيّن ذلك ابن تيمية بقوله:" فأوّل من صنّف ابن جريج شيئًا في التّفسير" [3].

وأهم ما يميّز هذه المرحلة اعتمادها على التّفسير المأثور عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم– والصّحابة والتّابعين بالإسناد المتّصل إلى صاحب التّفسير.

ثالثًا: كانت تلك المرحلة منعطفًا خطيرًا في تاريخ التّفسير بدأت حين اتّجه بعض المفسّرين إلى اختصار الأسانيد، ونقلوا الآثار المرويّة عن السّلف دون أن ينسبوها إلى قائليها فاختلط الصّحيح بالضّعيف، وكانت تلك الهفوة من أخطر الهفوات، وأوسع الفجوات؛ لنفوذ الأعداء إلى الدّين ليضعوا فيه ما لا يرتضيه، ويُنحّلوه ما ليس من بادئه، لولا أنّ الله هيّأ لهذا الأمر من علماء الإسلام من كشف زيف الزائفين ودسّ المغرضين وميّز بين الصّحيح والسّقيم وحفظ الله تعالى– لهذه الأمّة هذا الدّين [4]. وفي هذه المرحلة ظهر التّفسير بالرأي في تفسير القرآن الكريم ويرجع ذلك لأسباب منها:

---

[1] القطان، مناع بن خليل(ت 1420هـ)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3 1421هـ، ص351-352.

[2] التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي، 105/1.

[3] ابن تيمية، تقي الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم (ت728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق عبدالرحمن بن مُحَمَّد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، 1995م، ج20، ص322 .

[4] بحوث في أصول التفسير ومناهجه،ص37

1. عدم الاهتمام بالأسانيد في التّفسير بالمأثور أدّى إلى اختلاط الرّوايات الصّحيحة بالضّعيفة فاختلف العلماء في قبولها وردّها.
2. دخول كثير من الإسرائيليّات في التّفسير.
3. تعدّد الطّوائف والمذاهب أدّى إلى تفسير القرآن الكريم على ما يوافق المذهب أو الطّائفة وإن خالف الحقَّ المراد.
4. تدوين العلوم المختلفة مثل: الفقه، واللغة، والنَّحْو، والصّرف. فكلّ من برع في فنٍّ من الفنون فإنَّ تفسيره يكاد يقتصر على الفنّ الذي برع فيه.

وعلى هذا الأساس قسّم العلماء علم التفسير إلى قسمين: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي [1].

أوّلًا: التّفسير بالمأثور:

وهو بيان معنى الآية بما ورد في كتاب الله، أو سنّة نبيّه – صلى الله عليه وسلم– أو أقوال الصّحابة – رضي الله عنهم – [2].

أمّا مكانته فهو أفضل أنواع التّفسير وأعلاها؛ لأنّ التّفسير بالمأثور إمّا أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الله – تعالى– فهو أعلم بمراده، وإمّا أن يكون تفسيرًا بكلام الرّسول – صلى الله عليه وسلّم– فهو المبيّن لكلام الله – تعالى–، وإمّا أن يكون بأقوال الصّحابة فهم الذين شاهدوا التّنزيل وهم أهل اللّسان وتميّزوا عن غيرهم بما شاهدوه من الأقران، والأقوال حين النّزول [3].

ولكن ثمّة أمر ينبغي التّنبيه إليه حتى لا يغترّ القارئ، أو النّاظر في كلّ ما ورد عن النَّبِيّ– صلى الله عليه وسلّم– وصحبه – رضوان الله عليهم– آخذًا به مسلّمًا بصحّته. إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ التّفسير بالمأثور دخله الوضع، وما لا يصحّ سندًا ومتنًا عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وصحبِه الكرام.

---

[1] انظر: الرومي، فهد بن عبدالرحمن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط12 1424هـ، ص150، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزُّرقاني 11/2، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص358.

[2] دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي ص151.

[3] المرجع السابق، ص133.

وأما أشهر المؤلَّفات في التّفسير بالمأثور:

1. جامع البيان في تأويل آي القرآن لمُحَمَّد بن جرير الطّبري (ت310هـ).
2. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله القرطبي (ت617هـ)[1].
3. تفسير القرآن العظيم لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ).
4. الدّر المنثور في التّفسير المأثور لجلال الدّين السّيوطي (ت911هـ).
5. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمُحَمَّد الأمين الشّنقيطي (ت1325هـ).

ثانيًا: التّفسير بالرّأي:

وهو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد، أي أنّ المفسّر يعتمد على فهمه الخاص، واستنباطه في بيان معاني القرآن وينقسم التّفسير بالرّأي إلى قسمين:

1. التّفسير بالرّأي المحمود:

وهو استناد المفسّر في تفسيره إلى القرآن الكريم، والسّنّة النّبويّة مع إلمامه باللّغة العربيّة وأساليبها، وقواعد الشريعة وأصولها. إذ ينبغي أن لا يخالف أصول الدّين، ولا الأدلّة الشّرعيّة القائمة عليها.

2. التّفسير بالرّأي المذموم:

هو التّفسير بمجرّد الرّأي والهوى. وأكثر الذين فسّروا القرآن بمجرّد الرّأي هم أهل الأهواء، والبدع الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند، ولا دليل، ففسّروا آيات القرآن بما يوافق آراءَهم ومعتقداتِهم الزّائفةَ وحملوها على ذلك بمجرد الرّأي والهوى [2].

---

[1] هو مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرّح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها، من كتبه " الجامع لأحكام القرآن – ط "عشرون جزءاً، يعرف بتفسير القرطبي، و " قمع الحرص بالزهد والقناعة " و" الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى " و" التذكار في أفضل الأذكار– ط " و " التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة – خ " مجلدان، في دار الكتب، طبع " مختصره " للشعراني، و " التقريب لكتاب التمهيد – خ " في مجلدين ضخمين، في خزانة القرويين بفاس (الرقم 80 / 117) وكان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلّف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. انظر: الأعلام للزركلي 322/5.

[2] انظر: دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي، ص160.

وأمّا أشهر المؤلّفات في التّفسير بالرّأي:-

1. الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري (ت538هـ).
2. مفاتيح الغيب لفخر الدّين أبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر الرّازي (ت606هـ).
3. أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل لناصر الدين البيضاوي (685هـ)[1].
4. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (1270هـ).
5. تفسير المنار لمُحَمَّد رشيد رضا (1354هـ)[2].

---

[1] هو عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، قاض، مفسر، علامة، ولد في المدينة البيضاء (بفارس –قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة، وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها. من تصانيفه " أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ط " يعرف بتفسير البيضاوي، و " طوالع الأنوار – ط " في التوحيد، و " منهاج الوصول إلى علم الأصول – ط " و " لب اللباب في علم الإعراب – خ " و " نظام التواريخ – خ " كتبه باللغة الفارسية، ورسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها – خ " و " الغاية القصوى في دراية الفتوى – خ " في فقه الشافعية. انظر: الأعلام للزركلي 110/4.

[2] هو مُحَمَّد رشيد بن علي رضا بن مُحَمَّد شمس الدين بن مُحَمَّد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة 1315 هـ فلازم الشيخ مُحَمَّد عبده وتتلمذ له، رحل إلى الهند والحجاز وأوربا. وعاد، فاستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في (سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة. ودفن بالقاهرة. أشهر آثاره مجلة (المنار) و (الوحي المُحَمَّدي – ط) و (يسر الإسلام وأصول التشريع العام – ط) و (الخلافة – ط) و (الوهابيون والحجاز – ط) و (محاورات المصلح والمقلد – ط) و (ذكرى المولد النبوي – ط). انظر: الأعلام للزركلي 126/6.

العلاقة بين النَّحْو والبلاغة

إنّ علم النَّحْو من الضروريات التي تولَج من خلاله علوم العربيّة؛ لذلك كان الاهتمام به من أوائل علوم اللّغة إذ لا يمكن فهمها إلّا من خلاله، ولم يقف الحدُّ عند علوم العربيّة فحسب، بل إلى العلوم الشرعيّة كلّها؛ لذلك عُدّ علم آلة لا يُستغنى عنه في فهم باقي العلوم، مثل: علم التّفسير، والفقه وغيرها [1].

ومن علوم اللّغة التي تأثرت به كثيراً وجاءت متمّمة له علم البلاغة، الأمر الذي جعلهما وحدة متكاملة تسهم في فهم اللّغة العربيّة فهماً صحيحاً؛ للوقوف على إعجازها، وعمقها، وفصاحتها، وبلاغتها.

مِن هنا فإنَّ علوم العربيّة لا يمكن الفصل بينها بحال، فإذا كان علم النَّحْو يُعنى بالحفاظ على سلامة الجملة وصوغها على الكلام العربي الصحيح؛ فإنّ علم البلاغة يبدأ من حيث ينتهي علم النَّحْو فيأتي مكمّلاً له في الوقوف على الأساليب البيانيّة من خلال تحليل النّصوص لمعرفة دلالات المعاني والصّور البيانيّة والفنون البديعيّة.

ولعلّ نظريّة النّظم هي من أكثر الدّراسات التي أوضحت العلاقة الوثيقة بين النَّحْو والبلاغة، إذ إنّ عبد القاهر الجُرْجَانِيّ لم يدرس القضايا النَّحْويّة بمعزل عن البلاغة إنّما عمل على ربط النَّحْو بالبلاغة يقول:" اعلم أنّه ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحْو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رُسِمَتْ لك، فلا تُخلّ بشيء منها" [2].

ويؤكّد الجُرْجَانِيّ في نظريته على عدم إمكانيّة الفصل بين النَّحْو والبلاغة، وهو ما أكّده من المحدثين صالح بلعيد بقوله: " متلازمان كما تتلازم الفائدة والإسناد في الكلام " [3].

---

[1] انظر: حمودة، عبد العزيز، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة رقم 272، مطابع الوطن – الكويت، 1422هـ، ص242.

[2] دلائل الاعجاز للجرجاني، ص81.

[3] بلعيد، صالح، التراكيب النَّحْوية وسياقاتها المختلفة عند الامام عبد القاهر الجُرْجَانِيّ، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، 1994م، ص147.

فلا يمكن بحال فصل النَّحْو عن البلاغة؛ لأنّ كلاًّ منهما مُتَمّمٌ للآخر من حيث نظم الكلام وضم بعضه إلى بعض؛ لأنّ فساد التّركيب ناشئ عن عدم توخِّي معاني النَّحْو وأحكامه بين الكلمات.

وهذا ما أثبته الجُرْجَانِيّ في نظريّته بقوله: " أن ليس النّظم شيئاً إلّا توخّي معاني النَّحْو، وأحكامه، ووجوهِه، وفروقه، فيما بَيْنَ معاني الكَلِم" [1].

وخلاصة القول:

إنَّ ثمّةَ علاقةً قويّةً متلازمةً ووطيدةً بين النَّحْو والبلاغة، فالصّلة بين هذين العِلْمَين ثابتة قائمة متشابكة، لا يمكن الفصل بينهما بحدود عازلة، فبعضها يؤدّي إلى بعض ويكمّل بعضها بعضاً، وموضوعهما واحد؛ لأنّهما يبحثان القوانينَ التي يجب مراعاتها في تأليف الكلام، والعلاقاتِ القائمة بين الكلمات في الجملة وبين الجمل بعضها مع بعض، وأثر ذلك على أداء المعنى المطلوب.

---

[1] دلائل الاعجاز للجرجاني، ص525.

العلاقة بين " النَّحْو والبلاغة " والتفسير:

أوّلاً: علاقة النَّحو بالتَّفسير:

الحمد لله الذي نزّلَ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، فكان من عربيّتِهِ ما أصاب أعراب الجاهليّة بأعظمِ الاندهاشِ والذهول، وكان من بيانِهِ وفصاحتِهِ ما يبهر العقول، وتعجزُ عن غوامِضِهِ وأسرارِهِ الفحول[1]. فأنزل الله عزَّ وجلّ هذه المعجزة الخالدة وتكفّلَ بحفظِها، قال – تعالى–: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجر:9] فكان النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أشدّ النّاس حرصاً على حمايةِ القرآنِ والمحافظةِ عليه، ثمَّ جاء أصحابه الذين جنّدوا أنفسهم لحماية القرآن الكريم فوضّحوا غريبهُ، وبيّنوا مشكلهُ، وجلَّوا غوامِضَهُ، وفتقوا أسراره وعجائِبَهُ [2].

ولعلّ أقوى العلاقات وأوطَدَها تلك العلاقةُ القائمةُ بين علمي " النَّحْو والبلاغة " وعلم التّفسير، كيف لا؟! وإنّ من لوازم من أراد أن يخوضَ في علمِ التّفسيرِ أنْ يكونَ مُلِمَّاً بالنَّحْو والبلاغة كما بيّن ذلك كثير من العلماء منهم الإمام مكّي بن أبي طالب (ت437هـ)[3] في مقدّمة مُشْكله بقولِه:" ورأيتُ مِنْ أعظم ما يجبُ على الطّالبِ بعلومِ القرآنِ الرّاغب في تجويد ألفاظه، وفهمِ معانيه، ومعرفةِ قراءاته ولغاتِهِ وأفضل ما القارئ إليه مُحتاج معرفة إعرابه، والوقوف على تصريف حركاتِهِ وسواكنه يكونُ بذلكَ سالماً مِنَ اللّحنِ فيه مستعيناً على إحكام اللّفظ به مطّلِعاً على المعاني الّتي قد تختلفُ باختلافِ الحركاتِ متفهّماً لما أراده الله به من عباده إذ بمعرفةِ حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال فتظهر الفوائد ويُفهمُ الخطاب وتصح معرفة حقيقة المراد [4].

---

[1] درج الدرر في تفسير الآي والسّور للجُرْجَانِيّ 4/1.

[2] المرجع السابق، 4/1.

[3] أبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب بن حموش بن مُحَمَّد بن مختار القيسي المقرئ، أصله من القيروان، وانتقل إلى الأندلس وسكن قرطبة، وهو من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، كان حسن الفهم والخلق جيد الدين والعقل، كثير التواليف في علم القرآن محسناً لذلك، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها، وكان خيراً فاضلاً متواضعاً متديناً مشهوراً بإجابة الدعاء، وله تصانيف كثيرة نافعة فمنها: " الهداية إلى بلوغ النهاية " في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه، وهو سبعون جزءاً، و " منتخب الحجة " لأبي علي الفارسي، ثلاثون جزءاً، وكتاب " مشكل غريب القرآن " ثلاثة أجزاء، وكتاب " التبصر في القراءات " في خمسة أجزاء، وهو من أشهر تواليفه. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 274/5-276.

[4] مَكِّي، أبو مُحَمَّد مكّي بن أبي طالب(ت 437هـ)، مُشْكِل إعراب القرآن، تحقيق حاتم صالح الضّامن، مؤسسة الرّسالة– بيروت، ط2 1405هـ، ج1، ص63.

ولم يتوقّف علم العربيّة على علم التّفسير فحسب بل يتعدّاه إلى علوم الشّريعة كلّها؛ إذ لا يمكن فهم الشّريعة الإسلاميّة وعلومها إلّا بفهم اللّغة العربيّة؛ فهي مفتاح علوم الإسلام: من تفسير، وحديث، وفقه وأصول، وغيرها من العلوم. فهذا يبيّن مدى العلاقة المتينة بين العربيّة وسائر العلوم لمن أراد أن يشتغلَ بها.

وهذا عمر بن الخطّاب (ت23هـ) – رضي الله عنه– يكتب لأبي موسى الأشعري – رضي الله عنه– كتاباً يأمره فيه بالتّفقّه بالسّنّة، والعربيّة، وإعراب القرآن: أي بيانه إذ يقول:" أمّا بعد، فتفقّهوا في السّنّةِ، وتفقّهوا في العربيّة، وأعربوا القرآن؛ فإنّه عربيّ" [1].

وكان حَبْر الأمّة وإمام المفسّرين عبد الله بن عبّاس (ت68هـ) – رضي الله عنه– كثيراً ما يَستشهِد بكلام العرب في تفسير آي القرآنِ الكريم. وكان يأمر أصحابه بالرّجوع إلى الشّعر إذا أُشْكِل عليهم شيء من القرآن. روى أبو عبيدة قال: كان ابن عبّاس يقول:" إذا أُشْكِل عليكم الشّيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشّعر؛ فإنَّه ديوان العرب، وكان يُسْأَلُ عن القرآن فينشد الشّعر" [2].

وقد سار العلماء على نهج الصّحابة في الاستشهاد بالعربيّة، والحثّ على تعلّمها؛ بغية سبر أغوار علوم الدين ومعرفة كنهها، وعلى رأسها التّفسير [3]. فهذا ابن تيمية جعلها شعارَ الإسلام بقوله:" فإنَّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله"[4].

وقد عُنيَ علماءُ النَّحْو بالتّفسير أيّما عناية منذ بدايات نشأتِه، بل إنّ المتَتَبِّعَ لجهودهم في تفسير القرآن الكريم يجدها أكثر من أن تحصى قديماً وحديثاً، فهذا كتاب سيبويْه باكورة التأليف النَّحْوي نجده زاخراً بتفسير آي القرآن الكريم.

---

[1] ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد (ت 235هـ)، المصنّف في الحديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرّشد، ط1 1409هـ، حديث رقم 25651،ج5، ص240، وحديث رقم 29914، ج6، ص116،

[2] المبرِّد، أبو العبّاس مُحَمَّد بن يزيد (ت285هـ)، الفاضل، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط3 1421هـ، ص10.

[3] انظر: ابن الجزري، شمس الدين ابو الخير مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن يوسف (ت 833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية، ط1 1420هـ، ج1، ص9، ومغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص13.

[4] ابن تيمية، تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم(ت 728هـ)، اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت– لبنان، ط7، 1419هـ، ج1، ص519.

ولقد أكثر سيبويْه (ت180هـ)[1] من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم ولم يكن ذلك عارضاً وإنّما كان بقصدٍ منه؛ لبيان صحّة القاعدة النَّحْويّة التي تبنّاها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان في كثيرٍ من الأحيان يقف موضِّحاً ومحلّلاً ومستنبطاً.

ومن ذلك ما قاله سيبويْه (ت180هـ) في معْرض حديثِه عن اتِّساع الكلام والاختصار:" ومثله في الاتّساع قوله – عزَّ وجلّ-: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:171]وإنّما شُبِّهوا بالمنعوق به وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنّه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى"[2].

ويؤكّد الزمخشري (ت538هـ) دَوْرَ علماء النَّحْو الذين تعجّ رواياتهم في كتب التّفسير بقوله: " والتّفاسير مشحونة بالرِّوايات عن سيبويْه، والأخفش، والكسائي، والفراء وغيرهم من النَّحْويّين البصريّين والكوفيّين، والاستظهار في مآخذ النّصوص بأقاويلهم والتّشبّث بأهدابِ فَسْرِهم وتأويلِهم"[3].

قال السيوطي (ت911هـ)[4] معدّداً شروط مفسر القرآن الكريم:" يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسّر إليها وهي خمسة عشر علماً:

---

[1] هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل آل الربيع بن زياد الحارثي، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنَّحْو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: لم يكتب الناس في النَّحْو كتاباً مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال. وأخذ سيبويه النَّحْو عن الخليل بن أحمد وعن عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وغيرهم، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر وغيره، قال إبراهيم الحربي: سمي سيبويه؛ لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن، وقيل: كان فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته، وانطلاق في قلمه، سار إلى بلاد فارس، فاتفق موته بشيراز – فيما قيل –، عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين، مات سنة ثمانين ومئة، وهو الأصح. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 463/3-465، وسير أعلام النبلاء 351/8-352.

[2] سيبويْه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت180هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط3 1408هـ، ج1، ص212.

[3] الزمخشري، أبو القاسم محمّود بن عمرو أحمد (ت538هـ)، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق د. علي بو ملْحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط1 1993م، ص18.

[4] عبد الرحمن بن أبي بكر بن مُحَمَّد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو 600 مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيما (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويا عن أصحابه جميعا، كأنّه لا يعرف أحدا منهم، فألّف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي. من كتبه (الإتقان في علوم القرآن – ط) و (إتمام الدراية لقراء النقاية – ط) كلاهما له، في علوم مختلفة، و (الأحاديث المنيفة – خ) ، و (الأرج في الفرج – ط) و (الاذدكار في ما عقده الشعراء من الآثار – خ) و (إسعاف المبطإ في رجال الموطأ – ط) و (الأشباه والنظائر – ط) في العربية. انظر: الأعلام للزركلي 301/3.

أحدها: اللّغة؛ لأنَّ بها يُعرف شرح مفردات الألفاظ، ومدلولاتها بحسب الوضْع.

الثّاني: النَّحْو؛ لأنَّ المعنى يتغيّر ويختلف باختلاف الإعراب فلا بدَّ من اعتباره.

الثّالث: التّصريف؛ لأنَّ به تُعرف الأبنية والصّيغ.

الرّابع: الاشتقاق؛لأنَّ الاسم إذا كان اشتقاقه من مادّتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما.

ثم ذكر بقية العلوم " [1].

وهذا ما قرّره الإمام الشّافعي (ت 204هـ)[2] في بيان طريق الوصول إلى الله واستنباطِ أحكامه بقوله:"فإنّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها" [3].

وأيّده بذلك الشّاطبي (ت790هـ) بقوله:" وإنّما البحث المقصود هنا أنّ القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فَطَلَبُ فَهْمِهِ إنّما يكون من هذا الطّريق خاصّة... فمن أراد تَفَهُّمَه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلُّب فَهْمِهِ من غير هذه الجهة" [4]. بل إنّه أبطل كلَّ معنى مُستَنْبطٍ من القرآن على غير لسانِ العرب بقوله:" فإذاً كلّ معنىً مُستَنْبط من القرآن غيرِ جارٍ على اللسان العربيّ فليس من علوم القرآن في شيء، لا ممّا يُستفاد منه، ولا ممّا يُستفاد به، ومن ادّعى فيه ذلك، فهو في دعواه مُبطل" [5].

---

[1] السّيوطي، جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ ج4، ص213-214.

[2] هو الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشي المطلبي الشافعي، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف المذكور، وكان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وكلام الصحابة – رضي الله عنهم – وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر حتى إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين ما لم يجتمع في غيره، حتى قال أحمد بن حنبل – رضي الله عنه –: ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ما رأيت رجلا قط أكمل من الشافعي، ومولده سنة خمسين ومئة، وقد قيل إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة، وكانت ولادته بمدينة غزة، وهو الأصح، وحمل من غزة إلى مَكَّة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن الكريم ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومئة، وقيل سنة إحدى ومئتين. ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومئتين، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى.

[3] الشّافعي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس (ت204هـ)، الرّسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي– مصر، ط1 1358هـ، ج1، ص50.

[4] الشّاطبي، إبراهيم بن موسى(ت790هـ)، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفّان، ط1 1417هـ، ج2، ص102.

[5] الموافقات 224/4-225.

ويبيِّن العايد مدى التّلازم والتّداخل والتّآخي بين علوم اللّغة وعلوم القرآن ومنها التّفسير بقوله:" بل هو محاولة بيان تلازم علوم القرآن وعلوم العربيّة، وتآخيهما، حتّى إنّه لَيَعسُر فصل أحدهما عن الآخر في النّشأة والتّاريخ، والتّكوين والتّأليف، والدّوافع والمقاصد حتّى صار بينهما تزاوج مكين، وتمازج وثيق متين، بحيث لا يستغني طالب علم عن العلْم الآخر، ولا يُؤتى شِقّ ثمرته – على الوجه المَرضيّ – بدون الشّقّ الآخر؛ لافتقار كلٍّ إلى شقّه، وتعذّر استغنائِه عنه" [1].

فبات واضحاً مدى العلاقة بين علم النَّحْو والتّفسير، ولاشكّ بأنّ التّفسير يقوم على علم النَّحْو بل إنَّ من أهمّ شروطِ المفسِّر أنْ يكونَ على درايَةٍ تامّة به. وقد سبق أنْ بيّنّا أنّ العلاقة بين علميْ النَّحْو والبلاغة قوية متكاملة يُكمِّل بعضها بعضاً.

ثانياً: علاقة البلاغة بالتفسير:

ممَّا لا شك فيه أنَّ هناك علاقة وطيدة بين البلاغة والتّفسير. إذ لا يجوز ألبتّة إقصاء علْم البلاغة عن التّفسير المعنيّ ببيان معاني آيات القرآن الكريم، ومن المعلوم بالضّرورة أنَّ البلاغة معنيّة بالمعاني الذي يُعدّ أحد أهم أقسامها التي جعلها السّيوطي من العلوم التي يُشترط الإلمام بها عند المفسِّر بقوله:" الخامس والسّادس والسّابع: المعاني والبيان والبديع؛ لأنّه يعرف بالأوّل خواصّ تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالثّاني خواصّها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثّلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسِّر؛ لأنّه لا بُدَّ من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنَّما يُدرك بهذه العلوم" [2].

وحتّى يستقر في الأذهان مدى العلاقة بين هذين العِلْمَيْن لا بُدّ من الوقوف على معنى كلٍّ منهما لمعرفة المقصدِ منهما.

أمّا البلاغة فهي: "إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز ومعرفة الفصْل من الوَصْل"[3].

---

[1] عناية المسلمين باللّغة العربية خدمةً للقرآن الكريم للعايد، ص2.

[2] الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 214/4.

[3] رسائل الجاحظ 4 / 151.

وأمّا التّفسير فهو: من الفسر، أي " توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصّتها، والسّبب الذي نزلت فيه، بلفظٍ يدلّ عليه دلالة ظاهرة " [1].

فمن خلال تعريف كلٍّ منهما يتبيَّن أنّهما يبحثان عن المعنى والوصول إلى المقصود. وهذا بحدِّ ذاته يكشف عن مدى العلاقة بينهما.

ولقد أكّد علماء البلاغة أنْ لا سبيل إلى فهمِ القرآنِ وإدراكِ إعجازِهِ إلّا من خلال تَعلُّم علم البلاغة. ومن ذلك قوْل أبي هلال العسكري (ت395هـ) في مقدّمة كتابه الصناعتين:" إنَّ أَحَقَّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتّحفّظ- بعد المعرفة بالله جلَّ ثناؤه – علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله- تعالى-" [2].

وبالمثال يتّضح البيان في مدى العلاقة بين عِلْمَي البلاغة والتّفسير، ودور البلاغة في فهْم كتاب الله وإبراز معانيه، فقد ذكر الحافظ الذهبي (ت748هـ)[3] في كتابه معرفة القرّاء الكبار:" قال أبو عمرو الدّاني: سمعت عبد العزيز بن علي المالكي يقول: دخل أبو الفرَج غلام بن شَنَبُوذ على عضد الدّولة، زائراً، فقال له: يا أبا الفرَج، إنَّ الله يقول: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل:69] ونرى العسلَ يأكله المحرور[4]، فيتأذّى به، والله الصادق في قوْلِه. قال:" أصلح الله الملك إنَّ الله لم يقلْ (فيه الشِّفاء للنّاس) بالألف واللّام اللذَين يدخلان لاستيفاء الجنس، وإنّما ذكره منكّراً معناه فيه شفاء لبعض النّاس دون بعض" [5].

---

[1] التّعريفات للجرجاني، ص63.

[2] الصناعتين لأبي هلال العسكري ص1، وانظر: الكشاف 2/1.

[3] هو مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، حافظ، مؤرخ، علَّامة محقِّق. تركمانيّ الأصل، من أهل ميافارقين، مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكُف بصره سنة 741 هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها (دول الإسلام)، (المشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب)، و (العباب) في التاريخ، و (تاريخ الإسلام الكبير)، و(سير أعلام النبلاء) و (الكاشف) في تراجم رجال الحديث. انظر: الأعلام للزركلي326/5.

[4] الحَرِيرُ: المَحْرُورُ الَّذِي تَدَاخَلَتْهُ حَرارَةُ الْغَيْظِ وَغَيْرِهِ. انظر: لسان العرب، فصل الحاء المهملة 4 /179.

[5] الذّهبي، شمس الدّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت748هـ)، معرفة القرّاء الكبار على الطّبقات والأعصار، دار الكتب العلميّة، ط1، 1417هـ، ص187.

ونخلُصُ بالقول إلى أنَّ ثمَّةَ علاقةً قويَّةً بين علميِ البلاغة والتّفسير، إذ ينبغي لمن أراد الولوجَ في علم التّفسير أن يكون على دراية تامَّة بعلم البلاغة بأقسامها الثلاثة: علمِ المعاني، وعلمِ البيان، وعلمِ البديع.

ضوابط التفسير باللُّغة:

أوّلاً: ما كان مُحتملاً لأكثر من معنى في لغة العرب إنْ كان اللّفظ يحتمل هذه المعاني كلّها من دون تعارض، ولا تناقض في السّياق جاز حمل الآية عليها، وهذا يأتي- غالباً- في الألفاظ المُشتركة، وإنْ كان قد يترجّح أحدها مثل تفسيرهم لقوله – تعالى-: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[التوبة:10]، فقد ورد عنهم في (الإلّ) أقوال، الأوّل: العهد، الثّاني: القرابة، الثّالث: الله – سبحانه – فيُحملُ على هذه المعاني الثلاثة، واختاره الطبري (ت310هـ) بقوله: " فَإِذْ كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خصَّ من ذلك معنى دون معنى، فالصّواب أنْ يُعمَّ ذلك كما عمَّ بها – جلَّ ثناؤه- معانيها الثّلاثة، فيقال: " لا يرقبون في مؤمنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهْداً، ولا ميثاقاً" [1].

ثانياً: ما كان مُحْتَمِلاً أحد المعاني من معاني اللّفظة فهناك ضوابط تدل على اختيار هذا المعنى دون غيره، وهي:

1. أن تكون اللّفظة المفسِّرة صحيحة في اللّغة، فلا يجوز تفسير القرآن بما لا يُعْرَفُ في لغة العرب. ومثاله: تفسير قوله – تعالى-: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ ﴾ [البلد:2] بأنّه حالٌّ ومقيمٌ به. قال ابن عطيّة (ت542هـ) في تفسير هذه الآية:" وقال بعض المتأولين: وأنت حلّ بهذا البلد معناه: حالٌّ ساكنٌ بهذا البلد" [2].

[1] جامع البيان للطبري، 184/14، وانظر: درج الدّرر للجرجاني، 66/1.

[2] ابن عطيّة، أبو مُحَمَّد عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحمن (ت542هـ)، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي مُحَمَّد، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط1، 1422هـ، ج5، ص483.

قال الخفاجي (ت1069هـ): " والحلُّ صفةٌ أو مصدر بمعنى: الحال هنا على هذا الوجه، ولا عبرة بمَن أنكره لعدم ثبوتِه في كتب اللُّغة " [1].

وقال ابن عاشور (ت1393هـ) معلقاً على ذلك: " وكيف يُقال: لا عبرة بعدم ثبوته في كتب اللّغة، وهل المرجع في إثبات اللّغة إلّا كتب أئمّتها " [2].

وقال الطيار:" وهو يقتضي أن تكون جملة، {وَأَنْتَ حِلٌّ} في موضع الحال من ضمير {أُقْسِمُ}، فيكون القسم بالبلد مقيداً باعتبار كونه بلد مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال «حلّ» بمعنى: حال؛ أي: مقيم في مكان، فإنَّ هذا لم يرد في كتب اللغة: «الصحاح» و «اللسان» و «القاموس» و «مفردات الراغب»، ولم يعرج عليه صاحب «الكشاف»، ولا أحسب إعراضه عنه إلا لعدم ثقته بصحة استعماله " [3].

2. تفسير القرآن على الأغلب المعروف من لغة العرب دون الشّاذّ أو القليل، ومثاله: تفسير قوله– تعالى–: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [النبأ:24] قال النَّحَّاس (ت338هـ):" واختلف العلماء في قوله – عزَّ وجلّ –: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ [النبأ:24] فقيل: أي لا يذوقون فيها برْداً يبرد عنهم السّعير، وقيل: نوْماً ... وأصحّ هذه الأقوال القوْل الأوَّل: لأنَّ البرد ليس باسم من أسماء النَّوْم؛ وإنَّما يُحتال فيه. فيقال للنَّوْم: برد؛ لأنَّه يهدي العطش. والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله – جلَّ وعزّ – على الظّاهر والمعروف من المعاني إلّا أن يقع دليل على غير ذلك" [4].

3. مراعاة السّياق، بحيث يراعي المفسِّر عند تفسيره للفظة السِّياق؛ فلا يختار إلّا ما يتناسب معه؛ ولذا كان من أوجه ردّ أقوال بعض المفسِّرين عدم مناسبتها للسّياق.

---

[1] الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر(ت1069هـ)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسمَاة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر – بيروت،ج8، ص361

[2] التّحرير والتّنوير لابن عاشور348/3.

[3] الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير ، تقديم د. مُحَمَّد بن صالح الفوزان، دار ابن الجوزي، ط3 1420هـ، ص60–61.

[4] النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد (ت338هـ)، إعراب القرآن، علَّق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميّة– بيروت، ط1 1421هـ، ج5، ص83، وانظر: جامع البيان للطبري، 24/163–164.

وكان مِمَّن عُنِيَ بالجانب السِّياقي لِلَّفظة، الرَّاغب الأصفهاني (ت502هـ)[1]، فبيّن معنى اللّفظة اللّغويّ بناءً على ما هي فيه من السّياق، قال الزّركشي (ت 794هـ):" ومِنْ أحسنها كتاب المفردات للرّاغب وهو يتصيّد المعاني من السّياق؛ لأنَّ مدلولات الألفاظ خاصّة" [2].

وهذا يعني أنَّ الكلماتِ العربيّةَ لها معنىً خاصٌّ يحدِّده السّياق الذي وردت فيه تلك الكلمة؛ لذا ينبغي مراعاة ذلك.

4. معرفة أسباب النّزول؛ لأنَّ بعض الألفاظ لا يعرف المراد بها في الآية إلّا بمعرفة ملابسات النّزول، قال الزّركشي:" والتّفسير إمّا أن يُستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة ... وإمّا في كلام مُضمَّن لقصّة لا يُمكن تصويره إلّا بمعرفتها كقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ [التوبة:37] فالنّسيء: التّأخير، ولكن تحديد هذا التّأخير يحتاج إلى معرفة قصّة الآية، وبها يُعرف تفسيرها.

قال الطّبري (ت310هـ) في تفسير هذه الآية:" إنّما التّأخير الذي يؤخِّره أهل الشِّرك بالله من شهور الحرم الأربعة وتصييرهم الحرام منهنَّ حلالًا والحلال منهنَّ حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته" [3].

5. تقديم المعنى الشّرعي على المعنى اللّغوي إذا تعارضا ولا يُؤخذ بالمعنى اللّغوي إلَّا إذا دلَّت القرائِنُ على أَنَّه المُراد؛ لأَنَّ القرآن نزل لبيان الشَّرْع لا لبيان اللُّغة.

فالصّلاة في قوله – تعالى-: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾ [التوبة:84] تحتمل الدُّعاء بالمعنى اللّغوي، وتحتمل صلاة الجنازة بالمعنى الشّرعي، ولا يُوجد قرينة تصرفه إلى المعنى اللّغوي. فيكون المُراد صلاة الجنازة.

---

[1] هو العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد بن المفضل الأصفهاني (أو الأصبهاني) ، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف،كان من أذكياء المتكلمين، أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. من كتبه (محاضرات الأدباء – ط) مجلدان، و (الذريعة إلى مكارم الشريعة – ط) و (الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و (جامع التفاسير) كبير، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و (المفردات في غريب القرآن – ط) و (حلّ متشابهات القرآن – خ) و (تفصيل النشأتين – ط) في الحكمة وعلم النفس، و (تحقيق البيان – خ) في اللغة والحكمة، وكتاب في (الاعتقاد – خ) و (أفانين البلاغة). انظر: سير أعلام النبلاء 120/18–121، والأعلام 255/2.

[2] الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين مُحَمَّد بن عبدالله بن بهادر (ت 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1 1376هـ،ج1، ص291.

[3] الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يزيد (ت 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة ط1 1420 هـ، ج11، ص449–450.

قال النَّحَّاس (ت338هـ)[1]:" وحكى أهل اللّغة جميعًا فيما علمناه: أن الصّلاة في كلام العرب الدُّعاء، ومنه الصّلاة على الجنازة" [2]، وينبغي أنْ يُتفطَّن هنا لأمر لا بُدَّ منه وهو أنَّه لا يجوز أن يحمل كلام الله – عزَّ وجلّ – ويفسَّر بمجرّد الاحتمال النَّحْوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإنَّ هذا مقامٌ غَلِطَ فيه أكثر المُعرِبين للقرآن؛ فإنَّهم يفسّرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التّركيب أيُّ معنىً اتّفق؛ وهذا غَلَطٌ عظيم يقطع السّامع بأنَّ مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التّركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر، فإنّه لا يلزم أنْ يحتمله القرآن، مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:1] بالجرّ أنّه قسم، ومثل قول بعضهم في قوله – تعالى-: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [البقرة:217] إنّ المسجد مجرور بالعطف على الضّمير المجرور به [3].

لذلك فإنَّ من أراد الولوج في علم التّفسير ينبغي أنْ يُكرِّس عمله، وفكره، وجهده في بيان معاني آي القرآن، وكشف كنهه، ومراده على الوجه الذي يريده الله – تعالى – لا على الوجه الذي يريده هو. وهذا يتطّلب منه معرفة المقصد، والغاية التي نزل من أجلها القرآن الكريم وهي هداية النّاس، لقوله – تعالى-: ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ [البقرة:1-2].

ومِن هنا فإنّ تحكيم اللّغة في تفسير القرآن وحدها يكون فيه إقصاء لكلام الله عن مراده، وما ينبغي اعتماده، فالقرآن كتاب هداية، وتشريع لا كتاب لغة، وهذا ما أكّده الطّيّار بقوله:"...؛ لأنّ القرآن نزل لبيان الشّرع لا لبيان اللّغة " [4].

---

[1] هو أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن إسماعيل بن يونس المرادي النّحّاس، النَّحْوي المصري؛ كان من الفضلاء، وله تصانيف مفيدة منها: (تفسير القرآن الكريم)، و (كتاب إعراب القرآن)، و (كتاب الناسخ والمنسوخ)، وكتاب في النَّحْو اسمه (التفاحة)، وكتاب في الاشتاق، و(تفسير أبيات سيبويه)، ولم يسبق إلى مثله، وكتاب (الكافي في النَّحْو)، وتوفي بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة، وقيل: سنة سبع وثلاثين – رحمه الله تعالى – وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطىء النيل، وهو في أيام زيادته، وهو يقطّع بالعروض شيئاً من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار، فدفعه برجله في النيل، فلم يوقف له على خبر. والنَّحَّاس بفتح النون والحاء المشددة المهملة، وبعد الألف سين مهملة، هذه النسبة إلى من يعمل النِّحاس، وأهل مصر يقولون لمن يعمل الأواني الصفرية: النّحاس.

[2] إعراب القرآن للنَّحَّاس، ج2، ص133.

[3] ابن القيِّم، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكربن أيوب (ت751هـ)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج3،ص27.

[4] فصول في أصول التّفسير ص44.

ولذلك فقد بات واضحاً مدى علاقة النَّحْو والبلاغة بالتفسير؛ إذ لا يمكن الولوج في علم التفسير إلَّا بمعرفة عِلْمَي النَّحْو والبلاغة.

نُبْذَةً عَنْ حَيَاةِ العَلَّامَةِ الفَقِيهِ الإِمَامِ عَبْدِ القَادِرِ أَحْمَدَ بَدْرَانَ

اسمه ونسبه:

هو الشّيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرّحيم بن مُحَمَّد بن عبد الرّحيم بن بدران، السّعدي[1]، الدّومي[2]، ثمّ الدّمشقي[3]، الحنبلي[4]، الأثري[5]. المعروف بابن بدران كما أخبر عن نفسه في مقدّمة كتابه" منادمة الأطلال" بقوله:" الشّهير كأسلافه بابن بدران السّعدي الدّمشقي"[6].

ولادته ونشأته:

ولد ابن بدران في بلدة دوما من ريف دمشق، وقد اخْتُلِفَ في تاريخ ولادته فقيل سنة 1265هـ[7]، وقيل سنة 1280هـ [8]، ونشأ فيها حيث تلقّى علمه على يد مشايخها في مراحل تعليمه الأولى

---

1 نسبةً إلى قبيلة بني سعد الحجازيّة، حيث يعود نسب جدّه الأكبر بدران السّعدي، فهو حجازي الأصل.

2 نسبةً إلى قريته التي ولد فيها وتُدعى(دوما)، تقع في ريف دمشق التي تبعد عنها ثلاثة عشر كيلاً من الجهة الشّرقيّة الشّماليّة، وهي مركز الغوطة.

3 نسبةً إلى دمشق موطن هجرته ووفاته.

4 الحنبلي: نسبةً إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل الفقهي حيث كان يعتمده ابن بدران بل إنّ أهل قريته دوما كانوا ينتسبون إلى المذهب الحنبلي منذ عدّة قرون، وقد عرفت بعلمائها ومشايخها الحنابلة منهم: الشّيخ سليمان المرداوي(ت950هـ) فقيه دوما، والشّيخ عبد القادر التغلبي(ت1057هـ) صاحب كتاب (المآرب)، والشّيخ أحمد الدّومي(ت1107هـ) قاضي الحنابلة بدمشق، والشّيخ مصطفى الدّوماني (ت1196هـ) شيخ الحنابلة بالأزهر، والشيخ مُحَمَّد عثمان (ت1308هـ) مفتي الحنابلة بالمدينة المنوّرة، والشّيخ عبد القادر بن بدران(ت1346هـ)، والشّيخ أحمد بن صالح الشّامي(1414هـ) مفتي دوما وفقيهها، وغيرهم الكثير.

5 الأثري، نسبةً إلى الأثر وهو الحديث حيث يُنسب إليه كل من سلك مذهب المحدّثين.

6 ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير شاويش، المكتب الإسلامي–بيروت، ط2، 1985م، ص1.

7 ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، ديوان الإمام عبد القادر بن بدران المسمّى ب(تسلية اللّبيب عن ذكرى الحبيب)، اعتنى به نور الدّين طالب، دار النّوادر، ط1 1428هـ، ص13.

8 العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، علامة الشام عبدالقادر بن بدران الدمشقي حياته وآثاره، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط1 1417هـ، ص8.

طلبه للعلم ومشايخه:

تلقّى ابن بدران تعليمه على يد مجموعة من العلماء والمشايخ، منهم الشّيخ عدنان بن مُحَمَّد عدس، والعلّامة الفقيه المفتي مُحَمَّد بن عثمان بن عبّاس الخطيب الدّومي الحنبلي المتوفّى سنة(1308هـ)، ومحدِّث الشّام العلّامة مُحَمَّد بدر الدّين الحسني (ت1354هـ)، والشّيخ المحدِّث سليم ابن ياسين العطّار الشّافعي (ت1307هـ) مسند الشام، وقد تلقى عنه علوم الحديث، وأخذ منه إجازة عامّة.

بعد ذلك أكبَّ ابن بدران على الكتب ينهل من معينها في كلّ الفنون والعلوم آخذًا بنصيحة شيخه في حضِّه على الاجتهاد في القراءة وإرادة الفهْم حيث يقول– رحمه الله–:" ولمّا أَخَذْتُ نصيحته مَأْخَذَ القَبول، لم أحتج في القراءة على الأساتذة في العلوم، والفنون إلى أكثر من ست سنين "[1].

وقد بَرَعَ في الكتاب والسنَّة، والمذهب، ومعرفة الخلاف، وسائر العلوم العقليَّة، والأدبيَّة، والرّياضيَّة.

إلّا أنّه أوْلى عناية خاصَة لعلم أصول الفقه الذي كان ينأى عنه طلّاب العلم، ولا يُقبلون عليه، بل كان بعض العلماء يزهدون فيه؛ لأنَّه يفتح باب الاجتهاد المسدود بنظرهم، ولم يكن يومئذ أحد من الطلبة يذكر هذا الفنّ، أو يتكلَّم به بشفتيْه، زاعمين أنَّه يفتح باب الاجتهاد، وذلك الباب قد أُوصِد منذ قرونٍ متطاولة، فأقبل على أصول الفقه، وقد أكّد ذلك بقوله:" حتى كنت أسمع من كثير ممّن يدّعي العلم يقول: ما ضرّ الأمّة إلّا فنّ الأصول؛ لأنّه يُعلِّم النّاظر فيه الأخذ بالدّليل فكنت لا أعبأ بالواشي، ولا أميل إلى اللّاحي، مهما كانت رتبته"[2].

---

[1] ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم (ت 1346هـ)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2 1401، ص488.

[2] ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة النّاظر وجُنَّة المُنَاظِر، دار الحديث بيروت مكتبة الهدى– الإمارات، ط1، 1412هـ، ج2، ص409.

وبعد عودته من دمشق التي مكث فيها قرابة خمس سنوات ينهل من معين علمائها، عاد إلى بلدته، يقول ابن بدران:" وإنّي بحمد الله – تعالى – لم أقرأ على الشّيوخ إلّا مدَّة لا تزيد على[1] خمس سنين مع الإشراف على فنون المعقول، ومنها الهيئة وفنّ المواقيت، وغير ذلك" [2].

محنته:

بدأ ابن بدران يلقي دروسًا منتظمة في جامع دوما الكبير، يشرح فيها الفقه الحنبلي من كتاب "شرح منتهى الإرادات" للبهوتي، وظلَّ يدرِّس في جامع بلدته الكبير يفيد منه طلّاب العلم، حتّى حصلت له فتنة كبيرة، ومحنة عظيمة، حيث سعى به حسّاده ومناهضوه إلى قرينه الشّاعر صالح بن أحمد الدّومي(ت1325ه) وكان آنذاك رئيس بلديّة دوما، واستصدر أمرًا بإبعاده عن دوما، فهاجر إلى دمشق، وعانى فيها الغربة والبُعد، والعُزلة والفقر، وَنَزَلَ قُرَابَةَ العَامَيْنِ والنِّصف بضيافة محمود البارودي، حتّى استقرَّ به الأمر في مدرسة عبد الله باشا العظم جنوب المسجد الأمويّ، وسكن فيها بغرفة علويّة كان فيها مُقامُه، وطعامُهُ، ومنامُهُ، وتدريسُهُ، وبقي فيها قرابة نصف عام [3].

حياتـه العمليّــــــة:

عُيِّن مدرِّسًا تحت قبّة النسر في الجامع الأموي، حيث درّس كتاب" عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي[4]. وبعد عودته إلى قريته عقب انجلاء المحنة التي أُبعد من أجلها، أصبح عُضوًا في شعبة المعارف التي تشكّلت عام(1309ه).

ثمّ عُيِّن مصحّحًا ومحرِّرًا بمطبعة الولاية وجريدتها في دمشق، وأنشأ مجلّة (مَوَارِدَ الحِكْمَةِ) سنة 1329هـ. وعيّنه الملك عبد العزيز آل سعود مُفتيًا للدّيار الحجازيّة في سوريا [5]. وانصرف مدَّة إلى البحث عمّا بقي من الآثار، في مباني دمشق القديمة، فكان أحيانًا يستعير سلَّمًا خشبيًّا، وينقله بيديه ليقرأ كتابة على جدار أو اسمًا فوق باب [6].

---

[1] في الأصل عن والصَّواب ما أثبتناه.

[2] المرجع السّابق، ص409.

[3] ديوان ابن بدران " تسلية اللّبيب "، ص15.

[4] انظر: المدخل لابن بدران ص470.

[5] انظر: الأعلام للزركلي 4 / 37.

[6] المرجع السّابق، 37/4، وانظر: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ص3.

ثنـــاء العلمـــاء عليـــه:

أثنى على ابن بدران أهل العلم والأدب؛ إذ بيّنوا سعة علمه، واتّساع معارفه في شتّى أصناف العلوم، فضلاً عن ديانته، وصلاحه، وعفّته، وتقواه، وزهده في الدّنيا، وإقباله على الآخرة. وهذا غَيْضٌ من فَيْضٍ من أقوال أهل العلم المنصفين الذين عرفوا قدره وفضله:

1. قال الكاتب الكبير محبّ الدّين الخطيب حين ذكر وفاته في مجلّة" الفتح":" وهو – أي ابن بدران– من أفاضل العلماء... وتلقّى العلم عن المشايخ مدّة خمس سنوات، ثمَّ انصرف إلى تعليم نفسه بنفسه، فكان من أهل الصّبر على التّوسّع في اكتساب المعارف من العلوم الشرعيّة، والأدبيّة والعقليّة والرّياضيّة، وهو حنبليّ المذهب" [1].

2. وقال عنه الشّيخ عبد الرزّاق بن حسن البيطار في تقريظه على كتاب" الكافي في علميْ العَروض والقوافي" لابن بدران" وقد شرحه الأديب الكامل، والأريب العالم العامل" [2].

3. وقال فضيلة العلّامة الشّيخ مُحَمَّد بن سليمان الجرّاح في تقديمه لكتاب "أخصر المختصرات " لابن بَلبَان:" وممّا زاد هذا المختصر جمالًا ورونقًا الحاشية التي دبّجتها براعة العلّامة المتفنن عبد القادر بن بدران، فأوضح المشكل وشرح الغريب" [3].

4. وقال عنه الأستاذ مُحَمَّد تقيّ الدّين الحصني:" وهو متضلع من العلوم العصريّة والفنون الكثيرة، اشتهر في الشّعر والتّاريخ، ... ، كان سلفيّ العقيدة، يحبّ التقشّف، ويميل طبعه إلى الانفراد عن النّاس، والبعد عن الأمراء ... وله اختصاص في علم الآثار والكتب القديمة، ومعرفة أسماء الرّجال ومؤلّفاتهم من صدر الإسلام إلى اليوم" [4].

---

[1] علامة الشّام عبد القادر للعجمي، ص33.

[2] علامة الشّام للعجمي، ص57.

[3] ابن بَلبَان، محمد بن بدر الدين الدمشقي الحنبلي (ت1006هـ)، أخصر المختصرات في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومعه حاشية نفيسة للإمام عبد القادر بن أحمد بن بدران (ت1346هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه محمد بن باصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1 1416هـ، ص14.

[4] الحصني، مُحَمَّد أديب آل تقيّ الدّين، منتخبات التّواريخ لدمشق، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م، ج2، ص762-763.

5. وقال العلّامة الشّيْخ عبدالله بن خلف بن دحيان الحنبليّ – رحمه الله –:" العلّامة الشّيخ عبد القادر بن أحمد بن بدران مدرّس الجامع الأموي، وشيخ الحنابلة، في البلاد السوريّة، ومحدّث الشّام وأحد أعضاء الرئاسة العلميّة بدمشق" [1].

وقال – أيضًا –:" العلّامة المحقّق الشّيخ عبد القادر بن أحمد بدران خاتمة المحقّقين في الشّام"[2].

6. وقال الأستاذ أدهم الجندي:" وبرع – أي ابن بدران– في سائر العلوم العقليّة والأدبيّة والرّياضيّة، وتبحّر في الفقه والنَّحْو، فكان رحمه الله علمًا من الأعلام " [3]. وقال – أيضًا –:" كان شيخًا جليلًا زاهدًا في حطام الدّنيا، متقشّفًا في ملبسه ومسكنه ومعيشته... يمتاز بمناقبه الحميدة " [4].

عقيدتـــه وفقهـــه:

كان – رحمه الله تعالى – منتهجًا منهج السّلف في عقيدته، وهو ما كان عليه الصّحابة والتّابعون، والتّابعون لهم بإحسان، وقد أفصح عن ذلك في طليعة كتابه" المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل" عن عقيدته السلفيَّة فقال:" وجعلت عقيدتي كتاب الله أَكِلُ علم صفاته إليه، بلا تجسيم ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل" [5].

أمّا فقهه فكان– رحمه الله – متّبعًا للدّليل من غير تقليد لأحد في زمنٍ بلغ فيه التّقليد أوْجَه[6].

إلّا أنّه – رحمه الله– كان يميل كثيرًا إلى المذهب الحنبلي في اختياراته الفقهيّة حتّى اشتهر أنّه حنبليّ المذهب، وقد علّل– رحمه الله– ذلك بقوله:" ثمّ سبرت المذاهب المتبوعة الآن، وكثيرًا من غير المتبوعة فوجدت كلًّا منهم قَدَّسَ اللهُ أَسْرَارَهُمْ، وجعل في عِلِّيين منازلهم قد اجتهد في طلب الحقّ، ولم يألُ جهدًا في طلبه، ولا قصر في اجتهاده ... غير أنّ الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه–

---

[1] العجمي، مُحَمَّد ناصر، علّامة الكويت الشّيخ عبد الله الخلف الدّحيان حياته ومراسلاته العلمية وآثاره، مركز البحوث والدّراسات الكويتيّة ، الكويت، 1415هـ، ص83.

[2] المرجع السابق ص84.

[3] الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلّة صوت سوريا، ط1، 1954م، ج1، ص 224، وعلّامة الشّام للعجمي ص31.

[4] أعلام الأدب والفن ص 225، وعلاّمة الشام للعجمي، ص32.

[5] المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ص43.

[6] انظر: المرجع السّابق، ص44.

كان أوسعهم معرفة بحديث رسول الله – صلّى الله عله وسلّم – كَمَا يعلم من اطّلع على مُسْنَدِه المَشْهور، وأكثرهم تتبّعًا لمذاهب الصّحابة، والتّابعين؛ فلذلك كان مذهبه مؤيَّدًا بالأدلّة السّمعيّة" [1].

عزوبتــــــه:

كان– رحمه الله– من العلماء العزّاب الذين لم يتزوّجوا، إذ يقول:" فإنّه لا مال لي ولا بنون، إلّا معونته – سبحانه و تعالى– ورزقه الذي تفضّل به عليّ كفافًا" [2].

فقد كرّس حياته ليتفرّغ لطلب العلم والتّدريس، كما قال الأستاذ أدهم آل الجندي:" لقد آثر العزوبة في حياته؛ ليتفرّغ لطلب العلم والتّدريس" [3].

شعــــــره:

كان ابن بدران أديبًا شاعرًا؛ حيث ترك لنا ديواناً جمع فيه أشعاره سمّاه" تسلية اللّبيب عن ذكرى حبيب". شملت فنون الشِّعر كلّها: كالمديح، والوصف، والرثاء، والهجاء، والحِكمة، والمراسلات.

وقد وصفه غير واحد أنّه أديب وشاعر، قال العلّامة الزّركلي:" عارف بالأدب والتّاريخ، له شعر "[4] وقال الأستاذ أدهم آل الجندي:" كان شاعرًا، وأديبًا، وقطبًا، وعالمًا فذًّا بليغًا، وجمع شعره في ديوان". وقال – أيضًا –:" وكان يهوى المطارحات والمساجلات الشِّعريّة مع الشّعراء والأدباء"[5].

تلاميذه:

لم يكن لابن بدران عدد كبير من التلاميذ على الرّغم من انشغاله بالتّدريس مدّة طويلة من عمره، فقد درّس في بلدته دوما، وفي الجامع الأموي بدمشق، وفي المدرسة السّميساطيّة بدمشق، وفي مدرسة عبد الله باشا العظم، ولعلّ السّبب في قلّة إقبال الطّلبة على حلقاته العلميّة التي كان يعقدها للتدريس يعود إلى المذهب الذي يُدرِّسه، فقد انشغل بتدريس المذهب الحنبلي، في وقت كان المذهب

---

[1] المرجع السّابق، ص44.
[2] نزهة الخاطر، 409/2.
[3] أعلام الأدب والفن، 225/1.
[4] الأعلام للزركلي، 37/4.
[5] أعلام الأدب والفن 224/1–225.

الشّافعي والحنفي هو السّائد في تلك الفترة، فضلاً عن انتشار التعصّب المذهبي للمذاهب الفقهيّة، والبدع والخرافات التي تعارض أصول عقيدة السّلف الصّالح [1].

ولم يكن أحد يطلب علم المذهب الحنبلي في زمانه مصرّحًا بذلك فيقول:" ثمّ خرجت من دوما إلى دمشق، وهنالك لم أجد أحدًا يطلب العلم من الحنابلة، بل يندر وجود حنبلي بها" [2].

ومع ذلك فقد تتلمذ على يديه قلة من طلاب العلم الذين برزوا في العلم والتأليف، ولعل أشهرهم:

1. مُحَمَّد سليم الجندي (ت 1375هـ)[3]. الأديب الشاعر [4].

2. مُحَمَّد بن محمود البزم (ت 1375هـ) الدمشقي المولد والوفاة، العراقي الأصل، شاعر أديب [5].

3. فخري بن محمود البارودي (ت1386هـ)، قرأ عليه " مقامات الحريري " بأجمعها، وتلقى عنه علوم اللغة والأدب والشعر [6].

4. مُحَمَّد صالح العقاد الشافعي (ت1390هـ)، كان يقال عنه الشافعي الصغير، وقد أخذ عن ابن بدران النَّحْو[7].

---

[1] انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ص423.

[2] المرجع السابق، ص441، وانظر: الشدي، عادل بن علي بن أحمد، مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، دار الوطن للنّشر والتّوزيع- السعوديّة- الرّياض، ط1، ص32- 33، وعلامة الشام للعجمي، ص22.

[3] هو مُحَمَّد سليم بن مُحَمَّد تقي الدين ابن مفتي المعرة مُحَمَّد سليم الجندي العباسي: شاعر، مدرس، عالم بالأدب، له اشتغال بالتأريخ. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ. ولد ونشأ في معرة النعمان. وهاجر مع أبيه إلى دمشق (سنة 1319 هـ فقرأ على علماء أيامه. وعين للإنشاء في ديوان الرسائل سنة 1918 - 1924 ثم أستاذا للأدب العربيّ في مدرسة، وصنف (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره - ط) جزآن. وحقق كتاب (الملائكة) له، وشرحه. ومن كتبه (ديوان شعره - خ) اطلعت عليه عنده، ونسخت منه مختارات، و (تاريخ المعرة - ط) المجلدان الأول منه والثاني، و (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد - ط). انظر: الأعلام للزركلي 148/6.

[4] الجندي، مُحَمَّد سليم (ت1375هـ)، تاريخ معرة النعمان، حققه وعلق عليه عمر رضا كحَّالة، إصدارات وزارة الثقافة بسوريا، ط1 1962م،ج1، ص7-8،وعلامة الشام للعجمي ص60، وأعلام الأدب والفن ج1 ص255.

[5] انظر: الأعلام للزركلي 91/7، وعلامة الشام للعجمي ص61.

[6] انظر: البارودي، فخري بن محمود (ت1386هـ)، مذكرات البارودي، مطابع دار الحياة، لبنان، بيروت، 1951م، ص34-35، وعلامة الشام للعجمي ص61.

[7] الحافظ، مُحَمَّد مطيع، ونزار أباظة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، تقديم الدكتور شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ط1 1986، ج2، ص894، وعلامة الشام للعجمي ص62.

5. خير الدين الزركلي (ت1396هـ)[1] المؤرخ المشهور صاحب كتاب (الأعلام)، وقد ذكر معروف زريق أن الزركلي كان من تلاميذ ابن بدران [2].

6. مُحَمَّد أحمد دهمان (ت 1408هـ) وهو من أخصّ تلاميذ ابن بدران [3].

7. منيف بن راشد اليوسف، وهو ابن أخ الوزير أمير الحج عبد الرحمن باشا اليوسف، قال العلامة ابن بدران مثنياً عليه: " لم يترك المطالعة، ولم يملَّ من تحصيل الفنون، فقد قرأ عَلَيَّ العروض، والنَّحْو، والصرف، وفنون البلاغة، محباً للأدب والأدباء، وجمع الكتب النفيسة " [4].

مؤلفـاتـــه:

جادت قريحة العلّامة ابن بدران بمؤلّفات جليلة، ومصنّفات مفيدة، دلّت على عنوان عقله، ولسان فضله، ولا شكّ أنّ مؤلّفات العالم هي ولده المُخَلَّد [5].

قال أدهم آل الجندي:" ألّف – رحمه الله– المؤلّفات التي تشهد له بالفضل وسعة الاطِّلاع، غير أنّ بعضها لم يكتمل؛ لإصابته بداء الفالج في آخر عمره وقد تخدّرت يمناه من الكتابة " [6].

---

[1] قال المترجَم عن نفسه (في كتابه الأعلام 8 /267) : خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس، الزِّركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقيّ. ولدت ليلة 9 ذي الحجة 1310 (25 يونية 1893) في بيروت، وكانت لوالدي تجارة فيها، وهو وأمي دمشقيان. ونشأت بدمشق، فتعلمت في إحدى مدارسها الأهلية. وأخذت عن علمائها، على الطريقة القديمة. وأولعت بكتب الأدب. وقلت الأبيات من الشعر، في صباي، وأديت امتحان " القسم العلمي " في المدرسة الهاشمية. ودرَّست فيها. وأصدرت مجلة " الأصمعي " أسبوعية، فصادرتها الحكومة العثمانية، لصورة كتبت أنها صورة " الخليفة العربيّ " المأمون. وذهبت إلى بيروت، فانقطعت إلى الكلية العلمانية (لاييك) تلميذا في دراساتها الفرنسية، ثم أستاذا للتاريخ والأدب العربيّ فيها. ورجعت، في أوائل الحرب العامة الأولى، إلى دمشق. وأصدرت بها، بعد الحرب (1918) جريدة " لسان العرب " يومية، مع أحد الأصدقاء. وأقفلت، فشاركت في إصدار " المفيد " يومية أيضا. وهيأت للطبع مجموعة من شعري سميتها " عبث الشباب " فالتهمتها النار، وأكلت أصولها، واسترحت منها وأرحت! وعلى أثر وقعة " ميسلون " في صباح اليوم الّذي كان الفرنسيون يدخلون به دمشق (1920) غادرتها إلى فلسطين، فمصر، فالحجاز. وصدر حكم الفرنسيين (غيابيا) بإعدامي، وحجز أملاكي. وفي سنة 1921 تجنست بالجنسية العربية في الحجاز. وانتدبني الملك حسين بن علي، لمساعدة ابنه " الأمير عبد الله " وهو في طريقه إلى شرقي الأردن، وكان الظن به حسنا، فعدت إلى مصر، فالقدس. واصطحبت منها إلى الصلت فعمّان، جماعة، مهدت معهم السبيل لدخول عبد الله وإنشاء الحكومة الأولى في عمان.

[2] علامة الشام للعجمي ص62.

[3] انظر: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 532/3–537، وعلامة الشام للعجمي ص63.

[4] ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، الكواكب الدّرّيّة في تاريخ عبد الرحمن اليوسف، صدر سوريا، مطبعة الفيحاء، دمشق، 1339هـ، ص 107، وعلامة الشام للعجمي ص 62–63.

[5] علّامة الشّام للعجمي، ص46.

[6] أعلام الأدب والفنّ، 224/1.

وقد بلغت مصنّفاته ثمانية وأربعين مصنّفًا، منها ما أتمّه، ومنها ما لم يتمّه، ومنها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط [1].

أمّا الكتب التي تمّت طباعتها فمن أشهرها:

1. تعليق على لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرّشاد لابن قدامة، طُبع سنة 1338هـ بدمشق.
2. الكواكب الدريّة في تاريخ عبد الرّحمن اليوسف صدر سوريا، طُبعت سنة 1339هـ.
3. تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، طُبعت الأجزاء السّبعة الأولى سنة 1399هـ.
4. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد طُبع مرارًا.
5. نزهة الخاطر العاطر شرح روضة النّاظر وجنّة المناظر لابن قدامة، طُبع سنة 1342هـ.
6. البدرانية بشرح المنظومة الفارضيّة في الفرائض، طُبعت سنة 1342هـ.
7. الفريدة اللّؤلؤيّة في العقود الياقوتيّة، طُبع سنة 1404هـ.
8. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، طُبع سنة 1405هـ.
9. روضة الأرواح، طُبع سنة 1417هـ.
10. درّة الغوّاص في حكم الزّكاة بالرّصاص، طُبعت سنة 1417هـ.
11. جواهر الأفكار، ولم يتمّه، طُبع سنة 1420هـ.
12. تسلية اللّبيب عن ذكرى حبيب وهو ديوان شعر طُبِع سنة 1428هـ.

وأمّا الكتب التي ما زالت مخطوطة فمن أشهرها:-

1. شرح الأربعين حديثًا المنذريّة وهي مخطوطة لدى زهير الشّاويش.
2. شرح شهاب الأخبار للقضاعي وهو مخطوط في المكتبة التيمورية برقم 531 بخط مؤلفه.
3. حاشية الرّوض المربع شرح زاد المستقنع وهو مخطوط لم يتمّه المؤلّف.
4. موارد الأفهام على سلسبيل عمدة الأحكام وهو مخطوط لدى زهير الشّاويش.
5. إيضاح المعالم من شرح العلّامة ابن النّاظم في ثلاثة أجزاء وهو شرح لألفيّة ابن مالك في النَّحْو.

---

[1] انظر:علّامة الشّام للعجمي، ص46- 59، ومدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدّي، ص22- 31.

6. آداب المطالعة، وهو تلخيص لكتاب الفرائد السَّنِيَّةِ في الفَوَائِدِ النَّحْوِيَّةِ للشّيخ أحمد المنيعي الدّمشقي.
7. المنهل الصّافي في شرح الكافي في العَروض والقوافي.
8. رسالة في علم البديع وهي مخطوطة صغيرة لدى زهير الشّاويش.
9. تعليق على مختصر الإفادات للبلباني

مرضـــه ووفاتـــه:

أصيب ابن بدران بداء الفالج في آخر حياته، ولازمه المرض حتّى وفاته. وقد بيّن ابن بدران– رحمه الله تعالى– ذلك بقوله:" نمت ليلة النّصف من شوّال عام اثنين وأربعين وثلاثمائة بعد الألف في غرفتي في مدرسة عبد الله باشا العظم في دمشق، فانتبهت وقت الفجر وإذا بي أُصبت في رجلي وفي يدي اليمناوين بحيث بطلت حركتهما، فنُقِلت في اليوم الثاني إلى المستشفى العام بدمشق، المبني بالبرامَكَّة، فكنت فيه كالغريب، وصار مَنْ كُنتُ أعلمهُ، وأُصَفِّي له قلبي كالعدو المجاهر المحتال، ومَنْ به مِن النّصارى يعرفون قدري ويلاطفونني أحسن ملاطفة "[1].

ومكث – رحمه الله – ستة أشهر في المستشفى يصارع المرض، ويعاني من غربته وأنّات المرضى من حوله ثمّ خرج، ليعود إلى غرفته الصّغيرة في مدرسة عبد الله باشا العظم التي كان يسكن فيها ويدرّس، يقول الأستاذ أدهم آل الجندي عنه:" وكان يُدَرِّسُ في مدرسة عبد الله باشا العظم في البزوريّة وينام فيها، ويعيش من الرّاتب المُخصَّص له من دائرة الأوقاف" [2]. وبقي كذلك مدّة أربع سنوات حتّى وافاه أجله في مدينة دمشق، في شهر ربيع الثّاني عام ستة وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة النّبويّة الموافق للخامس والعشرين من شهر أيلول عام سبعة وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد وذلك في مستشفى الغرباء، ودُفِنَ في مقبرة الباب الصّغير بدمشق" [3].

---

[1] انظر: ديوان ابن بدران "تسلية اللّبيب "، ص81– 95.

[2] أعلام الأدب والفنّ، 224/1، وانظر: علامة الشام للعجمي، ص38، وعلامة الكويت ابن دحيان، ص116.

[3] انظر: ترجمة ابن بدران في آخر كتابه: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص أ، وأعلام الأدب والفنّ، 225/1، وعلّامة الشّام للعجمي ص65، ومنتخبات التّواريخ لدمشق، 763/2.

رحم الله ابن بدران فقد عاش غريبًا، ومات غريبًا، فطوبى للغرباء، وجزاه عن العلم وطلّابه خير الجزاء.

التَّعْرِيفُ بِتَفْسِيرِ ابْنِ بَدْرَانَ (جَوَاهِرُ الأَفْكَارِ):

كان ابن بدران يعزم على تسمية تفسيره بـ:" معارج العرفان إلى فهم آيات القرآن"، وقد مضى على ذلك في نهاية الجزء الأوّل من تفسيره؛ حيث كتب بخطٍّ يده:" وقد خطر لي أنْ أُسمّي الكتاب كلّه" معارج العرفان إلى فهم آيات القرآن" أسأله – تعالى– الإعانة على إتمامه بفضله وكرمه". لكنَّه عاد فكشط هذا الاسم الذي اختاره بنفسه، وكتب بدلاً منه الاسم الذي استقرّ عليه وهو:" جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبَّار" [1]، وهو الاسم الذي صَدَّر به كتابه في طُرَّتِهِ[2] [3].

ولعلَّ سبب تغيير التَّسمية أنّ منهجه – رحمه الله– في التّفسير لم يكن ليقتصر على فهم معاني القرآن وبيانه فحسب، بل عَمَدَ إلى استخراج الجواهر والدّرر الكامنة فيه، ويظهر ذلك جليًّا من خلال تفسيره لآيات الله – تعالى – وقد ذكر ابن بدران تفسيره هذا في كتابه: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل [4].

وبيّن زهير الشّاويش في مقدّمة تحقيقه للتّفسير أَنَ ابن بدران لَمْ يُتِمَّ تفسيره بقوله:" وهذا التّفسير بلغ فيه مؤلِّفه إلى تفسير الآية 189 من سورة البقرة ثمَّ انقطع الذي عندنا، ونسأل الله أنْ نجد ما تبقَّى منه – إن كان موجودًا – " [5].

ولكن ما يبدو للباحث أنَّ ابن بدران لم يتمَّ تفسيره لأسباب عرضت له، فضلاً عن اشتغاله بالتّأليف في كتبٍ أخرى، أشار إليها في نهاية تفسيره للجزء الأوّل بقوله:" إلى هنا انتهى بنا المجال

---

[1] ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار، تحقيق زهير الشّاويش، المكتب الإسلامي– لبنان – بيروت، ط1 1999م، ص366.

[2] أطْرارُ الْبَلَد: نواحيه، الْوَاحِدَة طُرَّة، وطرة كلِّ شَيْء: ناحيتُه. انظر: تهذيب اللغة، باب الطاء والراء 202/13. وَقِيلَ: طُرَّةُ الثَّوْبِ موضعُ هُدْبه، وَهِيَ حَاشِيَتُهُ الَّتِي لَا هُدْبَ لَهَا. انظر: لسان العرب، فصل الطاء المهملة 500/4.

[3] مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدّي، ص41.

[4] انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، ص447.

[5] انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص5.

على سبيل الاختصار في تفسير الجزء الأوّل من كتاب الله – تعالى – مع العجز والتَّقْصير، وكنت ابتدأتُ به قبل سنين تعدّ بالسّبع أو الثمان، فكتبت منه قطعة ثمَّ منعتني عنه موانع، وصرفتني عنه أمور، منها اشتغالي بتهذيب تأريخ الإمام أبي القاسم علي ابن عساكر، الذي يربو تهذيبه على الثّلاثة عشر مجلَّدًا، ومنها بعض مؤلّفات اقتضت الضّرورة تقديمها، ومنها أشغال تشغل القلب وتعلّه، ليس هنا مواضع ذكرها، ثمَّ لمّا فرغت من" تهذيب تأريخ ابن عساكر"، صرفت العناية نحو إتمامه حتَّى وقع الفراغ منه يوم الجمعة الحادي عشر من شهر شوّال سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة بعد الألف"[1].

وقد أصيب بالشلل النصفي في شقه الأيمن عام 1342هـ أي قبل وفاته بأربع سنين فَأُقْعِدَ عن الحركة، وعن الكتابة بيده اليمنى فصار يكتب بيده اليسرى في القسم الأخير الموجود من تفسيره، ولعلَّ اضطراب الخطّ يُظهر ذلك. فَيَبعُدُ مع هذا كلّه أنْ يستطيع إتمام تفسيره، وقد صرَّح بذلك معاصروه ومن ترجموا له على أنَّ تفسيره لم يكتمل، منهم مُحَمَّد بن ناصر العجمي بقوله عن تفسير ابن بدران: " لم يُكْمَل" [2]، إذ إنّه – رحمه الله – قام بتفسير سورة الفاتحة ووصل إلى الآية 189 من سورة البقرة [3].

وقد اعتمد ابن بدران في تفسيره على تفسير القرآن بالقرآن، ثمَّ تفسير القرآن بالسنَّة الصّحيحة المبيِّنة، ثمّ تفسير القرآن بأقوال الصّحابة والتّابعين، واستعان باختلاف القراءات لفهم المعنى، فضلاً عن اعتماده على اللّغة في الإيضاح والكشف والإفهام والتّبيين [4].

---

[1] المرجع السّابق، ص366.

[2] علّامة الشّام للعجمي، ص50.

[3] انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص16، والمدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران للشّدّي، ص41–47.

[4] انظر: مقدّمة جواهر الأفكار، ص7.

الفصل الثَّـــاني:

الأدب النَّظري والدِّراسات السَّابقة:

هناك العديد من الدّراسات التي عُنِيَت بتجلية العلاقة بين النَّحْو والبلاغة والتّفسير، إلّا أنَّ هذا البحث تفرَّد بتناوله أثر القواعد النَّحْويّة والبلاغيَّة في الاختيارات التّفسيريّة في كتاب جواهر الأفكار لابن بدران.

أولاً: الأدب النظري:

ومن الكتب التي تناولت العلاقة بين اللّغة والتّفسير بصورة تطبيقيَّة:

1. الطّبري(ت310هـ)، في كتابه الموسوم بـ:" جامع البيان في تفسير القرآن".

يعدّ مؤلِّفه مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن غالب الطَّبري الإمام أبو جعفر رأس المفسِّرين على الإطلاق، وأحد الأئمَّة[1]، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظًا لكتاب الله، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنّن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالمًا بأحوال الصّحابة والتّابعين، بصيرًا بأيّام النّاس وأخبارهم [2]. أصله من" آمل" طبرستان.[3]

وقال ابن خزيمة (ت 311هـ) – وهو معاصر له– عن تفسير مُحَمَّد بن جرير:" قد نظرت فيه من أوَّله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من مُحَمَّد بن جرير[4]. وله مؤلّفات عديدة منها ما هو مطبوع ومنها ما لم يُطبع بعد [5].

---

1 السّيوطي، جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر(ت911هـ)، طبقات المفسِّرين العشرين، تحقيق علي مُحَمَّد عمر، مكتبة وهبة– القاهرة، ط1، 1396هـ، ص95.

2 الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق الدُّكتور بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ط1، 2002م، ج2، ص548.

3 طبقات المفسِّرين العشرين للسّيوطي، ص96.

4 الدّاوودي، مُحَمَّد بن علي بن أحمد (ت945هـ)، طبقات المفسِّرين للداوودي، دار الكتب العلميّة – بيروت، ج2، ص114.

5 انظر: بحوث في أصول التّفسير ومناهجه، ص145.

وقال فهد الرّومي:" أمّا تفسيره (جامع البيان في تأويل آي القرآن) فلم يؤلَّف قَبلَهُ ولا بَعدَهُ مثله في موضوعه، ولا يزال المفسِّرون عالة على تفسيره في التّفسير بالمأثور، إذ يتميَّز تفسيره بمزايا منها:

1. اعتماده على التّفسير بالمأثور من الرّسول– صلّى الله عله وسلَّم– وأصحابه والتّابعين.

2. التزامه الإسنادَ في الرّواية.

3. عنايته بتوجيه الأقوال والتّرجيح.

4. ذكره لوجوه الإعراب..

5. دقّته في استنباط الأحكام الشّرعيّة من الآيات " [1].

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءًا من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب حتى عهد قريب مفقودًا لا وجود له، ثمَّ قدَّر الله له الظُّهور والتّداول، فكانت مفاجأة سارّة للأوساط العلميّة في الشّرق والغرب إذ وُجِدت في حيازة أمير" حائل" الأمير حمود ابن الأمير عبد الرّشيد من أُمراء نَجْد نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طُبع عليها الكتاب من زمنٍ قريب، فأصبحت في يدنا دائرةُ معارفٍ غنيَّةٍ في التّفسير المأثور [2].

ولاشكَّ أنّ تفسير الطّبري من أجلّ التّفاسير وأعظمها، حتّى كادت أن تجتمع كلمة العلماء والباحثين في المشرق والمغرب قديمًا، وحديثًا على عظيم قيمته ورفعة شأنه.

قال السّيوطي (ت911هـ) – رحمه الله–: " فإنّه كثيرًا ما ينقل من تفسير ابن جرير الطّبري، وهو من أجلّ التّفاسير وأعظمها قدراً "[3]، بل إنّه مِنْ أصح التّفاسير إسناداً، كما بين ذلك ابن تيمية (ت728هـ)– رحمه الله – بقوله: " وأمّا التّفاسير التي في أيدي النّاس فأصحّها تفسير مُحَمَّد بن جرير

---

1 المرجع السّابق، ص145.

2 التّفسير والمفسِّرون لمُحَمَّد الذهبي، ج1، ص149.

3 الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي، ج4، ص207.

الطّبري؛ فإنّه يذكر مقالات السّلف بالأسانيد الثّابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل من المتّهمين، كمقاتل ابن بكير، والكلبي" [1].

" وقال الشّيخ أبو حامد الإسفراييني (ت406هـ)[2]:" لو سافر رجل إلى الصّين حتّى يحصل تفسير ابن جرير، لم يكن ذلك كثيراً ". " [3].

من هنا يتبين لنا أن تفسير الطبري يُعَدّ من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يُعَدّ المرجع الأول من المفسرين الذين عُنوا بالتفسير النّقلي، وإن كان في الوقت نفسه يُعَدّ مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي؛ نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي، والبحث الحر الدقيق [4].

لذلك تظهر أهمية هذا التفسير من ناحية زمانيّة، إذ يُعدُّ من أقدم كتب التفسير التي وصلت إلينا، وما قبله من الكتب قد اندثر ولم يصل إلينا شيء منها، إلّا تفسير يحيى بن سلام (ت 200هـ) فهو أقدم منه، وقامت بتحقيقه الدكتورة هند شلبي، حيث تم طبعه ونشره من قِبل دار الكتب العلمية عام 1425هـ. وتظهر أَهمِّيَّته من ناحية فنِّيَّة، وهي الطريقة المميّزة التي سلكها المفسّرُ في تأليف تفسيره، الأمر الذي جعله ينماز عن باقي التفاسير.

وتتجلى طريقة ابن جرير في تفسيره أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول:" القول في تأويل قوله – تعالى– كذا وكذا " ثم يفسر الآية مستشهداً بما يرويه بسنده إلى الصحابة، أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم، ويعرض لكل ما رُوي في الآية، ولا يقتصر على مجرد الرواية، بل يوجّه

---

[1] مجموع الفتاوى 13 / 385.

[2] هو الأستاذ، العلامة، شيخ الإسلام، أبو حامد أحمد بن أبي طاهر مُحَمَّد بن أحمد الإسفراييني، شيخ الشافعية ببغداد، ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمئة. قدم بغداد وله عشرون سنة فتفقه على أبي الحسن بن المرزبان، وأبي القاسم الداركي. وبرع في المذهب وأربى على المتقدمين، وعظم جاهه عند الملوك، وكان أول أمره يحرس في درب، وكان يطالع على زيت الحرس، وإنه أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة، مات في شوال سنة ست وأربعين وأربعمئة وكان يوماً مشهودا، انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، طبقات الشافعيين، تحقيق د. أحمد عمر هاشم، د. مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، 1413هـ ص345–346، وسير أعلام النبلاء للذهبي 194/17–196.

[3] طبقات المفسّرين للسّيوطي، 96/1، وطبقات المفسّرين للداوودي، 113/2.

[4] التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 149/1

الأقوال ويرجح بعضها على بعض، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ويستنبط بعض الأحكام.

ولم يكتف ابن جرير بذكر الإسناد فقط؛ وإنما كان يقف منه موقف الناقد البصير فيحكم على رجاله بالعدالة أو التجريح، وقد يَعْمَدُ إلى ردّ الرواية التي لا يثق بصحّتها. وكان ابن جرير يُعنى بذكر القراءات وتوجيهها في بيان المعنى المراد من الآية الكريمة. أما بالنسبة للإسرائيليات فكان يكثر من ذكرها إلّا أنّه كان يتعقَّب كثيراً منها بالنقد. ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللغوية بجانب الروايات المنقولة، ويستشهد بالشعر القديم بشكل واسع، وكان يهتم بالمذاهب النَّحْوية؛ لذلك فإننا نجده كثيراً ما يتعرض لمذاهب النَّحْويين من البصريين والكوفيين في النَّحْو والصرف، ويوجّه الأقوال تارة على المذهب البصري، وأخرى على المذهب الكوفي، وهكذا يكثر في مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب، فضلاً عن استشهاده بالشعر القديم على ما يقول؛ مما جعل كتابه غنيّاً بالمعالجات اللغويّة والنَّحْوية، التي أكسبته شهرة عظيمة، وهذا يدلّ على أنّه – رحمه الله– كان واسع المعرفة بعلوم اللّغة وأشعار العرب، معرفةً لا تقلّ عن معرفته بالدّين والتّاريخ.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ابن جرير لم يكن يعرض القضايا اللّغويّة إلّا وسيلة للتّفسير؛ من أجل ترجيح بعض الأقوال على بعض، والتّوفيق بين ما صحّ عن السّلف، والمعارف اللّغويّة بحيث يزيل ما يُتوَّهم فيه التّناقض بينهما.

وأمّا بالنّسبة لمعالجته للأحكام الفقهيّة؛ فإنّه يعالج أقوال العلماء، ومذاهبهم، ويَخلُص من ذلك كلّه برأي يختاره لنفسه، ويرجّحه بالأدلّة العلميّة النّقليّة والعقليّة. فلم يكن– رحمه الله– مقلّدًا لأحد إنّما كان مجتهدًا، له مذهبه الفقهي الخاصّ به. والحقّ أنّ شخصيّته الأدبيّة، والعلميّة جعلت تفسيره مرجعًا مهمًّا من مراجع التّفسير بالرّواية، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبيّة، ولغويّة، وعلميّة قيّمة، فوق ما جمع فيه من الرّوايات الأثريّة المتكاثرة [1].

وإنّ خير ما وصف به تفسير الطّبري ما نقله الدّاوودي عن أبي مُحَمَّد عبد الله بن أحمد الفرغانيّ في تاريخه بقوله: " فتمَّ من كتب يعني مُحَمَّد بن جرير كتاب " تفسير القرآن "، وجوَّدَه، وبيَّن فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه

---

[1] انظر: التّفسير والمفّسرون لمُحَمَّد الذهبي، ص150– 159، ومباحث في علوم القرآن لمنّاع القطّان، ص374– 375.

وتأويله، والصّحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص وأخبار الأمّة، والقيامة، وغير ذلك ممّا حواه من الحِكَمِ والعجائب، كلمةً كلمة، وآيةً آية، من الاستعاذة وإلى أبي جاد[1]، فلو ادّعى عالم أن يصنِّف منه عشرة كتب كلّ كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصٍ لَفَعَل" [2].

وقد أتمَّ ابن جرير تفسيره في سبع سنوات، إملاءً على أصحابه كما بيّن ذلك الحمويّ في معجم الأدباء فيما أسنده إلى أبي بكر ابن بَالُوْيَه (ت340هـ) [3] قال: قال لي أبو بكر مُحَمَّد بن اسحاق، يعني ابن خزيمة: بلغني أنّك كتبت التّفسير عن مُحَمَّد بن جرير، قلت: نعم، كتبنا التّفسير عنه إملاءً قال: كلّه؟ قلت: نعم، قال: في أيّ سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين [4]، قال: فاستعاره منّي أبو بكر وردّه بعد سنين [5].

وقد أفاد الباحث من تفسير الطبري إفادة عظيمة في كيفية عرض أقوال العلماء في المسألة الواحدة، وطريقة الترجيح بين هذه الأقوال، فضلاً عن دقّتِه في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات، وبيانه لأوجه الإعراب في تحديد المراد من الآية، ومقابلة أقوال العلماء بالقول الصحيح المأثور عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والصحابة والتابعين؛ إذ إنّه اعتنى عناية فائقة بالإسناد.

---

[1] وهو علم يرمز فيه للأرقام بالحروف، وبعضهم يجعله باباً لمعرفة الحوادث. وتفسير ابن جرير ليس فيه علم أبي جاد؛ ولكنَّه قصد من الألف إلى الياء، يعني من أوله إلى آخره.

[2] طبقات المفسّرين للدّاوودي، 2/ 114.

[3] هو الإمام المفيد الرئيس، أبو بكر مُحَمَّد بن أحمد بن بالويه الجلّاب النيسابوري، من كبراء بلده، ارتحل به أبوه فسمع من مُحَمَّد بن غالب تمتام وموسى بن الحسن الجلاجلي وبشر بن موسى وغيرهم، كتب عن عبد الله بن أحمد بن حنبل مئة جزء، وتوفي في رجب سنة أربعين وثلاثمئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 419/15.

[4] يعني بعد المئتين 283هـ – 290هـ.

[5] الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرّوميّ (ت626هـ)، معجم الأدباء(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ، ج6، ص2442.

2. الزمخشري (ت538هـ)، في كتابه الموسوم بـ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن مُحَمَّد بن عمر الزمخشري المعتزلي الملقب بجار الله؛ لأنه ذهب إلى مَكَّة وجاورها زمناً، ولد في رجب سنة 467هـ في زمخشر قرية من قرى خوارزم، وقدم بغداد ولقي الكبار وأخذ عنهم، وبعد أن تلقى العلم، رحل إلى مَكَّة وألّف فيها تفسيره الكشاف سنة 528هـ، ثم عاد إلى جرجانيّة خوارزم وتوفي فيها ليلة عرفة سنة 538هـ، وهو إمام الأئمة البارزين في النَّحْو واللغة والأدب، وصاحب تصانيف بديعة في شتى العلوم ومن أجلّها: كتابه الكشاف، ومن مؤلفاته:(أساس البلاغة، والمفصّل في النَّحْو، والأحاجي النَّحْوية، والمقامات، وغيرها. وهو حنفي المذهب، معتزلي الاعتقاد، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، بل يجاهر به ويدعو إليه.

قال صاحب وفيات الأعيان:" كان الزمخشري المذكور معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، حتى نُقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً، واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب "[1].

وأمّا قيمة هذا التفسير، فهو – بصرف النظر عما فيه من الاعتزال– تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه؛ لِمَا أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما ظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس أحدٌ كالزمخشري يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم؛ لا سيّما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارها، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلميّ والأدبيّ على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلَّق به قلوب المفسرين [2].

وليس ذلك فحسب بل إنّ إلمامه بعلمي البيان والمعاني جعله يكشف عن جمال القرآن وسحر بلاغته، ولقد أشار إلى ذلك في مقدِّمة كتابه بقوله:" لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص

---

[1] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان 5 / 170.

[2] التفسر والمفسرون 307/1.

على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة " [1].

ولقد أعدّ الزمخشري نفسه لهذا إعداداً كاملاً: فأعدّ له لغة، وبلاغةً وبياناً، وأسلوباً، وفصاحة، وأعدّ له نحواً، وصرفاً.

" ولكن الذي يركّز عليه صاحب الكشاف ولا يرى من إتقانه مناصاً للمفسّر هو: علم المعاني، وعلم البيان، وما من شكّ في أن التفسير يحتاج إلى علوم جمّة " [2].

واعتمد الزمخشري في تفسيره على الرأي أكثر من اعتماده على المأثور؛ ولذلك فإنه قليلاً ما يستشهد بالأحاديث، ولا يَتحاشى إيراد الأحاديث الموضوعة خاصة في فضائل السور. كما أنه قليلاً ما يورد الإسرائيليات، وإنّما كان جلّ اهتمامه، واعتنائه ببيان وجوه الإعجاز القرآني، وإظهار جمال النظم فيه، واستخراج ما يحويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان، الأمر الذي ميّزه عن غيره وجعله مرجعاً؛ إذ لا يوجد تفسير أوسعُ مجالاً مِنْ جهوده في هذا الصَّدد من تفسير الزَّمخشري؛ لذلك فإنّ كلّ من جاء بعده – حتى من أهل السنة– أفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه، فأوردوا في تفاسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشافه من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، واعتمدوا ما نبّه عليه الزمخشري من نُكات بلاغية، تكشف عمّا دقّ من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه [3].

وقد استطاع الزمخشري بحذقه ودهائه ومهارته، أَنْ يَمْلَأَ تفسيره بعقائد المعتزلة، والاستدلال لها وتأويل الآيات وَفْقَها، فهو يأتي بالإشارات البعيدة، ليضمّنها معنى الآية في الانتصار للمعتزلة والردّ على خصومهم، ويدسّ ذلك دسّاً لا يدركه إلّا حاذق، حتى قال البلقيني (ت 805هـ)[4]: "

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ج1، ص2

[2] محمود، منيع بن عبد الحليم (ت 1430هـ). مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري –القاهرة، دار الكتاب اللبناني –بيروت، 1421هـ، ص107.

[3] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 313/1

[4] هوعمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعيّ، أبو حفص، سراج الدين: مجتهد حافظ للحديث، من العلماء بالدين. ولد في بلقِينة (من غربية مصر) وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة 769 هـ وتوفي بالقاهرة. من كتبه " التدريب – خ " في فقه الشافعية، لم يتمه، و " تصحيح المنهاج – خ " ست مجلدات، فقه، و " الملمات برد المهمات – خ " فقه، و " محاسن الاصطلاح ". انظر: الأعلام للزركلي 46/5.

استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش " [1]. أي أنّه يَدُسّ السُّمّ في العسل، إذ لا تظهر بدعته الاعتزالية –أحياناً– في كلامه إلّا بعد فحص، وتمحيص، وتدقيق وتفتيش.

لذلك فإن كثيراً من العلماء قد نبَّه إلى أخذ الحيطة والحذر عند النظر في تفسير الزمخشري، قال الذهبي (ت748هـ):" محمود بن عمرو الزمخشري المفسر النَّحْوي صالحٌ؛ لكنَّه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله، فَكُنْ حَذِرَاً من كشَّافه " [2].

وقال أبو حيان(ت745هـ) في البحر المحيط عند تفسيره لقوله – تعالى –:﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [النمل: 49]، متعقّبا الزمخشري في تفسيره لهذه الآية:" وهذا الرجل وإن كان أوتِيَ من القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبّهت على ما فيه مما يجب تجنّبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا، وينتبه على ما تضمّنه من القبائح، بعد ذكر ما مدحته به:

فيُثْبِت موضوع الأحاديث جاهلاً ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً

ويشتم أعـلام الأئمـة ضلّـة ولا سيمـا إن أولجـوه المضـايقـا

إلى أنْ قال:

ويحتال للألفاظ حتى يديرها لمذهب سوء فيه أصبح مارقا [3]

---

[1] الاتقان في علوم القران للسّيوطي 243/4، وبحوث في أصول التفسير ص153.

[2] الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله مُحَمَّد بن أحمد (ت748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي مُحَمَّد البجَّاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1 1382 هـ، ج4، ص78.

[3] البحر المحيط في التفسير 252/8–253.

وقال تاج الدين السبكي (ت771هـ) في كتابه معيد النعم ومبيد النقم: " واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنّفه إمام في فنّه، إلا أنه رجل مبتدع فيجاهر ببدعته، يضع من قدْر النبوة كثيرا ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في كتابه الكشاف من ذلك كله [(1)].

وهذا ابن خلدون يقرّ رسوخ قدم الزمخشري في ما يتعلق باللسان وبلاغته، ولكنه ينتقده في معتقده الفاسد وانتصاره له، ومخالفة أهل السنة، بقوله: " ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلّا أنّ مُؤلِّفَهُ من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة " [(2)].

بل إنَّ ابن خلدون يُحذِّر من الاطِّلاع عليه إلا لمن وقف على المذاهب السنيّة، محسناً للحجاج عنها، فإنه مأمون من غوائله وسينتفع من غرابة فنونه في اللسان، إذ يقول:" وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنيّة، مُحسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان " [(3)].

وقد كان الزمخشري من شدة تعصبه لمذهبه والدفاع عنه، يعمد إلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولو أدى ذلك إلى تَذَرُّعِه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، وهذا ما دفعه إلى إبطال المعنى الظاهر في كثير من الأحايين؛ لإثبات معنىً آخر موجود في اللغة بما يتفق ومذهبه لنصرته وإظهاره.

فمثلا نراه عندما تعرَّض لتفسير قوله –تعالى–:﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ ﴾[القيامة:22–23]، يتخلّص من المعنى الظاهر لكلمة " ناظرة "؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه الذي يقرر إنكار رؤية الله – تعالى– ونراه يثبت له معنىً آخر هو التوقّع والرجاء،

---

1 السُبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ)، معيد النِّعم ومبيد النِّقم، تحقيق مُحَمَّد النجار وأبو زيد شلبي ومُحَمَّد أبو العيون، طبع بدار الكتاب العربي بمصر، ط1 1948م، ص80.

2 مقدمة ابن خلدون 1/ 252.

3 المرجع السابق 252/1.

ويستشهد على ذلك بالشعر العربي فيقول: " والناضرة: من نضرة النعيم، إلى ربها ناظرة، تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله – تعالى-:﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12]، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة: 30]،﴿ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى:53] ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ال عمران:28، النور:42، فاطر:18]﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]،﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[الشورة: 10، هود: 88]، كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنَّهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم؛ فإن المؤمنين ناظرة ذلك اليوم؛ لأنَّهم الآمنون الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه مُحال، فوجب حمله على معنى يصحّ معه الاختصاص، والذي يصحُّ معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل[1]:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ ملك والبحر دونك زدتني نعما " [2]

ومن الذين خصّصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضي الإسكندرية، أحمد بن مُحَمَّد بن منصور المنير المالكي، فقد كتب عليه حاشية خاصة سمّاها " الانتصاف " ناقش فيها الزمخشري وجادله في بعض ما جاء في كشافه من أعاريب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم في بيان ما تضمنه من الاعتزال، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشري وتتفق مع هواه [3].

وينبغي لمن أراد أن يقرأ في الكشاف أن يرجع لكتاب "الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال" لابن المنير وهو مطبوع مع الكشاف وفيه كشف لاعتزالياته وضلالاته [4].

---

[1] هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي، شهد فتح مصر، ومات في أيام عمر، وكان أبوه من كبار الصحابة. انظر: ابن يونس، أبو سعيد عبد الرَّحمن بن أحمد بن يونس الصَّدفي (ت 347 هـ)، تاريخ ابن يونس المصري، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1 1421 هـ، ج1، ص93، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 99/2.

[2] الكشاف 662/4، ومفاتيح الغيب للرازي 731/30، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 315/1.

[3] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 330/1.

[4] انظر: دراسات في علوم القران لفهد الرومي 1 /162.

وابن المنير – مع شدة خصومه للزمخشري – لا ينسى ما له من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يُبدي إعجابه به؛ لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة التي تنادي بأنه ليس من كلام البشر. وكثيراً ما يعترف – بتقدير كبير وفي عدالة واعتدال – بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية [1].

فضلاً عمّا يحويه الكشاف من بحوث أدبية قيمة، تُظهر لنا ما كان بين الأدب والتفسير من تأثّر كلّ منهما بالآخر وتأثيره فيه [2].

وقد أفاد الباحث من الكشاف إفادة بالغة في بيان أوجه الإعجاز في الآيات القرآنية؛ لإحاطته بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، فضلاً عن تفنّنه في عرض المسائل، ومناقشتها، وتحليلها؛ للوصول إلى المراد من الآية القرآنية، وبيان أحكامها. وكيفية دفاعه عن الرأي الراجح لديه.

---

[1] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 331/1.

[2] انظر: المرجع السبق 341/1.

3. الرازي (ت606هـ)، في كتابه الموسوم بـ (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير).

هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي، البكري، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقَّب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي[1]، ولد في الري سنة (544هـ)، وتوفي في هراة سنة (606هـ). وهو عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق، نشأ في البلاد الأعجمية، وعاش فيها، كان – رحمه الله – فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير، وعلوم الكلام، والعلوم العقلية، والمنطق، والفلسفة، واشتُهِر بذلك وفاق فلاسفة عصره، وكان طبيباً حاذقاً، أجاد اللغتين العربية والفارسية، وتمرس بآدابهما واكتملت ملكته البيانية فيهما، قال ابن خلكان (ت 681هـ):" وكان له في الوعظ اليد البيضاء، ويعظ باللسانين العربي والعجمي " [2]. وقد نَدِمَ – رحمه الله– على الاشتغال بعلوم الكلام، كما بيّن ذلك ابن قاضي شهبة (ت 851هـ) بقوله: " وقيل: إنّه نَدم على دخوله في علم الكلام، قال ابن الصلاح (ت643هـ)[3]: أخبرني القطب الطوغاني مرتين: أنّه سمع فخر الدين الرازي يقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى. وَرُوِيَ عنه أنّه قال: لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي عليلاً، ورأيت أصحّ الطرق طريقة القرآن " [4].

وقد تفنّن في التأليف والتصنيف، فأنتج كتباً كثيرة جليلة في التفسير، والكلام، والأصول، والفقه، والنَّحْو، والأدب، والفلسفة، والطب، والهندسة، والفلك.

---

[1] وفيات الأعيان،248/4 – 249.

[2] المرجع السابق،249/4، وانظر: ابن عاشور، مُحَمَّد الفاضل بن مُحَمَّد الطاهر (ت1390هـ)، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، السنة الثانية – الكتاب الثالث عشر، سنة 1390هـ، ص69.

[3] هو عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام مفتي الإسلام، تقي الدين أبو عمر بن الإمام البارع أبي القاسم صلاح الدين النصري، الكردي، الشّهرزُوري، الشافعي، تفقه على والده الصلاح بشهرزور، وكان والده شيخ تلك الناحية، ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة، وبرع في المذهب، وكان إماماً بارعاً، حجة، متبحراً في العلوم الدينية بصيراً بالمذهب ووجوهه، خبيراً بأصوله، عارفاً بالمذاهب، جيد المادة من اللغة العربية، حافظاً للحديث متفنناً فيه، توفي سنة ثلاث وأربعين وستمئة. انظر: تاريخ الإسلام 455/14.وقال عنه بان خلكان: كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة. انظر: وفيات الأعيان 243/3.

[4] ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الأسدي (ت 851هـ)، طبقات الشافعية، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب – بيروت، ط1 1407هـ، ج2، ص 65–66، وانظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام 13/ 137، وطبقات الشافعيين لابن كثير ص780، وطبقات المفسرين للداوودي 216/2 – 217، وبحوث في أصول التفسير ص154.

ومن أهم هذه المصنَّفات: التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وله في أصول الفقه: المحصول، وفي الحكمة: المخلص، وشرح الإشارات لابن سينا ، وشرح عيون الحكمة، وفي الطلسمات [1]: السِّرُّ المكنون، ويقال: إنَّه شرح المُفَصَّل في النَّحْو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي، وغيرها كثير من مصنفاته التي يتجلّى فيها علم الرجل الواسع الغزير [2].

ويُعَدُّ تفسيره (مفاتيح الغيب) أوسع التفاسير في علم الكلام، فقد تأثر كثيراً بالعلوم العقلية وتوسّع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعيَّة، والفلكيَة، والمسائل الطبيَّة، وملأ تفسيره بهذه العلوم، كما قال أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط:" فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك حُكيَ عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير " [3].

ويقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، إلّا أنّه لم يتمّه على أرجح أقوال العلماء، قال ابن خلكان (ت 681هـ) في وفيات الأعيان:" له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها: تفسير القرآن الكريم، جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله " [4].

وقد اختلف العلماء فيمن أكمله وأتمّه، قال ابن حجر (ت 852هـ) في الدّرر الكامنة:" أحمد ابن مُحَمَّد بن أبي أحزم مكّي نجم الدين المخزومي القمولي ... وأكمل تفسير الإمام فخر الدين" [5]، وقال صاحب كشف الظنون: " وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن مُحَمَّد القمولي تكملة له، وتوفي

---

[1] (الطلسم) (فِي علم السحر) خطوط وأعداد يزْعم كاتبها أَنه يرْبط بهَا روحانيات الْكَوَاكِب العلوية بالطبائع السفلية لجلب مَحْبُوب أَو دفع أَذَى وَهُوَ لفظ يوناني لكل مَا هُوَ غامض مُبْهَم كالألغاز والأحاجي (ج) طلاسم. انظر: الزيات، أحمد حسن وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استنبول – تركيا، ط2 1392، مادة طَلْسَمَ، ج2، ص562.

[2] انظر: وفيات الأعيان 249/4، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 206/1.

[3] انظر: البحر المحيط 547/1، والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 243/4، وبحوث في أصول التفسير، ص155.

[4] وفيات الأعيان 249/4.

[5] ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد العسقلاني (ت852 هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، مراقبة مُحَمَّد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر أباد /الهند، ط2 1392هـ، ج1، ص359.

سنة (727)، سبع وعشرين وسبعمئة. وقاضي القضاة: شهاب الدين بن خليل الخويّي، الدمشقي، كمّل ما نقص منه أيضاً وتوفي سنة (639 هـ)، تسع وثلاثين وستمئة " [1].

وقال صاحب التفسير والمفسرون للخروج من هذا الاضطراب بين قولي ابن حجر وحاجي خليفة في بيان مَنْ أتمَّ وأكمل تفسير الرازي:" والذي أستطيع أن أقوله كَحَلٍّ لهذا الاضطراب: هو أنَّ الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويّي فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمّه، فأتى بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه. كما يجوز أن يكون الخويّي أكمله إلى النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخويّي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون " [2].

ولعلّ السبب في هذا الاضطراب هو أن القارئ لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلك والأسلوب، فنمط الكتاب وطريقته تجري على وتيرة واحدة من أوله إلى آخره، الأمر الذي يجعل قارئ الكتاب والناظر فيه لا يستطيع التمييز بين الأصل والتكملة، بحيث لا يستطيع الوقوف على حقيقة المقدار الذي كتبه الرازي، والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة [3].

فيما يرى المعلميّ اليمانيّ (ت1386هـ) أنّ عامّة الكتاب هو من تصنيف الفخر الرازي، وأنّه أتمّ تفسيره إلّا بعض السور اليسيرة، فقد أتمّها وأكملها أحمد بن خليل الخويّي[4].

إذ إنّه خَلُصَ بالقول: " الأصل من هذا الكتاب، وهو القدر الذي هو من تصنيف الفخر الرازي، هو: من أوّل الكتاب إلى آخر تفسير سورة القصص، ثمّ من أوّل تفسير الصافّات إلى آخر تفسير سورة الأحقاف، ثمّ تفسير سورة الحديد والمجادِلة والحشر، ثمّ من أول تفسير سورة المُلك إلى

---

1 حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى – بغداد، 1941م، ج2، ص1756.

2 التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 208/1.

3 انظر: المرجع السابق 208/1، وبحوث في أصول التفسير ص155.

4 انظر: اليمانيّ، عبد الرحمن بن يحيى المعلِّميّ (ت1386هـ)، مجموع رسائل التفسير، تحقيق مُحَمَّد أجمل الإصلاحي، دار علم الفوائد، ط1 1434هـ، ص305- 332.

آخر الكتاب. وما عدا ذلك فهو من تصنيف أحمد بن خليل الخويّي، وهو بعض التكملة المنسوبة إليه؛ فإنّ تكملته تشمل زيادة على ما ذكر تعليقًا على الأصل. " [1].

ومع ذلك فإنّ تفسير الرازي يحظى بشهرة واسعة بين العلماء، بما يمتاز به عن غيره باستفاضته في كثير من الأبحاث في شتى العلوم، لا سيّما في علم الكلام، وعلوم الكون والطبيعة. ويمتاز أيضاً بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، ويتوسع في ذلك حتى نجده كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة. كما أنه يتوسع ويستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النَّحْوية والبلاغية. إلّا أنّ استطراده وتوسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية كان ظاهراً وواضحاً في تفسيره حتى أصبح أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي علوم الكون والطبيعة؛ قلّلت من أهميته كتفسير للقرآن الكريم. وهذا ما دفع السيوطي (ت 911هـ) بالقول:" وصاحب العلوم العقلية – خصوصاً الإمام فخر الدين – قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشِبهِها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظرُ العَجَبَ من عدم مطابقة المَوْرِدِ للآية [2].

وأمّا موقفه من المعتزلة، فإنّه لا يدع فرصة تمرُّ دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والردّ عليهم، ردّاً لا يراه بعضهم كافياً ولا شافياً، كما قال ابن حجر (ت 852هـ) في لسان الميزان:" وكان يُعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويُقَصِّرُ في حلِّها، حتى قال بعض المغاربة: يُورِدُ الشُّبَهَ نقداً، ويحُلُّها نسيئةً " [3].

ولعلّ أبرز ما أفاد الباحث من تفسير الرازي، استفاضته في معالجة المسائل في شتّى العلوم، لا سيّما النَّحْويّة والبلاغيّة منها؛ للوقوف على المعنى المراد من خلالها، وهذا ناتج عن سعة اطّلاعه وتبحّره في شتّى أصناف العلوم، فضلاً عن ذكر المناسبات وبيانها بين الآيات بعضها مع بعض، وكيفيّة الرّبط بين الآية والآية، والسّورة والسّورة؛ ممّا يؤكّد الاختيار الأمثل للقاعدة النَّحْويّة والبلاغيّة في توجيه المعنى المراد.

---

[1] المرجع السابق، ص331–332.

[2] الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 243/4، وانظر: كشف الظنون لحاجي خليفة 427/1.

[3] ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت 852هـ)، لسان الميزان، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1 2002م، ج6، ص318، وانظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 207/1–210، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 378–379، ودراسات في علوم القرآن لفهد الرومي 163/1.

4. أبو حيّان (ت745 هـ) في كتابه الموسوم بـ (البحر المحيط في التفسير).

هو أبو عبدالله مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي، الجيّانيّ، الشهير بأبي حيّان، المولود سنة (654هـ)، في إحدى قرى غرناطة، وتوفي في القاهرة سنة (745هـ). كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، وعلى علم واسع في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال ومعرفة طبقاتهم – خصوصاً المغاربة–، وكان ملمّاً بالقراءات صحيحها وشاذّها، وعُرف بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، ولا شك أنه الإمام المطلق في زمانه بالنَّحْو والتصريف، وقد أمضى أكثر عمره خدمة لهذا الفن حتى صار لا يُذكر أحدٌ في أقطار الأرض فيهما غيره.

وقال عنه الصفدي (ت 764هـ)[1]:" كان أمير المؤمنين في النَّحْو "[2].

وقال – أيضاً –:" ولم أره قط إلّا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، ولم أره على غير ذلك "[3].

وقال عنه الداوودي (ت 945هـ):" نحْويُّ عصره، ولُغَويُّه، ومفسِّره، ومحدِّثه، ومُقرِئُه، ومؤرِّخه، وأديبه"[4]. وله مؤلفات كثيرة، من أهمها: البحر المحيط في التفسير، وغريب القرآن، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وغيرها.

ويُعدُّ تفسيره (البحر المحيط) من أشهر كتبه وأفضلها، ويقع في ثمانية مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، إذ يَعُدُّه كثير من أهل العلم، والتفسير المرجع الأول، والأكثر أهمية لمن أراد أنْ يقفَ على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم. فقد توسّع – رحمه الله– في الإعراب والمسائل النَّحْويّة، وذكر الخلاف بين النَّحْويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النَّحْو منه إلى كتب التفسير، وهو وإن كان كذلك إلا أنه لم يُهمِل كلّ ما له صلة بالتفسير، فنراه يتكلّم عن

---

[1] خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان. وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها. له زهاء مئتي مصنف، منها (الوافي بالوفيات) كبير جدا، في التراجم، و(الشعور بالعور) في تراجم العور وأخبارهم، و (نكت الهميان) ترجم به فضلاء العميان، و (ألحان السواجع) رسائله لبعض معاصريه، رتب أسماءهم على حروف المعجم.

[2] الصَّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د. علي أبي زيد، وآخرون، قدم له مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق– سوريا، ط1 1418هـ، ج5، ص325.

[3] المرجع السابق 330/5.

[4] طبقات المفسرين للداوودي 287/2.

المعاني اللغوية للمفردات واستعمالاتها، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة وتوجيهها، فضلاً عن النواحي البلاغية في القرآن الكريم، وذِكر الأحكام الفقهية عندما يمرُّ بآيات الأحكام، مستعرضاً أقوال العلماء من السلف ومَنْ تقدَّمه من الخلف في ذلك.

فهذا منهجه وطريقته التي رسمها لنفسه في تأليفه لكتابه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته، إذ يقول:" وترتيبي في هذا الكتاب، أني أبتدئ أوّلاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسّرها، لفظة لفظة، فيما يُحتاج إليه من اللغة والأحكام النَّحْوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب. وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ، ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك اللفظة، ليُنظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيُحمل عليه ثم أشرع في تفسير الآية، ذاكراً سبب نزولها، إذا كان لها سبب ونسخها ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذّها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية ناقلاً أقاويل السلف، والخلف في فهم معانيها، متكلماً على جليّها، وخفيِّها بحيث إني لا أغادر منها كلمة، وإن اشتهرت، حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان [1].

ويشير أبو حيان إلى أنّه اعتمد في أكثر نقول كتابه على كتاب " التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير "، إذ يقول:" واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا، على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبدالله مُحَمَّد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، عرف بابن النقيب – رحمه الله تعالى– إذ هو أكبر كتاب رأيناه صُنّف في علم التفسير، يبلغ في العدد مئة سِفْرٍ أو يكاد " [2].

ولم يقتصر أبو حيّان في نقله على كتاب " التحرير والتحبير " فحسب، بل إنه كثيراً ما ينقل من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النَّحْو ووجوه الإعراب، قال في خطبة تفسيره:" وهذا أبو القاسم محمود بن عمرو المشرقي الخوارزمي الزمخشري، وأبو مُحَمَّد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، أجلّ من صنّف في علم التفسير، وأفضل من تعرّض للتنقيح فيه والتحرير"[3]، وأضاف يقول:" وكلامُهُما فيه يدلُّ على تقدُّمهما في علوم، من

---

[1] البحر المحيط 1/12-13.

[2] المرجع السابق 1/22.

[3] المرجع السابق 1/20.

منثور ومنظوم، ومنقول ومفهوم، وتقَلُّبٍ في فنون الآداب، وتمكُّنٍ من علمي المعاني والإعراب، وفي خطبتي كتابيهما وفي غضون كتاب الزمخشري ما يدلُّ على أنهما فارسا ميدان، وممارسا فصاحة وبيان"[1]. ومع ذلك، فإنّه لم يتوانَ عن تعقُّبهما كثيراً بالردّ والتفنيد لما قالاه في مسائل النَّحْو على الخصوص. فضلاً عن عدم رضاه عن اعتزاليات الزمخشري، فكان ينقُدُها ويرُدُّها بأسلوب ساخر، ويحمل عليه الحملات القاسية من أجل آرائه الاعتزالية. كما بيّن ذلك أبو حيّان بقوله:" ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة " [2].

ونظم قائلاً:

ويحتال للألفاظ حتى يديرها لمذهب سَوءٍ فيه أصبح مارقا [3].

ومع ذلك نجده يُشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه، إذ يصفه بأنّه:" أُوتي من علم القرآن أَوفر حظّ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ " [4]

ونهاية القول، فإنّ أبا حيّان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع، وهي النّاحية النَّحْويّة التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير [5].

ولمّا كان البحر المحيط يُعَدُّ المرجع الأوّل للوقوف على أوجه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، فإنّ الباحث قد أفاد منه إفادة كبيرة في توسّعه في الإعراب والمسائل النَّحْويّة، وذِكْرِ الخلاف بين النَّحْويين، وكيفيّة ترجيحه للمسألة النَّحْويّة بما يناسب المعنى المراد. فضلاً عن عرضه للمعاني اللغويّة للمفردات واستعمالاتها؛ للوقوف على الراجح في المسألة.

---

[1] البحر المحيط 20/1.

[2] المرجع السابق 252/8.

[3] المرجع السابق 253/8.

[4] المرجع السابق 252/8.

[5] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 225/1 – 228، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 379/1 – 380، وبحوث في أصول التفسير ص155 – 156.

5. الألوسي (ت 1270هـ) في كتابه الموسوم بـ (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني).

هو أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي، وُلِد في جانب الكَرْخ من بغداد سنة 1217 هـ، نبغ في كثير من العلوم حتى صار شيخ العلماء في العراق، وكان عالمًا باختلاف المذاهب، مطّلعًا على الملل والنحل، سلفي الاعتقاد شافعي المذهب، إلا أنّه قد انتقل إلى المذهب الحنفي كما قال عن نفسه: " فإنّي وإنْ كنت مِنْ قبلُ شافعيّاً، فإنّي اليوم والحمد لله قد صرت حنفياً". ولكنّه في آخر أمره يميل إلى الاجتهاد.

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرّس في عدَّة مدارس، وقد ترك ثروة علمية عظيمة ونافعة من أهمها: (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)، وحاشيته على قطر الندى لابن هشام، ولم يتمّها، وبعد وفاته أتمّها ابنه السيد نعمان الألوسي، و(درّة الغوّاص في أوهام الخواص)، و(شرح السلم في المنطق)، وكتاب (الأجوبة العراقية)، وكتاب (غرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب)، وغيرها كثير.

وقد توفي – رحمه الله – في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 1270 هـ، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ. (1)

أمّا تفسيره فقد ذكر الألوسي في مقدمته عن أسباب تفسيره لكتاب الله – عزَّ وجلَّ – بقوله: " لم أزل متطلباً لاستكشاف سرِّه المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم، طالما فرَّقتُ نومي لجمع شوارده وفارقت قومي لوصال خرائده " (2).

ثمَّ بيَّن أنَّه رأى رُؤْيَةً في منامه، فكانت إشارة إلى تأليف تفسيره، حيث يقول:"... إلى أنْ رأيت رُؤْيَةً لا أَعُدُّها أضغاث أحلام ولا أحسبها خيالات أوهام... ثم انتبهت من نومتي، وأنا مستعظم

---

[1] انظر: البيطار، عبدالرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (ت 1335هـ)، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حقّقه ونسّقه وعلّق عليه حفيده مُحَمَّد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط2 1413هـ، ص 1450–1455، والتفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 250/1–251، والتفسير ورجاله لمُحَمَّد الفاضل بن عاشور ص 128–134، وبحوث في أصول التفسير ص 157–158.

[2] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1415هـ، ج1، ص4.

لرؤيتي، فجعلت أفتش لها عن تعبير، فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير... وأقول غير مبالٍ بتشنيع جهول: هذا تأويل رؤياي " [1].

وقد اعتنى الألوسي بتفسيره، فكان حصيلة علمه وفكره في شتى العلوم، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فقد نقل عن كثير من المفسرين ممن سبقه، فنقل عن تفسير ابن عطيَّة، والكشَّاف، والرازي، وأبي السعود، والبيضاوي، وأبي حيان وغيرها من التفاسير المعتبرة. ولم يكتف بالنقل عن هذه التفاسير، وإنما كثيراً ما ينقد ويفنِّدُ ويَرُدُّ على أقوال أصحابها فيما يراه صواباً، فنجده يفنِّدُ ويرُدُّ آراء المعتزلة والشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه السلفيّ السنيّ.

وممَّا يلاحظ في تفسيره أنه يستطرد إلى الكلام في العلوم الكونية، والفلكية، ويذكر كلام أهل الهيئة، وأهل الحكمة، ويقرُّ ما يرتضيه، ويفنِّدُ ما لا يرتضيه. كما أنه يستطرد ويتوسع إلى الكلام في الصناعة النَّحْوية إلى حدٍّ يكاد يخرج به عن وصفه مفسِّراً، وهذا في مواضيع كتابه كلها، فلا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك. كذلك نجده يستوفي مذاهب الفقهاء وأدلتهم عند الكلام عن آيات الأحكام، مع عدم تعصبه لمذهبٍ بعينه. أما بالنسبة للإسرائيليات والأخبار المكذوبة فلا يأبه بها، بل إنه شديد النقد والسخرية من أولئك المفسرين الذين امتلأت تفاسيرهم بها وظنوها صحيحة. ثم إنه كثير الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعاني اللغوية. كما أنه يذكر أسباب النزول للآيات التي أُنزلت على سبب، مع ذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، ومناسبات السور بعضها مع بعض، ويعرض لذكر القراءات المتواترة وغيرها.

وتميّز تفسير الألوسي بالتفسير الإشاري والإكثار منه بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات، حتى عدّ بعض العلماء تفسيره من المؤلفات في التفسير الإشاري. ولكن الظاهر من منهج الألوسي في تفسيره، أنه لم يكن مقصوده الأهم هو التفسير الإشاري، بل كان ذلك تابعاً لغيره من التفسير الظاهر [2].

---

[1] المرجع السابق، 5/1.

[2] انظر: التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي 250/1-257، وبحوث في أصول التفسير ص157-158، والتفسير ورجاله لمُحَمَّد الفاضل بن عاشور ص135-141.

والحقُّ أنّ تفسير الألوسي لو جُرِّدَ عن قسم التفسير بالإشارة لكان أَلْيَق بمقامه العلمي السامي، ولكن مَنْ نظر إلى التيارات التي تلاقت في تكوينه، وتكوين البيئة العلمية التي أنجبته، التمس له عذراً، وأيقن بأنّ تعلّق الأفكار بتلك المناهج من التفسير لم يكن يحتمل إلغاءها؛ لأنها تستقل حينئذٍ بتوجيه الناس، ولذلك أوردها إلى التحقيقات العلمية الكفيلة بردِّها، أو حجزها عند وضع يقصرها على حدّها [1].

قال مُحَمَّد الذهبي (ت1398هـ): " وجملة القول: فروح المعاني للعلامة الألوسي ليس إلَّا موسوعة تفسيريّة قيّمة، جمعت جُلَّ ما قاله علماء التفسير الذين تقدّموا عليه، مع النقد الحرّ، والترجيح الذي يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة، مع توسع كاد يخرجه عن وصفه مفسّراً إلَّا أنَّه متّزن في كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم على اختلاف نواحيه، وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء، إنه سميع مجيب " [2].

وقد أفاد الباحث من روح المعاني إفادة عظيمة، ومعرفة جليلة، بما احتواه من أقوال لعلماء التفسير الذين تقدَّموا عليه، وكيفيَّة الجمع بين أقالهم تارة، ونقدهم تارة أخرى، وطريقته في الترجيح بين الأقوال، وقوة دفاعه عمَّا يراه راجحاً في تأويل الآيات، ومعرفة مراد الله منها.

وخلاصة القول:

فأِنَّ هذا غَيْضٌ مِن فَيْضٍ فيما يُذكر من تفاسير القرآن الكريم، وإنَّما أكتفي بما ذكرت مخافة الإطالة؛ ولكنْ ممَّا ينبغي التنبيه إليه أنَّ كلَّ مَنْ أراد ارتقاء المصعد، ودخول المعبر، واعتلاء المنبر في تفسير آيات الله، ومعرفة كنهها، ومراد الله منها لا بُدَّ له مِن الاطِّلاع على أمَّات التفاسير بكُلِّيَّتها وجملتها؛ لأنَّ كلَّ تفسير من التفاسير المعتبرة يُعَدُّ مدرسة في علم التفسير، وأصوله، وقواعده، لا سيَّما وأَنَّ كلَّ عالم من علماء التفسير يتميَّز بلفتة، أو لفتات تفسيريَّة قد لا توجد عند غيره . فالأخذ بكُلِّيَّتها تفتح الآفاق للوصول إلى الأعماق في مراد الله من كلامه، واستنباط أحكامه.

---

[1] التفسير ورجاله لمُحَمَّد الفاضل بن عاشور ص141.

[2] التفسير والمفسرون لمُحَمَّد الذهبي، 257/1.

ثانياً: الدراسات السابقة:

بعد البحث والتنقيب لم يعثر الباحث على دراسات سابقة تتناول القواعد النَّحْوية والبلاغية في تفسير" جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار" لابن بدران. إلَّا أَنَّ هناك الكثير من الدراسات التي عُنيت ببيان أثر القواعد النَّحْوية والبلاغية في الاختيارات التفسيرية، ومنها:

1. **الطبطبائي (2001م)، تعدّد التوجيه النَّحْوي عند الطبري في تفسيره " جامع البيان في تأويل آي القرآن ".**

   رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مصر.

تناول الباحث موضوعاً خاصاً في تفسير الطبري، وهو تعدّد الأوجه الإعرابية التي ساقها الإمام المفسر مُحَمَّد بن جرير الطبري في تفسيره. وتظهر أهمية هذه الدراسة في العلاقة القوية بين المعنى النَّحْوي (الإعراب)، والمعنى الدلالي في تفسير الطبري، وهذه العلاقة هي التي تبيّن أهمية تعدد الأوجه الإعرابية عند الطبري، فحاجته إلى معرفة وجوه المعنى الدلالي هي التي تدفعه إلى معرفة وجوه المعنى النَّحْوي.

فالطبري عندما يضع أوجهاً إعرابية لآية ما، فإنه يحدّد تحديداً دقيقاً – في كل وجه إعرابي– المعنى الدلالي المراد للآية. وقد تحدّث الباحث عن أسباب تعدّد التوجيه النَّحْوي في التنغيم، وكذلك ما جاء من اختلاف في التركيب في الكلمة المفردة أو في الجملة، حيث أدى إلى تغيُّر في التوجيه النَّحْوي عند الطبري، ثم أورد بعض اختلافات النحاة في بعض القضايا النَّحْوية، مما أدى إلى تعدّد في التوجيه النَّحْوي في تفسير الطبري. وبعد ذلك ذكر الباحث أن مظاهر تعدد التوجيه النَّحْوي عند الطبري إما مظاهر تتعلق بالعلامة الإعرابية، أو مظاهر لا تتعلق بالعلامة الإعرابية، ثم أعدّ فصلاً في الآثار المترتبة على تعدّد التوجيه النَّحْوي عند الطبري، وذلك كمثل الآثار الفقهية، والآثار البلاغية، والآثار اللغوية، والآثار العقائدية.

ومن النتائج التي خَلُصَ إليها الباحث: أنّ أوجه الإعراب تكشف عن وجوه التأويل، وتمكّن الدّارس من معرفة المعاني المختلفة التي تحتملها الآية القرآنية، وذلك من دلائل الإعجاز الإلهي في الكتاب العزيز. وجاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

2. زين (2006م)، أبو السعود ومنهجه في النَّحْو من خلال تفسيره " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " (الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم نموذجاً).

رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن.

وقد حاولت الدراسة تجلية المنهج النَّحْوي في تفسير أبي السعود وهو من التفاسير المشهورة والمتداولة بين أهل العلم، إذ اقتصرت الدراسة على الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم. وبعد تقرّي المادة النَّحْوية في التفسير تبيّن للباحث أنه يشتمل على مسائل، وتدقيقات، وتحقيقات نحوية، تُبرز أثر علم النَّحْو في توجيه المعنى، فعمل على تطبيق مقتضيات النَّحْو في معالجة القضايا الشرعية، مبيّناً أهمية الدراسة من جهتين:

الأولى: أنّها تمثل أنموذجاً تطبيقياً لفهم النصوص عن طريق القواعد النَّحْوية المطّردة.

الثانية: أنّها تتناول تفسيراً يتّخذ من النَّحْو الآلة الرئيسة في تحليل النص القرآني.

وجاءت هذه الدراسة في تمهيدٍ وأربعة فصول وخاتمة.

3. المَنْيَراويّ (2009م)، أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (دراسة تطبيقية في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء).

رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزّة.

عَمَدَت الباحثة إلى بيان أثر اختلاف الإعراب، وتعدّد المواقع الإعرابية في تفسير القرآن الكريم، وتطبيق ذلك على سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، من خلال الاستقراء والتحليل، حيث اعتمدت كتاب إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس؛ لتحديد المواضع التي تختلف فيها المواقع الإعرابية، وبيّنت أن اختلاف الإعراب كان له الأثر الواضح في توجيه المعنى عند المفسرين.

وقد خَلُصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج من أهمها:

1. يرتبط علم الإعراب بالتفسير ارتباطاً وثيقاً؛ فعلم الإعراب من العلوم المهمة التي لا بدّ لمن يشتغل في علم التفسير أن يتعلمها، وأن يكون على دراية بها؛ لما لها من أثر بالغ في بيان مراد الله –تعالى– وفهم الآية فهماً سليماً، وإزالة اللّبس والإشكال عنها، ودون هذا العلم سيبقى المفسر فاقداً لأداة مهمة من أدوات التفسير.

2. تأكيد العلاقة بين الإعراب والمعنى الدلالي، وأن كلاً منهما يؤثر في الآخر. فإن العرب ما كانت لتجزع من اللّحن في الإعراب لو لم يكن مؤدياً إلى فسادٍ في المعنى، وما كانت لتحرص ذلك الحرص على الإعراب لو لم يكن يعمل في إبراز المعنى وإظهاره.

3. إن هناك العديد من آيات القرآن العظيم التي كان للإعراب الفصل في توجيهها، والوقوف على أغراضها ومعانيها. فإن وظيفة هذا العلم لا تقتصر على ضبط الكلمات، ومعرفة المبني والمعرب، والمرفوع والمنصوب، والمجرور والمجزوم؛ بل تتعدى إلى توجيه النصوص القرآنية والوقوف على مقاصدها [1].

واشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وأربعة مباحث تمثل الجانب النظري، وأربعة مباحث تمثل الجانب التطبيقي للدراسة، فضلاً عن الخاتمة والفهارس.

4. العتّابي (2013م)، ابن مالك النَّحْوي في تفاسير القرآن الكريم.

رسالة ماجستير، جامعة واسط، العراق.

قام الباحث بدراسة مصدر مهم من المصادر النَّحْوية التي اعتمدها المفسرون في تفاسيرهم، ألا وهو آراء ابن مالك النَّحْوية، حيث عمل الباحث على استقراء مجموعة من التفاسير فوجد أنَّ جُلَّ المفسرين الذين جاؤوا بعده ذكروا آراءه النَّحْوية، وناقشوها وبيّنوا أثرها في توجيه المعنى بما يتناسب مع توجيههم للنصوص القرآنية وهذا ما دفعهم إلى اعتماد آرائهِ وآراء النَّحْويين من غيره في توجيه النص القرآني.

وتنتظم هذه الرسالة في ثلاثة فصول تتقدمها مقدمة، وتعقبها الخاتمة.

وبعد هذا العرض لبعض الدراسات السَّابقة ذات الصلة؛ فإنَّ الباحث قد أفاد من هذه الدِّراسات من خلال كيفيَّة تناولها للمسائل النَّحْويَّة، والبلاغِيَّة، وعرضها، وتحليلها، وبيان أثرها في توجيه المعنى المراد للآيات القرآنيَّة، فضلاً عن كيفيَّة عرضها لأقوال العلماء، وترجيحاتهم خروجاً من دائرة الخلاف الواقع بينهم؛ للوقوف على الحقِّ والصَّواب في التفسير، والتأويل.

---

[1] أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم، ص253-254.

ما يميّز هذه الدراسة:

تتماز هذه الدراسة بتناولها تفسيراً متداولاً بين أهل العلم، يعتمد على النَّحْو والبلاغة في تحليل النص القرآني في كثير من تخريجاته، وتقريراته، واختياراته بعيداً عن التعصّب لرأي عالم من علماء النَّحْو والبلاغة. ولم يعثر الباحث على دراسات سابقة تتناول القواعد النَّحْوية والبلاغية في هذا التفسير وهو "جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار" لابن بدران. كما أَنَّها تمتاز– أيضاً – بتناولها عِلْمَيْنِ مُهِمَّيْنِ من علوم العربية، وهما: النَّحْو والبلاغة، وبيان أَثرهما في توجيه المعنى المراد من كلام الله – عزَّ وجلَّ –.

الفصل الثالث:

أثر القواعد النَّحْويَّة والبلاغيَّة في الاختيارات التفسيريَّة عند ابن بدران في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189:

يتناول هذا الفصل الجانب التطبيقي والتحليلي للدراسة من خلال بيان أثر القواعد النَّحْويَّة والبلاغيَّة في الاختيارات التفسيريَّة عند ابن بدران، إذ وقع اختيار الباحث على عشر مسائل في القواعد النَّحْويَّة، وخمس في القواعد البلاغيَّة.

المبحث الأَوَّل: أثر القواعد النَّحْوية في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189:

المسألة الأولى:

أثر الباء في توجيه المعنى في قوله – تعالى–:﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة:1].

كان اختيار ابن بدران – رحمه الله – مبنياً– في هذه المسألة– على ثلاث قواعد، اعتمد من خلالها تفسير قوله – تعالى–: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾

القاعدة الأولى: متعلِّق الجار والمجرور بـ ﴿ بِسۡمِ ﴾ محذوف:

قوله: " لا يخفى على أحد ممن له أدنى إلمام بعلم العربية، أن " الباء " من (بسم) حرف جرّ، متعلق بمحذوف " [1].

أي إنَّ كلَّ جار ومجرور لا بدّ له من شيء يتعلق به ظاهراً أو محذوفاً، وهذه معروفة لدى العرب؛ إذ إنَّها مستقراة من كلامهم، فيكون بذلك قد قرَّر قاعدة مضطردة، معلومة من العربية

---

[1] جواهر الأفكار، ص31.

بالضرورة، ولا خلاف معتبراً فيها. وهذا مفهوم قوله:" لا يخفى على أحد ممن له أدنى إلمام بعلم العربية " [1].

قال السَّمِين الحَلَبِيّ (ت756هـ)[2]صاحب الدُّرّ المصون:" واعلم أنّ كل جار ومجرور لا بدّ له من شيء يتعلق به، فعل أو ما في معناه، إلا في ثلاث صور: حرف الجرّ الزائد، ولعلّ ولولا عند مَنْ يجرّ بهما، وزاد الأستاذ ابن عصفور كاف التشبيه، وليس بشيء فإنها تتعلق. إذا تقرر ذلك فـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ لا بدّ من شيء يتعلق به ولكنه محذوف " [3].

وقال ابن عاشور (ت 1393هـ) في متعلق المجرور في ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾: " فحذف متعلق المجرور فيها حذفاً مُلتَزَماً إيجازاً اعتماداً على القرينة " [4].

وهذا ما يذهب إليه الباحث في أنّ كلّ جارٍ ومجرورٍ لا بدّ له مِن شيء يتعلَّق به ظاهراً أو محذوفاً، مؤيِّداً بذلك قول ابن بدران ومن ذهب إلى هذا القول.

القاعدة الثانية: متعلِّق الجار والمجرور بـ ﴿ بِسۡمِ ﴾ فعلٌ متأخرٌ:

قوله: " قَدَّرَ علماء البلاغة هذا المحذوف متأخراً، وهو ما يعول عليه، ويناسب ما لأجله كان نزول القرآن " [5]. إذ يرجّح المؤلف في هذه القاعدة أن المتعلق المحذوف فعلٌ متأخرٌ، تأويله(بسم الله أقرأ)، أو (بسم الله أبدأ).

وقد اختلف العلماء في متعلق ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ المحذوف من حيث الموضع والنوع. إذ إنّ هذا المتعلق المحذوف يُقسم إلى أربعة أقسام، بيّنها الفخر الرازي (ت 606هـ) في تفسيره مفاتيح

---

[1] المرجع السابق، ص31.

[2] هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين: مفسِّر، عالم بالعربية والقراآت. شافعيّ، من أهل حلب. استقر واشتهر في القاهرة. من كتبه (تفسير القرآن) عشرون جزءا، و (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز)، و (الدر المصون) في إعراب القرآن، و (عمدة الحفَّاظ، في تفسير أشرف الألفاظ) في غريب القرآن، كتب سنة 995 وكان في عشرين مجلدة رآها ابن حجر بخطه، و (شرح الشاطبية) في القراآت قال ابن الجزري: لم يسبق إلى مثله. انظر: الأعلام للزركلي 274/1.

[3] السَّمِين الحَلَبِيّ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت756هـ)، الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد مُحَمَّد الخراط، دار القلم – دمشق، ج1، ص22.

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور 1 / 146.

[5] جواهر الأفكار،ص31.

الغيب بقوله:" قد بيّنّا أنّ الباء من ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ متعلّقة بمضمر، فنقول:" هذا المضمر يُحتمل أن يكون اسماً، وأن يكون فعلاً، وعلى التقديرين فيجوز أن يكون متقدّماً، وأن يكون متأخراً، فهذه أقسام أربعة، أما إذا كان متقدّماً وكان فعلاً فكقولك: أبدأ باسم الله، وأما إذا كان متقدماً وكان اسماً فكقولك: ابتداء الكلام باسم الله، وأما إذا كان متأخراً وكان فعلاً فكقولك: باسم الله أبدأ، وأما إذا كان متأخراً وكان اسماً فكقولك: باسم الله ابتدائي " [1].

وذهب البصريُّون إلى أَنَّ المتعلق المحذوف (اسم)، واختلفوا في نوعه هل هو مبتدأ أو خبر؟

فقال بعضهم: إنَّ المتعلق بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ مبتدأ حُذف هو وخبره، وبقي معموله، تقديره: ابتدائي باسم الله كائن، أو قراءتي باسم الله كائنة. وقال بعضهم: إنّ المتعلق بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ خبر حُذف هو ومبتدؤه، وبقي معموله، تقديره: ابتدائي كائن باسم الله، أو قراءتي كائنة باسم الله.

قال النحاس (ت 338هـ): " قال أكثر البصريين: المعنى أول ما افتُتح به ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وأوَّل كلامي ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ " [2].

وذهب الكوفيون إلى أنَّ المتعلق المحذوف (فعل)، واختلفوا في موضعه، هل هو مقدَّم أو مؤخَّر؟

فقال بعضهم: إنّ المتعلق المحذوف وهو الفعل مقَدَّم؛ لأنّ هذا هو الأصل، تقديره: أقرَأ باسم الله، أو أبتدئ باسم الله.

قال الزجَّاج (ت311هـ) – وهو بغداديّ المذهب –:" قوله –عزَّ وجلَّ–: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، الجالب للباء معنى الابتداء، كأنك قلت: بدأت باسم الله الرحمن الرحيم، إلاّ أنه لم يُحتَج لذكر " بدأت "؛ لأَنَّ الحالة تُنبئُ أَنَّك مُبتَدئ " [3].

---

[1] مفاتيح الغيب،99/1.

[2] النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد (ت338هـ)، معاني القرآن، تحقيق مُحَمَّد علي الصَّابوني، جامعة أمّ القرى – مَكَّة المكرَّمة، ط1 1409هـ،ج1، ص50.

[3] الزجّاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت311هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط1 1408هـ، ج1، ص39.

وأيَّدهم في ذلك الجُرْجَانِيّ (ت471هـ): " ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: الباء مع الاسم آلة لفعل محذوف، وتقديره أفتتح وأبتدئ باسم الله " [1].

وقال السَّمِين الحَلَبِيّ (ت756هـ):" واختلف النَّحْويون في ذلك، فذهب أهل البصرة إلى أنّ المُتعلَّق به اسم، وذهب أهل الكوفة إلى أنه فعل، ثم اختلف كلٌّ من الفريقين: فذهب بعض البصريين إلى أنّ ذلك المحذوف مبتدأ حُذف هو وخبره وبقي معموله، تقديره: ابتدائي باسم الله كائن أو مستقر، أو قراءتي باسم الله كائنة أو مستقرة... وذهب بعضهم إلى أنَّه خبر حُذف هو ومبتدؤه أيضاً، وبقي معموله قائماً مقامه، والتقدير: ابتدائي كائن باسم الله، أو قراءتي كائنة باسم الله، نحو: زيد بمَكَّة، فهو على الأوَّل منصوب المحلِّ، وعلى الثاني مرفوعه لقيامه مقام الخبر. وذهب بعض الكوفيين إلى أنّ ذلك الفعل المحذوف مُقدّر قبله، قال: لأنّ الأصل التقديم، والتقدير: أقرأ باسم الله أو أبتدئ باسم الله. ومنهم مَنْ قدّر بعده، والتقدير: باسم الله أقرأ، أو أبتدئ، أو أتلو [2].

وقال ابن عطية (ت 542هـ):" والباء في بسم الله متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره ابتداء مستقر أو ثابت بسم الله، وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره ابتدأت باسم الله، فبسم الله في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيبويه أنّ الباء متعلقة باسم كما تقدم" [3].

واختلفوا – أيضاً –: هل ذلك الفعل أمر أم خبر؟ فذهب الفرّاء أنه أمر تقديره: اقرأ أنت باسم الله، وذهب الزجاج أنه خبر تقديره: أقرأ أنا أو أبتدئ ونحوه [4].

وقد أدَّى هذا الاختلاف بين النَّحْويين إلى الاختلاف بين المفسِّرين في توجيه المعنى المراد من قوله – تعالى –: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

قال الطبري (ت 310هـ):" وذلك أَنَّ الباء من " بسم الله " مقتضية فعلاً يكون لها جالباً، ولا فعل معها ظاهر فأغنت سامع القائل: " بسم الله " معرفته بمراد قائله... فمعقول إذن أَنَّ قول القائل

---

[1] درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 1 / 99.

[2] الدر المصون 22/1.،

[3] المحرر الوجيز لابن عطية 61/1.

[4] الدر المصون 23/1.

إذا قال:" بسم الله الرحمن الرحيم " ثم افتتح تالياً سورة، أن إتباعه " بسم الله الرحمن الرحيم " تلاوة السورة، يُنبئ عن معنى قوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ومفهوم به أنَّه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم " [1].

وقال الواحدي (ت468هـ): " فأمَّا المتعلق به (الباء) في قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فإنه محذوف، ويُستغنى عن إظهارها لدلالة الحال عليه، وهو معنى الابتداء، كأنه قيل (بدأت بسم الله)، (وأبدأ بسم الله)، والحال تبيِّن أنَّك مبتدئ فاستغنيت عن ذكره " [2].

وقال الثعلبي (ت427هـ) في تفسير قوله – تعالى–: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وفي الكلام إضمار واختصار تقديره: قل، أو ابدأ بسم الله " [3].

وقال البغوي (ت 516هـ):" قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، الباء زائدة تَخفِضُ ما بعدها، مثل مِنْ، وعَنْ، والمتعلق به (الباء) محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: ابدأ بسم الله أو قل بسم الله "[4].

فكانت هذه أقوال بعض المفسرين الذين ذهبوا إلى القول بأنّ المتعلق المحذوف هو فعل متقدم. ومن المفسرين الذين قالوا: إنّ المتعلق المحذوف هو فعل متأخر:

صاحب الكشاف بقوله: " فإن قلتَ: بم تعلّقت الباء؟ قلتُ: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحلّ وبسم الله أرتحل؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كان مُضمراً ما جعل التسمية مبدأ له " [5].

---

[1] جامع البيان 115/1.

[2] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد (ت468هـ)، التفسير البسيط، عمادة البحث العلمي– جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط1 1430هـ، ج1، ص438.

[3] الثعلبي، أبو اسحق احمد بن مُحَمَّد (ت427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1 1422هـ، ج1،ص92.

[4] البغوي، محيي السنة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد (ت516هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1420هـ، ج1، ص70.

[5] الكشاف، 2/1.

وصاحب أنوار التنزيل بقوله: " والباء متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ؛ لأنّ الذي يتلوه مقروء"[1].

وقال الرازي(ت606هـ): "... التقديم أولى أم التأخير؟ فنقول: كلاهما وارد في القرآن، أما التقديم فكقوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:41]، وأما التأخير فكقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:1]، وأقول: التقديم عندي أولى "[2].

وينبغي التنبيه هنا أنّ التقديم في قول الرازي في هذا الموطن يعني به تقديم لفظ الجلالة، دلّ على ذلك قوله " أما التقديم فكقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود:41]، أي مثل مَنْ يقول: بسم الله أقرأ أو أبدأ.

والذي يراه الباحث راجحاً بعد الاطلاع على أقوال العلماء، وسبر ترجيحاتهم، أنّ المتعلق المحذوف من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ هو فعل متأخر. مؤيداً بذلك صاحب التفسير ابن بدران ومَن قال بهذا القول، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. إنَّ القول بأنَّ المتعلق المحذوف مبتدأ حذف هو وخبره وبقي معموله، تقديره: ابتدائي باسم الله كائن. فيه نظر من حيث إنه يلزم حذف المصدر وإبقاء معموله وهو ممنوع [3].

قال مَكّي (ت437هـ) صاحب مُشْكِل إعراب القرآن: " وموضع بسم موضع رفع عند البصريين على إضمار مبتدأ تقديره ابتدائي بسم الله، فالباء على هذا متعلقة بالخبر الذي قامت الباء مقامه تقديره: ابتدائي ثابت، أو مستقر بسم الله أو نحوه، ولا يحسن تعلّق الباء بالمصدر الذي هو مضمر؛ لأنه يكون داخلاً في صلته فيبقى الابتداء بغير خبر [4].

2. إنّ الأصل في العمل الأفعال، ولما كانت القراءة عملاً لزم أن يكون المتعلق المحذوف فعلاً.

---

[1] البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي (ت685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق مُحَمَّد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1418هـ، ج1، ص25.

[2] مفاتيح الغيب، 99/1.

[3] الدر المصون، 22/1.

[4] مشكل إعراب القرآن لمَكّي 66/1.

قال ابن عثيمين (ت1421هـ) في تفسيره:" وقدَّرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال – وهذه يعرفها أهل النَّحْو–؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط "[1].

وسبقه ابن عادل (ت775هـ) في اللباب بقوله:" قال أبو بكر الرازي – رحمه الله تعالى–: إضمار الفعل أولى من إضمار الاسم؛ لأن نسق تلاوة القرآن يدل على أن المضمر هو الفعل " [2].

3. لمَّا كان الفعل الذي يُشرع القيام به إنَّما يكون بعد قول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لَزِم من ذلك أن يكون المتعلق المحذوف متأخراً.

قال المعلميّ اليمانيّ (ت1386هـ): " والأصل في الكلمة التي يتعلق بها الجار والمجرور تقدُّمها عليه، ولكنّ المختار في تسمية الإنسان عن نفسه تأخير المتعلق؛ لأنّ الحالة التي تدلّ عليه من شأنها التأخير. فإن أراد أن يقوم فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وقام، فالقيام إنما يُشاهد بعد التسمية، فكذلك ينبغي تقدير الفعل الذي دلّ عليه القيام وهو " أقوم " " [3].

4. إنّ في تأخير الفعل فوائد منها:

أ– التبرك والتعظيم بتقديم اسم الله – عزَّ وجلَّ –؛ لأنَّه سبحانه قديم في الوجود، فهو الأول ليس قبله شيء، فينبغي أنْ يُقَدَّمَ اسمه – سبحانه – على كل شيء يُفعل، متبِّركاً به، مُعظِّماً له. لا سيما وأنّ المشركين كانوا يُقدِّمون أسماء آلهتهم في جميع أفعالهم، فيقولون: باسم اللات، وباسم العزى من أجل التبرك والتعظيم، فشرع الله – عزَّ وجلَّ– لنبيِّه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في كل أمر يقصده ويفعله، محرماً بذلك الابتداء باسم سوى اسم الله – تعالى –؛ لذلك فإنّ التبرُّك والتعظيم لله – سبحانه – من باب أولى على ما سواه، ولهذا قال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:" من لم يذبح فليذبح بسم الله"[4].

ب– الحصر والاختصاص؛ لأنّ تأخير العامل يفيد الحصر على المعمول (المتقدِّم)؛ إذ لا يستطيع أحد أن يعمل فعلاً، أو يتحول عن فعل إلا بعونه – سبحانه– فلا أفعل فعلاً باسم أحد إلَّا اسم الله – عزَّ وجلَّ –.

---

[1] العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، دار ابن الجوزي – المملكة العربية السعودية، ط1 1423هـ، م1، ص5.

[2] ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت 775هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان، ط1 1419 هـ، ج1، ص118.

[3] مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليمانيّ، ص8.

[4] صحيح البخاري 23/2 ، باب كلام الإمام والناس في خطبة، حديث رقم 985.

وكذلك تأخير العامل يفيد الاختصاص للمعمول؛ لأنَّه لا يُقصد أحد بالابتداء إلَّا اللهُ – سبحانه – فيُخصّ بالتبرك والتعظيم، والعون. فكان تقديم لفظ الجلالة، وتأخير الفعل إرادة للاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، كما في قوله – تعالى-: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

[الفاتحة: 5]، وقوله – تعالى -:﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود:41]. ولا يعارضه قوله – تعالى-:﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق:1]؛ لأنّ ذلك المقام مقام قراءة فكان الأمر بها أهم؛ لذلك قُدّمت.

وذهب إلى هذا القول كثير من علماء النَّحْو والتفسير، قال الزمخشري: " فإن قلتَ: لم قدّرت المحذوف متأخراً؟ قلتُ: لأنّ الأهم من الفعل، والمتعلَّق به هو المتعلِّق به؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله – عزَّ وجلَّ – بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله:" إياك نعبد "، حيث صرّح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله:﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾[هود:41] "[1]

قال ابن المنير(ت683هـ) في تعليقه على كلام الزمخشري السابق: " لأنك لو ابتدأت بالفعل في التقدير لما كان الاسم مبتدأً به، فيفوت الغرض من التبرك باسم الله تعالى- أول نطقك "[2].

وأيّد الزمخشريَّ (ت538هـ) الكافيجيُّ (ت879هـ) بقوله:" ما ذهب إليه صاحب " الكشاف " ها هنا هو المختار فإنّ فيه قلّةَ الحذف، ورعايةَ حق خصوصية المقام، ودلالةً على اختصاص القراءة ببسم الله، وتعليماً للمؤمنين بأنَّ طريقهم هو الحقّ والصَّواب، وتعريضاً للكفار بأن سبيلهم هو الخطأ والطغيان، فمعلوم أن هذه الاعتبارات تناسب نظم القرآن، وتشهد بفصاحته وغاية إعجازه "[3].

وقال البيضاوي (ت685هـ):" وتقديم المعمول ها هنا أوقع كما في قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾، وقوله:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ لأنَّه أهم وأدلّ على الاختصاص، وأَدْخَلُ في التعظيم

---

[1] الكشاف،3/1.

[2] ابن المنير، ناصر الدين أحمد بن مُحَمَّد الإسكندري (ت683هـ)، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، وهو مذيل في الحاشية من كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص3 .

[3] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، ج1، ص84.

وأَوْفَقُ للوجود فإنَّ اسمه – سبحانه و تعالى – مقدَّم على القراءة، كيف لا وقد جعل آلة لها من حيث إنَّ الفعل لا يتمّ ولا يُعتدُّ به شرعاً ما لم يصدر باسمه – تعالى–، لقوله – عليه الصلاة والسلام –: " كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر " [1]، وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله – تعالى – أقرأ " [2].

وقال الفخر الرازي (ت606هـ): " وأقول: التقديم عندي أولى – يعني تقديم لفظ الجلالة وتأخير الفعل– [3] ويدل عليه وجوه: الأول: أنَّه – تعالى – قديم واجب الوجود لذاته، فيكون وجوده سابقاً على وجود غيره، والسابق بالذات يستحق السبق في الذكر، الثاني: قال – تعالى–:﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد:3]، وقال: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:4] ، الثالث: أنّ التقديم في الذكر أَدخَلُ في التعظيم، الرابع: أنَّه قال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فها هنا الفعل متأخر عن الاسم، فوجب أن يكون قوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ كذلك، فيكون التقدير باسم الله أبتدئ " [4].

وهذا ما أكّده المعلميّ اليمانيّ (ت 1386هـ) بقوله:" إنّ التأخير يبيّن أنّ في الكلام اختصاصاً، ومعنى الاختصاص أنْ يكون الكلام يدلّ مع ثبوت الأمر للشيء على انتفائه عن غيره"[5].

ورجّح ابن هشام (ت 761هـ) ما ذهب إليه الكوفيون في مسألة جملة " البسملة " حيث عدّها البصريون اسميّة، على تقدير " ابتدائي باسم الله "، وعدّها الكوفيون: فعليّة، على تقدير: " أبدأ باسم الله "، فوافق الكوفيين، وقدّر " باسم الله أقرأ " [6].

---

[1] ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمود شاكر، دار الحديث – القاهرة، ط1 1416هـ، ج8، ص395، حديث رقم 8694. قال المحقق: إسناده صحيح وهو بلفظ: "كل كلام أو أمر ذي بال لا يُفتح بذكر الله – عزَّ وجلَّ – فهو أبتر أو قال أقطع "، وضعفه الألباني في الإرواء. الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين (ت1420هـ)، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط2 1405هـ، ج1، ص29، حديث رقم 1، باب كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه، وقال: ضعيف جداً.

[2] أنوار التنزيل وأسرار التأويل،25/1.

[3] انظر: ص90.

[4] مفاتيح الغيب،99/1.

[5] مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليمانيّ ص8.

[6] ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت761هـ)، أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، دار الفكر، ج1، ص7.

القاعدة الثالثة: معنى الباء:

قال ابن بدران:" وجب على العامل أن يقول عند الابتداء به: باسم الله، فكأنه يقول: إنَّما عملي هذا هو بأمر الله، وهو خالص له، وليس لي منه شيء، طارحاً الرياء والافتخار به؛ لأنني عبد مملوك له – تعالى– فلا أعمل شيئاً لنفسي، وهل أنا ونفسي إلا ملك له – تعالى– وليست القدرة التي أنشأتُ بها هذا العمل إلَّا منه – تعالى– ولولا أنه تفضَّل عليّ بها، لما كنت قادراً على فعل شيء، ولا على صدوره، ولست أستمدُّ القوَّة إلَّا منه، ولا أرجو الإحسان إلا منه، فلفظ " الاسم " مراد هنا"[1].

إذ يبيّن – رحمه الله – أنّ معنى الباء من ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ هو الاستعانة، ويظهر ذلك جلياً بقوله:" وليست القدرة التي أنشأتُ بها هذا العمل إلا منه – تعالى– ولولا أنَّه تفضَّل عليَّ بها، لما كنت قادراً على فعل شيء، ولا على صدوره، ولست أستمد القوة إلا منه " [2].

بمعنى أن العبد غير قادر على فعل شيء إلَّا بالاستعانة به – سبحانه –، ولولا عون الله لعباده لما استطاعوا القيام بشيء من أعمال العبادات والطاعات، ولا الأعمال الدنيوية المعيشية.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى معاني الحروف وأثرها في بيان المعنى المراد من الآيات الكريمة.

حروف المعاني وأثرها في توجيه المعنى:

لقد كان لحروف المعاني الأثر الكبير في بيان المعنى المراد، وتوجيه الآية القرآنية؛ ممَّا جعلها موضع اهتمام المفسرين التي يحتاجون إليها لاختلاف مدلولها كما بيّن ذلك الزركشي (ت794هـ)[3] بقوله:" والبحث عن معاني الحروف مما يحتاج إليه المفسِّر لاختلاف مدلولها " [4].

ولهذه الحروف معانٍ متعددة تختلف باختلاف السياق الذي وردت فيه؛ لبيان المعنى المراد بحسب ما يقتضيه الحال، الأمر الذي دفع كثيراً من العلماء إلى إفرادها بالتأليف، وخصَّها بالتصنيف،

---

[1] جواهر الأفكار، ص32-33.

[2] المرجع السابق، ص33.

[3] هو مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول.تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة – ط) و (لقطة العجلان – ط) في أصول الفقه، و (البحر المحيط) في أصول الفقه، و (إعلام الساجد بأحكام المساجد – ط). انظر: الأعلام للزركلي 6/60-61.

[4] البرهان في علوم القرآن للزركشي 4 / 175.

ومن أشهرهم الزجَّاجي (ت 337هـ) في كتابه " حروف المعاني والصِّفات "، والرمّاني(ت 384هـ) في كتابه " معاني الحروف "، وغيرهم.

فحروف المعاني: هي الحروف التي تربط الأسماء بالأفعال، والأسماء بالأسماء. [1]

"وهي لا تستقل بالمعنى، وإنَّما تحمل دلالات جزئية ومعاني تبعيَّة، تظهر أثناء تركيبها، وانتظامها في الجملة: كحروف الجر، والعطف، وغيرها؛ لذلك اهتم بتحديدها المفسِّرون، فكانت موضع عناية عند كثير من العلماء؛ لإبراز المعنى المراد، وإيضاحه، وإزالة غوامضه، واستنباط الأحكام المترتبة عليه، إذ " إنّ كثيراً من مسائل الفقه يتوقف فهمها على فهم معنى الحرف ومدلوله"[2].

معاني حرف الجر الباء:

اختلف العلماء في تحديد معاني حرف الجر الباء وعددها. فعدّها ابن هشام (ت 761هـ) اثني عشر معنى[3]، فيما عدّها غيره أكثر من ذلك [4]، ومنهم من عدّها أقل، بينما عدّها سيبويه (ت180هـ) واحداً وما عداه يرجع إليه، " قال سيبويه: الإلصاق لا يفارق الباء، وإليه تُرجع تصاريف معانيها " [5].

والظاهر أنّ حرف الجر الباء له عدة معانٍ تختلف باختلاف موقعه في التركيب الجملي، فقد يكون بمعنى الإلصاق كما في قوله – تعالى–: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 67]، أو الاستعانة كما في قوله –تعالى–: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 1]، أو الاستعلاء كما في قوله – تعالى–:﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ [آل عمران:75]، وهكذا دواليك.

قال ابن جني (ت 392هـ): " واعلم أنهم قد سمّوا هذا الباء في قوله: مررت بزيد، وظفرت ببكر، وغير ذلك، ممَّا تتصل فيه الأسماء بالأفعال، مرّة: حرف إلصاق، ومرّة: حرف استعانة، ومرّة:

---

[1] ابن سيدة، علي بن إسماعيل (ت 458هـ)، المُخصَّص، تحقيق خليل إبراهيم جفّال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط4 1417هـ، ص225.

[2] النملة، عبد الكريم بن علي بن مُحَمَّد، المُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ المُقَارَنِ، مكتبة الرُّشد – الرِّياض، ط1 1420هـ، ج3، ص1279.

[3] انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، 3/31–33.

[4] انظر: الصبّان، أبو العرفان مُحَمَّد بن علي (ت1206هـ)، حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1417هـ، ج2، ص428.

[5] التحرير والتنوير لابن عاشور، 1/147.

حرف إضافة، وكل هذا صحيح من قولهم. أما الإلصاق: فنحو قولك: تمسكت بزيد، وذلك أنك ألصقت محلّ قدرتك به، وبما اتصل به، فقد صح إذن معنى الإلصاق. وأما الاستعانة: فقولك: ضربت بالسيف، وكتبت بالقلم، وبريت بالمُدية، أي: استعنت بهذه الأدوات على هذه الأفعال. وأما الإضافة: فقولك: مررت بزيد، أضفت مرورك إلى زيد بالباء " [1].

وقال الفخر الرازي (ت606هـ):" الباء قد تكون أصلية كقوله – تعالى–:﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:9]، وقد تكون زائدة وهي على أربعة أوجه: أحدها: للإلصاق وهي كقوله:﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ ﴾، وقوله:﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾، وثانيها: للتبعيض عند الشافعي –رضي الله عنه–، وثالثها: لتأكيد النفي كقوله – تعالى–:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:46]، ورابعها للتعدية، كقوله – تعالى–: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾"[البقرة:17]، أي أذهب نورهم" [2].

وقال أبو حيَّان الأندلسي (ت 745هـ):" باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل.فالإلصاق حقيقةً: مسحت برأسي، ومجازاً: مررت بزيد. والاستعانة: ذبحت بالسكين. والسبب: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [النساء: 160]. والقسم: بالله لقد قام. والحال: جاء زيد بثيابه. والظرفية: زيد بالبصرة. والنقل: قمت بزيد. وتأتي زائدةً للتَّوكيد: شَرِبْنَ بماءِ البحر. والبَدَل: فيا ليت بهم قوماً، أي بَدَلَهُم. والمقابلة: اشتريت الفرس بألف. والمجاوزة: تشقق السماء بالغمام أي عن الغمام. والاستعلاء ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ [آل عمران:75]. وكَنّى بعضُهم عن الحال بالمصاحبة، وزاد فيها كونها للتعليل، وكَنّى عن الاستعانة بالسَّبب. وعن الحال بمعنى مع بموافقة معنى اللام " [3].

وقد أدّى هذا الاختلاف إلى اختلاف العلماء في تحديد معنى حرف الجر الباء في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾. إذ إنّ بعضهم اختار المعنى الذي يناسب مذهبه الاعتقادي، بصرف النظر عن المعنى الحقيقي لها.

---

[1] ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، سِرُّ صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1421هـ، ج1، ص134.

[2] مفاتيح الغيب،96/1.

[3] البحر المحيط، 27/1.

فالباء إما للاستعانة، أو المصاحبة، أو الإلصاق، أو الاستعلاء، أو زائدة، أو قسميَّة، والأربعة الأخيرة ليست بشيء، وإن استؤنس لبعض ببعض الآيات، واخْتُلِفَ في الأرجح من الأُولَيْن [1].

وقال المعلميّ اليمانيّ:" وباء الجرّ تأتي لعدة معانٍ، اقتصر الأكثر هنا على معنيين، وذكروا أنَّ غيرها لا يأتي إلاّ بتعسُّف: أحدهما: الاستعانة، والثاني: المصاحبة " [2].

وبعد سبر أقوال العلماء، والنظر في سياقاتهم، تبيَّن أنَّ غالب خلافهم باللفظ لا بالمعنى، "وقد قال سيبويه – رحمه الله تعالى –: أصل معاني الباء الإلصاق، وجميع معانيها ترجع له، وهو إنْ لمْ يكنْ عن المصاحبة فليس ببعيد منها " [3].

فيصرِّح أحدهم بلفظ ثم في معرض حديثه، وسياقه يتبيَّن أنَّه أراد معنى لفظ آخر، كما عند البيضاوي في تفسيره:" وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله – تعالى – أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مَقُول على أَلسنة العباد؛ ليعلموا كيف يُتَبَرَّك باسمه، ويُحمد على نعمه ويُسأل من فضله " [4].

فنراه هنا أطلق لفظ المصاحبة على معنى الباء، ثم نجده يُصرّح المعنى المراد من ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ في موطن آخر بقوله:" وإنما قال: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾، ولم يقل بالله؛ لأنَّ التبرك والاستعانة بذكر اسمه"[5]. فأراد بذلك الاستعانة، ولعلّ هذا ما دفعه – رحمه الله – لأَنْ يقول بالمصاحبة على صيغة التمريض وهي (قيل). كما بيَّن ذلك الألوسي (ت 1270هـ) في كتابه روح المعاني[6].

ومنهم من صرّح باللفظ وأراد المعنى:

كما قال أبو حيان (ت 745هـ) :" الباء في بسم الله للاستعانة، نحو كتبت بالقلم " [7].

---

[1] انظر: روح المعاني، 49/1.

[2] مجموع رسائل التفسير للمعلمي اليمانيّ ص10.

[3] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي 1 / 36.

[4] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 25/1.

[5] المرجع السابق، 26/1.

[6] انظر: روح المعاني، 49/1.

[7] البحر المحيط، 29/1.

وكذلك السَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ)[1] بقوله:" وبسم: جار ومجرور، والباء هنا للاستعانة، كعملت بالقدوم؛ لأن المعنى: أقرأ مستعيناً بالله [2]. وأيضاً أبو السعود (ت 982هـ) بقوله:" ومعناها الاستعانة أو الملابسة تبركاً أي: بسم الله أقرأ، أو أتلو، وتقديم المعمول للاعتناء به، والقصد إلى التخصيص كما في إياك نعبد " [3].

وقال الشوكاني (ت 1250هـ):" والباء للاستعانة، أو المصاحبة " [4].

وقال درويش (ت 1403هـ):" (بسم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف، والباء هنا: للاستعانة أو للإلصاق"[5].

وممَّن قال بالمصاحبة وأراد بها معناها:

الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله:" فإن قلتَ: ما معنى تعلّق اسم الله بالقراءة؟ قلتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلّق القلم بالكتبة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أنَّ المؤمن لمَّا اعتقد أنَّ فعله لا يجيء مُعتدّاً به في الشرع واقعاً على السُّنَّةِ حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله – عليه الصلاة والسلام –:" كلُّ أمر ذي بال لم يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر " [6]، إلَّا كان فِعْلاً كـ (لَا فِعْل)، جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكَتْبُ بالقلم. والثاني: أنْ يتعلَّق بها تعلُّق الدُّهن بالإنبات، في

---

[1] هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين: مفسر، عالم بالعربية والقراآت. شافعيّ، من أهل حلب. استقر واشتهر في القاهرة. من كتبه ((تفسير القرآن) ، و (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز)، و (الدر المصون) في إعراب القرآن، و (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) في غريب القرآن، كتب سنة 995 وكان في عشرين مجلدة رآها ابن حجر بخطه، و (شرح الشاطبية) في القراآت قال ابن الجزري: لم يسبق إلى مثله. انظر: الأعلام للزركلي 274/1.

[2] الدر المصون، 14/1.

[3] أبو السعود، العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (ت982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج1، ص9.

[4] الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبدالله (ت1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط1 1414هـ، ج1، ص21.

[5] درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (ت1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية – حمص – سوريا، ط4 1415 هـ، ج1، ص9.

[6] سبق تخريجه، انظر: ص93، هامش رقم (1).

قوله: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على معنى: متبرِّكاً بسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعي للمُعَرِّس: بالرَّفاءِ والبنين[1]، معناه: أَعْرَسْتَ مُلتبساً بالرَّفاء، والبنين، وهذا الوجه أَعْرَبُ وَأَحْسَنُ"[2]. فيظهر من كلامه أنه رجَّحَ القول بالمصاحبة على الاستعانة بقوله: وهذا الوجه (أي الملابسة)

" أعرب و أحسن ".

كما بيَّن ذلك الشوكاني (ت 1250هـ)[3] في كتابه فتح القدير [4]، والألوسي (ت1270هـ) في كتابه روح المعاني [5]، وابن عاشور (ت 1393هـ) في كتابه التحرير والتنوير [6].

والذي دفع الزمخشري (ت 538هـ) إلى القول بالمصاحبة، هو انتصاره وتأييده لمعتقده الاعتزالي، إذ يعتقد أنَّ اسم الله –تعالى – الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده، إذ وجوده – على زعمه – بقدرة العبد، وعلى هذا بنى كلامه؛ لأن مذهب المعتزلة يقول باستقلال العبد بفعله.

وقد ردّ العلماء عليه، وفنّدوا قوله، وبيّنوا أنَّ حرف الباء من ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ إنَّما هو للاستعانة لا للمصاحبة [7].

فيما يرى الباحث بعد النظر في أقوال العلماء وتأويلاتهم، أنَّ معنى الباء في﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ للاستعانة، مؤيداً بذلك ما ذهب إليه ابن بدران، ومن قال ذلك من العلماء والمفسِّرين؛ لأنَّ البسملة

---

[1] قال الألباني: ولا يقول: " بالرفاء والبنين، كما يفعل الذين لا يعلمون، فإنه من عمل الجاهلية وقد نُهِيَ عنه في أحاديث منها: عن الحسن أنّ عقيل بن أبي طالب تزوج امرأة من جشم، فدخل عليه القوم، فقالوا: " بالرفاء والبنين "، فقال:" لا تفعلوا ذلك، [فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نهى عن ذلك]، قالوا: " فما نقول يا أبا زيد؟ قال:" قولوا: بارك الله لكم وبارك عليكم، إنّا كذلك كنّا نؤمر. والحديث قويٌّ بمجموع الطريقين. انظر: الألباني، أبو عبدالرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت 1420هـ)، آداب الزفاف في السنة المطهرة، دار السلام، الطبعة الشرعية الوحيدة 1423هـ، ص175-176.

[2] الكشاف، 3/1-4.

[3] هو علي بن مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني: فقيه، من أهل الاجتهاد. يماني من صنعاء. ولد بها وتوفي قبل وفاة أبيه بشهرين. له كتب، منها " القول الشافي السديد في نصح المقلد وإرشاد المستفيد – خ " في خزانة الرباط (المجموع 1105 كتاني) مات بالروضة من أعمال صنعاء. انظر: الأعلام للزركلي 17/5.

[4] فتح القدير للشَّوكاني، 21/1.

[5] روح المعاني 50/1.

[6] التحرير والتنوير لابن عاشور، 147/1.

[7] انظر: الكشاف (حاشية ابن المنير) 3/1، ونواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) للسيوطي 95/1-104، وروح المعاني 49/1-51.

لمّا شُرِعَتْ، إنَّما شُرِعَتْ عند كلِّ فعل يريده الإنسان: كالتلاوة، والمأكل، والمشرب، والذَّبح، والوضوء، ودخول البيت والخروج منه، ودخول المسجد، وغيرها ممَّا صحّ عن النَّبِيّ– صلى الله عليه وسلم–. ولمّا كان الأمر كذلك، دلَّ على أنَّ المسلم لا يفعل فعلاً إلا بأمر من الله، وخالصاً لله؛ ولأنَّه لا حول له، ولا قوة إلا بالله، لَزِم من ذلك أَنَّه لا بُدّ مِن أنْ يستعين بمَنْ بيده الحول، والقوة وهو الله – سبحانه وتعالى– فهو المُعين، وهو المُنعم، وهو المُتفضِّل على عباده بذكره، وحسن عبادته.

فالاستعانة: طلب العون، ولا بُدّ مِنْ مُسْتَعِينٍ، وَمُسْتَعَانٍ بِهِ، وَمُسْتَعَانٍ عَلَيْهِ [1].

وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل، وإحداثه بما يمكِّن العبد من أداء ما لزمه بصورة ممكنة وميسَّرة، ولذلك طلبها من ربه بقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [2]. فإذا كانت هذه حقيقتها، فإنَّها أولى من غيرها من المعاني؛ لأنَّ فيها من الأدبِ، والاستكانةِ، وإظهارِ العبوديَّة لله – تعالى–. ثم لمّا أتبعها الله – عزَّ وجلَّ – " بالرحمن الرحيم " دلّ على افتقار العبد لربه، وضعفه، وهوانه، وإسقاط الحول، والقوة عنه، وأنَّه ليس بمستقلٍّ في قدرته –كما زعم المعتزلة –؛ لأنَّه بحاجة إلى رحمة ربِّه، وعونه، وتوفيقه إلى طاعته، فهو بأمسِّ الحاجة إلى قوله – تعالى –: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[الفاتحة: 5]، وقوله – تعالى –: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾[الأعراف:128]، فمن استعان بجنابه – سبحانه – أَعانه، ومَنْ لَاذَ ببابه حفظه، وصانه. ولذلك أمره بطلب الاستعانة به بقوله – سبحانه –:﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾ [الأعراف: 128].

وخلاصة القول:

إنَّ حرف الجرّ (الباء) في قوله – تعالى –: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ مُتعلِّق بفعل متأخر محذوف تقديره " بسم الله أقرأ "، وأنَّه جاء بمعنى الاستعانة، أي إنَّ العبد يستعين باللهِ على كلِّ قول أو فعل، مُبتغياً بذلك وجهه – سبحانه –؛ لينال رضاه، والأجر والثواب. وذهب إلى هذا القول ابن بدران، وكثير من علماء النَّحْو، والبلاغة، والتفسير، وأيَّدهم بذلك الباحث، واقتفى أثرهم، وسار على مِنوالهم؛ لما يراه من رجحان هذا القول، وقربه من الحقِّ، والصَّواب.

---

[1] درج الدرر للجرجاني، 160/1.

[2] انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود،10/1.

المسألة الثانية:

أثر اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في توجيه المعنى في قوله – تعالى –: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [البقرة: 1–2]:

قال ابن بدران – رحمه الله –: " إنَّ اسم الإشارة، راجع إلى ما نزل من القرآن، قبل نزول هذه السورة، وقد يسمَّى بعض القرآن قرآنا مجازًا، قال – تعالى –:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف:204]، وقال – تعالى – حاكيًا عن الجن:﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١]، وهم لم يسمعوا إلّا بعضه، والأقرب في إعراب هذه الجملة، أنْ يجعل (ذا) مبتدأ خبره ﴿ٱلۡكِتَٰبُ ﴾، أي: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ صفته، والخبر ما بعده " [1].

ويظهر من كلامه – رحمه الله – أنَّه اعتمد أنَّ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ جملة مستقلة مستأنفة لا علاقة لها بما قبلها، فإنَّ إعرابها يصحُّ عنده على وجهين:

الأول: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اسم اشارة مبتدأ، خبره ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾.

الثاني: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اسم إشارة مبتدأ، و﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ صفة، خبره ما بعده.

وبناءً على هذا التوجيه الإعرابي، اعتمد اختياره التفسيري لهذه الآية وهو:

إنَّ اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يُشَار به إلى ما نزل من القرآن الكريم قبل نزول سورة البقرة، و ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هو الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم.

واختلف النحاة في إعراب قوله – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: 2]. على عدَّة أقوال، وسبب الخلاف ناشئٌ عن اختلافهم فيما قبلها وهو قوله – تعالى –: ﴿الٓمٓ ﴾ [البقرة:1]، فهل هذه الحروف المقطَّعة لها محل من الإعراب أم لا؟ فذهب فريق منهم: الخليل، وسيبويه بالقول: إنَّها لا محل لها من الإعراب، وأنَّها لم تُعْرَبْ لأنَّها بمنزلة حروف التهجِّي فهي محكية، ولو أُعربت ذهب

---

[1] جواهر الأفكار ص51.

معنى الحكاية. وقال النحاس (ت 338هـ): " وقال الفراء: إنَّما لم تُعْرَبْ، لأنَّك لم تُرِد أن تُخبر عنها بشيء"[1]. وقال مكِّي (ت437هـ): " لا تُعْرَب إلَّا أَنْ تُخبر عنها، أو أَنْ تعطف بعضها على بعض"[2].

فيما ذهب فريق آخر منهم: أحمد بن يحيى، وابن كيسان، إلى أنَّ لها محلاً من الإعراب، وأنها تعرب في موضع نصب بمعنى: اقرأ ﴿ الٓمٓ ﴾ أو عليك ﴿ الٓمٓ ﴾، ويجوز أن يكون موضعه رفعاً بمعنى هذا ﴿الٓمٓ ﴾ أو هو ﴿الٓمٓ ﴾ أو ذاك [3]. ويجوز أن يكون موضعها خفضاً على من جعلها قسماً[4].

ويرى الفخر الرازي (ت 606هـ) بأنَّ الاختلاف في هذه المسألة يعود إلى فواتح السور، من حيث هل هي أسماء للسُّور أم لا؟، فيقول: " هل لهذه الفواتح محل من الإعراب أم لا؟ فنقول: إنْ جعلناها أسماءً للسور فنعم، ثمَّ يَحتمل الأوجه الثلاثة، أما الرفع فعلى الابتداء، وأمّا النصب والجر فلمَا مَرَّ من صحة القسم بها[5].

ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أنْ يكون لها محل على قوله، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدودة " [6].

" ويُروى عن الحسن، أنّه قال: ﴿الٓمٓ ﴾ وسائر حروف التهجي في القرآن أسماء للسور" [7].

---

1 إعراب القرآن للنَّحَّاس 1 / 23.

2 مشكل إعراب القرآن لمَكّي /73

3 إعراب القرآن للنَّحَّاس 23/1، وانظر: الكشف والبيان للثعلبي 140/1، والكشاف 31/1، والقرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2 1384هـ، ج1، ص156-158.

4 انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 222/1، والكشف والبيان عن تفسير القرآن 137/1، ومشكل إعراب القرآن لمَكّي 73/1، والعُكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله (ت616هـ)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي بن مُحَمَّد البجّاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج1،ص14.

5 انظر: مفاتيح الغيب 254/2.

6 المرجع السابق 258/2. والكشاف 31/1. وروح المعاني107/1-108. والدر المصون80/1-81.

7 التفسير الوسيط للواحدي 76/1، وابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1 1422هـ،ج1، ص26.

وقد كثر الكلام في شأن أوائل السور، والذي أطبق عليه الأكثرون وهو مذهب سيبويه وغيره من المتقدمين أنها أسماء لها، وسمّيت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب [1]

وبناء على ما تقدم فإن إعراب اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مختلف على قولين:

الأول: من قال: إنَّ ﴿الٓمٓ ﴾ ليست اسماً للسورة، وإنَّما بمنزلة الصوت والتهجي؛ فإنَّها لا محل لها من الإعراب، وما بعدها يُعدُّ جملة مستأنفة لا علاقة لها بما قبلها.

فيكون إعراب قوله – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ كما يأتي:

1. اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ و﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ خبره.

2. اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ و ﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ صفة، والخبر ما بعده.

3. اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ذلك الكتاب، و﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ صفة، أو بدل، أو عطف بيان.

الثاني: مَنْ قال إنَّ ﴿الٓمٓ ﴾ اسمٌ للسورة؛ فإنَّ لها محلاً مِنَ الإعراب، فيكون إعراب ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ كما يأتي:

1. ﴿الٓمٓ ﴾ مبتدأ أول، واسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ ثان، و﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ خبر المبتدأ الثاني، وجملة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ خبر المبتدأ الأول.

2. اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ ثان محذوف تقديره: هو. وجملة (هو ذلك) خبر المبتدأ الأول ﴿الٓمٓ ﴾ و﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ صفة.

---

[1] روح المعاني 102/1.

3. ﴿الٓمٓ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره (هذه الم). ويكون اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبراً ثانياً أو بدلاً و﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ صفة [1].

وبناءً على اختلاف العلماء في التوجيه الإعرابي؛ فإنَّ المفسِّرين اختلفوا في توجيه المعنى، على أقوال بناءً على ما يشير إليه اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾:

القول الأول: إنَّ اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يُشار به إلى ﴿الٓمٓ ﴾.

وهذا لا يعارض كون اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ للبعيد؛ لأنَّ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يُشار بها للقريب والبعيد[2].

وقاله الفرّاء (ت 207هـ)[3] في معاني القرآن [4]، والزمخشري (ت538هـ) في الكشاف [5].

كما أنّ اسم الإشارة جاء للمذكر لا للمؤنَّث؛ لأنَّ المشار إليه مذكر وليس بمؤنث، فالاسم وهو ﴿الٓمٓ﴾ ليس بمؤنث، نعم ذلك المسمى له اسم آخر – وهو السورة – وهو مؤنث لكن المذكور السابق هو الاسم الذي ليس بمؤنث وهو ﴿الٓمٓ ﴾، لا الذي هو مؤنث وهو السورة [6].

---

[1] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 221/1، والكشاف 33/1، وإعراب القرآن الكريم لابن سيدة 16/1، وإعراب القرآن للنَّحَّاس 23/1، والمحرر الوجيز لابن عطية 83/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 219/1، ونواهد الأبكار وشوارد الأفكار للسيوطي 281/1، ومشكل إعراب القرآن لمَكّي 73/1–74، ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج 67/1–68، والكشف والبيان عن تفسير القرآن 140/1، والدر المصون 81/1.

[2] انظر: مفاتيح الغيب 259/2.

[3] هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، الديلمي الكوفي مولى بن أسد، وقيل مولى بني منقر، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنَّحْو واللغة وفنون الأدب؛ حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية، لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب. وأخذ النَّحْو عن أبي الحسن الكسائي، وهو الأحمر من أشهر أصحابه وأخصهم به. انظر: وفيات الأعيان 176/6–177.

[4] معاني القرآن للفراء 10/1–11.

[5] الكشاف 32/1.

[6] انظر: مفاتيح الغيب 260/2، والكشاف 32/1.

ولذلك فإنَّ من قال بهذا القول يرى أنَّ اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مشار إلى ﴿الٓمٓ ﴾ على احتمال أنْ تكون حروف ﴿الٓمٓ ﴾ مسوقةً مساق التَّهجي؛ لإظهار عجز المشركين عن الإتيان بمثل بعض القرآن، بمعنى أنْ يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى ﴿الٓمٓ ﴾ بعدَه حرفاً مقصوداً للتعجيز.

أي إنَّ هذه الحروف هي من جنس حروفكم، التي منها تراكيب كلامكم، ومنها تراكيب هذا الكتاب الذي عجزتم عن معارضته.

فعلى هذا التوجيه يكون ﴿الٓمٓ ﴾ جملة مستقلة مسوقة للتعريض [1].

القول الثاني: إنَّ اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يُشار به إلى ﴿ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾.

واختلف العلماء في ذلك على عدة تأويلات:

1. إنَّ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ هو الكتاب الكامل، كأنَّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنَّه الذي يستأهل أنْ يسمى كتاباً [2].

وعليه فإن الكتاب الكامل هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

2. اختلف العلماء في تأويل (اسم الإشارة) المشار به إلى الكتاب على قولين:

أ. أنّه بمعنى (هذا)، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والكسائي، وأبي عبيدة، والأخفش[3].

قال الطبري (ت310هـ) في تفسيره:" قال عامَّة المفسِّرين تأويل قول الله – تعالى –:﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: هذا الكتاب " [4].

---

[1] انظر: زاد المسير في علم التفسير 1 / 25، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 155/1، والكشاف 30/1، والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (ت 710هـ)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)،حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1 1419 هـ ، ج1، ص35–36، ومفاتيح الغيب 253/2، والتحرير والتنوير لابن عاشور 119/1.

[2] انظر: الكشاف 33/1.

[3] زاد المسير لابن الجوزي 27/1.

[4] جامع البيان في تأويل القرآن 225/1، وانظر: تفسير الوسيط للواحدي 76/1، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي 141/1، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 83/1، ومفاتيح الغيب 259/2، وفتح القدير للشَّوكاني 38/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 219/1–221.

ب. أنّها إشارة إلى غائب، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّه أراد به ما تقدم إنزاله عليه من القرآن.

والثاني: إنّه أراد به ما وعده أنْ يوحيه إليه في قوله:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[المزمل: 5].

والثالث: إنّه أراد بذلك ما وعد به أهل الكتاب السالفين؛ لأنهم وُعِدوا بنبيٍّ وكتاب[1].

وهذه الأقوال هي الأشهر، والأقوى عند علماء التفسير، وقيل غير ذلك من أقوال العلماء المرجوحة، وقد يصل بعضها إلى حدّ الغرابة، ومنها:

1. قيل: هو اللوح المحفوظ [2].

2. وقيل: هو الكتاب الذي كُتب على الخلائق بالسعادة، والشقاوة، والأجل، والرزق [3].

3. وقيل: ذلك الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل، أنَّ رحمته سبقت غضبه [4].

4. وقيل: الصراط المستقيم في الفاتحة. قال الألوسي في تفسيره:" وأغرب ما رأيناه في توجيه الإشارة أنَّها إلى الصراط المستقيم في الفاتحة، كأنَّهم لما سألوا الهداية؛ لذلك قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب " [5].

فيما يرى الباحث أنَّ الراجح في تأويل قوله:﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾[البقرة:1-2]، مايأتي:

أوَّلاً: إن ﴿الٓمٓ ﴾ هي حروف للتَّهجي والحكاية لا محل لها من الإعراب، وأنَّها ليست أسماءً للسور لاعتبارات أربعة:

---

[1] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 27/1، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 157/1 -158، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري 226/1-227، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي 141/1، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 83/1، والكشاف 33/1، والقِنَّوجي، أبو الطيب مُحَمَّد صدّيق خان بن حسن بن علي (ت1307هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، عناية عبدالله بن إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت 1412هـ، 73/1، وروح المعاني للألوسي 106/1 -109، والتحرير والتنوير لابن عاشور 219/1-221.

[2] انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 156/1، والكشف والبيان للثعلبي 141/1، والمحرر الوجيز لابن عطية 83/1، ومفاتيح الغيب 259/2.

[3] فتح القدير للشَّوكاني 39/1.

[4] المرجع السابق 39/1.

[5] روح المعاني 109/1.

1. إنّ كثيراً من السور اتفقت في ﴿الٓمٓ﴾، و ﴿الٓر﴾، و ﴿حمٓ﴾، فلو كانت أسماءً للسُّور لَحَصَلَ الاشتباه فيها، ومعلوم أنَّ المقصود من أسماء الأعلام هو إزالة الاشتباه.

2. إنّ سور القرآن إنما اشتهرت بأسمائها المعروفة سلفاً وخلفاً، كقولنا سورة البقرة، وسورة آل عمران، ولم تُعرف بأسماء فواتحها، فلو كانت فواتح السور أسماءً لها؛ لاشتهرت بذلك ولنُقل إلينا، فإنْ قيل: وَرَدَ على ألسنة الصحابة – رضوان الله عليهم – ذكر فواتح السور مع اسمها المتعارف عليه كما في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّه قال:" كان النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ألم تنزيل (السجدة) وهل أتى على الإنسان " [1].

فإنَّه يُجاب على ذلك من وجهين:

الأول: لمّا اتفقت كثير من السور في فواتحها، كان لزاماً تعريف السورة المرادة بذكر اسمها المتعارف عليه؛ لذلك قال الراوي: " ألم السجدة "؛ ليميِّزها عن السُّور التي افتُتحت بـ ﴿الٓمٓ﴾ من مثل البقرة، وآل عمران، ولقمان، وغيرها. فهو لم يُرِد ذكر اسمها المتعارف عليه لذاتها وإنما للتعريف بها.

الثاني: إنَّ الرَّاوي لم يُرِد ذكر اسم السورة، وإنَّما أراد أنْ يذكر الآية الأولى وهي ﴿الٓمٓ﴾، دلّ على ذلك أنَّه لم يذكر اسم السورة الثانية وإنما ذكر الآية الأولى منها بقوله:" ... وهل أتى على الإنسان". ثم إنَّ هناك رواية لم يذكر فيها اسم السورة المتعارف عليها، وإنما ذكر الآية الأولى، والثانية من السورة، روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنَّه كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة:" الم تنزيل و " هل أتى " [2].

3. إنّ هذه الأسماء لم تكن معلومة عند العرب ولم تكن من قوانين أسمائهم، ولو كانت أسماءً، لكانت من غرائب أسمائهم، ولنُقِلت إلينا بالتواتر؛ لأنها من الأمور الغريبة التي لا يمكن إخفاؤها.

4. إنّ عدد السور التي تبتدئ بالفواتح أقل بكثير من السور التي لا فواتح لها، فإذا كانت فواتح السور أسماءً لها فَلِمَ تُركت غالبية السور من غير فواتح؟ فإنْ قيل: ليس بالضَّرورة أنْ تكون كذلك،

---

[1] صحيح البخاري 40/2 برقم 1068، وصحيح مسلم من حديث ابن عباس 16/3 برقم 1986.

[2] صحيح مسلم 16/3 برقم 1989، وانظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل 95/3، حديث رقم 627.

فلكلِّ سورة اسمها الخاص بها، قلت: نعم، ولكنْ ما تواتر على ألسنة الصحابة هو أسماء السُّور المتعارف عليها إلى يومنا هذا الموجودة في فهرست المصحف الشريف.

وعلى هذا فإنَّ فواتح السور ومنها ﴿الٓمٓ ﴾ هي آية من آيات السور مسوقة للتعجيز؛ ليُثبت الله – عزَّ وجلَّ – للمشركين أنّ هذا الذي تحدّاكم على أنْ تأتوا بمثله، أو ببعضه إنَّما هو من الحروف التي تؤلِّفون بها تراكيب لغتكم؛ فلمَّا عجزتم عن ذلك كان لزاماً أنْ تعلموا أنّ هذا القرآن ليس من كلام البشر وإنّما هو كلام الله – تعالى – يجب الإيمان به والامتثال لما فيه.

ثانياً: بناءً على ما سبق؛ فإنّ توجيه المعنى لقوله – تعالى –: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ أنّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ ﴾ يُشير إلى كل ما نزل بمَكَّة، والمدينة قبل هذه السورة، و ﴿ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ هو: الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. قد يُسمى بعض القرآن قرآناً مجازاً، قال – تعالى –: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: 204]، وقال حاكياً عن الجنّ:﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ [الجن: 1]، وقوله ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف:30]، وهم ما سمعوا إلَّا بعضه، وهو الذي كان قد نزل إلى ذلك الوقت.

2 . لمَّا كان كلام الله هو أفصح الكلام، فينبغي أنْ يُحمل إعرابه على أفصح الوجوه وأحسنها، وأبعدها من التكلف، وأسْوَغِها في لسان العرب من غير تأويل ولا إضمار ولا افتقار(1). فتكون آية ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ جملة مستقلة من مبتدأ وخبر، أو أن يكون ﴿ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ صفة والخبر ما بعده.

وهذا ما ذهب إليه المصنّف ابن بدران – رحمه الله تعالى –، وكثير من علماء النَّحْو والتَّفسير في توجيه المعنى لقوله – تعالى –: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: 1-2].

---

[1] إعراب القرآن لابن سيده ص16.

المسألة الثّالثة:

أثر دلالة ﴿ مِن﴾ في تحريم الإسراف، أو في منع بذل المال كلّه، في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:3].

قال ابن بدران– رحمه الله تعالى –: " ولمّا ذكر وُصْلَة الخلق بالخالق، وكانت النّفقة مع أنّها أعظم دعائم الدّين صلة بين الخلائق، أتبعها بها تنبيهًا بـ ﴿ مِن ﴾ التي للتّبعيض، على النّهي عن الإسراف، وعلى طيب النّفقة؛ لأنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً، وآمراً بالورع وزاجراً عمّا فيه شبهة فقال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣] أيْ: وممّا مكّنّاهم من الانتفاع به على عظمة خزائننا، وهو لنا دونهم، ينفقون في مرضاتنا، ممّا هو لازم لهم، من الزّكاة والحجّ، والجهاد، والنّفقات الواجبة، وممّا يتطوّعون به من الصّدقات وغيرها". [1]

ويظهر من كلام ابن بدران أنّه اعتمد معنىً من معاني الحروف وهو أنّ ﴿ مِن ﴾ للتّبعيض في توجيه المعنى في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:3] استنبط منها حكمًا شرعيًّا، وهو تحريم الإسراف، أو إنفاق المال كلّه.

لا شكَّ أنّ لحرف الجرّ ﴿ مِن﴾ معانيَ كثيرة، تختلف باختلاف موقعها في السّياق؛ لأنَّ حرف الجرّ: " كلمة دلَّت على معنىً في غيرها " [2]، ولمعاني الحروفِ أثرها في توجيه المعنى.

فحرف الجرّ ﴿ مِن﴾ يكون زائدًا، وغير زائد، فغير الزّائد له أربعة عشر معنى، وقال ابن هشام (ت 761هـ): " تأتي على خمسة عشر وجهًا " [3]، ومنها:

ابتداء الغاية: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾[الإسراء:1]. وللتّبعيض: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾[البقرة:165]، وبيان الجنس: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ [الحج:30] ، والتعليل: ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾

---

[1] جواهر الأفكار، ص54-55.

[2] عبد الحميد، مُحَمَّد محيي الدّين(ت 1392هـ)، التّحفة السّنيّة بشرح المقدّمة الآجرومية، المكتبة العصريّة، صيدا– بيروت، 1416هـ، ص8.

[3] مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص349.

[البقرة: 19]، والبدل: ﴿ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ [التّوبة:38]، والمجاوزة: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [آل عمران:121]، وانتهاء الغاية قريب منه، والاستعلاء: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ [الأنبياء:77]، والفصل: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة:220]، وموافقة الباء في: ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشّورى: 45]، و ﴿ مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:40].
والزيادة باطّراد، وذلك بشرطين: كون المجرور نكرة، والكلام غير موجب، واشترط الكوفيون التّنكير فقط، ولم يشترط الأخفش شيئًا [1].

ولم يُثبِت أكثر النَّحْويّين لـ ﴿ مِن ﴾ جميع هذه المعاني، وتأولوا كثيرًا من ذلك على التّضمين، أو غيره، وقد ذهب المبرِّد، وابن السَّرَّاج، والأخفش الأصغر، وطائفة من الحُذّاق، والسّهيلي، إلى أنّها لا تكون إلّا لابتداء الغاية، وأنّ سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى؛ ألا ترى أنّ التّبعيض من أشهر معانيها، وهو راجع إلى ابتداء الغاية. فإنّك إذا قلت: أكلت من الرّغيف، إنّما أوقعت الأكل على أوّل أجزائه فانفصل، فمآل معنى الكلام إلى ابتداء الغاية، وإلى هذا ذهب الزّمخشري [2].

وقال ابن هشام (ت761هـ) في معنى ﴿ مِن ﴾:" ابتداء الغاية وهو الغالب عليها حتّى ادّعى جماعة أنّ سائر معانيها راجعة إليه، وتقع لهذا المعنى " [3].

وقد اختلف علماء التّفسير في تحديد معنى حرف الجرّ ﴿ مِن ﴾ في قوله – تعالى –:﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:3]، ممّا ترتّب على هذا الاختلاف اختلاف في الحكم الشّرعي في مسألة الإسراف، وإنفاق المال كلّه بين الحرمة والجواز.

---

[1] انظر: المرادي. أبو مُحَمَّد بدر الدّين حسن بن قاسم (ت749هـ)، الجنى الدّاني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدّين قباوة والأستاذ مُحَمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، ط1، 1413، ج1، ص308–316، والمفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ص379–380، وابن يعيش، أبو البقاء موفَّق الدِّين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السّرايا مُحَمَّد بن علي (ت643هـ)، شرح المُفَصَّل للزمخشري، قدَّم له إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، ط1، 1422هـ، ج4، ص458–463. والدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون 96/1–97.

[2] الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 315/1–316.

[3] مغني اللبيب ص419.

القول الأوّل: قالوا: إنّ ﴿ مِن﴾ في هذه الآية جاءت بمعنى البيان، أي: بمعنى بيان الجنس، وعليه فإنّ مقدار المال المُنفَق لا يُقَدّرُ بشيء لإطلاق الآية. إلّا إذا كان الإنفاق من الزّكاة؛ فإنّ الشّرع قد حدّد قيمة الإنفاق، ويتفرّع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير.

واستدلّوا على ذلك بفعل أبي بكر – رضي الله عنه – حين تصدّق بجميع ماله، ولم ينكره عليه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [1]. **ولكنّهم اشترطوا شرطين لذلك:**

أمّا الأول: أَلَّا يترتّب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل ونحوهم؛ فإنَّ ترتّب عليه ذلك فالواجب مقدّم على التّطوّع [2].

وأمّا الثّاني: أنْ يكون حاله كأبي بكر– رضي الله عنه – في التّوكّل على الله في الرّزق؛ لأنّ عدم إنكار الرسول– صلى الله عليه وسلّم– لأبي بكر؛ لعلمه بصبره، واطّلاعه على ما وقر في صدره؛ لذلك فإنْ وجد في نفسه عدم الصّبر على الفاقة فلا يشرع له ذلك [3].

القول الثّاني: قالوا: إنّ حرف الجرِّ﴿ مِن﴾ في هذه الآية جاء بمعنى التّبعيض: أي إنفاق بعض المال، وهؤلاء اتّفقوا في معنى حرف الجرّ ﴿ مِن﴾ لكنّهم اختلفوا في توجيه معنى الآية، والذي يترتّب عليه اختلافهم في الحكم الشّرعي لإنفاق المال كلّه، إذا كان المراد بالإنفاق مطلقه الأعم، وإلّا فإنّهم متّفقون إذا كان المراد بالإنفاق الزّكاة؛ لأنّها لا تكون بجميع المال، وإنّما ببعضه الذي قدّره الشّرع[4].

---

[1] انظر: السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق(ت275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق مُحَمَّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا– بيروت، ج2، ص129، حديث رقم 1678، والتّرمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرة(ت279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، ط2، 1395هـ، ج5، ص614، حديث رقم 3675، وحسّنه الألباني، انظر: الألباني، أبو عبد الرّحمن مُحَمَّد ناصر الدّين(ت1420هـ) صحيح أبي داود– الأم، مؤسّسة غراس للنّشر والتّوزيع– الكويت، ط1، 1423هـ، ج5، ص366، حديث رقم 1473.

[2] انظر: تفسير القرآن الكريم(الفاتحة – البقرة) لابن عثيمين 30/1.

[3] انظر روح المعاني للألوسي 121/1، وأضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن للشّنقيطي 10/1–12.

[4] انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 85/1، والتّحرير والتّنوير لابن عاشور 236/1، والثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف (ت 875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق الشيخ مُحَمَّد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1418 هـ، ج1، ص183، و الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني (ت 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان،1415 هـ، ج1، ص10–12، وتفسير القرآن(الفاتحة و البقرة) للعثيمين 30/1، وروح المعاني 121/1.

فذهب فريق إلى أنّ إنفاق بعض المال يكفي في اتّصاف المنفق بالهداية، والفلاح، ولا يتوقّف على إنفاق جميع المال[1]؛ فيكونون بذلك قد جوّزوا إنفاق المال كلّه.

بينما ذهب آخرون إلى أنّ النكتة في إدخال ﴿ مِن﴾ التّبعيضيّة هي: أنّ الرّزق أعمّ من الحلال والحرام؛ فأُدخلت إيذانًا بأنّ الإنفاق المعتدّ به ما يكون من الحلال، وهو بعض من الرّزق [2]. وعلى هذا يكونون قد جوّزوا إنفاق المال كلّه.

فيما ذهب أكثر المفسرين إلى أن إدخال ﴿ مِن﴾ التبعيضية جاءت إيذاناً بإنفاق بعض المال لا كله؛ لأن الإسراف والتّبذير منهيّ عنهما، مستنبطين بذلك حكمًا شرعيًّا وهو حرمة الإسراف والتّبذير وعدم إنفاق المال كلّه [3].

ويؤكّد ذلك ابن عاشور(ت1393هـ) في تفسيره "التّحرير والتّنوير" بقوله:" وفي الإتيان بـ ﴿ مِن﴾ التي هي للتّبعيض إيماءٌ إلى كون الإنفاق المطلوب شرعًا هو إنفاق بعض المال؛ لأنّ الشّريعة لم تكلِّف النّاس حرجًا، وهذه البعض يَقِلُّ ويتوفّر بحسب أحوال المنفقين. فالواجب منه ما قدّرت الشّريعة نصابه ومقاديره من الزّكاة، وإنفاق الأزواج، والأبناء، والعبيد، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير، ولم يشرّع الإسلام وجوب تسليم المسلم ما ارتزقه، واكتسبه إلى يد غيره" [4].

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الإنفاق لا يقتصر على المال فحسب إنّما يدخل فيه جميع المعاون[5] التّي منحهم الله – تعالى – من النّعم الظاهرة، والباطنة مستدلّين على ذلك بقوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:" إنّ علمًا لا يُنْتَفَعُ به ككنز لا يُنْفَقُ منه في سبيل الله" [6]، أي ينفق ممّا آتاه الله

---

[1] انظر: روح المعاني للألوسي 121/1.

[2] المرجع السّابق 121/1.

[3] انظر:الجواهر الحسان في تفسير القرآن 1/ 183، ومفاتيح الغيب 276/2، وإرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1، وأنوار التّنزيل وأسرار التأويل 39/1، والبحر المحيط 68/1، وفتح القدير للشّوكاني 42/1، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 10/1-12.

[4] التّحرير والتّنوير لابن عاشور 236/1.

[5] عاونَ يعاون، مُعاونةً وعِوانًا، فهو مُعاوِن، والمفعول معاوَن. انظر: عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت 1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1 1429 هـ، باب ع و ن، ج2، ص1580.

[6] انظر: الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت430هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة – مصر،1394هـ، دار الكتب العلمية ط1409،ج7، ص228. وحسنه الألباني، انظر: الألباني، أبو عبدالرحمن مُحَمَّد ناصر الدين (ت1420هـ)، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط3 1408هـ، ج1، ص424، حديث رقم 2112.

من العلم، والمعرفة، والقوّة وغيرها [1]، لذلك قال السُّلمي (ت 412هـ)[2] في تفسيره: " وقيل ممّا رزقناهم ينفقون أي: ممّا خصّصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون بركتها ونورها على متبعيهم" [3].

ويرى الباحث بعد الاطِّلاع على أقوال العلماء، وسبر آرائهم وأدلّتهم، أنّ القول الرّاجح في هذه المسألة هو ما ذهب إليه أكثر المفسّرين من أنّ حرف الجرّ ﴿ مِن﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:3] إنّما جاء للتّبعيض ليدلّل على عدم إنفاق جميع ما رزقوا؛ لأنّه منهي عن التّبذير والإسراف.

وهذا الذي رجّحه وذهب إليه ابن بدران في تفسيره جواهر الأفكار؛ لأنّ الآيات التّي تَعْضُدُ هذا المعنى كثيرة في كتاب الله – تعالى – منها قوله – عزّ وجلّ – في وصف عباد الرّحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67]. إذ إنّ الإنفاق المحمود هو التّوسّط، والاعتدال بين الإسراف، والتقتير، وفي موطن آخر يأمر الله عباده بعدم الإسراف بقوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: 141]، وقوله: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: 31]. فالآيات تحثّ على عدم الإسراف في الإنفاق، ومقتضى ذلك إبقاء جزء من المال وعدم إنفاقه كلّه؛ لأنّ المسلم كما أُمر بالبذل، والإنفاق على غيره من خلال الزّكاة والصّدقات، فإنّه أيضاً مأمور بإبقاء قَدْرٍ مِنَ المال لنفسه ولِمَنْ يعول، تحسُّبًا لنوائب الدّهر وتقلُّبات الأحوال.

---

[1] انظر: الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت502هـ)، تفسير الرّاغب الأصفهاني، تحقيق د.مُحَمَّد عبد العزيز بسيوني، كليّة الآداب– جامعة طنطا، ط1، 1420هـ، ج1، ص82–83،أنوار التّنزيل وأسرار التأويل 39/1، وإرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1.

[2] هو مُحَمَّد بن الحسين بن مُحَمَّد بن موسى الأزدي السُّلمي النيسابوريّ، أبو عبد الرحمن: من علماء المتصوفة. قال الذهبي: (شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، قيل: كان يضع الأحاديث للصوفية). بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها (حقائق التفسير– خ) مختصر، على طريقة أهل التصوف، في المكتبة المحمودية بالمدينة مولده ووفاته في نيسابور. انظر: الأعلام للزركلي99/6.

[3] السُّلمي، أبو عبد الرّحمن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى الأزدي (ت412هـ)، تفسير السُّلمي وهو حقائق التّفسير، تحقيق سيّد عمران ، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، 1421هـ، ج1، ص50، وإرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 32/1، وتفسير الأصفهاني 82/1–83.

قال الشّنقيطي (ت 1393هـ)[1] في أضواء البيان: " عبّر في هذه الآية الكريمة بـ ﴿ مِن ﴾ التّبعيضيّة الدّالة على أنّه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كلّه، ولم يبيّن هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه والذي ينبغي إمساكه. ولكنّه بيّن في مواضع أُخَرَ أنّ القَدْرَ الذي ينبغي إنفاقه: هو الزّائد على الحاجة وسدّ الخلّة التي لا بدّ منها، وذلك كقوله:" يسألونك ماذا ينفقون قل العفو"[البقرة:219]. والمراد بالعفو: الزّائد عن قدر الحاجة التي لا بدّ منها على أصحّ التفسيرات، وهو مذهب الجمهور".[2]

وقال يوسف القرضاوي (1422هـ): " ومن أسرار التّعبير القرآني أنّه جعل الإنفاق المطلوب ممّا رزق الله، أي: بعض ما رزق الله، ومعنى هذا أنّه ينفق البعض، ويدّخر البعض الآخر، ومن أنفق بعض ما يكتسب، فقلّما يفتقر، وقد صحّ أنّ النَّبِيّ – صلّى الله عليه وسلّم– كان يدّخر لأهله قوت سنتهم[3]، فهذا لا ينافي التوكّل على الله، ولا الزّهد في الدّنيا؛ لأنّه من الأخذ بالأسباب المشروعة"[4].

ولم يقتصر النّهي في الآيات الكريمة عن الإسراف في المأكل، والمشرب، فحسب وإنّما كان النّهي عن الإسراف في كلّ شيء، وهذا ما ذهب إليه الرّاغب الأصفهاني (ت502هـ) في تفسيره بقوله:" إنّه نهي عن الإسراف في الإنفاق" [5]. وكذلك قول عطاء:" إنّه نهي عن الإسراف في كلّ شيء "، وهذا الذي اختاره ابن كثير [6].

---

[1] هو مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسِّر مدرّس من علماء شنقيط (موريتانيا) . ولد وتعلم بها. وحج (1367) واستقر مدرسا في المدينة المنورة ثم الرياض، وأخيرا في الجامعة الإسلامية بالمدينة (1381) وتوفي بمَكَّة. له كتب، منها (أضواء البيان في تفسير القرآن – ط) ، و (منع جواز المجاز – ط) و (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات – ط) و (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب – ط) و (آداب البحث والمناظرة – ط) و (ألفية في المنطق) و (رحلة خروجه من بلاده الى المدينة). انظر: الأعلام للزركلي 45/6.

[2] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 10/1.

[3] عن عمر بن الخطّاب– رضي الله عنه–:" أنّ النَّبِيّ– صلّى الله عليه وسلّم– كان يبيع نخل بني النّضر، ويحبس لأهله قوت سنتهم"رواه البخاري في صحيحه، ج7، ص63، حديث رقم 5357، كتاب النّفقات، باب حبس نفقة الرّجل سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.

[4] القرضاوي، يوسف، دَور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1 1415هـ، ص 201.

[5] انظر: تفسير الرّاغب الأصفهاني 410/1.

[6] انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن مُحَمَّد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، ط2 1420هـ، ج3، ص350.

فالإنفاق يكون بالتّوسّط في الأمور كلّها، لا بخل، ولا إمساك، ولا إسراف، ولا تبذير، ولكن بين ذلك، لقوله – تعالى –: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء:29].

وجاءت الأدلّة من السنّة النّبويّة على التّوسّط في الإنفاق وعدم الإسراف، لقوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدّقوا في غير إسرافٍ، ولا مَخْيَلة " [1].

وقال ابن عباس:" كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مَخْيَلة "[2].

وقال علي بن أبي طالب:" ما أنفقت على نفسك، وأهل بيتك في غير سرف، ولا تبذير، وما تصدّقت فَلَكَ، وما أنفقت رياءً، أو سمعة فذلك حظ الشيطان " [3].

وقال ابن الجوزي (ت597هـ) في صيد الخاطر:" العاقل يدبّرُ بعقله عيشته في الدنيا؛ فإنْ كان فقيراً اجتهد في كسبٍ، وصناعةٍ تكفّه عن الذّلّ للخلق، وقلّل العلائق، واستعمل القناعة، فعاش سليماً مِنْ مِنَن الناس عزيزاً بينهم. وإن كان غنياً، فينبغي له أن يدبّر في نفقته؛ خوف أن يفتقر، فيحتاج إلى الذّلّ للخلق " [4].

ولعلّ أدلّ دليل على حرمة الإسراف والتبذير قوله – تعالى –: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء: 26–27].

فهذه جملة من الأدلة القرآنية، والسنّة النبوية، وأقوال الصحابة، والسلف، في تحريم الإسراف والتبذير، وإنفاق المال كُلِّهِ، ممَّا لا يدع شكّاً في جواز ذلك.

---

[1] صحيح البخاري،140/7، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى:" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده" [الأعراف:32]، وانظر: النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ت303هـ) المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط2 1406هـ، ج5، ص79، حديث رقم 2559، باب الاختيال في الصدقة. وحسّنه الألباني.

[2] صحيح البخاري، 140/7، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى:" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده" [الأعراف:32].

[3] البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد – الرياض، ط1 1423هـ، ج8، ص491، حديث رقم 6128، باب تحريم الملاعب والملاهي.

[4] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت597هـ)، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم – دمشق، ط1 1425هـ، ج1، ص498.

أمَّا بالنِّسبة لمن اعتمد على أنّ ﴿ مِن﴾ جاءت بمعنى بيان الجنس، وقال بجواز إنفاق المال كله مستدلاً بحديث أبي بكر – رضي الله عنه –.

فيرى الباحث أن الاستدلال بقصة أبي بكر – رضي الله عنه – بحاجة إلى تفصيل، ولا تؤخذ على إطلاقها. فالنَّاظر – بادئ الأمر – يرجِّح جواز إنفاق المال كلّه استناداً إلى فعله – رضي الله عنه – وإقرار النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – له؛ لأنّ هذا هو المعنى المتبادر للذهن عند قراءتها أو سماعها، ولكنَّ الأمر مضبوط بضوابط تؤخذ من خلال التأمل في القصة، ووقائعها، والظروف المصاحبة لها، وأقوال العلماء في التعليق عليها، إذْ إنَّ الردّ على مَنْ استدلَّ بهذه القصة يكون مِن وجهين:

أوَّلاً: إنّ أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأتقاها وأعلاها منزلة ورفعة، وإنّ اليقين الذي وَقَرَ في صَدْره، والتوكل الذي اعتمد عليه، وإيمانه الراسخ بربه، وصبره على طاعته، هو ما دفعه لإنفاق كل ماله امتثالاً لأمر رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهذا ما كان يعلمه – عليه الصلاة والسلام – من أبي بكر فلم يُنكر عليه؛ لأجل ذلك.

قال الخطَّابي (ت 388هـ)[1]في معالم السنن:" ولم يُنكَرْ على أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – خروجه من ماله أجمع، لِما عُلِمَ من صحّة نيّته، وقوّة يقينه، ولم يُخَفْ عليه الفتنة " [2].

ثانياً: أنّ أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – إنَّما أنفق ماله كلَّه ممَّا يملك من الدراهم، والدنانير لا غيره، وإلاّ فمعلوم أنَّه – رضي الله عنه – كان يملك داراً في المدينة، ومَكَّة، ولم ينفقهما.

---

[1] أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها (غريب الحديث) و (معالم السنن في شرح سنن أبي داود) و (أعلام السنن في شرح البخاري) وكتاب (الشحاح) ، وكتاب (شأن الدعاء) وكتاب (إصلاح غلط المحدثين) وغير ذلك. وكان يشبه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً. وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة بمدينة بست، رحمه الله – تعالى –. والخطابي – بفتح الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة – وهذه النسبة إلى جده الخطاب المذكور، وقيل إنّه من ذرية زيد بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، فنسب إليه، والله أعلم. انظر: وفيات الأعيان 214/2–215.

[2] الخطابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن ابراهيم (ت388هـ)، معالم السنن، المطبعة العلمية – حلب، ط1 1351هـ، ط2 1401هـ، ج2، ص78.

قال ابن حزم (ت456هـ) في المحلّى: " بلا شك كانت له دار بالمدينة معروفة، ودار بمَكَّة. وأيضاً: فإنّ مثل أبي بكر لم يكن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليُضيّعه فكان في غنى " [1].

وبناءً على ما تقدَّم؛ فإنّ فعل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ليس على إطلاقه، فلا ينبغي لأحد أن يتصدَّق بكل ماله إلاّ مَن كان حاله مثل أبي بكر في اليقين، والتوكل، والإيمان، والصبر، وهيهات هيهات أن تكون هذه الصفات في رجل إلاّ في أبي بكر – رضي الله عنه –، بل إنَّ هذه المنزلة لم يصل إليها الصحابة – رضوان الله عليهم – وهم خير القرون، فكيف بمن هم دونهم؟! وقد ردّ النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذهب إلى صاحبه مخافة الفتنة عليه [2]. ولم يأخذ من كعب بن مالك كل ماله لما أراد أن ينفقه في سبيل الله شكراً لله – تعالى – على ما أنعم عليه من التوبة بسبب تخلّفه عن غزوة تبوك. قال كعب بن مالك:" يا رسول إنّ من توبتي أن أنخلع [3] من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " أمسك بعض مالك، فهو خير لك " "[4].

قال النووي (ت 676هـ): " وإنَّما أمره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالاقتصار على الصدقة ببعضه؛ خوفاً من تضرُّره بالفقر؛ وخوفاً ألاّ يصبر على الإضاقة، ولا يُخالف هذا صدقة أبي بكر– رضي الله عنه – بجميع ماله، فإنَّه كان صابراً راضياً " [5].

وقال ابن عابدين (ت 1252هـ)[6]: " ومن أراد التصدّق بماله كلِّه وهو يعلم من نفسه حُسن التوكل، والصبر عن المسألة، فله ذلك، وإلَّا فلا يجوز، ويُكره لمن لا صبر له على الضيق أنْ ينقص

---

1 ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ)، المحلى بالآثار، دار الفكر – بيروت، (د. ت)، ج6، ص260.

2 معالم السنن للخطابي، 78/2.

3 انخلع من ماله، أي: خرج من جميع ماله، وأراد: إخراجه متصدقاً به.

4 صحيح البخاري، 69/6، حديث رقم 4676، كتاب المغازي، باب قوله:" لقد تاب الله على النَّبِيّ والمهاجرين والأنصار" [التوبة: 117]، وصحيح مسلم،111/8، حديث رقم 7116، [53 – 2769]، كتاب الآداب، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

5 النَّووي، أبو زكريَّا محيي الدين يحيى بن شرف (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط2 1392هـ،ج17، ص97.

6 هو مُحَمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقيّ: فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في دمشق. له (رد المحتار على الدر المختار)، فقه يعرف بحاشية ابن عابدين، و (رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار) و (العقود الدرية في تنقيح الفتاوي الحامدية)، و (نسمات الأسحار على شرح المنار – ط) أصول، و (حاشية على المطول) في البلاغة، و (الرحيق المختوم – ط) في الفرائض، و (حواش على تفسير البيضاوي) التزم فيها أن لا يذكر شيئاً ذكره المفسرون، و (مجموعة رسائل – ط) ، وهي 32 رسالة، و (عقود اللآلي في الأسانيد العوالي – ط) وهو ثبته. انظر: الأعلام للزركلي 42/6.

نفقة نفسه عن الكفاية التامة " [1]. ولا يُكتفى بهذا الشرط فحسب، بل يجب على من أراد أن ينفق ماله كلّه أن يكون صحيح البدن والعقل سالماً من الدَّيْن، ليس عنده من يعول من الزوجة، والأولاد، والعبيد، وإن كان عنده من هؤلاء أن يكونوا مثله في الصبر، واليقين.

قال الطبري (ت310هـ):" قال الجمهور: من تصدّق بماله كلّه في صحة بدنه، وعقله، حيث لا دَيْن عليه، وكان صبوراً على الإضاقة، ولا عيال له، أو له عيال يصبرون أيضاً، فهو جائز فإن فُقِد شيء من هذه الشروط كُرِه، وقال بعضهم هو مردود " [2].

والظاهر من هذه الشروط التي وضعها مَنْ يجوّزون إنفاق المال كلّه أنَّها مُحالة الوجود. فيبقى القول بحرمة إنفاق المال كلّه، وهو الأظهر، وهو الذي عليه الدليل من الكتاب والسُّنَّة. أي أنّ ﴿ مِن﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:3] جاءت للتبعيض لا لبيان الجنس.

---

1 ابن عابدين، مُحَمَّد أمين بن عمر(ت 1252هـ)، ردّ المحتار على الدر المختار، دار الفكر – بيروت، ط2 1412هـ، ج2، ص357.

2 نقله عن الطبري: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت892هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة – بيروت، ط1379هـ، ج3، ص295. ولم يجد الباحث قول الطبري فيما وقف عليه من كتبه ومنها تفسيره. وانظر: ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك (ت 449هـ)، شرح صحيح البخاري لابن بطّال، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، ط2 1423هـ، ج3، ص428-429.

المسألة الرابعة:

أثر دلالة (الذي والذين) على العهد والجنس في توجيه معنى قوله – تعالى–:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾[البقرة: 6]

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " ومن هنا تعلم أنَّ التعريف بالذي، والذين من بين سائر الموصولات، كتعريف (ذي) باللام، في كونه للعهد تارة، وللجنس أخرى، سواء جعلت من المعرف باللام كما ذهب إليه شرذمة من النحاة، أو لا، كما عليه المحققون، وعليه فإنَّ التعريف هنا للجنس؛ فهو متناول كل من صمَّم على كفره تصميماً لا يَرْعَوِي بعده، سواء كان المتّصف بذلك في زمن نزول القرآن، أو كان بعده حتى آخر الأمر؛ لأنَّ القرآن يبقى حكمه إلى آخر الدوران، ودلّ على تناوله للمصرّين قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية، ومعناها: أنَّ الذين كفروا مستوٍ عندهم الإنذار وعدمه، فالقائل بأن التعريف للعهد، وأن المراد به ناس بأعيانهم: كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة وأضرابهم، قول لا حظ له في شيء من التحقيق، بل هو قول من لا يرى أنَّ القرآن عام لجميع الأزمان " [1].

فيظهر من كلامه – رحمه الله تعالى – أنّه ذهب إلى القول أنّ (ال) في ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ هي للجنس بمعنى استغراق الأفراد، وعليه فإنَّ توجيه المعنى عنده في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾ [البقرة: 6]، كلّ من كفر بالله، ورسوله ممن هو في عصر النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وبعده إلى يوم القيامة.

وقد اختلف علماء التفسير في دلالة (أل) من ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ على قولين، أدّى هذا الاختلاف إلى اختلاف توجيه المعنى في الآية الكريمة والمراد بـ (الذين كفروا).

فـ (أل) التعريفية: تأتي جنسية، وزائدة، وعهدية [2].

---

[1] جواهر الافكار ص61–62

[2] صافي، محمود بن عبدالرحيم (ت1376هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت، ط4 1418هـ، ج4، ص397. وانظر:الأشموني، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن عيسى(ت900هـ)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1419هـ، ج1، ص167–168. وانظر: النجار، مُحَمَّد عبد العزيز، ضياء السَّالك إلى أوضح المسالك، مؤسسة الرسالة، ط1 1422هـ، ج1،ص179–182.

القول الأول: قالوا إنّ (أل) من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عهدية، والعهد هنا ذِكْري بمعنى: ذِكْر طائفة، أو مجموعة، أو أفراد بعينها، قال صاحب الكشاف: " والتعريف في ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يجوز أنْ يكون للعهد وأنْ يُراد به ناس بأعيانهم "[1].

واختلف هؤلاء فيمن عُني بهذه الآية، وفيمن نزلت: فذهب بعضهم إلى أنَّ هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وقال بهذا القول ابن عباس – رضي الله عنه – [2]، والكلبي [3]، ورجّحه الطبري في تفسيره بعد أنْ ذكر تأويلات المفسِّرين قال: " وأَوْلى هذه التأويلات بالآية تأويل ابن عباس "[4].

وذهب آخرون إلى أنَّ الآية نزلت في مشركي العرب[5]. وقال الضّحّاك: نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته [6]. وقال الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسيره:" والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأضرابهم " [7]. وقال الربيع بن أنس: " نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب" [8].

وقال قوم: هي فيمن سبق في علم الله أنَّه لا يؤمن، أراد الله تعالى – أنْ يُعلمَ أنّ في الناس مَنْ هذه حاله دون أن يُعيّن أحداً، بمعنى أنّها عامة، ومعناها الخصوص؛ فإنّ مَنْ عَيَّنَ أحداً فإنّما مثّل بِمَنْ كُشف الغيب لموته على الكفر. ولكنّها خاصّة فيمَن كفر في عصر النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

[1] الكشاف 47/1. وانظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1 والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.

[2] انظر: مفاتيح الغيب 284/2 جامع البيان في تأويل القرآن 251/1، والمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية 87/1، والجامع لأحكام القرآن 184/1. وتفسير الراغب الأصفهاني 88/1. والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.

[3] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 251/1، والكشف والبيان في تفسير القرآن 149/1، والتفسير الوسيط للواحدي 83/1، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن 86/1، والجامع لأحكام القرآن 184/1.

[4] جامع البيان في تأويل القرآن 252/1.

[5] انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 149/1، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن 86/1.

[6] انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 149/1، والتفسير الوسيط للواحدي 1/ 83.

[7] الكشاف 47/1–48، وانظر: مفاتيح الغيب 284/2، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 248/1.

[8] انظر: تفسير الراغب الأصفهاني88/1،والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 87/1، والجامع لأحكام القرآن184/1.

وَسَلَّمَ – ورجّح ذلك ابن عطية (ت 542 هـ)[1] في تفسيره [2]، والقرطبي (ت 671 هـ) في تفسيره[3]، وابن كثير (ت 774 هـ) في تفسيره [4]، وأبو زيد الثعالبي (ت 876 هـ) في تفسيره[5]، والشوكاني (ت 1250 هـ) في تفسيره[6].

وأمَّا القول الثاني: فقالوا إنّ (ال) التعريفية في ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ جنسيّة، أي تأتي لاستغراق الجنس حقيقة، فهي لشمول أفراد الجنس. فمن كفر في عصر النَّبِيّ –صلى الله عليه وسلم– أو بعده إلى يوم القيامة فإنّه داخل ضمن هذه الآية.

قال صاحب الكشاف: " والتعريف في ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾... وأن يكون للجنس، متناولاً كلّ مَنْ صمّم على كفره تصميماً لا يَرْعَوي بعده وغيرهم "[7]. ورجَّحه بقوله: " ودلّ على تناولِه للمُصِرّين الحديثَ عنهم باستواء الإنذار، وتركِه عليهم "[8].

وقال ابن عاشور (ت1393 هـ): " وإمّا أنْ يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق على أنّ المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله: لا يؤمنون، فيكون عاماً مخصوصاً بالحسّ؛ لمشاهدة مَن آمن منهم، أو يكون عاماً مراداً به الخصوص بالقرينة، وهذان الوجهان هما اللذان اقتصر عليهما المحقِّقون من المفسِّرين وهما ناظران إلى أنَّ الله أخبر عن هؤلاء بأنَّهم لا يؤمنون فتعيّن أنْ يكونوا ممَّن تبيَّن بعدُ أنَّه مات على الكفر " [9].

---

[1] هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو مُحَمَّد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة. عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. وتوفي بلورقة. له (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، و (برنامج) في ذكر مروياته وأسماء شيوخه. وقيل في تاريخ وفاته سنة 541 و 546. انظر: الأعلام للزركلي 282/3.

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 87/1.

[3] الجامع لأحكام القرآن 184/1.

[4] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 173/1.

[5] الجواهر الحسان في تفسير القرآن 185/1.

[6] فتح القدير للشَّوكاني، 46/1.

[7] الكشاف47/1، وانظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 41/1

[8] الكشاف 47/1.

[9] التحرير والتنوير لابن عاشور 248/1

فيما يرى الباحثُ – بعد الاطِّلاع على أقوال العلماء والنَّظر في أدلّتهم – أنّ الخلاف قائم على مسألة نَحْويّة في تعريف الموصول هل هو للعهد أم للجنس؟ أدّى إلى تباين آراء العلماء في توجيه معنى الآية على الأقوال المذكورة آنفاً، ولقد أيّد الباحث قول ابن بدران والقائلين: إنّ التعريف في ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إنّما هو للجنس؛ لأنّه يتناول كل من صمّم على كفره تصميماً لا يَرْعَوي بعده، سواء أكان المتّصف بذلك في زمن نزول القرآن، أم كان بعده، وذلك للاعتبارات الآتية:

1. ممَّا هو معلوم أنَّ ألفاظ العموم إنْ خُصِّصت فلا بدّ مِن دليل، أو قرينة تصرفها مِن العموم إلى الخصوص، ولمّا لم يكن دليل، أو قرينة فيبقى على عمومه.

2. أنّ القرآن الكريم نافذة أحكامه، وشرائعه في كل زمان ومكان، فهو عام لجميع الأزمان إلى يوم القيامة.

3. أنّ صيغ المخاطَبين في زمن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُتلبّس بها كلّ مَن اندرج تحت تلك الصيغ كقوله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فكلّ مؤمن معنيّ بالخطاب في كل زمان، ومكان، وكذا قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [البقرة: 6].

4. لمّا كان قول القائلين بالعموم يشمل قول القائلين بالخصوص؛ فهو مُقدّم لاستغراق الكلّ على القائلين بطائفة دون طائفة، فعموم الكفَّار إلى يوم القيامة يشمل مشركي قريش، وأحبار اليهود.

5. أنّ الله عنده عِلم مَن سيكفر به، ويموت على كفره من ذرية آدم إلى يوم القيامة، فقد صحّ عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنّه قال: " إنّ أوّل ما خلق الله القلم. فقال له: اكتب، قال: يا ربِّ، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم الساعة. مَن مات على غير هذا فليس مني "[1]. وفي رواية: " قال: اكتب القَدَرَ ما كان، وما هو كائن إلى الأبد " [2].

فعِلْمُه – سبحانه – ليس مقصوراً على مَن سيموت على الكفر في عهده – صلى الله عليه وسلم–، بل إلى يوم القيامة.

---

[1] رواه ابو داود في سننه 86/7،حديث رقم 4700، باب في القدر، وصحيح الجامع وزيادته 405/1 حديث رقم 2018–890.
[2] صحيح الجامع وزيادته 405/1، حديث رقم 2017–889.

6. أنّ قول مَن قال: إنّ الآية عامّة، ومعناها الخصوص فيمَن سبقت عليه كلمة العذاب مردود من وجهين:

أ. قول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة: 6] خرج مِن ذلك مَن كان كافراً وقت نزول الآية وآمن فيما بعد، كمن آمن يوم الفتح. فتبقى الآية على عمومها ولا خصوص فيها.

ب. أنّ كلمة العذاب سبقت على مَن مات كافراً قبل نزول الآية، وعصر النَّبِيّ– صلى الله عليه وسلم–، لا بل قبل خلق آدم – عليه السلام – فقد صحَّ عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنَّه قال: " ما مِنْكم مِنْ أحد إلّا وقد كُتِب مقعده من النار، ومقعده من الجنة "، قالوا: يا رسول الله: أفلا نتَّكِلُ على كتابنا، وَنَدَعُ العمل؟ قال: " اعملوا! فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِق له "، قال:" أمّا مَن كان مِن أهل السعادة فَسَيُيَسَّرُ لعمل السعادة، وأمّا مَن كان مِن أهل الشقاوة فَسَيُيَسَّرُ لعمل الشقاوة " ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل: 5–10] [1]. وعليه فإنّ الآية تشمل كلّ كافر يموت على الكفر مُذ آدم – عليه السلام – حتى يوم القيامة؛ لأنها سبقت عليه كلمة العذاب.

وخلاصة القول:

إنَّ تعريف الاسم الموصول في قوله – تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [البقرة: 6]، للجنس ويشمل كل كافر سواء في عصره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أو بعده إلى يوم القيامة، وهذا ما ذهب إليه ابن بدران، والمُحقِّقون من المفسِّرين – رحمهم الله جميعاً–.

---

[1] صحيح البخاري 171/6، باب: " فسنيسره للعسرى " [الليل: 10]، حديث رقم 4949، وصحيح مسلم 47/8، كتاب: الآداب، باب: كلّ ميسّر لما خلق له ، حديث رقم 6826.

المسألة الخامسة:

أثر معنى (لعلّ) في توجيه معنى قوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " ومعنى (لعلّ) هنا للتعليل، وهذا أثبته لها جماعة، منهم الأخفش، والكسائي، وحملوا عليه قوله – تعالى –: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: 44]، وإنّما أثبتنا هذا؛ لأن المفهوم مِن الآية أنَّ خَلْقَهُمْ على تلك الحال في معنى: خَلْقِهِمْ لأجل التقوى، كأنَّه – تعالى – يقول: أنتم تعبدون الأوثان، والأصنام، والنجوم، وغيرهم من المعبودات؛ لتقربكم إلينا زلفى، وتجعلونهم واسطة، كأنّ أبواب الرحمة عليها حارس لا يُدخل إلّا الأفراد، وإنّ ما تعبدونهم لا يدفعون عن أنفسهم ضَرَّاً، ولا يجلبون لها نفعاً، فكيف ينفعون غيرهم، أو يَضُرُّونَهم؟! وحيث إنكم عبدتّموهم لِعلّة الواسطة، فانظروا إلى الحقيقة الأصلية، فاعبدوا الذي خَلَقَكم، وخَلَق أسلافكم، وأصنامكم؛ لأجل هذه القدرة الباهرة، والحكمة العظيمة، ولمّا كانت التقوى قصارى أمر العابد، ومنتهى جهده، قال هنا: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]؛ لأنَّ التقوى إذا لزمتهم كان ما هو أدنى منها أكرم، والإتيان به أهون " [1].

وممّا هو معلوم أنّ (لعلّ) مِن أخوات إنّ، تَنْصب المبتدأ ويسمى اسمها، وتَرْفع الخبر ويسمى خبرها[2]. ولها معان اختلف العلماء في تحديدها، فجعلها ابن مالك(ت672هـ)[3] أربعة[4]، فيما عدّها المُرادي (ت749هـ) ثمانية معانٍ، ذكرها في كتابه " الجنى الداني في حروف المعاني" بقوله:"ولعلَّ

---

[1] جواهر الأفكار ص94.

[2] انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص315، وشرح التسهيل لابن مالك 39/2-40.

[3] هو مُحَمَّد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجيّاني، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه (الألفية – ط) في النَّحْو، وله (تسهيل الفوائد – ط) نحو، و (شرحه له)، و (الضرب في معرفة لسان العرب) و (الكافية الشافية – ط) أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت، و (شرحها – ط) و (سبك المنظوم وفك المختوم) نحو، و (لامية الأفعال – ط) و (عدة الحافظ وعمدة اللافظ) رسالة، وشرحها، و (إيجاز التعريف) صرف، و (شواهد التوضيح – ط) و (إكمال الإعلام بمثلث الكلام – ط) و (مجموع) فيه 10 رسائل، و (تحفة المودود في المقصور والممدود – ط) منظومة، و (العروض) و (الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد) قصيدة من بحر البسيط على رويّ الظاء المفتوحة، مشروحة شرحا متقنا من إنشائه، وغير ذلك. انظر: الأعلام للزركلي 233/6.

[4] انظر: ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبدالله (ت672هـ)، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق مُحَمَّد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ، ج1، ص61، وشرح التسهيل لابن مالك 7/2.

لها ثمانية معان " [1]، وعدّها ابن هشام (ت761هـ) ثلاثة معان بقوله:" ولعلّ للترجّي، أو الإشفاق، أو التعليل " [2]. ولعلّ هذه الثلاثة هي أشهر ما ورد عند العلماء.

أمّا **التَّرجِّي** فقال به سيبويه (ت180هـ) في كتابه " الكتاب ":" وإذا قلت (لعلّ) فأنت ترجوه أو تخافه في حال ذهاب "[3].

وقال الأزهري (ت370هـ) في تهذيب اللغة: (علّ ولعلّ) حرفان وضعا للتَّرجِّي في قول النَّحْويين. وأُثبت عن ابن الأنباري أنّه قال:" لعل يكون ترجّياً، ويكون بمعنى كي، ويكون ظناً كقولك: لعلّي أحجّ العام، معناه أظنّني: سأحجّ، ويكون بمعنى: عسى، لعلّ عبدالله يقوم، معناه عسى عبد الله، ويكون بمعنى الاستفهام كقولك: لعلك تشتمني فأعاقبك، معناه هل تشتمني؟ " [4].

وقال الأنباري (ت577هـ)[5]:" ومعنى (لعلّ): ترجَّيت " [6]. وقال أيضاً:" ولعلّ أفادت معنى التَّرجِّي"[7].

---

[1] انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 579/1.

[2] ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط11 1383هـ، ص147، وانظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص317.

[3] الكتاب لسيبويه 2 / 148.

[4] تهذيب اللغة للأزهري 79/1، وانظر: التفسير البسيط للواحدي 219/2، ذكر الواحدي منها ثلاثة الترجي وكي والظن.

[5] هو أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء مُحَمَّد بن عبيد الله بن مُحَمَّد بن عبيد الله بن أبي سعيد مُحَمَّد بن الحسن بن سليمان الأنباري، الملقب كمال الدين، النَّحْوي، كان من الأئمة المشار إليهم في علم النَّحْو، وسكن بغداد من صباه إلى أن مات، وتفقه على مذهب الشافعي– رضي الله عنه – بالمدرسة النظامية وتصدَّر لإقراء النَّحْو بها، وقرأ اللغة على أبي منصور ابن الجواليقي، وصحب الشريف أبا السعادات هبة الله بن الشجري وأخذ عنه وانتفع بصحبته، وتبحَّر في علم الأدب، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء، وصنف في النَّحْو كتاب " أسرار العربية " وهو سهل المأخذ كثير الفائدة، وله كتاب " الميزان " في النَّحْو أيضاً، وله كتاب في " طبقات الأدباء " جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه، وكتبه كلها نافعة، وكان نفسه مباركاً ما قرأ عليه أحد إلا وتميَّز. وانقطع في آخر عمره في بيته مشتغلاً بالعلم والعبادة وترك الدنيا ومجالسة أهلها، ولم يزل على سيرة حميدة. وكانت ولادته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وتوفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمئة ببغداد، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي – رحمه الله تعالى –. انظر: وفيات الأعيان 139/3.

[6] أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله الأنصاري (ت 577هـ)، أسرار العربية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1 1420هـ، ص122، وانظر: أبو البركات الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله (ت 577هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحْويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط1 1424هـ ج1، ص145.

[7] المرجع السابق ص124.

وأمّا **الإشفاق** فالفرق بينه، وبين الترجّي: أنّ الترجّي في المحبوب، والإشفاق في المكروه [1].

وأمّا **التعليل** فقد اختلف فيه العلماء على قولين:

الأول: قول الكسائي والأخفش، وحَمَلا على ذلك ما في القرآن مِن نحو قوله – تعالى –: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: 52]، أي: لتهتدوا، ولتتقوا، ولتشكروا [2].

الثاني: مذهب سيبويه والمحققين إنّ معنى (لعلّ) في الآيات التي استُشهد بها للتعليل؛ فإنّها في ذلك كلّه للتَّرجِّي، وهو ترجّ العباد، وقوله – تعالى –:﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: 44]، معناه: اذهبا على رجائكما ذلك مِن فرعون [3].

ويرى التعليل نفسه شوقي ضيف (ت1426هـ) في كتابه المدارس النَّحْويّة بقوله: " إنّ مِن معاني لعلّ التعليل " [4].

وقيل إنّ مِن معانيها الاستفهام، قال به الكوفيون وتبعهم ابن مالك [5]، وجعل منه: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس: 3]، وقول النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لبعض الأنصار، وقد خرج إليه مستعجلاً: " لعلّنا أعجلناك " [6]. وخالفهم بذلك البصريّون؛ فقالوا: إنّ لعلّ في الآية بمعنى الرجاء، وفي الحديث بمعنى الإشفاق [7].

وقد أدّى هذا الاختلاف بين علماء النَّحْو في تحديد معنى لعلّ إلى تباين آراء المفسّرين في توجيه قوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]. ويظهر هذا التباين في أمرين:

---

[1] انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1، والبحر المحيط 151/1، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 59/1، وروح المعاني للألوسي 188/1.

[2] انظر: معاني القرآن للأخفش 443/2، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1.

[3] انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 580/1.

[4] شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام (ت1426هـ)، المدارس النَّحْوية، دار المعارف، (د. ت)، ج1، ص97.

[5] انظر: شرح التسهيل لابن مالك 8/2.

[6] صحيح البخاري 47/1، حديث رقم 180، باب من لم يرَ الوضوء إلاّ من المخرجين من القُبُل والدبر، وصحيح مسلم 269/1، حديث رقم 345، باب إنما الماء من الماء.

[7] انظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي 581/1.

الأوَّل: في معنى لعلّ. والثاني: في متعلِّق لعلّ.

الأمر الأوَّل: فقد اختلف علماء التفسير في تحديد معنى لعلّ في قوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21] إلى أقوال عديدة أشهرها:

القول الأول: قالوا لعلّ جاءت بمعنى التَّرجِّي، أي الرجاء، وممّن قال بذلك:

القشيري (ت465هـ) في تفسيره بقوله:" قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: تقريب الأمر عليهم، وتسهيله، ولقد وقفهم بهذه الكلمة – أعني لعلّ – على حدّ الخوف، والرجاء [1].

وابن عطية (ت542هـ) في تفسيره بقوله: " و (لعلّ) في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى، وليست مِن الله بمعنى ترجٍّ وتوقُّع. وقال سيبويه ورؤساء اللسان: هي على بابها، والتَّرجِّي، والتَّوقُّع إنَّما هو في حيِّز البشر، أي إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى"[2].

والنيسابوري (ت550هـ) في تفسيره:" لعلكم تتّقون: على أصلها في الشَّكّ والرجاء مِن المخاطَب للتقوى لئلّا يأمن العبد مدلّا بتقواه " [3].

والبيضاوي (ت691هـ) في تفسيره:" لعلكم تتقون حالٌ من الضمير في اعبدوا، كأنّه قال: اعبدوا ربكم راجين أنْ تنخرطوا في سلك المتّقين الفائزين بالهدى والفلاح " [4].

وأبو حيّان (ت745هـ) الأندلسي بقوله:" وليست لعلّ هنا بمعنى كي؛ لأنَّه قول مرغوب عنه، ولكنَّها للتَّرجِّي والإطماع " [5].

---

[1] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت465هـ)، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصريّة العامة للكتاب – مصر، ط3، (د.ت)، ج1، ص68.

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 105/1.

[3] النَّيسابوري، أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (ت نحو 550هـ)، إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الأسلامي – بيروت، ط1 1415هـ، ج1، ص74.

[4] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 54/1.

[5] البحر المحيط 155/1.

ورجّح ذلك البقاعي (ت885هـ) في نظم الدرر [1]، والألوسي (ت1270هـ) في روح المعاني[2]، ومُحَمَّد رشيد رضا (ت1354هـ) في تفسير المنار[3]، وأبو زهرة (ت1394هـ) في زهرة التفاسير [4].

وقد نبّه القائلون بهذا القول إلى أمرين لا بدّ من الإشارة إليهما:

أمّا الأوّل: وهو أنّ الشَّكّ في الرجاء إنّما يكون في حقّ المخاطَبين، وأمّا إذا وقعت في كلام الله يكون معناها التحقيق؛ لأنّه – سبحانه وتعالى – منزّه عن الشَّكّ في الرجاء؛ لأنّ الشَّكّ لا يكون إلّا عند الجهل بالعاقبة، وذلك على الله – تعالى – مُحال.

وأمّا الثاني: فإنّ الرجاء، والإطماع إنّما هو في حقّ المخلوقين، أي هو بالنسبة إلى المخاطَبين؛ لأنّ الرجاء لا يكون في حقّه – سبحانه – [5]، ولا تُستعمل إلّا في الممكن، لا يُقال: لعلّ الشباب يعود[6].

وقال ابن الشجري (ت 542هـ)[7] في أماليه:" ولعلّ إنّما هو حرف موضوع للرجاء، والراجي شاكٌّ، بدلالة أنّك تقول: لعلّي أدخل الجنة، وأرجو أنْ أدخل الجنة، ولا تقول: أرجو أنْ يدخل النَّبِيّ – صلى الله عليه وآله وسلم – الجنة، ولا: لعلّ النَّبِيّ – صلى الله عليه وآله وسلم – يدخل الجنة؛ لأنك على غير يقين من دخولك الجنة، وغير شاكّ في دخول النَّبِيّ – صلى الله عليه وآله وسلم – الجنة...

---

1 انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن (ت885 هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج1، ص143.

2 انظر: روح المعاني للألوسي 188/1.

3 انظر: رضا، مُحَمَّد رشيد بن علي (ت1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ج1، ص155.

4 انظر: أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (د. ت)، ج1، ص157-158.

5 انظر: مفاتيح الغيب للرازي 334/2 – 335، والمحرر الوجيز لابن عطية 105/1، وإيجاز البيان عن معاني القرآن للنَّيسابوري 74/1، والبحر المحيط 155/1.

6 البحر المحيط 151/1.

7 هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن مُحَمَّد بن حمزة الحسني، المعروف بابن الشجري البغدادي، كان إماماً في النَّحْو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها كامل الفضائل، متضلعاً من الآداب صنف فيها عدة تصانيف، فمن ذلك كتاب " الأمالي "، وهو أكبر تواليفه وأكثرها إفادة، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً، وهو يشتمل على فوائد جمة من فنون الأدب. والشجري: بفتح الشين المعجمة والجيم وبعدها راء، هذه النسبة إلى شجرة، وهي قرية من أعمال المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وشجرة أيضاً اسم رجل، وقد سمت به العرب ومن بعدها، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم، ولا أدري إلى من ينتسب الشريف المذكور منهما هل نسبته إلى القرية، أم إلى أحد أجداده كان اسمه شجرة، والله أعلم. ولد في رمضان، سنة خمسين وأربع مئة. وتوفي: في السادس والعشرين من رمضان، سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة، ودفن بداره، وإنما سمع الحديث في كهولته. انظر: وفيات الأعيان 45/6-50، وسير أعلام النبلاء 195/20-196، والأعلام للزركلي 74/8.

فهو على شكّ المخاطَبين فإنّه قيل: افعلوا ذلك على الرجاء منكم، والطمع أنْ تعقلوا، وأنْ تذكَّروا، وأنْ تتقوا " [1].

وقال ابن جُزَيّ (ت741هـ):" وإنْ كانت لعلّ للترجّي فتأويله أنّه في حقّ المخلوقين، جرياً على عادة كلام العرب " [2].

وقال القاسمي (ت1332هـ)[3]:" وفي إيراد (لعلّ) تُشبه طلبه – تعالى – برجاء الرّاجي مِن المرجوّ مِنْه أمراً هَيِّنَ الحصول " [4].

القول الثاني: قالوا: إنّ (لعلّ) جاءت بمعنى التعليل، وممّن قال بذلك:

ابن عباس (ت68هـ) – رضي الله عنه – إذ جاء في تنوير المِقباس مِن تفسير ابن عباس: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، لكي تتَّقوا السخطة، والعذاب، وتطيعوا الله " [5].

---

[1] ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعدات هبة الله بن علي بن حمزة (ت542هـ)، أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود مُحَمَّد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط1 1413هـ، ج1، ص76.

[2] جُزَيّ، أبو القاسم مُحَمَّد بن أحمد الكلبي (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط1 1416هـ، ج1، ص74.

[3] هو جمال الدين (أو مُحَمَّد جمال الدين) بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام في عمله هذا أربع سنوات (1308 – 1312 هـ ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة. ونشر بحوثا كثيرة في المجلات والصحف، منها (الائل التوحيد – ط) و (ديوان خطب – ط) و (الفتوى في الإسلام – ط) و (إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق – ط) و (شرح لقطة العجلان – ط) و (نقد النصائح الكافية – ط) و (مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن – ط) و (موعظة المؤمنين – ط) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و (شرف الأسباط – ط) و (تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب – ط)، و (محاسن التأويل – ط) في تفسير القرآن الكريم انظر: الأعلام للزركلي 135/2.

[4] القاسمي، مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد (ت 1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1418هـ، ج1، ص265.

[5] ابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت 68هـ)، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدين أبو الطاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ)، دار الكتب العلمية – لبنان، ج1، ص5.

ومقاتل (ت150هـ)[1] في تفسيره بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، يقول: لكي تتقوا " [2].

ووافقهما أي – ابن عباس ومقاتل – سفيانُ الثوريُّ (ت161هـ) بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، قال تطيعون " [3].

وكان مجاهد يقول في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: " تطيعون " [4].

وقال الطبري (ت310هـ) في تفسيره: " وإنما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم؛ لتتقوه بطاعته، وتوحيده، وإفراده بالربوبية، والعبادة " [5]. قال المحقّق [6] في الهامش: " يريد الطَّبريُّ أنَّ العرب تستعمل " لعلّ " مُجرّدةً مِن الشَّكّ، بمعنى لام كي " [7].

وقال الماتريدي (ت333هـ) في تفسيره: " ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ أي: كي تتقوا " [8].

---

[1] هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدي بالولاء الخراساني المروزي، أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدث بها، وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور. وأخذ الحديث عن مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح، وأبي إسحاق السبيعي، والضحاك بن مزاحم ومُحَمَّد بن مسلم الزهري وغيرهم. وروى عنه بقية بن الوليد الحمصي وعبد الرزاق بن همام الصنعاني وحرمي بن عمارة وعلي بن الجعد، وغيرهم. وحكي عن الإمام الشافعي – رضي الله عنه – أنه قال: الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل بن سليمان في التفسير، وعلى زهير ابن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام. وقال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، وقال البخاري: مقاتل لا شيء ألبتة. قلت – أي الذهبي –: أجمعوا على تركه – أي متروك الحديث –. فكان متروك الحديث. من كتبه (التفسير الكبير)، و (نوادر التفسير) و (الرد على القدرية) و (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (القرآت) و (الوجوه والنظائر). وتوفي سنة خمسين ومئة بالبصرة – رحمه الله تعالى –. انظر: وفيات الأعيان 255/5–257، وسير أعلام النبلاء 201/7–202، والأعلام للزركلي 281/7.

[2] الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير (ت 150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث– بيروت، ط1 1423هـ، ج1، ص112.

[3] الثوري، أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق (ت 161هـ)، تفسير الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1403هـ، ج1، ص42.

[4] جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 364/1.

[5] جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق محمود شاكر 364/1.

[6] هو أحمد بن مُحَمَّد عبد القادر (المعروف بأحمد شاكر)، ولد في القاهرة عام 1309 هـ، حفظ القرآن في صغره، ودرس التفسير، والفقه والحديث، والأدب، ودرس في الأزهر، وتتلمذ على عدد من علماء عصره، وعُني بعلم الحديث، واهتم بتحقيق عدد من كتب السنة، وشرحها، وعمل أميناً للفتوى بالأزهر، وتولى القضاء عام 1951 م، ثمّ عُيّن رئيساً للمحكمة الشرعية، واختير وكيلاً لمشيخة الجامع الأزهر سنة 1327هـ، وقد حقّق كثيراً من كتب الحديث والفقه والأدب والشعر، وألّف عدداً كبيراً من الكتب، منها: الكتاب والسنّة، والشرع واللغة. وتوفي– رحمه الله تعالى– في ذي القعدة سنة 1377 هـ.

[7] المرجع السابق 364/1، هامش رقم 3.

[8] الماتريدي، أبو منصور مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن محمود (ت 333هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1 1426هـ، ج1، ص399.

وقال السمرقندي (ت373هـ):" ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعصية، وتنجون من العقوبة " [1].

وقال ابن أبي زمنين (ت399هـ):" ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي: لكي تتقوا " [2].

وقال الثعلبي (ت427هـ) في تفسيره:" ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: لكي تنجوا من السّحت والعذاب"[3].

وقال الجُرْجَانِيّ (ت471هـ) في درج الدرر: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لكي تتقوا مخالفة الخالق"[4].

وقال السمعاني (ت489هـ)[5] في تفسيره: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قيل معناه: لكي تتقوا، قاله أبو عبيدة"[6].

وقال البغوي (ت516هـ) في تفسيره: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: لعلكم تنجون من العذاب " [7]، أي لكي[8].

---

1 السمرقندي، أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن أحمد بن إبراهيم (ت 375هـ)، تفسير السمرقندي المسمَّى (بحر العلوم)، تحقيق وتعليق علي مُحَمَّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1413هـ،ج1،ص101.

2 ابن أبي زمنين، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن عيسى (ت 399هـ)، تفسير القرآن العزيز، تحقيق أبي عبدالله حسين بن عكاشة ومُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة – مصر– القاهرة، ط1 1423هـ، ج1، ص127.

3 الكشف والبيان عن تفسير القرآن 166/1.

4 درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 121/1.

5 هو الإمام، العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني،المروزي، الحنفي كان، ثم الشافعي. ولد: سنة ست وعشرين وأربع مئة. وبرع في مذهب أبي حنيفة على والده العلامة أبي منصور السمعاني، وبرز على الأقران. صنف كتاب (الاصطلام) ، وكتاب (البرهان) ، وله (الأمالي) في الحديث، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، وكان شوكا في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة. وتوفي يوم الجمعة، الثالث والعشرين من ربيع الأول، سنة تسع وثمانين وأربع مائة، عاش ثلاثا وستين سنة – رحمه الله –.انظر: سير أعلام النبلاء 114/19–119، والأعلام للزركلي 303/7–304.

6 السمعاني، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار (ت 489هـ)، تفسير القرآن، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط1 1418هـ، ج1، ص56. ويعني بأبي عبيدة معمر بن المثنى.

7 معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي 93/1.

8 انظر: المرجع السابق 93/1، هامش رقم 3.

ودافع عن هذا القول الغَزْنَوِيُّ (ت بعد553هـ) في باهر البرهان بقوله:" ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا، وهو معنى كلّ (لعلّ) في القرآن؛ لأنّ الله يتعالى عن معاني الشَّكّ " [1].

وقال ابن الجوزي (ت597هـ) في زاد المسير:" وفي (لعلّ) قولان: أحدهما: أنّها بمعنى (كي). وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل، وقطرب، وابن كيسان. قال ابن عباس: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الشرك، وقال الضّحّاك: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ النار، وقال مجاهد: لعلكم تطيعون " [2].

وذهب إلى هذا القول أبو زيد الثعالبي (ت875هـ) – بعد أن ذكر أقوال المفسرين فيها – بقوله:" وأما (لعلّ) هنا، فهي بمعنى (كي) أو (لام كي)، أي: لتتقوا، أو لكي تتقوا " [3].

ورجّح هذا القول القاسمي (ت1332هـ) في محاسن التأويل بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي: كي تتقوا " [4].

وابن العثيمين (ت1421هـ) بقوله: " وقوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، (لعل) هنا للتعليل: أي لتصلوا إلى التقوى " [5].

القول الثالث: قالوا (لعلّ) جاءت بمعنى المقاربة، ورجّح ذلك ابن جُزَيّ (ت741هـ) في تفسيره – بعد أنْ ذكر أقوال المفسِّرين – بقوله: " والأظهر فيها أنَّها لمقاربة الأمر، نحو عسى، فإذا قالها الله: فمعناها أطماع العباد، وهكذا القول فيها حيث ما وردت في كلام الله " [6].

القول الرابع: قالوا (لعلّ) جاءت بمعنى التعرّض للأمر أي التعريض.

---

[1] الغزنوي، أبو القاسم مُحَمَّد بن أبي الحسين علي بن الحسين النيسابوري (ت 553هـ)، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، تحقيق سعاد بنت صالح، جامعة أم القرى – مَكَّة المكرمة، 1419هـ، ج1، ص44.

[2] انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 42/1 – 43، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي 62/1، والبحر المحيط لأبي حيان 151/1، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 85/1.

[3] الجواهر الحسان في تفسير القرآن 195/1.

[4] محاسن التأويل (تفسير القاسمي) 265/1.

[5] تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة) لابن عثيمين 73/1.

[6] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَيّ 74/1.

قال الكرماني (ت نحو505 هـ) في غرائب التفسير – بعد ذكر الأوجه الثلاثة في معنى (لعلّ) –: " قال أبو بكر بن الإخشيد: معناه التعرّض للأمر، أي افعلوا متعرّضين للتقوى، حكاه ابن عيسى"[1].

وقال السَّمِين الحَلَبِيّ (ت756هـ) – بعد ذكر أقوال العلماء في المسألة –: " والثالث: أنّها للتعرّض للشيء، كأنّه قيل: افعلوا ذلك متعرّضين لأنْ تتقوا " [2].

القول الخامس: قالوا إنّ (لعلّ) واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة.

وقال بهذا القول الزمخشري (ت538هـ) في الكشاف – فبعد أنْ ذَكَرَ أقوال المفسرين في معنى (لعلّ)– عَمِل على تفنيدها، والردّ عليها، ثمّ خَلُصَ برأي مغاير لما جاء به المفسرون مؤيّداً بذلك مذهبه المعتزلي، إذ يقول: " قال مَن قال: إنّ (لعلّ) بمعنى (كي)، و(لعلّ) لا تكون بمعنى (كي)"[3]. ثم ردّ على القائلين بالترجّي بقوله: " فإنْ قلتَ: فـ (لعلّ) التي في الآية ما معناها؟ وما موقعها؟ قلتُ: ليس ممّا ذكرنا في شيء؛ لأنّ قوله: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، لا يجوز أنْ يُحملَ على رجاء الله تقواهم؛ لأنّ الرجاء لا يجوز على عالم الغيب، والشهادة، وَحَمْلُهُ على أنْ يَخْلُقَهُم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً. ولكنّ (لعلّ) واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة " [4].
ثم بيّن سبب اختياره لهذا الرأي بقوله: " لأنّ الله – عزّ وجلّ – خَلَقَ عباده ليتعبّدهم بالتكليف، وركّب فيهم العقول، والشهوات، وأزاح العلَّة في أقدارهم، وتمكينهم، وهداهم النَّجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد مِنهم الخير، والتقوى " [5].

---

[1] الكرماني، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر (ت نحو 505هـ)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، (د. ت)، ج1، ص124–125.

[2] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 189/1، وانظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل 412/1.

[3] الكشاف 92/1.

[4] المرجع السابق 92/1.

[5] المرجع السابق 92/1.

وهنا تظهر نُصرة الزمخشري لمذهبه في سبب اختيار هذا الرأي الذي خالف فيه جُلَّ المفسرين، وقد بيّن ذلك ابن المُنَيِّر الإسكندري (ت683هـ)[1] في كتابه الانتصاف – المُذيّل بحاشية الكشاف – وقد تعقّبه في ذلك [2].

وردَّ أبو حيّان الأندلسي (ت745هـ) على الزمخشري بعد أنْ نقل كلامه في أنّ (لعلّ) على المجاز لا الحقيقة [3].

كما ردّ عليه أبو السعود (ت982هـ) في تفسيره بقوله: " وأمّا جَعْلُ المُشبَّهِ إرادته– تعالى– في الاستعارة، والتمثيل فأمرٌ مُؤَسَّسٌ على قاعدة الاعتزال القائلة: بجواز تخلّف المراد عن إرادته – تعالى –[4]. فالجملة حالٌ إمّا مِن فاعل خَلَقَكُم طالباً مِنكم التقوى، أو مِن مفعوله، وما عُطِف عليه بطريق تغليب المخاطَبين على الغائبين؛ لأنهم المأمورون بالعبادة أي خَلَقَكُم وإيَّاهم مطلوباً منكم التقوى، أو علّةٌ له، فإنّ خَلْقَهم على تلك الحال في معنى خَلْقِهم لأجل التقوى كأنّه قيل: خَلَقَكُم لتتقوا أو كي تتقوا"[5].

مِن هنا يتبيّن لنا أنّ ما جاء به الزمخشري ومَن قال بقوله إنّما كان مبنيّاً على ما يوافق مذهبه الاعتزالي، لا على قواعد علميَّة، وضوابط تفسيريَّة، وهو بذلك قد خالف جمهور المفسرين، وأكثر المحقِّقين ممّن سبقوه. وقد خالفه جُلُّ مَن جاء بعده وردّوا عليه، وفنّدوا قوله. فلا اعتبار في قوله، وتبقى (لعلّ) على الحقيقة لا المجاز.

أمّا بالنِّسبة إلى دلالتها ومعناها في قوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فيرى الباحث أنّها جاءت للتعليل، مؤيداً بذلك ابن بدران وكلّ مَن قال بذلك مِن النحاة، والمفسرين، وعلى رأسهم: حَبْرُ الأمَّة ابن عبَّاس، وكبار التابعين، مقاتل، وسفيان وغيرهم؛ لأنّه لا مانع لغةً مِن الحمل عليه، وبما أنّ منتهى غاية العبد هو الحصول على التقوى؛ ليفوز بما أعدّه الله – عزّ وجلّ – للمتّقين، كما

---

[1] هو أحمد بن مُحَمَّد بن منصور: من علماء الإسكندرية وأدبائها. ولي قضاءها وخطابتها مرّتين. له تصانيف، منها (تفسير) و (ديان خطب) و (تفسير حديث الإسراء) على طريقة المتكلمين. و (الانتصاف من الكشاف) وله نظم. انظر: الأعلام للزركلي 220/1.

[2] انظر: الكشاف 92/1، هامش رقم 2.

[3] انظر: البحر المحيط 155/1.

[4] إنْ كان المقصود تخلُّف المراد عن الإرادة الشرعية فلا مانع مِنْ ذلك ، وإنْ كان قصد به الإرادة الكونيَّة فهو المحذور.

[5] إراشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 60/1.

بيّنه الله – تعالى – في كتابه العزيز في غير ما آية بقوله: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 7]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: 15] وقوله: ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: 31]. فلمّا كان هذا ما أعدّه الله – عزّ وجلّ – للمتّقين، كان لزاماً على العباد أنْ يحرصوا كلّ الحرص للوصول إلى ذلك المُبتغى؛ لذلك جاء الخطاب مِن الله – سبحانه وتعالى – للنّاس كافّة أنْ يعبدوه للحصول على التقوى التي تتطلّع إليها آمالهم، وتشرئِبُّ لها نفوسهم للوصول إليها؛ للفوز بما أعدّه الله – عزّ وجلّ – للمتَّقين.

الأمر الثاني: فقد اختلف علماء التفسير في متعلّق (لعلّ) على قولين:

القول الأول: قالوا: إنّ متعلّق (لعلّ) قوله – تعالى –: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وممّن قال بهذا القول:

القرطبيّ (ت671هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ " لعلّ " متّصلة بـ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ لا بـ﴿ خَلَقَكُمۡ ﴾ " [1]. وهذا قول المَهْدَوِيُّ [2].

وأبو حيّان (ت745هـ) في تفسيره بقوله:" وهي متعلقة [3] بقوله: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، فكأنّه قال: إذا عبدتّم ربّكم رجوتم التقوى، وهي التي تحصل بها الوقاية مِن النّار، والفوز بالجنّة " [4]. بل إنّه رجّح ذلك بقوله:" والذي يظهر ترجيحه أنْ يكون: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، فالذي نُودُوا لأجله هو الأمر بالعبادة، فناسب أنْ يتعلّقَ بها ذلك " [5].

والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت756هـ) في تفسيره بقوله:" وهذه الجملة [6] على كلّ قول متعلقة مِن جهة المعنى بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ ﴾، أي: اعبدوا على رجائكم التقوى، أو لتتقوا، أو متعرّضين للتقوى، وإليه

---

[1] الجامع لأحكام القرآن 227/1.
[2] انظر: البحر المحيط 156/1، والدر المصون 189/1 – 190.
[3] يعني لعلّ.
[4] البحر المحيط 155/1.
[5] المرجع السابق 156/1.
[6] يعني لعلكم تتقون.

مال المَهدوي وأبو البقاء " [1]. وهذا الذي رجّحه، ومال إليه بقوله: " والذي يظهر به صحّته أنْ يكون ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ﴾، فالذي نودوا لأجله هو الأمر بالعبادة فناسب أن يتعلق بها ذلك[2].

وابن عاشور(ت1393هـ) في تفسيره بقوله: " وجملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تعليل للأمر بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ فلذلك فُصلت، أي أمرتكم بعبادته لرجاءٍ مِنكم أنْ تتقوا " [3].

وأبو زهرة (ت1394هـ)[4] في تفسيره بقوله: " وقوله – تعالى –: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ متّصل بقوله– تعالى –: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي اعبدوا رجاءَ أنْ تتقوا بأنْ تقوا أنفسكم شرّ عذابه، وتكونوا في أمنٍ مِن عقابه " [5]. وقد رجّح ذلك بقوله:" وعندي أنّ الاتصال بين رجاء التقوى، والأمر بالعبادة أظهر، و أوضح، ولا إشكال فيه " [6].

القول الثاني: قالوا: إنّ متعلِّق (لعلّ) في قول الله – تعالى –: ﴿ خَلَقَكُمۡ ﴾. وممّن قال بذلك:

الزمخشري (ت538هـ) في تفسيره بقوله: " ولكنّ (لعلّ) واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة؛ لأنّ الله – عزَّ وجلَّ – خَلَقَ عباده؛ ليتعبّدهم بالتّكليف " [7]. ثمّ قال:" فإنْ قلتَ: كما خَلق المخاطبين لعلّهم يتّقون فكذلك خَلَقَ الذين مِن قبلهم لذلك، فَلِمَ قَصَرَهُ عليهم دون مَن قبلهم؟ قلتُ: لم يَقْصُرْهُ عليهم، ولكنْ غلَّب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً " [8].

---

[1] الدر في المصون في علوم الكتاب المكنون 189/1.

[2] المرجع السابق 190/1.

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور 328/1.

[4] هو مُحَمَّد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى وتربى بالجامع الأحمدي وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي (1916 – 1925) وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات، وعلم في المدارس الثانوية سنتين ونصفا. وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (1933) وعين أستاذا محاضرا للدراسات العليا في الجامعة (1935) وعضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلا لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من 40 كتابا، منها المطبوعات الآتية: (الخطابة) و (تاريخ الجدل في الإسلام) و (أصول الفقه) و (محاضرات في مقارنات الأديان) و (محاضرات في المجتمع الإسلامي) وكانت وفاته بالقاهرة. انظر: الأعلام للزركلي 25/6–26.

[5] زهرة التفاسير 157/1.

[6] المرجع السابق 158/1.

[7] الكشاف 92/1.

[8] المرجع السابق 92/1 – 93.

وبيَّن أبو حيَّان الأندلسي (ت745هـ) في البحر المحيط رأي الزمخشري بقوله: " ولم يذكر الزمخشريُّ غير تعلُّقها بـ ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ "[1].

وابن عطيّة (ت542هـ) في تفسيره بقوله: " ويتّجه تعلّقها ب﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ أي لمّا وُلِدَ كلُّ مولودٍ على الفطرة فهو إنْ تأمَّله مُتأمِّل توقّع له، ورجا أنْ يكون متَّقيًا " [2]. وأيّده ونقل كلامه أبو زيد الثعالبي (ت875هـ) في الجواهر الحِسان [3]. وابن جُزَيّ (ت741هـ) في تفسيره بقوله:" ﴿ لَعَلَّكُمْ﴾ يتعلَّق بـ﴿ خَلَقَكُمْ﴾: أي: خَلَقَكُم لتتَّقوه"[4]، بل إنّه ضعّف القول بأنّ متعلِّق لعلّ ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ بقوله:" وقيل: يتعلَّق بقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ وهذا ضعيف " [5].

والذي يظهر للباحث بعد طول نظر في المسألة، والاطّلاع على آراء العلماء مِن النحاة والمفسِّرين أنَّ متعلِّق (لعلّ) هو قوله – تعالى –: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ وذلك أنّ العبادة ليست التقوى نفسها، " وإنَّما هي فعلٌ يَحْصُلُ به التقوى؛ لأنّ الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضارِّ بل يوجب الاحتراز، فكأنّه قال: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ لتحترزوا به عن عقابه "[6].

ولمّا كان الأمر كذلك، أمرهم – سبحانه وتعالى – بالعبادة للحصول على التقوى التي هي سبب الفلاح والنجاح في الدَّارَيْن، والفوز بالجنة التي أعدّها الله – تعالى– للمتقين، بل إنَّ الله –عزّ وجلّ– خَلَقَ الثَّقَلَيْن لعبادته بقوله – سبحانه وتعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، فكأنّه – تعالى – إنّما خَلَقَ المكلَّفين؛ لكي يعبدوه، ويطيعوه، لا كما يرى الزمخشري لكي يتقوه، ويطيعوه؛ لأن التقوى هي نَتَاجُ العبادة، وهي غاية العبد لنيل رضا ربّه. فكأن الأمر الإلهيّ

---

[1] البحر المحيط 155/1.

[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 105/1.

[3] انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 196/1.

[4] التسهيل لعلوم التنزيل لجُزَيّ 74/1.

[5] المرجع السابق 74/1.

[6] الرّازي ، فخر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر (ت 606هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 1420هـ، ج2، ص335.

جاء بقوله:﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ فكانت لعلّ متعلقة بقوله – تعالى –: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، لا كما يرى ابن بدران ومن قال بهذا القول من النُّحاة، والمفسِّرين من قبله: " خلقهم لأجل التقوى " بمعنى أنَّ(لعلَّ) متعلقة بـ ﴿ خَلَقَكُمۡ ﴾. فذِكْرُ الله – عزَّ وجلَّ – الخَلْقَ بقوله: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: 21] إنَّما هو تذكير للناس على إقرارهم أنَّ الذي خلقهم والذين مِن قبلِهم وخلق السماوات والأرض إنَّما هو الله، قال – تعالى –: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، فأراد – سبحانه – أنْ يُبيِّن لهم أنَّ ما يعبدون مِن دون الله ليسوا بواسطة بينهم وبينه – عزَّ وجلَّ – وما ينبغي أنْ يكونوا كذلك، فإنَّ الله – تعالى– حكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: 3]، فإذا كنتم تُقرُّون بخلق الله لكم ولهم وتؤمنون بربوبيته، فإنّ هذا ينبغي أنْ يدفعكم إلى الإقرار بألوهيته– سبحانه – والإيمان به، ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ تتحصَّلون على التقوى؛ لتنالوا جنة المأوى، فقال – تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:21].

وعليه فإنّ (لعلّ) جاءت بمعنى التعليل، وهي متعلقة بـ ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾

المسألة السادسة:

أثر الخلاف في عَوْد الضمير في قوله – تعالى –:﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: 23] على إعجاز القرآن والتَّحدي به.

قال المؤلِّف – رحمه الله –: " ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾، متعلق (بسورة) صفة لها، والتقدير: فَأْتوا بسورة كائنة من مثل ما نزّلنا على عبدنا".[1]

يرى ابن بدران أنّ متعلقَ قوله – – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم. ولم يجوّز – رحمه الله – أن يعود الضمير إلى غير ذلك، بل إنّه خطّأ من جَوَّز ذلك بقوله: "وجَوَّز صاحب الكشّاف، أن يكون ضميرُ ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ عائداً على "عبدنا" وفيما جَوَّزه غلط من وجوه".[2]

وقد اختلف علماء النَّحْو في عَوْد الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ على ثلاثة أقوال، ذَكَرَ الزَّجَّاج (ت311هـ)[3] اثنين بقوله: "وقوله – تعالى –: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ للعلماء فيه قولان: أحدهما: قال بعضهم: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾: من مثل القرآن كما قال – عزَّ وجلَّ –: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود: 13] وقال بعضهم: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ من بشر مثله"[4] وجوّز صاحب التبيان قولاً ثالثاً بقوله: "ويجوز أنْ يعود على الأنداد "[5].

---

[1] جواهر الأفكار ص115

[2] انظر: المرجع السابق ص115–117

[3] هو أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد بن السرى بن سهل الزجَّاج النَّحْوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنَّف كتاباً في (معاني القرآن) وله كتاب (الأمالي)، وكتاب (ما فسّر من جامع المنطق)، وكتاب (الاشتقاق)، وكتاب (العروض)، وكتاب (القوافي) وكتاب (الفرق)، وكتاب (خلق الإنسان)، وكتاب (خلق الفرس)، وكتاب (مختصر في النَّحْو)، وكتاب (فعلت وأفعلت)، وكتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف)، وكتاب (شرح أبيات سيبويه)، وكتاب (النوادر)، وكتاب (الأنواء)، وغير ذلك. وأخذ الأدب عن المبرد وثعلب، رحمهما الله – تعالى – توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ست عشرة – وثلاثمئة، ببغداد، رحمة الله – تعالى – وقد أناف على ثمانين سنة. وإليه ينسب أبو القاسم عبد الرحمن الزجّاجي صاحب كتاب "الجمل في النَّحْو"، لأنّه كان تلميذه – رحمه الله – وعنه أخذ أبو علي الفارسي أيضاً. انظر: وفيات الأعيان 49/1–50.

[4] معاني القرآن للزجاج 100/1

[5] التبيان في إعراب القرآن 40/1

أمَّا القول الأوَّل: وهو أنّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعود على القرآن فقد رجَّحه ثُلَّةٌ من علماء النَّحْو واللّغة، ومن أشهرهم:

الفرّاء (ت 207 هـ) في معاني القرآن بقوله: " وقوله: فأتوا بسورة من مثله، الهاء: كناية عن القرآن فأتوا بسورة من مثل القرآن"[1]

ومَكِّي (ت 437 هـ) في مُشْكِل إعراب القرآن بقوله: "والهاء في قوله: "من مثله" تعود على القرآن"[2]

بينما جوّز بعضهم القول بالقرآن ومن أشهرهم:

الزَجّاج (ت 311 هـ) بقوله: " وقوله: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ من مثل القرآن كما قال – عزّ وجلّ –: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود: 13] " [3].

والعُكبري (ت 616 هـ) بقوله: "ويجوز أن تعودَ على القرآن فتكونَ ﴿ مِن ﴾ زائدة "[4].

والباقولي (ت نحو 543هـ) بقوله: " وقيل: تعود الهاء إلى قوله " ما "، أي: فأتوا بسورة من مثله، ما نزّلنا على عبدنا – فيكون (من) زيادة – على قول أبي الحسن – دليله قوله: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾"[5]، ثم قال بعد أن ذكر الأوجه الثلاثة: " والمعنى يقتضي الأوجه الثلاثة "[6] .

والأنباري (ت577هـ) بقوله: " الهاء في ﴿مِّثْلِهِۦ ﴾ فيها وجهان ... والثاني: أنْ تكون عائدة على "ما نزَّلنا" وهو القرآن، فتكون من زائدة وهو قول أبي الحسن الأخفش، وتقديره فأتوا بسورة مثله، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس:38]"[7] .

---

1 معاني القرآن للفراء 19/1

2 مشكل إعراب القرآن لمَكّي 83/1

3 معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 100/1

4 التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 40/1

5 الباقولي، أبو الحسن نور الدين علي بن الحسين بن علي (ت نحو 543هـ)، إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، ودار الكتب اللبنانية – بيروت – القاهرة / بيروت، ط4 1420 هـ، ج1، ص552.

6 المرجع السابق 552/2

7 أبو البركات الأنباري، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله الأنصاري (ت 577 هـ)، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق د.طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1400 هـ، ج1، ص64.

ودرويش (ت 1403هـ) بقوله: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ متعلقان بحسب عودة الضمير؛ فهو: إمّا أنْ يعود على القرآن فهما متعلقان بمحذوف صفة لسورة، وإما أن يعود على عبدنا "[1] .

وأمّا القول الثاني: وهو أنَّ الضمير بقوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يعود على مُحَمَّد –صلى الله عليه وسلم–. وممن رجّح هذا القول:

ابن سِيدَه (ت458هـ)[2] بقوله: " فـ (من) متعلقة بقوله: فأتوا من مثل الرسول بسورة، ومعنى (من) على هذا الوجه: ابتداء الغاية، ويجوز أن تكون في موضع الصفة فتتعلق بمحذوف، وهي أيضاً لابتداء الغاية، أي بسورة كائنة من رجل مثل الرسول، أي ابتداء كينونتها من مثله " [3] .

والعُكبري (ت 616هـ) بقوله: " (من مثله): الهاء تعود على النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فيكون من للابتداء"[4] .

والباقولي (ت نحو 543هـ) بقوله: " وقرب اللفظ يقتضي عَوْده إلى "عبدنا " " [5] .

بينما جَوَّز بعضهم هذا القول ومنهم:

الزّجاج (ت 311هـ) بقوله: " وقال بعضهم (من مثله) من بشر مثله "[6] .

والأنباري (ت 577هـ) بقوله: " الهاء في " مثله " فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون عائدة على " عبدنا " وتكون (من) لابتداء الغاية: أي، ابتدئوا في الإتيان بالسورة من مثل مُحَمَّد "[7] .

ودرويش (ت1403هـ) بقوله: " وإما أنْ يعود على عبدنا " [8] .

---

[1] إعراب القرآن وبيانه لدرويش 56/1–57

[2] هو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي؛ كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما وقد جمع في ذلك جموعاً، من ذلك كتاب " المحكم " في اللغة، وهو كتاب كبير جامع مشتمل على أنواع اللغة، وله كتاب " المُخصَّص " في اللغة أيضاً وهو كبير، وكتاب " الأنيق " في شرح الحماسة في ست مجلدات، وغير ذلك من المصنفات النافعة. وكان ضريراً، وأبوه ضريراً، وكان أبوه أيضاً قيماً بعلم اللغة، وعليه اشتغل ولده في أول أمره، ثم على أبي العلاء صاعد البغدادي، وقرأ أيضاً على أبي عمر الطلمنكي، وكان له في الشعر حظ وتصرف. وتوفي عشيَّة يوم الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وأربعمئة، وعمره ستون سنة أو نحوها. انظر: وفيات الأعيان لابن خلِّكان 330/3.

[3] إعرب القرآن لابن سيده 89/1

[4] التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 40/1

[5] إعراب القرآن للباقولي 552/2

[6] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 100/1

[7] البيان في غريب إعراب القرآن 64/1

[8] إعراب القرآن وبيانه لدرويش 57/1

أما القول الثالث: وهو أنّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعود على الأنداد.

فقد جوّزه بعض العلماء من مثل:

العُكبري (ت 616هـ) بقوله: " ويجوز أنْ تعود على الأنداد "[1] .

والباقولي (ت نحو 543هـ) بقوله: " وقيل: الهاء تعود إلى الأنداد "[2] ثم قال: " والمعنى يقتضي الأوجه الثلاثة "[3] .

ولم يقتصر الاختلاف على عَوْد الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ على علماء النَّحْو فحسب؛ بل تعدّاه إلى علماء التفسير حيث تباينت آراؤهم في ذلك؛ ممَّا أدَّى إلى اختلافهم في توجيه معنى الآية الكريمة.

وقد اختلف علماء التفسير في عَوْد الضمير إلى أقوال عدّة منها:

القول الأول: قالوا إنَّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم.

وقال بذلك عمر وابن مسعود وابن عباس – رضي الله عنهم – والحسن البصري[4]، ومجاهد، وقتادة[5]، والفرّاء، ومقاتل[6]، وجمهور العلماء[7] – رحمهم الله تعالى –.

وقد رجَّح ذلك أكثر المفسرين المتقدمين، والمتأخرين ومن أشهرهم:

مقاتل (ت150هـ) بقوله: "فأتوا بسورة من الله مثله يعني مثل هذا القرآن"[8] .

---

[1] التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 40/1

[2] إعراب القرآن للباقولي 552/2

[3] المرجع السابق 552/2

[4] انظر: مفاتيح الغيب 349/2، واللباب في علوم الكتاب 435/1، وغَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَان للنَيْسَابُورِي 193/1، وتفسير القرآن للسمعاني 59/1

[5] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 373/1-374، وزاد المسير في علم التفسير 44/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 232/1، وفتح القدير للشوكاني 63/1-64، والنكت والعيون للماوردي 84/1

[6] انظر: زاد المسير في علم التفسير 44/1،

[7] انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1

[8] تفسير مقاتل بن سليمان 93/1

وعبد الرزاق (ت 211هـ) بقوله: " حدَّثنا معمر، عن قتادة، في قوله – تعالى –: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة: 23]، قال: يقول: " بسورة مثل هذا القرآن، حقاً لا باطل فيه، ولا كذب" "[1] .

والطبري (ت 310هـ) بقوله: " فمعنى قول مجاهد وقتادة اللذين ذكرنا عنهما: أنَّ الله – جلَّ ذكره – قال لمن حاجَّه في نبيه مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الكفَّار: فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب، كما أتى به مُحَمَّد بلغاتكم، ومعاني منطقكم "[2].

ثمَّ قال – بعد أن ذكر التأويلات الأخرى –: " والتأويل الأول، الذي قاله مجاهد، وقتادة، هو التأويل الصحيح"[3].

ورجّح هذا القول السمرقندي (ت373هـ) في تفسيره[4]، وابن أبي زمنين (ت399هـ) في تفسيره[5]، والثعلبي (ت427هـ) في تفسيره[6]، والواحدي (ت468هـ) في تفسيره[7]، والبغوي (ت516هـ) في تفسيره[8]،والغزنوي (ت بعد 533هـ) في تفسيره[9]، والزمخشري (ت538هـ) في الكشاف[10]، وابن عطية (ت542هـ) في تفسيره[11]، والنيسابوري (ت نحو 550هـ) في تفسيره[12]، والرازي (ت 606هـ) في تفسيره[13]، والقرطبي (ت 671هـ)[14]، والبيضاوي (ت 685هـ)[15]، والخازن

---

1 الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني (ت 211هـ)، تفسير عبد الرزاق، دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1419هـ، ج1، ص260هـ.

2 جامع البيان للطبري 374/1.

3 المرجع السابق 374/1.

4 انظر: بحر العلوم للسمرقندي 102/1.

5 انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين 127/1.

6 انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 168/1.

7 انظر: التفسير البسيط للواحدي 238/2–239، والتفسير الوسيط 102/1.

8 انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 92/1–93.

9 انظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للغزنوي 45/1.

10 انظر: الكشاف 98/1–99.

11 انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1–107.

12 انظر: غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 193/1.

13 انظر: مفاتيح الغيب 349/2.

14 انظر: الجامع لأحكام القرآن 232/1.

15 انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 57/1.

(ت 741هـ) في تفسيره[1]، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط[2]، والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدر المصون[3]، وابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره[4]، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في تفسيره[5]، وأبو السعود (ت982هـ) في تفسيره[6]، وأبو الفداء (ت 1127هـ) في روح البيان[7]، والشوكاني (ت1250هـ) في تفسيره[8]، والقاسمي (ت1332هـ) في تفسيره[9]، وأبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير[10]، والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره[11].

القول الثاني: قالوا إنَّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يعود إلى مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وقد رجّح هذا القول بعض المفسِّرين ومن أشهرهم:

أبو جعفر الطحاوي(ت321هـ) كما بيّن ذلك السمرقندي (ت373هـ) في تفسيره بقوله: " وكان الفقيه أبو جعفر[12] – رحمه الله – يقول: (الهاء) إشارة إلى النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فكأنه قال: فأتوا بسورة من مثل مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لأنَّه لم يكنْ قرأ الكتب، ولا درس، فأتوا بسورة من رجل لم يقرأ الكتب، كما جاء به مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "[13].

---

[1] انظر: الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي (ت 741هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1415 هـ، ج1، ص31.

[2] انظر: البحر المحيط في التفسير 169/1.

[3] انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1

[4] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1

[5] انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1

[6] انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 64/1

[7] انظر: روح البيان 79/1

[8] انظر: فتح القدير للشَّوكاني، 63/1–64

[9] انظر: محاسن التأويل للقاسمي 268/1

[10] انظر: زهرة التفاسير 165/1

[11] انظر: الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ)، تفسير الشعراوي – خواطر، مطابع أخبار اليوم، 1997 ، ج1، ص167.

[12] هو أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر. ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعيّ، ثم تحول حنفيا.ورحل إلى الشام سنة 268هـ فاتصل بأحمد بن طولون، فكان من خاصَّته، وتوفي بالقاهرة. وهو ابن أخت المزني. من تصانيفه (شرح معاني الآثار) في الحديث، و (بيان السنّة – ط) رسالة، وكتاب (الشفعة– ط) و (المحاضر والسجلات) و (مشكل الآثار – ط)، في الحديث، و (أحكام القرآن) و (المختصر) في الفقه، وشرحه كثيرون، و (الاختلاف بين الفقهاء) وهو كبير لم يتمَّه، و (تاريخ) كبير منه مجلدات مخطوطة في اسطمبول، باسم (مغاني الأخيار في أسماء الرجال ومعاني الآثار) و (مناقب أبي حنيفة). انظر: الأعلام للزركلي 206/1، ووفيات الأعيان لابن خلِّكان 71/1–72.

[13] بحر العلوم للسمرقندي 102/1.

ومُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) بقوله: " وقوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ فيه وجهان: (أحدهما) أنّ الضمير في (مثله) للقرآن المعبّر عنه بقوله: (مما نزلنا)، (والثاني) أنّه لعبدنا، قال شيخنا [1]: وهو أرجح، بدليل " مِنْ " الداخلة على " مثله " الدّالّة على النشوء، أي فإنْ كان أحد ممَّن يُماثِل الرسول بالأمِّيَّة يَقْدِر على الإتيان بسورة فَلْيَفْعل "[2]

وهناك من العلماء من جوَّز القولين، القرآن ومُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومنهم:

الماوردي (ت 450هـ) في تفسيره بقوله: " فأتوا بسورة من مثله " فيه تأويلان: أحدهما: يعني من مثله من القرآن، وهذا قول مجاهد وقتادة، والثاني: فأتوا بسورة من مثل مُحَمَّد – صلى الله عليه وسلم– من البشر؛ لأنّ مُحَمَّداً بشر مثلهم "[3].

والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) بقوله: " " من مثله " قيل: من مثل القرآن، وقيل: من مثل النَّبِيّ – عليه السلام– من البشر تنبيهاً أنّ مثله ليس في طُرُق البشر، و ﴿ مِن ﴾ على الوجه الأول: للتّبعيض، وعلى الثاني: للابتداء "[4].

والطاهر بن عاشور (ت1393هـ) بقوله: " والضمير في قوله: من مثله يجوز أن يعود إلى (ما نزّلنا) أي من مثل القرآن، ويجوز أن يعود إلى عبدنا "[5].

وابن عثيمين (ت1421هـ) بقوله: " ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يحتمل أنْ يكون الضمير عائداً إلى الرسول– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والمعنى: مِنْ مثل مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ويُحتمل أنْ يكون عائداً إلى القرآن المُنزل؛ والمعنى: مِنْ مِثل ما نزّلنا على عبدنا، أي مَنْ جِنْسه؛ وكلاهما صحيح" [6].

---

1 يعني به مُحَمَّد عبده.

2 تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) 160/1.

3 النكت والعيون 84/1.

4 تفسير الراغب الأصفهاني 117/1.

5 التحرير والتنوير لابن عاشور 338/1

6 تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة 82/1

ومِنْ المفسِّرين مَنْ رجّح القول بالقرآن ولكنَّه جَوَّز القول بمُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومِنْهم:

الزمخشري (ت538هـ) بقوله: "والضمير لما نزّلنا، أو لعبدنا، ويجوز أنْ يتعلَّق بقوله: (فَأْتُوا) والضمير للعبد، فإنْ قُلْتَ: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قُلْتُ: معناه فأتوا بسورة مِمَّا هو على صفته في البيان الغريب، وعُلوِّ الطبقة في حُسْنِ النَّظم، أو فَأْتوا ممَّن هو على حاله مِنْ كونه بشراً عربياً، أو أمِّيَّاً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء "[1]. ولكنَّه رجّح القول بالقرآن بقوله: " وردُّ الضَّمير إلى المُنزّل أوْجَه، لقوله – تعالى –: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود: 13]، ﴿ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: 88]، ولأنَّ القرآن جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على أصحِّ الأساليب، والكلام مع ردّ الضمير إلى المُنْزَل أحْسَن ترتيباً " [2].

والواحدي (ت468هـ) بقوله: " ويجوز أن تعود الكناية في مثله إلى قوله: على عبدنا وهو النَّبِيّ– صلى الله عليه وسلم – والمعنى: فأتوا بسورة من رجل أمِّيٍّ لا يُحسن الخط والكتابة، ولم يدرس الكتب"[3].

وشهاب الدين الخفاجي (ت1069هـ) بقوله: " فيجوز أنْ يكون قوله مِنْ مِثل هذا العبد توسيعاً للدائرة، كأنَّه قيل ليأتِ واحد مِنْكم كائناً مَنْ كان بمقدار سورةٍ ما " [4].

القول الثالث: قالوا: إنّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يعود إلى الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور. وهذا الرأي انفرد به المفسِّرون ولم يرد عند النَّحْويين – حسب اطِّلاع الباحث –.

---

[1] الكشاف 98/1

[2] المرجع السابق 99/1

[3] الوسيط في تفسير القرآن المجيد 102/1

[4] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكتابة الراضي على تفسير البيضاوي) 38/2.

وقد ذكر هذا القول ابن عطية (ت542هـ) في تفسيره بقوله: " وقالت طائفة: الضمير في مثله عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور " [1]، والقرطبي(ت671هـ) في تفسيره بقوله: " وقيل: يعود على التوراة، والإنجيل"[2].

القول الرابع: قالوا: إنَّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يعود إلى الأنداد.

وقال بهذا القول أبو البقاء العُكبري (ت616هـ)[3] بقوله: "ويجوز أنْ تعود على الأنداد بلفظ المفرد؛ كقوله – تعالى –: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ ﴾ [النحل 66:] "[4].

ويرى الباحث بعد تتبع أقوال العلماء وآرائهم، أنَّ القول الراجح في هذه المسألة، هو قول القائلين مِنَ النَّحاة والمفسِّرين إنّ الضمير في قوله – تعالى –: ﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، وهذا ما ذهب إليه ابن بدران – رحمه الله تعالى – ورجّحه ودافع عنه مِنْ وجوه [5]. وذلك للاعتبارات الآتية:

---

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 107/1

[2] الجامع لأحكام القرآن 232/1، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 435/1

[3] هو الشيخ، الإمام، العلامة، النَّحْوي البارع، محب الدين، أبو البقاء عبد الله بن الحسين ابن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ثم البغدادي، الأزجي، الضرير، النَّحْوي، الحنبلي، الفرضي، صاحب التصانيف. ولد: سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة. قرأ بالروايات على: علي ابن عساكر البطائحي، والعربية على: ابن الخشاب، وأبي البركات بن نجاح. وتفقه على: القاضي أبي يعلى الصغير مُحَمَّد بن أبي خازم، وأبي حكيم النهرواني، وبرع في الفقه والأصول، وحاز قصب السبق في العربية. وسمع من: أبي الفتح ابن البطي، وأبي زرعة المقدسي، وأبي بكر بن النقور، وجماعة، وتخرج به أئمة. قال ابن النجار: قرأت عليه كثيرا من مصنفاته، وصحبته مدة طويلة، وكان ثقة، متدينا، حسن الأخلاق، متواضعا، ذكر لي أنه أضر في صباه من الجدري. وذكر تصانيفه: صنف (تفسير القرآن) ، وكتاب (إعراب القرآن) ، وكتاب (إعراب الشواذ) ، وكتاب (متشابه القرآن) ، و (عدد الآي) ، و (إعراب الحديث) ، وله (تعليقة في الخلاف) ، و (شرح لهداية أبي الخطاب) ، وكتاب (المرام في المذهب) ، ومصنف في الفرائض، و (شرح الفصيح) ، و (شرح الحماسة) ، و (شرح المقامات) ، و (شرح الخطب)، توفي العلامة أبو البقاء: في ثامن ربيع الآخر، سنة ست عشرة وست مئة، وكان ذا حظ من دين وتعبد وأوراد. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي22/91–93، ووفيات الأعيان لابن خلّكان 100/3–102.

[4] التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 540/1، وانظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1

[5] انظر: جواهر الأفكار ص115–117

1. أنّ هذا القول هو قول أعلم الناس بكتاب الله – عزَّ وجلَّ – وأعرفهم بمراده وهم الصحابة – رضوان الله عليهم – وكبار التابعين [1].
2. أنّ هذا القول هو قول أكثر المحقِّقين[2]، والمفسِّرين[3]، وهو قول الجمهور[4].
3. أنّ الآياتِ الواردةَ في باب التحدي كُلّها تعود إلى القرآن الكريم؛ فكانت هذه الآية مطابقة لآيات التحدي[5]، مِنْ مِثل قوله – تعالى–: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[يونس: 38]، وقوله – تعالى –: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: 13]، وقوله – تعالى–: ﴿ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: 88]، ثم لمّا كان هذا الترتيب الربّاني في القرآن الكريم، وهو جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على أصحّ الأساليب؛ إذ إنّه بدأ بالجزء وانتهى بالكُلّ، فكان عَوْد الضمير في هذه الآية إلى القرآن الكريم أحسن ترتيباً، فيكون الترتيب بسورة من مثله، ثم بسورة مثله، ثم بعشر سور، ثم بمثل هذا القرآن [6].
4. أنّ سياق الآية إنَّما كان في المُنْزَلِ، لا في المُنْزَلِ عليه، فكان هذا مدار البحث والتحدّي، قال– تعالى–: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾، لَزِمَ من ذلك أنْ يعودَ الضمير إلى القرآن الكريم؛ لأنّ الله – عزّ وجلّ – بيّن لهم: أنّكم إنْ كنتم على هذه الحال من الريب، والشّكّ في المُنزَل فَأْتوا بشيء ممَّا يماثله.
5. أنّ الإعجاز كان في المُنزَل لا في المُنزَل عليه؛ لأنّ النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إنّما كان بشراً منهم فاختصّه الله من بينهم؛ ليُلقي عليهم كلاماً من كلامهم امتاز بالكمال، والفصاحة، والبلاغة، والبيان، ولمَّا كانوا أهل فصاحة، وبيان تحدّاهم الله أنْ يأتوا بمثل هذا الكلام، وهو القرآن الكريم؛ فكان واجباً أنْ يعود الضمير إلى المُنزَل لا إلى المُنزَل عليه؛ لأنّ الله – عزّ وجلّ – أراد إظهار كمال

---

[1] انظر: تفسير مقاتل 93/1، وتفسير عبد الرزاق 260/1، وتفسير القرآن للسمعاني 59/1، ومفاتيح الغيب 349/2، وجامع البيان في تأويل القرآن 373/1–374، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 199/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1.

[2] انظر: مفاتيح الغيب 349/2، وغَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 193/1

[3] انظر: البحر المحيط 169/1

[4] انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 106/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1، والجواهر الحسان في تفسير القرآن 197/1، والجامع لأحكام القرآن 232/1.

[5] انظر: مفاتيح الغيب 249/2.

[6] انظر: الكشاف 99/1

كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا إظهار كمال نبيه – صلى الله عليه وسلم– الذي هو بشر منهم.

6. أنّ الإعجاز بالإتيان بمثل هذا القرآن إنّما كان عاماً للثقلين لقوله – تعالى –: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: 88]، فهم عاجزون عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا، أو انفردوا. وسواء أكانوا أُمِّيِّين، أم عالِمين بشتّى أصناف العلوم، وهذا هو الملائم لختمه – تعالى – الآية بقوله: ﴿ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إذ لو كان المراد أنْ يأتيَ أمِّيٌّ على الصّفة التي عليها هذا الأمِّيُّ بمثل ما أتى به لم يَحْتجْ أنْ يَستظهرَ بالشّهداء؛ لذلك فإنّ الله – تعالى – طلب منهم أن يستعينوا بمَنْ شاؤوا مِنْ خلقه زيادةً في التحدّي، وإظهاراً للإعجاز في كلامه.

7. أنّ الإعجاز كان للأمّيّين، والعالِمين، والكتابيِّين، والمشركين، فلو صرفنا الضمير إلى المُنزَل عليه كونه أمِّيّاً لكان الإتيان من غير الأمِّيِّ مُمكناً، وهذا مُحال في الإتيان بمثل كلام الله، فكان عَوْدُ الضمير إلى القرآن أظهر.

8. أنّ الضمير إنّما يعودُ إلى أقرب مذكور إلّا إنْ جاءت قرينة أو دلّ السياق على غير ذلك، ولمّا كانت القرينة وهي قوله – تعالى –: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ ﴾ والسورة بعضٌ من القرآن تدلّ على المذكور الأبعد وهو القرآن فإنّ الضمير يعود إلى ما دلّت عليه القرينة.

9. أنّ القول بأنّ الضمير عائد إلى الأنداد قول ضعيف قاله أبو البقاء العُكبري (ت 616هـ) [1] وردّ عليه السَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756 هـ) في تفسيره بقوله: " قال أبو البقاء: «إنها تعود على الأنداد بلفظِ المفرد كقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ [النحل: 66] قلت: ولا حاجةَ تَدْعو إلى ذلك، والمعنى يَأْباه أيضاً "[2].

وخلاصة القول:

إنّ الضمير في قوله – تعالى–:﴿ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، مُظهِراً – سبحانه– إعجاز كلامه، ومُتحدّياً لهم أنْ يأتوا بمثله. ولمْ ولنْ يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

---

[1] التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 40/1، وانظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 200/1، واللباب في علوم الكتاب 435/1.

[2] الدر المصون 200/1، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 435/1.

المسألة السابعة:

أثر الاستثناء المنقطع في تحديد أصل إبليس في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: 34].

قالَ المُصنِّف – رَحمهُ الله تعالى –: " ثُمَّ لِيُعلمَ أنَّ العلماء اختلفوا في " إبليس" هل هو من الملائكة أم من الجنّ؟ فذهب بعض المتكلمين، ولا سيَّما المعتزلة، ومنهم صاحب الكشاف، إلى أنَّه لم يكن مِنَ الملائكة. وذهب كثير من الفقهاء، إلى أنَّه كان مِنَ الملائكة، ولكلٍّ أدلّة"[1]

ويعودُ هذا الاختلاف الذي أشار إليه ابن بدران إلى معرفة الاستثناء هل هو منقطع أمْ مُتَّصل؟ فمن قال: إنَّ إبليس مِنَ الملائكة عَدَّ الاستثناء متّصلاً؛ أي أنَّ المستثنى مِنْ جنس المستثنى منه، ومَن قال: إنَّ إبليس ليس مِن الملائكة عَدَّ الاستثناء منقطعاً؛ أي أنَّ المستثنى مِن غير جنس المستثنى منه. وكل ذلك جائز في العربية، وقد ورد الاستثناء المنقطع، والمتّصل في كلام العرب وأشعارهم.

وللوقوف على المعنى المراد مِنَ الآية، وإزالة الإشكال، والإبهام في هذه المسألة، لا بُدّ مِنَ الالتفات إلى الاستثناء، وبيان تعريفه، وأقسامه.

فالاستثناء هو: إخراج ما بعد " إلّا "، أو إحدى أخواتها من أدوات الاستثناء، من حكم ما قبله، نحو "جاء التلاميذ إلّا عليّاً ". والمُخرَج يسمى " مستثنىً "، والمُخرَج منه " مستثنىً منه "[2].

وهو قسمان: متّصل، ومنقطع.

فالمتّصل ما كان مِنْ جنس المُسْتَثْنَى مِنْهُ، نحو " جاء المسافرون إلّا سعيداً ".

---

[1] جواهر الأفكار ص170.

[2] الغلاييني، مصطفى بن مُحَمَّد سليم (ت 1364هـ)، جامع الدروس العربيّة، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط28 1414هـ، ج3، ص127، وانظر: القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت 684هـ)، الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، الناشر عالم الكتب، (د. ت)، ج3، ص86، وابن الصائغ، مُحَمَّد بن حسن بن سباع (ت 720هـ)، اللّمحة في شرح الملحة، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة – المملكة العربية السعودية، ط1 1424هـ، ج1، ص66، واليعقوب، عبد الله ابن يوسف بن عيسى، المنهاجُ المُخْتَصَر في عِلْمَي النَّحْو والصَّرف، مُؤَسَّسَة الرَّيَّان، بيروت – لبنان، ط3 1428هـ، ص109.

والمنقطع ما ليس مِن جنس ما استُثْنِيَ منه، نحو " احترقت الدّار إلّا الكتب "[1]. وأنه منصوب أبداً، والرفع فيه شاذٌّ حكاه أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ)[2] [3]، ولكنّ جناح بن حُبيش قرأ " إلّا إبليسُ" بالرفع، وقيل هذه قراءة الكوفيِّين، وتكون إلّا بمعنى الواو أو لكن[4]. قال أبو جعفر النَّحَّاس (ت338هـ): " فسجدوا إلَّا إبليسَ نُصِبَ على الاستثناء؛ لا يجوز غيره عند البصريين؛ لأنَّه موجب، وأجاز الكوفيون الرفع "[5].

وقال الأنباريُّ (ت 577هـ): " ذهب الكوفيُّون إلى أنَّ " إلَّا " تكون بمعنى الواو، وذهب البصريون إلى أنَّها لا تكون بمعنى الواو"[6]. وبناءً على قراءة الكوفيِّين بالرَّفع؛ فإنَّ تأويل الآية يكون فسجدوا – أي الملائكة – وإبليس أبى، واستكبر فتخرج أداة الاستثناء عن عملها، وتبقى القاعدة على أصلها في أنّ الاستثناء المنقطع منصوب أبداً، ولعلَّ هذا ما دفع أبا عمرو بن العلاء إلى القول بشذوذ قراءة الرفع. وكذا القول فيمن عَدَّها بمعنى غير، أو لكن.

---

[1] جامع الدروس العربية للغلاييني 127/3، وانظر: حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفيّة ابن مالك 2 / 209، واللُّمْحَة في شرح المُلْحَة لابن الصائغ 457/1 –459، والمنهاجُ المُخْتَصَر في عِلْمَي النَّحْو والصَّرف ص110، وابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان ابن عمر بن أبي بكر(ت 646هـ)، أمالي ابن الحاجب، تحقيق د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار – الأردن، دار الجيل – بيروت، ط1 1409هـ، ج2، ص708.

[2] هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري. ورأيت بخطي في مسوداتي: هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار ابن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويقال: جلهم بن حجر بن خزاعي، واسمه العريان؛ أحد القراء السبعة، كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النَّحْو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب – رضي الله عنه–. قال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: لقد علمت من النَّحْو ما لم يعلمه الأعمش وما لو كتبُ لما استطاع أن يحمله. وقال أيضاً: سألت أبا عمرو عن ألف مسألة، فأجابني فيها بألف حجة. وكان أبو عمرو رأساً في حياة الحسن البصري مقدما في عصره. وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرأ – أي تنسك – فأخرجها كلها، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية. قال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامي. انظر: وفيات الأعيان 466/3، وسير أعلام النبلاء 407/6–409.

[3] الهَرَمِيّ، عمر بن عيسى بن إسماعيل (ت 702هـ)، المحرَّر في النَّحْو، تحقيق أ.د. منصور علي مُحَمَّد عبد السميع، دار السلام، مصر– القاهرة – الإسكندرية، ط2 1429هـ، ج2، ص895.

[4] الخطيب، عبد اللطيف مُحَمَّد، معجم القراءات، دار سعد الدين، مصر – القاهرة، ط2 1430هـ،ج1، ص80.

[5] إعراب القرآن للنَّحَّاس 45/1

[6] الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحْويين: البصريين والكوفيين 216/1.

وقد اختلف العلماء في كون إبليس من الملائكة حتى استثني منهم أم لا ؟ على قولين:

القول الأوَّل: ذهب الجمهور إلى أنَّه كان من الملائكة، وجُعِلَ الاستثناء ها هنا متّصلاً، أي مِن جنس المستثنى مِنه وهم الملائكة وقال بذلك:

ابن قتيبة (ت 276هـ) في غريب القرآن بقوله: " وقال بعض المفسِّرين في قوله: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾ [الكهف: 50]؛ أي مِن الملائكة " [1]. بمعنى أنَّه مُتَّصلٌ مِن جنس المستثنى.

والطبري(ت310هـ) في تفسيره[2]، والثعلبي(ت427هـ) في تفسيره[3]، والواحدي(ت 468هـ)[4] في تفسيره[5]، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: "والأول أَصَحّ – يعني قول ابن عباس وأكثر المفسِّرين: كان إبليس من الملائكة –؛ لأنّ خطاب السجود كان مع الملائكة "[6]، وابن عطيّة (ت 542هـ) في تفسيره بقوله: " وقوله – تعالى –: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ نُصِبَ على الاستثناء المُتَّصل؛ لأنَّه مِن الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية " [7]، والقرطبيُّ (ت 671هـ) في تفسيره بقوله: " قوله ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ نُصِبَ على الاستثناء المُتَّصِل؛ لأنَّه كان مِن الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المسيّب، وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن،

---

[1] ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ)، غريب القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ، ج1، ص21.

[2] انظر: جامع البيان في تأويل القرآن 1/501-508.

[3] انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 1/181.

[4] هو أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي بن متويه الواحدي المتوي صاحب التفاسير المشهورة؛ كان أستاذ عصره في النَّحْو والتفسير، ورزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها وذكرها المدرسون في دروسهم، منها (البسيط) في تفسير القرآن الكريم، وكذلك (الوسيط) وكذلك (الوجيز)، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب (أسباب النزول) و (التحبير في شرح أسماء الله تعالى الحسنى) وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي شرحاً مستوفى، وليس في شروحه مع كثرتها مثله وكان الواحدي المذكور تلميذ الثعلبي صاحب التفسير – المقدم ذكره في حرف الهمزة – وعنه أخذ علم التفسير وأربى عليه، وتوفي عن مرض طويل في جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور، رحمه الله تعالى. انظر: وفيات الأعيان 3/303-304، وسير أعلام النبلاء 18/339-342.

[5] انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد 1/120.

[6] انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 1/104.

[7] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 1/124.

ورجَّحه الطبري، وهو ظاهر الآية "[1]، والنَّسفي (ت 710هـ)[2] بقوله:"﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ الاستثناء متصل؛ لأنَّه كان مِن الملائكة، كذا قاله علي، وابن عباس، وابن مسعود – رضي الله عنهم– ولأنَّ الأصل أنَّ الاستثناء يكون مِن جنس المستثنى منه "[3]، والخازن (ت 741 هـ) في تفسيره[4]، وأبو حيَّان (ت 745هـ) في تفسيره بقوله: " والظَّاهر أنَّه استثناء متّصل لتوجُّه الأمر على الملائكة، فلو لم يكن منهم لما توجَّه الأمر عليه، فلم يقع عليه ذمٌّ لتركه فعل ما لم يؤمر به "[5]، وابن عادل (ت 775هـ) في تفسيره بقوله: " وهل هو استثناء متّصل أو منقطع؟ خلافٌ مشهور، والأصحُّ أنَّه متّصل "[6]، والسُّنيكي (ت 926هـ) بقوله: "وثانيهما وهو المختار أنَّه مِن الملائكة "[7]، والشَّربيني (ت 977هـ) بقوله: " وأنّ إبليس كان من الملائكة، و إلّا لم يتناوله أمرهم، ولم يصحَّ استثناؤه منهم "[8]، والألوسي (ت 1270هـ) في تفسيره[9]، ومُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره[10]، وصاحب الدّر المصون في تفسيره بقوله: " قوله – تعالى –:﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [إلّا] حرف استثناء، و" إبليس" نصب على الاستثناء. وهل نصبه بإلّا وحدها، أو بالفعل وحده، أو به بوساطة إلّا، أو بفعل محذوف أو بـ "أنّ "؟ أقوال، وهل الاستثناء متّصل، أو منقطع؟ خلاف مشهور، والأصحُّ أنَّه متّصل"[11].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن 294/1.

[2] هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسفي، أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسِّر، من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبته إلى " نسف " ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند. له مصنفات جليلة، منها (مدارك التنزيل)، في تفسير القرآن، و (كنز الدقائق – ط) في الفقه، و (المنار – ط) في أصول الفقه و (كشف الأسرار – ط) شرح المنار، و (الوافي) في الفروع، و (الكافي) في شرح الوافي، و (المصفى) في شرح منظومة أبي حفص النسفي، في الخلاف، و (عمدة العقائد). انظر: الأعلام للزركلي 67/4–68.

[3] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي80/1.

[4] لباب التأويل في معاني التنزيل 37/1.

[5] البحر المحيط 248/1.

[6] اللباب في علوم الكتاب 539/1.

[7] السنيكي، زين الدين أبو يحيى زكريا بن مُحَمَّد بن أحمد بن زكريا (ت 926هـ)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، ط1 1403هـ، ص343.

[8] الشربيني، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ)، السِّراج المُنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ط 1285هـ، ج1، ص48.

[9] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 327/4.

[10] تفسير المنار 221/1.

[11] الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون 273/1.

القول الثاني: فيما ذهب فريق آخر إلى أنَّه لم يكن مِن الملائكة، وجعل الاستثناء ها هنا منقطعاً أي من غير جنس المستثنى منه وهم الملائكة، وقال بذلك:

الزّجاج (ت 311 هـ) بقوله: " وهذا القول هو الذي نختاره؛ لأنَّ إبليس كان من الجنِّ كما قال –عزَّ وجلَّ – " [1].

وأبو جعفر النحاس (ت 338هـ) في إعراب القرآن بقوله: " إلَّا إبليس قال أبو إسحق: استثناء ليس مِن الأوَّل، يذهب إلى قول من قال: إنَّ إبليس ليس مِن الملائكة، ولا كان منهم "، وهذا قولٌ صحيحٌ يدلُّ على أنَّ الله – جلّ وعزّ – أخبرنا أنَّه خلق الجانَّ مِن نار، والملائكة لم تُخلق من نار "[2].

والقصّاب (ت نحو 360هـ)[3] في النُّكت بقوله: " فإنْ قيل: فما معنى قوله:﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وإبليسُ مِن الجنِّ لا مِن الملائكة بقوله في سورة الكهف: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [الكهف:50]، قيل: هو – والله أعلم – مُستثنى مِن السَّاجدين؛ لأنَّهم وإنْ كانوا ملائكة وإبليس جنّياً فكان في جملة المأمورين بالسجود؛ لكينونته كان معهم حينئذ "[4].

والجصّاص (ت 370هـ)[5] في أحكام القرآن بقوله: " قوله – تعالى –: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ فيه بيان أنَّه ليس مِن الملائكة؛ لأنَّه أخبر أنَّه مِن الجنِّ، وقال – تعالى –: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ

---

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 114/1.

[2] إعراب القرآن 240/2، وانظر: معاني القرآن للنَّحَّاس 14/3.

[3] هو الإمام، العالم، الحافظ، أبو أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكرجي الغازي المجاهد.وعرف بالقصَّاب لكثرة ما قتل في مغازيه. وكان والده من أصحاب علي بن حرب الطائي.حدث عن: أبيه وصنف كتاب (ثواب الأعمال) ، وكتاب (عقاب الأعمال)، وكتاب (السنة)، وكتاب (تأديب الأئمة) ، وأشياء. وعاش إلى حدود الستين وثلاثمئة. انظر: سير أعلام النبلاء 213/16.

[4] القصّاب، أبو أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكَرَجي (ت نحو 360هـ)، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، تحقيق ج1 علي بن غازي التويجري، ج2 إبراهيم بن منصور الجنيدل ، دار القيم – دار ابن عفان، ط1 1424هـ، ج2، ص43.

[5] هو أحمد بن علي الرَّازي، أبو بكر الجصاص: فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها. انتهت إليه رئاسة الحنفية. وخوطب في أن يلي القضاء فامتنع. وألف كتاب (أحكام القرآن – ط) وكتابا في (أصول الفقه – خ) مصور، في معهد المخطوطات بالقاهرة. انظر: الأعلام للزركلي 171/1.

خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: 72]، فهو جنس غير جنس الملائكة كما أنَّ الإنس جنس غير جنس الجنّ " [1].

وابن أبي زَمَنين (ت 399 هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ منصوب باستثناء ليس مِن الأوَّل، كما قال – عزَّ وجلَّ –:﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ﴾ [الشعراء: 77] والمعنى: لكنّ إبليس أبى أنْ يكون، هذا على مذهب من قال: إنَّ إبليس لم يكن مِن الملائكة " [2].

ومَكِّي (ت 437هـ) في مُشْكِل إعراب القرآن بقوله: " قوله ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ إبليس نُصِبَ على الاستثناء المنقطع "[3].

والزَّمَخْشريُّ (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " إلَّا إبليس استثناء مُتَّصل؛ لأنَّه كان جنّياً واحداً بين أَظْهُر الأُلوف مِن الملائكة مغموراً بهم، فَغَلَبُوا عليه في قوله: (فَسَجَدُوا) ثم اسْتُثْنِيَ مِنهم استثناء واحد منهم، ويجوز أنْ يُجعل مُنقطعاً؛ أي امْتَنَعَ بما أُمِرَ به، واسْتَكبرَ عنه، وكان مِن الكافرين مِن جنس كفرة الجنّ، وشياطينهم "[4].

وأبو البقاء العُكبري (ت 616هـ) في التبيان بقوله: " ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾: استثناء منقطع؛ لأنّه لم يَكُنْ مِن الملائكة "[5].

---

[1] الجصّاص، أحمد بن علي أبو بكر الرّازي (ت 370هـ)، أحكام القرآن، تحقيق مُحَمَّد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط 1405هـ،ج5، ص43.

[2] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين 384/2.

[3] مشكل إعراب القرآن لمَكّي 87/1.

[4] الكشاف 127/1.

[5] التبيان في إعراب القرآن للعُكبري 51/1.

وابن كثير (ت 774هـ)[1] في تفسيره بقوله: " والغرض أنَّ الله – تعالى – لمّا أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنَّه – وإنْ لم يكن مِنْ عُنْصُرِهم – إلَّا أنَّه كان قد تَشَبَّه بهم، وتوسَّم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذُمَّ في مخالفة الأمر ".[2]

ومُحَمَّد الطاهر عاشور (ت 1393هـ) في تفسيره بقوله: " واستثناء إبليس مِن ضمير الملائكة في فَسَجَدُوا استثناءٌ مُنقطعٌ؛ لأنَّ إبليس لمْ يَكُنْ مِنْ جنس الملائكة "[3].

وأبو زهرة (ت 1394 هـ) في تفسيره بقوله: " وإذا لم يَكُنْ مِنهم، فإنَّ الاستثناء يكون مُنقطعاً ولكنَّ الخطاب مُوَجَّه إليه لصحبته لهم "[4].

والشعراوي (ت 1418هـ) بقوله: " وهكذا حَسَمَ الحقُّ – سبحانه – الأَمْرَ بأنَّ إبليس ليس مِن الملائكة، بل هو مِن الجنّ "[5].

وابن العُثَيْمين (ت 1421هـ) بقوله: " إنَّ إبليس كان مُشاركاً لهم في أعمالهم ظاهراً، فكان توجيه الأَمرِ شاملاً له بحسبِ الظاهر، وقد يُقال: إنّ الاستثناءَ مُنقطعٌ، والاستثناءُ المُنقطعُ لا يكون فيه المستثنى مِنْ جِنْسِ المستثنى مِنْهُ " [6].

---

[1] هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقيّ، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ مؤرخ فقيه. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة 706 هـ ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق. تناقل الناس تصانيفه في حياته. من كتبه (البداية والنهاية) في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثير انتهى فيه إلى حوداث سنة 767 و (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (طبقات الفقهاء الشافعيين)، و (تفسير القرآن الكريم) و (الاجتهاد في طلب الجهاد) و (جامع المسانيد)، و (اختصار علوم الحديث) رسالة في المصطلح شرحها أحمد مُحَمَّد شاكر، بكتاب (الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث – ط) و (اختصار السيرة النبويّة) طبع باسم (الفصول في اختصار سيرة الرسول) و (رسالة في الجهاد – ط) و (التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل) في رجال الحديث. انظر: الأعلام للزركلي 320/1.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 230/1.

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور 423/1.

[4] زهرة التفاسير 197/1.

[5] تفسير الشعراوي – الخواطر 7696/12.

[6] تفسير العثيمين 127/1.

والماتُريديُّ (ت 333هـ) في تفسيره[1]، والزَّركشيُّ (ت 794هـ) في البرهان[2]، والسُّيوطيُّ (ت 911هـ) في الإتقان[3]، ودَامَاد أَفَنْدِي (ت 1078هـ)[4] في مَجْمَع الأنهر[5].

وفاضل السامِرَّائي بقوله: " فإبليس ليس مِن الملائكة بل هو مِن الجنّ، والجنّ ليسوا من الملائكة"[6].

وصلاح الخالدي بقوله: "وإبليس شيطان لأنَّه أوَّل كافر، وهو مِن الجنّ بنصِّ القرآن، قال–تعالى–: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ ﴾ [الكهف: 50]، فهو جنيٌّ مِن حيث النَّسَبِ والجِنْسِ، وهو شيطان مِنْ حيث الوَصْفِ "[7].

فيما يرى ابن بدران – رحمه الله تعالى – ترجيح القول الأوَّل: وهو أنَّ الاستثناء متّصل بمعنى أنَّ المُستثنى منه مِنْ جِنْسِ المُستثنى، وبناءً على ذلك يكون إبليس مِنَ الملائكة، إذْ يقول: "وهذا الذي تَدُلُّ عليه الآية؛ لأنَّه – تعالى – قال: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [البقرة: 34] فرجّح بأنَّهم هُمُ المأمورون بالسُّجود، وإذا كان إبليس ليس مِنْهُم فلا يكون مأموراً، فكيف يُعَاقَبُ على ترك شيء لم يُؤْمَرْ به، وأمَّا قوله – تعالى – في سورة [الكهف:50]:﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ فلا يُوجِبُ أَنْ لا يكون[8] مِن الملائكة؛ لأنَّ الجنَّ مأخوذ مِن الاجتنان وهو السَّتْرُ "[9].

---

[1] انظر: تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) 368/4.

[2] انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي 310/3.

[3] انظر: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 135/3، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، الإكليل في استنباط التنزيل، تحقيق سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية – بيروت، 1401هـ، ص171.

[4] هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن سليمان، المعروف بشيخي زاده ويقال له الدّاماد: فقيه حنفي، من أهل كليبولي (بتركيا) من قضاة الجيش. له (مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر – ط) مجلدان، فرغ من تأليفه ببلدة أدرنه، و (نظم الفرائد – ط) في مسائل الخلاف بين الماتريدية والأشعرية. انظر: الأعلام للزركلي 332/3.

[5] داماد أفندي، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن سليمان (ت 1078هـ)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج2، ص693.

[6] السامرّائي، فاضل صالح، معاني النَّحْو، دار الفكر، الأردن – عمان، ط5 1432هـ، ج2، ص215.

[7] الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، دار القلم، دمشق، ط1 1428هـ، ص260.

[8] هكذا في الأصل، والصواب ألّا يكون.

[9] جواهر الأفكار ص171.

ومع ذلك فإنَّه – رحمه الله – يرى أنَّ القولين يتفقان في المعنى، ويختلفان في التعبير، بناءً على مَرْوِيَّاتِ ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – التي أخرجها ابن جرير الطَّبري في تفسيره [1]، إذْ يقول: "ولكنْ يُمكن أنْ يرجع القولان إلى الاتفاق في المعنى، والاختلاف في التعبير، فقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره، عن ابن عبَّاس، أنَّه قال: كان إبليس مِنْ حَيٍّ مِنْ أَحياء الملائكة يُقال لهم: الجِنَّ، وقال أيضاً: كان إبليس [قبل أن يرتكب المعصية] من الملائكة. والقولُ الأوَّلُ مَرْوِيٌّ عن كثيرٍ من الصحابة. وقال ابنُ عبَّاس أيضاً: كان مِن أَشرفِ الملائكةِ وأَكرمِهم قبيلة، وكان يقول: لو لم يكنْ مِن الملائكة، لم يُؤْمَرْ بالسجود، انتهى "[2].

ويرى الباحث بعد طول نظر في المسألة، واستقرائها، وتتبُّعِها، وسبْرِ أقوال العلماء فيها أَنَّ الاستثناء في قوله – تعالى –:﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ [البقرة: 34] استثناءٌ مُنقطعٌ، أي إنَّ المستثنى مِنْ غير جنس المستثنى مِنْهُ؛ بمعنى أَنَّ إبليس مِنْ الجنّ وليس مِنْ الملائكة، وذلكَ للاعتباراتِ الآتيةِ:

1. أنَّ الاستثناءَ المنقطعَ مشهورٌ في كلام العرب ووارد في كلامهم، وأشعارهم، وأَمَّا مَنْ قالَ: " إنَّ الاستثناء لا يكونُ مِنْ غيرِ الجنس هذا هو المشهورُ في لغةِ العربِ بِدَلالَةِ أَنَّه لا يَحسُنُ قولَ القائل: " فتح الخبَّازون إلَّا فلاناً " ويريدون" فُلاناً الحدّاد"، ولا يَحسُنُ أَنْ يقولَ: " رأيتُ النَّاس إلَّا حماراً" "[3]، فهذا القولُ عارٍ عن الصحة، وبعيدٌ عن الصواب؛ لأَنَّ علماءَ النَّحْو قد أَثْبَتوهُ في كُتبِهم ونَظْمِهِم، فقد أَثْبَتَهُ سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب بقوله: " وَمِثْلُهُ في الانقطاع مِنْ أَوَّلِه: إنّ لفلان والله مالاً إلّا أَنَّهُ شَقِيٌّ "[4]. وقال – أيضاً –: "هذا بابٌ يُختارُ فيه النصب "؛ لأَنَّ الآخرَ ليس مِنَ النَّوع الأَوَّل وهو لُغةُ أهل الحِجاز، وذلك قولك: ما فيها أحدٌ إلَّا حِماراً " [5].

وقال ابن الحاجب (ت 646هـ) في الكافِيَة: " المستثنى: مُتّصلٌ ومُنقطعٌ "[6].

---

[1] أنظر: جامع البيان 455/1-458.

[2] جواهر الأفكار ص170-171.

[3] الشبلي، أبو عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 769هـ)، آكام المرجان في أحكام الجان، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد الجمل، مكتبة القرآن – مصر – القاهرة، (د. ت) ص209

[4] الكتاب 319/2.

[5] المرجع السابق 319/2.

[6] ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، الكافية في علم النَّحْو، تحقيق صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1 2010 م، ص 25.

وقال ابن مالك (ت 672هـ) في ألفِيَّته:

ما استثنَتِ الَّا مَعْ تَمَامٍ يَنْتَصِبْ   وَبَعْدَ نَفْيٍ أَو كَنَفْيٍ انْتَخِبْ

إِتْبَاعُ ما اتَّصَلَ وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ   وَعَنْ تَمِيمٍ فَيهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ [1]

وقال الشاطبي (ت 790هـ) في المقاصد الشافية: "هذا القسم يعني أَنَّ ما كان واقعاً بعد إلّا مستثنى بها؛ فإنَّه يَنتصبُ إذا كان الكلام تامَّاً لم يُفَرَّغ العاملُ له، وسواءٌ أكان مُتَّصلاً، أو مُنقطعاً، ومثال ذلك: قام القومُ إلّا زيداً... ومثاله في المُنقطع: جاءَني بنو تميمٍ إلَّا زيداً الهاشِمِيُّ، ورأيتُ القومَ كلَّهم إلّا فرسَ بني فلان "[2].

وَ وَرَدَ في القرآن ما يُثبتُ المستثنى المُنقطع في مِثْلِ قولِهِ – تعالى –: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: 89]، وقولِهِ – تعالى –: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: 34–44]، وقولِهِ – تعالى –: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: 751]، وقولِهِ – تعالى –: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: 52–62].

وَوَرَدَ ذلك في أشعارِ العربِ ومِثْلُه قولُ النَّابغةِ [3]:

---

[1] ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، ألفيّة ابن مالك، دار التعاون، (د. ت)، ص31، وانظر: ابن عقيل، عبدالله بن عبد الرحمن (ت 769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، ط20 1400هـ، ج2، ص 209.

[2] الشاطبي، أبو اسحق ابراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق مجموعة من المحققين، معهد البحوث العلمية إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى – مَكَّة المكرمة، ط1 1428هـ، ج3، ص344،

وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفيّة ابن مالك 212/2.

[3] هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانيّ الغطفانيّ المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. من اهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وكان أبو عمرو ابن العلاء يفظله على سائر الشعراء. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. وكان حظيا عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمنا. ثم رضي عنه النعمان، فعاد إليه. شعره كثير، جمع بعضه في (ديوان – ط) صغير. وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولاحشو. وعاش عمرا طويلا. ومما كتب في سيرته (النابغة الذبيانيّ – ط) لجميل سلطان، ومثله لسليم الجندي، ولعمر الدسوقي، ولحنّا نمر، وكلها مطبوعة، وتوفي نحو 18ق هـ. انظر: الأعلام للزركلي 54/3–55.

حَلَفْتُ يَميناً غيرَ ذي مَثْنَوِيَّةٍ[1] ولا عِلْمَ، إلَّا حُسْنَ ظَنٍّ بِصَاحِبِ[2]

وقال الشَّاعر:

لَيْسَ عَلَيْكَ عَطَشٌ ولا جُوْعُ إلّا الرُّقَادَ والرُّقَادُ مَمْنُوعُ[3]

وقال الحارثُ بن عُباد[4]:

والحـربُ لا يَبْقَى لِجَـــا حِمِهَا التَّخَيُّلُ والمِراحُ

إلَّا الفَتَى الصَّبَّارُ في النَّـ جَدَاتِ والفَرَسُ الوَقَاحُ[5] [6]

فمِنْ خِلال ما عَرَضْنا مِنْ أقوالِ علماءِ النَّحْو في الاستثناء المُنقطعِ، والشواهدِ القرآنيةِ، وشعرِ العربِ يَظْهَرُ لِكلِّ ذي لُبٍّ أنَّ الاستثناءَ المُنقطعَ مشهورٌ في كلام العرب لا كما زَعَمَ بعضُهم بعدم مشروعيَّته وجوازه.

وعليه فإنَّ الاستثناء المُنقطع في قوله – تعالى –: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ [البقرة: 34] مُحْتَمَلٌ في لغةِ العربِ لا مُمْتَنِعٌ.

---

[1] يُقَال: حَلَفَ فلانٌ يَمِينا لَيْسَ فِيهَا ثُنْيا، وَلَا ثَنْوَى، وَلَا ثَنِيَّة، وَلَا مَثنَوِيّة، وَلَا اسْتِثْنَاء، كُلُّه وَاحِد. وأَصل هَذَا كلِّه من (الثَّنْى) وَهُوَ الكَفّ والردّ؛ لِأَن الْحَالِف إِذا قَالَ: وَالله لَا أفعل كَذَا وَكَذَا إِلَّا أَن يَشَاء الله غَيْرَه، فقد رَدّ مَا قَالَه، بمَشيئة الله غَيره. تهذيب اللغة للأزهري، باب الثاء والنون102/15، وانظر: لسان العرب، فصل الثاء المثلثة 124/14، وتاج العروس، باب ثوي 305/37.

[2] النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب (ت نحو 18ق هـ)، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3 1416، ص29، وانظر: الكتاب لسيبويه 322/2.

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 294/1.

[4] الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري، أبو منذر: حكيم جاهلي. كان شجاعا، من السادات، شاعرا. انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب. وفي أيامه كانت حرب (البسوس) فاعتزل القتال، مع قبائل من بكر، منها يشكر وعجل وقيس. ثم إن المهلهل قتل ولدا له اسمه بجير، فثار الحارث ونادى بالحرب، وارتجل قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله (قربا مربط النعامة مني) أكثر من خمسين مرة، والنعامة فرسه، فجاؤوه بها، فجز ناصيتها وقطع ذنبها – وهو أول من فعل ذلك من العرب فاتخذ سنة عند إرادة الأخذ بالثأر – ونُصرت به بكر على تغلب، وأسر المهلهل فجزَّ ناصيته وأطلقه، وأقسم أن لا يكف عن تغلب حتى تكلمه الأرض فيهم، فأدخلوا رجلا في سرب تحت الأرض ومر به الحارث فأنشد الرجل: (أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض). فقيل: بر القسم: واصطلحت بكر وتغلب. وعمَّر الحارث طويلا، وتوفي نحو 50 ق. هـ. انظر: الأعلام للزركلي 156/2.

[5] وقح: الوَقَاحُ: الحافر الصُّلب، والنّعت وقاح، الذَّكَر والأنثى فيه سواء. والجميع: وُقُحٌ ووُقَّحٌ. ورجل وَقاح الوجه صُلْبُه: قليلُ الحياء. وقد وَقُحَ وَقاحةً وقِحَةً. الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، باب الحاء والقاف 3ج، ص256.

[6] البكري: أبو منذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة (ت نحو50 ق.هـ)، ديوان الحارث بن عباد، جمعه وحققه أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث " المجمع الثقافي "، أبو ظبي– الإمارات العربية المتحدة، ط1 1429هـ، ص242. وانظر: الكتاب لسيبويه 324/2، والنكت في القرآن الكريم للقيرواني 134/1.

2. أنَّه في اللغة يُمْكنُ إعطاءُ الشيءِ حُكْمَ غَيرِه، فيكونُ تَغليبُ الجنسِ كثير الأَفرادِ على فردٍ مِنْ غيرِ هذا الجنسِ مغمورٌ فيما بينهم بأَنْ يُطلقَ اسمُ الجنس على الجميع، كقوله – تعالى –:﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر: 30] وأَنَّه عُدَّ مِنْهُم مع أَنَّه كان مِن الجنِّ؛ تغليباً لكونِه جِنِّيَّاً واحداً فيما بينهم [1]. وهذا جائزٌ في اللغةِ غيرَ مُحالٍ ولا مُمْتَنِعٍ.

وعليه فإِنَّ قولَه – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ ﴾ [البقرة: 34] من بابِ تَغليبِ جِنْسِ الملائكةِ على جِنْسِ إبليس الذي ليس مِنْ جِنْسِهِم.

3. أَنَّ إبليس ليس مِنْ جنس الملائكة للأسباب الآتية:

أ. اختلافُ أَصلِ خِلقةِ كُلٍّ مِنْهُما؛ فالملائكةُ خُلقتْ مِنْ نُورٍ، والجِنُّ خُلقتْ مِنْ نارٍ، ودليلُ ذلك مِنْ القرآن الكريم بقوله – تعالى –:﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ ﴾ [الحجر: 27] وأيضاً ما أَخْبَرَ به إبليسُ عَنْ نفسِه بقوله – تعالى –:﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ ﴾ [الأعراف: 12]، أمّا عَنْ خَلْقِ الملائكة فقد ثبتَ في صحيح مسلمٍ مِنْ حديثِ عائشةَ– رضي الله عنها –، أَنَّها قالتْ: قال رسولُ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " خُلِقَتْ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممّا وُصِفَ لكم " [2]، وأَمَّا القولُ بأَنَّ النُّورَ، والنَّارَ بمعنى فهذا بعيدٌ؛ لأَنَّ صِفَةَ وَمَاهِيَّة النُّورِ تَخْتَلِفُ عَن النَّار وهذا ظاهرٌ، ثُمَّ إِنَّ اقترانَهما في حديث النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دَلَّ على أَنَّ النُّور مُخْتَلِفٌ تماماً عَن النَّار، وعليه فإِنَّ النَّار ليست مِنْ جَوهَرِ النُّور.

فيَظْهَرُ جليّاً مِن الأَدِلَّةِ الواردةِ آنِفاً اخْتلافُ أَصلِ خِلقَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، وعليه فإِنَّ جِنْسَ الملائكة غير جِنْسِ إبليس؛ ولهذا استُثْني استثناءً مُنقطعاً عنهم، فدَلَّ ذلك على أنَّه ليس مِن الملائكة.

ب. أَنَّ الملائكة جُبِلوا وفُطِروا على العِصْمَةِ، وعدم الزَّلل، أو المَعْصيَةِ، أو الكُفْرِ، إِذْ إِنَّه مُحالٌ مِنْ أَحَدِهم ارتكابُ شيءٍ مِنْ ذلك، كما وَصَفَهُم الله – عزَّ وجلَّ – في كتابه فقال: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

---

[1] البرهان في علوم القرآن للزركشي 310/3، وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 135/3، ونواهد الأبكار وشوارد الأفكار للسيوطي 199/2، مفتاح العلوم للسَّكَّاكي، ص242.

[2] صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب في خَلْق الملائكة والجان وآدم، حديث رقم 7605 [60–2996]، 226/8، ورواه أحمد في المسند برقم 24668، والبيهقي في السنن الكبرى برقم 18207، وابن حبان في صحيحه برقم 6155.

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: 6]، وقال – تعالى –: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الانبياء: 26–27]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل: 49–50]، فلمّا ارتكبَ إبليسُ المَعصيةَ في عَدَمِ امْتِثالِ أَمْرِ ربِّه بالسجودِ لآدمَ دَلَّ على أَنَّهُ ليسَ مِنْ جِنْسِهِم مِنْ حيث العِصْمَة، وعدم ارتكابِ المعصيةَ والكفر؛ لأَنَّ الملائكة معصومون مِن الخطأِ، ومجبولون على الطَّاعة؛ لذلك استثناه اللهُ في امتثال الأمر، والسجود لآدم بقوله: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ .

ج. أَنَّ اللهَ – عزَّ وجلَّ – صَرَّحَ في كتابِه أَنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكةِ، وإِنَّما هو مِنَ الجِنِّ، والجِنُّ غير الملائكةِ بقولِه: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: 50].

فهذا دَليلٌ صريحٌ واضحٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ أَنَّ إبليسَ كان مِنَ الجِنِّ، وليسَ مِنَ الملائكةِ، وأَمَّا القول بأَنَّ الجِنَّ في هذه الآيةِ بمعنى الاستِتَارِ فهذا تأويلٌ بَعيدٌ؛ لأَنَّ قولَهُ – تعالى –: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ إنَّما هو بَيَانُ سَبَب تركه للسجود؛ لكونِهِ جِنِّيَّاً لا لِكونِهِ مُستَتِرَاً؛ لأَنَّ الجنسين يشتركان في هذه الصِّفَةِ، ثُمَّ إِنَّ اقترانَهُما في الآيةِ نَفْسِها يَدُلُّ على تَبَايُنِهما، وَتَغَايُرِهِما، وَأَنَّهُما مِنْ جِنْسَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لقوله – تعالى–: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ:40–41] فَصَرَّحَتْ الآيَةُ في الفَرْقِ بَيْنَ الجِنِّ والمَلائكَةِ فَلَمَّا كان الأَمْرُ كذلك كان المُسْتَثْنى مُنْقَطِعاً مِنْ غَيْرِ جِنْسِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ.

4. أنّ الأَمْرَ إِنَّمَا يَشْمَلُ جُمْلَةَ المخاطَبين، ويَتَعَيَّنُ على آحادِهِم إِلَّا إِنْ دَلَّت القرائِنُ على عَدَمِ شُمُولِهِ فيهِم؛ فإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ جُمْلَتِهِم، ولا يَقَعُ عليه الأَمْرُ. وَلَمَّا كان إبليسُ مِنْ جُمْلَتِهِم وفي صُحْبَتِهِم وَكَانَ يَعْبُدُ اللهَ بِعِبَادَتِهِم، كانَ مِنَ المَشْمُولِين بالأَمْرِ بالسُّجُودِ لآدَمَ، لا سِيَّمَا مع عَدَمِ وُجُودِ قَرِينَة تُخْرِجُهُ مِنْ ذَلِكَ. بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ جِنْسِهِ، فكانَ لِزاماً عَليهِ امْتِثَالُ أَمْرِ رَبِّهِ، بَلْ إِنَّ القرائِنَ تَدُلُّ على أَنَّهُ خُصَّ

بالأَمْرِ بقولِه – تعالى –: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: 12]، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ شُمُولَهُ بالأَمْرِ لا يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ جِنْسِهِمْ فَدَخَلَ مَعَ الملائكةِ بالطاعَةِ، وَالأَمْرِ، وَخَرَجَ مِنْهُم بِالمَعْصِيَةِ؛ لِذَلِكَ خَصَّهُ اللهُ بِالاستِثْنَاءِ بِقَولِه: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾.

5. أَنَّ جُلَّ ما وَرَدَ مِنْ آثارٍ عَنِ ابْنِ عبَّاس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ إنَّمَا هو مِنَ الإسرائيليَّات فَضْلاً عَنْ أَنَّ بَعْضَهَا ضَعِيفٌ، قال ابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره: " وقال السُّدِّيُّ في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرّة، عن ابن مسعود، وعن أُناس مِن أَصحاب النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمَّا فرغ اللهُ مِنْ خَلْقِ ما أَحَبَّ استوى على العَرْشِ، فَجَعَلَ إبليسَ على مُلكِ السَّماءِ الدُّنيا، وكان مِنْ قَبيلةٍ مِنَ الملائكةِ يُقالُ لهم الجِنَّ، وإنَّما سُمُّوا الجِنَّ؛ لأَنَّهم خُزَّان الجَنَّة، وكان إبليس مع مُلكِهِ خازِناً " [1]، ثُمَّ ذَكَرَ الحديثَ بِتَمَامِهِ ثُمَّ عَلَّقَ عليه بقوله: "فهذا الإسنادُ إلى هؤلاءِ الصَّحابةِ مَشهورٌ في تفسير السُّدِّيُّ، وَيَقَعُ فيه إسرائيليَّات كثيرةٌ، فَلَعَلَّ بَعْضَهَا مُدرَجٌ ليس مِنْ كلامِ الصَّحابة، أو أَنَّهُم أَخَذُوهُ مِنْ بعض الكُتُبِ المُتقدِّمة، واللهُ أَعْلَم " [2].

وقال الألبانِيُّ (ت 1420هـ) في السِّلْسِلَةِ الضَّعيفة: " وما يُرْوَى عَنِ ابن عبَّاسٍ في تفسير قوله:﴿ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أَيْ مِنْ خُزّانِ الجِنَان، وَأَنَّ إبليسَ كان مِنَ الملائكةِ، مِمَّا لا يَصِحُّ إِسْنَادهُ عَنْهُ"[3].

بَلْ إِنَّهُ ورد مِنَ الآثار الصَّحيحة ما يُبطِلُ هذه الآثار، ويُعارِضُها ومِنْها: قولُ الحَسَن البصريُّ– رحمه الله تعالى –: " آدَمُ أَصْلُ الإِنْسِ وإِبْلِيسُ، أَصْلُ الجِنِّ "[4].

وقال – أيضاً –: " مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ المَلائِكَةِ طَرْفَة عَيْنٍ قَطّ، وإِنَّهُ لأَصْلُ الجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَصْلُ الإِنْسِ " [5]. وقالَ ابنُ كَثير: "وهذا إِسْنادٌ صَحِيحٌ مِنَ الحَسَنِ " [6].

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 228/1–229، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 458/1، حديث رقم 607.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 230/1.

[3] الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي (ت 1420هـ)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط1 1412هـ، ج2، ص312، وانظر: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين بن الحاج نجاتي (ت 1420هـ)، موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر، صَنَعَهُ شادي بن مُحَمَّد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث، صنعاء – اليمن، ط1 1431هـ، ج8، ص23.

[4] الأصبهاني، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن جعفر (ت 369هـ)، العظمة، تحقيق رضاء الله بن مُحَمَّد إدريس المباركافوري، دار العاصمة– الرياض، ط1 1408هـ، ج5، ص1572.

[5] جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 506/1، حديث رقم 696، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 567/9.

[6] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 231/1.

وقال – أيضاً –: " قاتلَ اللهُ أَقواماً يَزعُمُونَ أَنَّ إبليسَ كان مِنَ ملائكةِ اللهِ، والله – تعالى – يقول: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ "[1].

وعليه فإنَّ هذه الآثار الصَّحيحة تُغنينا عن ذكر الإسرائيليَّات، أو الآثار الضعيفة، إذْ لا مُعَوَّلَ عليها في بيان حُكْمٍ، أو إسنادِ قولٍ، على الرغم مِنْ أَنَّ جُلَّ من قال: إنّ إبليس من الملائكة اعتمد على هذه الآثار الضَّعيفة، أو الإسرائيليَّات. ومنهم ابن بدران – رحمه الله – وهذا ما دفعه إلى القول: "ولكنْ يمكن أنْ يَرجعَ القولان إلى الاتِّفاق في المعنى، والاختلاف في التَّعْبير"[2]. ثُمَّ أورد أحاديث ابن عبَّاس الظَّاهر ضَعْفها؛ لمخالفتها الوَحْيَيْنِ القرآنَ والسُّنَّةَ الصَّحيحة. ثُمَّ إنَّه بعد ذلك يُرَجِّحُ قَوْلَ القائلين إنَّ إبليس كان مِنَ الملائكةِ.

وَخُلاصَةُ القَوْلِ:

إنّ الاستثناءَ في قوله – تعالى –: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾، مُنْقَطِعٌ عَنِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ؛ لأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ جنسه، وأنّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – ذَكَرَ الملائكة مِنْ باب التَّغْليب، وإعطاءِ الشَّيءِ حُكْمَ غَيْرِهِ. فهو مع الملائكة بِصُوَرِتِه، وَهَيْئَتِهِ، وليس مِنْهُم بِخِلْقَتِهِ، وَأَصْلِهِ، فالملائكةُ مِنْ نُورٍ، وهو مِنْ نار، فيكون إبليسُ مِنَ الجِنِّ لا مِنَ المَلائِكَةِ.

وقد سُئِلَتِ اللَّجنَةُ الدَّائمةُ للبُحوثِ العلميةِ، والإفتاءِ: هل إبليسُ مِنَ الجِنِّ أَمْ مِنَ الملائكةِ؟. فَأَجابَتْ: إبليسُ مِنَ الجِنّ، وليس مِنَ الملائكة، قال – تعالى –: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [الكهف: 50]، وقال – تعالى –: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ ﴾ [الرحمٰن: 14–15]، وقالَ – صلى الله عليه وسلم–: " خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إبليسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم "[3]، وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: "ما كانَ إبْلِيسُ مِنَ المَلائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَطُّ، وَإِنَّهُ لَأَصْلُ الجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ

---

[1] ابن أبي حاتم، أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن إدريس (ت 327هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق أسعد مُحَمَّد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط3 1419هـ، ج7، ص2366، حديث رقم 12843، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 9/567–568.

[2] جواهر الأفكار لابن بدران ص170.

[3] مسند أحمد ط الرسالة 42 / 109، حديث رقم 25194، وصحيح مسلم 8 / 226، برقم 7605–[60–2996]، كتاب الآداب: باب في خلق الملائكة والجان وآدم.

أَصْلُ الإِنْسِ " [1]، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ، وَلكِنْ خَانَ إِبْلِيسَ الطَّبْعُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ المَلائِكَةِ، وَتَشَبَّهَ بِهِم، وَتَعَبَّدَ، وَتَنَسَّكَ مَعَهُمْ، فَلِهَذَا دَخَلَ في خِطَابِهِم، وَعَصَى بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ بِالسُّجُودِ.

عضو	عضو	عضو	عضو	عضو
بكر أبو زيد	عبد العزيز آل الشيخ	صالح الفوزان	عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان

نائب رئيس اللجنة	الرئيس
عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن عبد الله بن باز "[2].

---

[1] جامع البيان في تفسير آي القرآن للطبري، 1 / 506، حديث رقم (696).

[2] انظر: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة – المجموعة الاولى، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويّش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الإدارة العامة للطبع – الرياض، فتوى رقم (7815)، ج3، ص 509، وانظر: المجموعة الثانية فتوى رقم (16370)، ج2، ص422.

المسألة الثامنة:

أَثَرُ عَوْدِ الضَّمِيرِ في تَأْوِيلِ حَدِيثِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ " [1] في تَوْجِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ – تعالى –: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة:35]

قال ابن بدران – رحمه الله –: " وأما قوله[2]: على صورته فالضمير راجع لآدم، ومعناه: أَنَّه من بدء خلقه يظهر صورته التي كان عليها، فلم يكن كغيره من ذرّيته طفلاً، ثم كبر بالتدريج" [3].

فقد بيّن – رحمه الله – أن الضمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "على صورته" يعود إلى آدم– عليه السلام –.

علماً أنّ هذا الحديث محطّ خلاف بين العلماء قديماً، وحديثاً، والخلاف ناشئ عن عود الضمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "على صورته".

كما بيّن ذلك الألباني (ت 1420هـ) – رحمه الله – في الموسوعة: "وإنما اختلفوا في مرجع ضمير قوله – عليه الصلاة والسلام –: "خلق الله آدم على صورته" [4].

ولا شكّ أنّ بيان عود الضمير له بالغ الأثر في توجيه المعنى، والوقوف على مراده – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الحديث.

ولتحرير المسألة، وحلّ الإشكال وبيان المُبهم فيها؛ لا بدَّ من التعريج على الضمائر، وتعريفها، ومعرفة أقسامها.

---

[1] مسند أحمد تحقيق شاكر 142/7، حديث رقم 7319، باب ابتداء مسند أبي هريرة. وصحيح البخاري 50/8، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، حديث رقم 6227. وانظر: البخاري، مُحَمَّد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت 256هـ)، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، حقق أحاديثه وعلق عليه مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط4 1418هـ، 85/1–86، باب لا تقل: قبّح الله وجهه ، وباب بدء السلام ص374، والتبريزي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الخطيب العمري (ت 741هـ)، مشكاة المصابيح، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط3 1985م، ج3، ص1315 برقم 4628. ومسلم 32/8، كتاب الآداب حديث رقم 6748 وحديث رقم 7265 – 149/8.

[2] أي النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلَّم –.

[3] جواهر الأفكار ص173.

[4] موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر 201/1.

تعريف الضمير:

الضمير لغة: من ضَمَرَ، والضَّمير: السِّرُّ، وداخل الخاطر، وهو الشيء الذي تضمره في قلبك، تقول: أضمرت صرف الحرف؛ إذا كان متحركاً فأسكنته، وأضمرت في نفسي شيئاً، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، والمُضْمَر: الموضِع والمفعول، وأَضْمَرْتُ الشيءَ: أخفيته، وأضمرتُ الشيء: إذا غَيَّبتُه [1].

أمَّا في الاصطلاح: فهو " ما يُكْنَى به عن مُتِكَلِّمٍ، أو مُخَاطَبٍ، أو غَائِبٍ، فهو قَائِمٌ مَقَامَ ما يُكْنَى به عنه " [2].

والمُضْمَر: اسم مفعول من أضمرته، إذا أخفيته، وسترته، وإطلاقه على البارز توسع، والضَّمير: بمعنى المُضْمَر على حدِّ قولهم: عقدت العسل فهو عقيد أي، معقود".[3]

"والضمير فعيل، بمعنى اسم المفعول، من أضمرت الشيء في نفسي: إذا أخفيته، وسترته، فهو مُضْمَر كالحكيم بمعنى المُحْكَم. والنُّحاة يقولون: إنَّما سُمِّي بذلك؛ لكثرة استتاره، فإطلاقه على بارز توسع، أو لعدم صراحته كالأسماء المظهرة. والثاني هو: الراجح فيما أرى؛ وذلك لأنَّك

بالضمير تستر الاسم الصريح، فلا تذكره"[4]. ثم قال: "والضمير مصطلح بصري، ويسمّيه الكوفيون كناية، ومكنيّاً، وهو بالمعنى نفسه؛ فإنَّ الكناية تقابل التصريح"[5].

أما أقسامه وأنواعه فقد بيّنها ابن مالك في ألفيّته بقوله:

فَمَا لِذِي غَيْبَةٍ اوْ حُضُورِ	كَأَنْتَ وَهْوَ سَمِّ بِالضَّمِيرِ
وَذُو اتِّصَالٍ مِنْهُ مَا لا يُبْتَدَا	وَلا يَلِي إلَّا اخْتِيَاراً أَبَدَا

---

[1] انظر: لسان العرب (مادة ضَمَرَ)، 491/4-493.

[2] جامع الدروس العربية للغلاييني ص115. وانظر: شرح شذور الذهب ص168، وشرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ص93.

[3] شرح التصريح على التوضيح 97/1.

[4] معاني النَّحْو للسامرّائي 41/1.

[5] الجَوجَري، شمس الدين مُحَمَّد بن عبد المنعم بن مُحَمَّد (ت 889هـ)، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق نواف بن جزاء الحارثي، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية (أصل الكتاب رسالة ماجستير للمحقق)، ط1 1423هـ، ص168، وحاشية الصبان 162/1، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 41/1.

كَاليَاءِ وَالكَافِ مِنَ ابْنِي أَكْرَمَكْ   وَاليَاءِ وَالهَا مِنْ سَلِيهِ مَا مَلَكْ [1]

فقد ذكر – رحمه الله – أنَّ الضَّميرَ: متصل، ومنفصل، وبارز، ومستتر، ومرفوع، ومنصوب، ومجرور [2].

عود الضمير:

فالضمير لا بدّ له من مفسِّر [3] يبيّن ما يراد به.

أولاً: فإنْ كان الضمير لمتكلِّم، أو مخاطب فمفسِّره حضور مَنْ هو له[4]، في مثل قوله – تعالى –: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: 116].

ثانياً: وإنْ كان الضَّمير للغَيْبَةِ فلا بُدَّ له مِن مرجع يرجع إليه[5]، وهذا المرجع أو المفسِّر نوعان:

1. **أنْ يكون لفظاً:** أي أنْ يعود إلى لفظ ظاهر، وهو نوعان:

أ. متقدّم: أي أنْ يعود الضَّمير إلى اسم سبقه باللفظ وهذا هو الأصل، في نحو قوله – تعالى –: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: 224]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: 30].

ب. متأخر: أي أن يعود على متأخر في اللفظ، وهو على قسمين:

1. متأخر في اللفظ، متقدم في الرتبة، في نحو قوله – تعالى –: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: 67].

---

[1] انظر: ألفية ابن مالك ص12-13.

[2] المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري 1 / 166-172، وانظر: ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق د.عبد الرحمن السيد، د.مُحَمَّد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط1 1410هـ، ج1، ص120-134، وشرح قطر الندى لابن هشام ص94-96، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للشاطبي 260/1-268، والنَّحْو الوافي 232/1-234، وشرح التصريح على التوضيح 98/1-100، وجامع الدروس العربية للغلاييني ص 87-93، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 42/1-45.

[3] المفسِّر: هو الاسم الذي يعود عليه الضمير، انظر: معاني النَّحْو للسامرّائي 59/1، هامش رقم (1).

[4] شرح شذور الذهب ص169.

[5] جامع الدروس العربية للغلاييني 94/1.

2. متأخر في اللفظ، متأخر في الرتبة، وهو محصور في سبعة أبواب كما بينها ابن هشام (ت761هـ) في شرح شذور الذهب:

أ. باب ضمير الشأن في نحو قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 1].

ب. أن يكون مُخْبَراً عنه بمُفسِّره، في نحو قوله – تعالى –: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ [الجاثية:24].

ج. الضمير في باب (نِعْمَ وبئس)، في نحو قوله – تعالى–:﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف:50] فإنّه مفسَّر بالتمييز.

د. مجرور "رُبّ"، نحو رُبَّه رجلاً، فإنه مفسَّر بالتمييز، قطعاً.

هـ.الضمير في التنازع إذا أَعْمَلْتَ الثَّاني واحتاجَ الأوَّل إلى مرفوع نحو: " قاما وقعد أخواك "؛ فإنّ الألف راجعة إلى الأخوين.

و. الضمير المبدل منه ما بعده، كقولك في ابتداء الكلام: " ضَرَبْتُهُ زيداً "، وقول بعضهم: " اللهم، صلِّ عليه الرؤوف الرحيم ".

ز. الضمير المتّصل بالفاعل المقدّم العائد على المفعول المؤخّر، وهو ضرورة على الأصح، كقوله:

جزى ربُّهُ عنّي عَدِيَّ بن حاتمٍ   جزاءَ الكِلابِ العاوياتِ، وقد فَعَل[1]

فأُعيد الضمير من " ربُّهُ " إلى " عديَّ " وهو متأخر لفظاً ورتبة [2].

2. أن يكون من غير اللفظ، أي يُستغنى عن المفسِّر في اللفظ ولكن يدلّ عليه أمور:

أ. أن يدلّ عليه حسّاً، وذلك نحو قوله – تعالى –: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف:26]، وقوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [يوسف: 26].[3] فالضمير يعود على امرأة العزيز، ولم يتقدَّم لها ذكر صريح فهو مدلول عليه حِسّاً.

---

[1] ديوان النابغة الذبياني ص161.

[2] انظر: شرح شذور الذهب ص169–170، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر، ج1، ص 265–266.

[3] انظر: همع الهوامع 262/1، وشرح التسهيل 156/1، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 59/1.

ب. أن يدلّ عليه العلم به، وإن لم يتقدم له ذكر نحو قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر: 1]، فالضمير يعود على القرآن، وكقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص: 32]، يعني الشمس فهي مفهومة من السياق[1].

ج. أن يدلّ عليه معنى المفسِّر المتقدِّم، ولا يتقدَّم لفظه صراحة، وذلك كقوله – تعالى –: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: 8]، فالضمير (هو) يعود على العدل، ولم يتقدَّم ذِكْره بل تقدَّم الفعل (اعدلوا) الذي يدلّ عليه.[2]

أمَّا بالنسبة إلى الضمير الذي يعود إلى اسم سبقه في اللفظ، فهو على ثلاث حالات:

1. تعيُّن المفسّر؛ أي أنْ يكون قد تقدّمه مفسِّر واحد، نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة: 228]، فالضمير في ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾ وهو نون النسوة، والهاء في ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ عائد على المطلَّقات من غير لبس، أو غموض.

2. تعيُّن ما يدلُّ على المفسِّر؛ أي أنْ يكون قد تقدَّمه مُفسِّران أو أكثر، ولكنّه تعيّن بقرينة تدلّ على أحدهما، في نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾ [الجمعة: 11]، فعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو بقرينة التأنيث.

3. لا يَتعيّن ما يدلّ على المفسِّر؛ أي أنْ يتقدم الضمير مُفسِّران أو أكثر ممَّا يصلح للتفسير، فالأصل أنْ يعود الضمير إلى الأقرب؛ أي إلى أقرب مذكور، كقوله – تعالى –: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ [يونس: 5]، فالضمير في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ وهو الهاء يعود إلى أقرب مذكور وهو القمر بمعنى قدَّر القمر، وكقوله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: 20]، فالضمير في ﴿عَنۡهُ﴾ وهو الهاء

---

[1] انظر: همع الهوامع 262/1، وشرح التسهيل 156/1، وشرح شذور الذهب ص169، وجامع الدروس العربية للغلاييني 94/1، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 59/1.

[2] انظر: شرح التسهيل 156/1، وجامع الدروس العربية للغلاييني 94/1، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 59/1،.

يعود إلى أقرب مذكور وهو الرسول؛ بمعنى ولا تولّوا عن الرسول، وكقولنا: "جاء مُحَمَّد وخالد فأكرمته" أي فأكرمت خالداً؛ لأنَّه أقرب مذكور [1].

أقوال العلماء في عود الضمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:"خلق الله آدم على صورته"[2].

اختلف العلماء في عَوْدِ الضَّمير على أقوال ثلاثة، فذهب فريق إلى أنّ الضمير يعود إلى المضروب، فيما ذهب آخرون إلى أنّه يعود إلى آدم – عليه السلام –، بينما ذهب آخرون إلى أنّه يعود إلى الله – سبحانه وتعالى – ولكلٍّ أدلّته[3]. وللوقوف على القول الراجح والصواب لا بُدَّ من عرض أدلّة كلّ فريق؛ لبيان الحقِّ من الباطل، والصواب من الخطأ، والراجح من المرجوح، وهاتيك الأقوال وأدلّتها:

القول الأول: قالوا: إنَّ الضَّمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "على صورته" يعود على المضروب[4]. واستند هذا الفريق على رواية أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم–: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته"[5]. وفي رواية زاد فيها: "ولا تقلْ قبَّح الله وجهك و وجه مَنْ أَشبه وجهك" [6].

---

[1] انظر: شرح التسهيل 156/1، وحاشية الصبان 162/1، وجامع الدروس العربية للغلاييني 94/1، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 60/1.

[2] سبق تخريج الحديث، انظر: ص166، هامش رقم (1).

[3] انظر: مفاتيح الغيب 118/1، وفتح الباري لابن حجر 5 / 183، والتويجري، حمود بن عبد الله بن حمود (ت 1413هـ)، عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن، دار اللواء، المملكة العربية السعودية – الرياض، ط2 1409هـ، ص12–19، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 16 / 166.

[4] انظر: مفاتيح الغيب 118/1، والجامع لأحكام القرآن 392/5، وفتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص12.

[5] رواه أحمد في المسند باب ابتداء مسند أبي هريرة 142/7، حديث رقم 3719، ومسلم في كتاب الآداب 32/8، حديث رقم 6748، ومشكاة المصابيح 1046/2، حديث رقم 3525، وابن خزيمة، أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق (ت 311هـ)، كتاب التوحيد، حقَّقه وخرَّج أحاديثه د.سمير بن أمين الزهيري، دار المغني، السعودية – الرياض، ج1، ص91–92، باب ذكر أخبار رويت عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم– حديث رقم 39.

[6] رواه أحمد في المسند باب ابتداء مسند أبي هريرة 223/7، حديث رقم 7414. وصحيح الأدب المفرد باب لا تقل: قبّح الله وجهه 85/1، حديث رقم 129/173. وحسّنه الألباني، وكتاب التوحيد لابن خزيمة باب ذكر أخبار رُويت عن النَّبِيّ –صلى الله عليه وسلم– 91/1، حديث رقم 38.

وممَّن رجّح هذا القول:

ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتابه " تأويل مختلف الحديث عن بعض أهل الكلام " بقوله: " وزاد قوم في الحديث: إنّه – عليه السلام – مرّ برجل يضرب وجه رجل آخر فقال: لا تضربه؛ فإنَّ الله تعالى – خلق آدم – عليه السلام – على صورته " [1]، أي صورة المضروب[2].

وابن خزيمة (ت 311هـ)[3] في التَّوحيد بقوله: "توهَّم بعض مَن لم يتبحَّر العلم أنّ قوله: "على صورته" يريد صورة الرحمن – عزّ ربّنا وجلّ – عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله: "خلق آدم على صورته" الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم؛ أراد – صلى الله عليه وسلم– أنّ الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أُمِرَ الضَّارِبُ باجتناب وجهه بالضرب، والذي قُبِّح وجهه، فَزَجَرَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يقول: ووجه من أشبه وجهك؛ لأَنَّ وجه آدم شبيهُ وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مقبّحاً وجه آدم – صلوات الله عليه وسلامه –، الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهّموا – رحمكم الله– معنى الخبر، لا تغلطوا، ولا تغالطوا؛ فتضلّوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه؛ الذي هو ضلال"[4].

---

1 انظر: مسند أحمد 267/8، تعليق أحمد شاكر في الهامش على حديث رقم 8274، والجامع لأحكام القرآن 392/5.

2 ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، تأويل مختلف الحديث، المكتب الإسلامي – مؤسسة الإشراق، ط2 1419هـ، ص319. وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص14.

3 هو مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة بن صالح بن بكر السلمي، الحافظ، الحجة، الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، أبو بكر السلمي النيسابوري، الشافعي، صاحب التصانيف. ولد: سنة ثلاث وعشرين ومئتين. وعني في حداثته بالحديث والفقه، حتى صار يُضرب به المثل في سعة العلم والإتقان. حدَّث عنه: البخاري، ومسلم في غير (الصحيحين). قال أبو علي الحافظ: كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارئ السورة. أخبرنا أبو علي الحسن بن علي، أخبرنا عبد الله بن عمر، أخبرنا أبو الوقت، أخبرنا شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري، أخبرنا عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن صالح، حدثنا أبي، حدثنا أبو حاتم بن حبان التميمي، قال: ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كأن السنن كلها بين عينيه، إلَّا مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة فقط. قال أبو الحسن الدارقطني: كان ابن خزيمة إماما، ثبتا، معدوم النظير. ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه واتِّباعه السنَّة. وكتابه في (التوحيد) مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة. قال الحاكم: فضائل إمام الأئمة ابن خزيمة عندي مجموعة في أوراق كثيرة، ومصنفاته تزيد على مئة وأربعين كتابا سوى المسائل، والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء. ولابن خزيمة ترجمة طويلة في (تاريخ نيسابور) ، تكون بضعا وعشرين ورقة، من ذلك وصيته، وقصيدتان رثي بهما. وضبط وفاته: في ثاني ذي القعدة، سنة إحدى عشرة وثلاث مئة، عاش تسعا وثمانين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء 365/14–382.

4 كتاب التوحيد 93/1–94، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص12.

والبيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات بقوله: "عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: « إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته، قال: وإنّما أراد والله أعلم: فإنّ الله خلق آدم على صورة هذا المضروب "[1].

وذكره الرازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله: "واعلم أنّ العلماء ذكروا في تأويل هذه الأخبار وجوها: الأول: أنّ قوله: " إن الله خلق آدم على صورته " الضمير عائد إلى المضروب، يعني أنّ الله– تعالى– خلق آدم على صورة المضروب؛ فوجب الاحتراز عن تقبيح وجه ذلك المضروب"[2].

والقرطبي (ت 671هـ) في تفسيره بقوله: "وقد مرّ النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – برجل يضرب عبده فقال:" اتّقِ الوجه؛ فإنّ الله خلق آدم على صورته". أي على صورة المضروب؛ أي وجه هذا المضروب يشبه وجه آدم، فينبغي أن يحترم لشبهه. وهذا أحسن ما قيل في تأويله، والله أعلم"[3].

والنووي (ت 676هـ) في المنهاج بقوله: " واختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة: الضمير في صورته عائد على الأخ المضروب، وهذا ظاهر رواية مسلم "[4].

وابن حجر (ت 852هـ) في الفتح بقوله: "واختُلف في الضمير على من يعود، فالأكثر على أَنَّه يعود على المضروب؛ لما تقدَّم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أَنَّ المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها " [5].

---

[1] البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، الأسماء والصفات للبيهقي، حققه وخرج أحاديثه عبد الله بن مُحَمَّد الحاشدي، قدم له مقبل الوادعي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، ط1 1413هـ، باب ما ذكر في الصورة، ج2، ص63، حديث رقم 638.

[2] مفاتيح الغيب 118/1.

[3] الجامع لأحكام القرآن 392/5.

[4] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 166/16.

[5] فتح الباري لابن حجر 183/5.

القول الثاني: قالوا إنَّ الضَّمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "على صورته" يعود إلى الله – سبحانه و تعالى –[1]، واستند هذا الفريق على رواية ابن عمر – رضي الله عنه – بقوله: قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " لا تقبّحوا الوجه؛ فإنَّ ابن آدم خُلِقَ على صورة الرَّحمن" [2].

وممَّن رجَّح هذا القول:

الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ) – رحمه الله تعالى – قال ابن أبي يعلى في كتابه "طبقات الحنابلة " في ترجمة أبي جعفر مُحَمَّد بن عوف، ونَقلتُ: من خط أحمد الشَّنجي بإسناده قال: سمعت مُحَمَّد بن عَوْف يقول: أملى عليَّ أحمد بن حنبل – وذكر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم– ثمَّ قال: "ونحوه هذه الأحاديث ممَّا قد صحَّ و حُفِظ؛ فإنَّا نسلِّم لها وإنْ لم نعلم تفسيرها، ولا نتكلم فيها، ولا نجادل فيها، ولا نفسّرها، ولكنّا نرويها كما جاءت، ونؤمن بها ونعلم أنّها حقّ، كما قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ونسلِّم بها ولا نردّها... وأنّ آدم – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خُلِقَ على صورة الرَّحمن كما جاء الخبر عن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رواه ابن عمر عن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –"[3].

وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) – رحمه الله – في كتابه " بيان تلبيس الجهمية " بقوله: "وفي رواية مُحَمَّد بن حاتم فيه قال: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته" وليس ليحيى بن مالك عن أبي هريرة في الصحيحين غيره، والكلام على ذلك أَنْ يقال: هذا

---

[1] انظر: فتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص19.

[2] ابن أَبي أُسامة، أبو مُحَمَّد الحارث بن مُحَمَّد بن داهر التميمي (ت 282هـ)، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المنتقي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق د.حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة، ط1 1413هـ، باب النهي عن تقبيح الوجه، ج2، ص831، حديث رقم 872، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، باب أخبار رُويت عن النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – 94/1، حديث رقم 44–45، وابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضَّحَّاك بن مخلد الشيباني (ت 287هـ)، السّنّة، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط1 1400هـ، ج1، ص228 حديث رقم 517، وج1، ص230 حديث رقم 521، والمعجم الكبير للطبراني 12 / 430، حديث رقم 13580، وابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن مُحَمَّد (ت 387هـ)، الإبانة الكبرى لابن بطة، تحقيق الوليد بن مُحَمَّد نبيه بن سيف النصر وآخرين، دار الراية – الرياض، ط1 1418هـ، ج7، ص244، حديث رقم 185، باب الإيمان بأن الله – عزَّ وجلَّ – خلق آدم على صورته، والآجُرِّيّ، أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين (ت 360هـ)، الشريعة، تحقيق د.عبد الله بن عمر الدميجي، دار الوطن – الرياض – السعودية، ط2 1420هـ، باب الإيمان بأن الله عز وجل خلق آدم على صورته بلا كيف، ج3، ص1152، حديث رقم 725، والأسماء والصفات للبيهقي 64/2، حديث رقم 640.

[3] انظر: ابن أبي يعلى، أبو الحسين مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 526هـ)، طبقات الحنابلة، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت، ج1، ص311–313، وعقيدة أهل الإيمان ص19–20.

الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أنَّ الضمير عائد إلى الله؛ فإنَّه مستفيض من طرق متعدّدة عن عدد من الصحابة وسياق الأحاديث كلها يدل على ذلك " [1].

وابن راهويه (ت 238هـ)[2] – رحمه الله – فيما نقله عنه ابن تيمية في كتابه بيان تلبيس الجهميّة بقوله: "وقال الخلّال أخبرني حرب بن إسماعيل الكرماني، قال سمعت إسحاق بن راهويه يقول: قد صحّ عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: " إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن "، إنّما عليه أن ينطق بما صحّ عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنّه نطق به"[3] ثم قال: " فقد صحّح إسحاق حديث ابن عمر مسنداً "[4]. وقال التويجري (ت 1413هـ) في كتابه عقيدة أهل الإيمان: " إنّ الإمام أحمد [5] وإسحاق بن راهويه[6] قد صحَّحا حديث ابن عمر – رضي الله عنهما– الذي فيه " إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن"[7].

---

[1] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ)، بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقيق مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة الصحف – المدينة المنورة، ط1 1426هـ، ج6، ص373.

[2] هو أبو يعقوب إسحاق بن أبي الحسن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله المروزي المعروف بابن راهويه، جمع بين الحديث والفقه والورع، وكان أحد أئمة الإسلام، ذكره الدارقطني فيمن روى عن الشافعي – رضي الله عنه – وعدَّه البيهقي في أصحاب الشافعي، قال أحمد بن حنبل – رضي الله عنه –: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وما عبر الجسر أفقه من إسحاق، وقال إسحاق: أحفظ سبعين ألف حديث، وأذاكر بمئة ألف حديث، وما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئا قط فنسيته، وله مسند مشهور، وكان قد رحل إلى الحجاز والعراق واليمن والشام، وسمع من سفيان بن عيينة ومن في طبقته، وسمع منه البخاري ومسلم والترمذي. وكانت ولادته سنة إحدى وستين، وقيل: سنة ثلاث وستين، وقيل: سنة ست وستين ومائة، وسكن في آخر عمره نيسابور، وتوفي بها ليلة الخميس النصف من شعبان– وقيل: الأحد، وقيل: السبت – سنة ثمان، وقيل: سنة ثلاثين ومئتين، وقيل: سنة ثلاثين ومئتين– رحمه الله تعالى –. وراهويه – بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة – لقب أبيه أبي الحسن إبراهيم، وإنما لقّب بذلك لأنه ولد في طريق مَكَّة، والطريق بالفارسية " راه " و " ويه " معناه وجد، فكأنّه وجد في الطريق، وقيل فيه أيضا " راهويه " بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء، وقال إسحاق المذكور: قال لي عبد الله بن طاهر أمير خراسان: لم قيل لك ابن راهويه وما معنى هذا وهل تكره أن يقال لك هذا قلت: اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في الطريق فقالت المراوزة راهويه لأنّه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا، وأما أنا فلست أكره ذلك. انظر: وفيات الأعيان 1/199–200.

[3] بيان تلبيس الجهميَّة 6/418.

[4] المرجع السابق 6/419.

[5] انظر: لسان الميزان لابن حجر، 3 / 284.

[6] انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 2 / 420.

[7] عقيدة أهل الإيمان ص23.

وصحَّح الحديث – أيضاً – عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290هـ) في السنّة[1]، وابن أبي عاصم (ت 287هـ) في السنّة[2]، والآجرّي (ت 360هـ) في الشريعة[3]، والذهبي (ت 748هـ) في الميزان[4]، ورجّح هذا القول أيضاً أبابطين (ت 1282هـ) في رسائله[5]، والتويجري (ت 1413هـ) في عقيدة أهل الإيمان[6]، وابن باز (ت 1420هـ) [7]، وابن عثيمين (ت 1421هـ) في مجموع الفتاوى[8]، وفي تفسيره[9].

القول الثالث: قالوا إنّ الضمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "على صورته" يعود إلى آدم عليه السلام[10].

واستند هذا الفريق على رواية أبي هريرة – رضي الله عنه – بقوله: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً " [11].

---

[1] انظر: ابن حنبل، أبو عبد الرحمن عبد الله أحمد (ت 290هـ)، السنّة، تحقيق د. مُحَمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم – الدمام، ط1 1406هـ، ج1، ص668 حديث رقم 498، و ج2، ص472، حديث رقم 1076. وانظر: الإبانة الكبرى لابن بطة، 264/7، حديث رقم 196.

[2] انظر: السنة لابن أبي عاصم 228/1، حديث رقم 517، و 230/1، حديث رقم 521.

[3] انظر: الشريعة للآجرّي 1152/11، حديث رقم 725، وعقيدة أهل الإيمان ص25–26.

[4] انظر: ميزان الاعتدال 603/1، و 420/2.

[5] انظر: أبابطين، عبد الله بن عبد الرحمن (ت 1282هـ)، رسائل وفتاوى عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجديّة الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط1، بمصر 1349هـ، النشرة الثالثة 1412هـ، ص221–223.

[6] عقيدة أهل الإيمان ص19–25.

[7] المرجع السابق ص د.

[8] العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن – دار الثريا، ط الأخيرة 1413هـ، ج10، ص946.

[9] العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، تفسير القرآن الكريم (الكهف)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1 1423هـ، ص60–61.

[10] انظر: فتح الباري لابن حجر 183/5، وعقيدة أهل الإيمان ص15، ومفاتيح الغيب 118/1.

[11] مسند أحمد تحقيق شاكر219/8 برقم 8156، وصحيح البخاري 50/8 برقم 6227، وصحيح مسلم 149/8 برقم 7265 [28–2841]، والتوحيد لابن خزيمة 99/1–100 برقم 46، 47.

وذهب إلى هذا القول فريق من أكابر العلماء قديماً وحديثاً سلفاً وخلفاً ومن أشهرهم:

أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت 240هـ)[1]، قال ابن أبي يعلى (ت 526هـ) في طبقات الحنابلة: " وقال زكريا بن الفرج سألت عبد الوهّاب غير مرّة عن أبي ثور فأخبرني أنّ أبا ثور جهمي؛ وذلك أنَّه قطع بقول أبي يعقوب الشعراني حكى أنّه سأل أبا ثور عن خلق آدم على صورته، فقال: إنما هو على صورة آدم ليس هو على صورة الرحمن "[2]. " وقال حمدان سألت أبا ثور عن قول النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " إنَّ الله خلق آدم على صورته " فقال: على صورة آدم" [3].

وابن خزيمة (ت 311هـ) في كتابه التوحيد بقوله: "فصورة آدم هي ستون ذراعاً، التي خبّر النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنّ آدم – عليه السلام – خُلِق عليها، لا على ما توهّم بعض مَن لم يتحرَّ العلم؛ فظنّ أنَّ قوله على صورته، صورة الرحمن صفة من صفات ذاته " [4].

وأبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الخطّابي (ت 388هـ)، قال البغوي (ت 516هـ) في شرح السنّة: " قال أبو سليمان الخطّابي في قوله –صلى الله عليه وسلم–: "خلق الله آدم على صورته" الهاء مرجعها إلى آدم – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " [5].

وقال الخطابي – أيضاً – في كتابه غريب الحديث:" قوله: "خلق الله آدم على صورته" يريد– والله أعلم – أنّه خلقه بشراً سوياً على صورته تلك لم تشتمل عليه الأرحام، ولم تتناقله الأحوال من صغر إلى كبر، ومن نقص إلى تمام " [6].

---

[1] هو أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي الفقيه البغدادي صاحب الإمام الشافعي – رضي الله عنه – وناقل الأقوال القديمة عنه، وكان أحد الفقهاء الأعلام والثقات المأمونين في الدين، له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه، وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي، حتى قدم الشافعي العراق فاختلف إليه واتبعه ورفض مذهبه الأول، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي لثلاث بقين من صفر سنة ست وأربعين ومئتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب الكناس – رحمه الله تعالى – . قال الذهبي: ذكره الخطيب، وأثنى عليه، وقال: توفي في صفر، سنة أربعين ومئتين. وقال أحمد بن حنبل: هو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة. انظر: وفيات الأعيان 26/1، وسير أعلام النبلاء 72/12–73، والأعلام للزركلي 37/1.

[2] طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 212/1، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص18.

[3] طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى 309/1، وانظر: عقيدة أهل الإيمان ص17.

[4] التوحيد لابن خزيمة 101/1.

[5] البغوي، محيي السنة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود (ت 516هـ)، شرح السنة، تحقيق شعيب الأرنؤوط – مُحَمَّد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط2 1403هـ، ج12، ص255، حديث رقم 3298. وانظر: الأسماء والصفات للبيهقي 61/2 حديث رقم 636.

[6] الخطابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 388هـ)، غريب الحديث، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النَّبِيّ، دار الفكر، ط 1402هـ، ج2، ص158.

والنَّووي (ت 676هـ) في المنهاج بقوله: " وهذه الرواية ظاهرة في أنّ الضمير في صورته عائد إلى آدم، وأنَّ المراد أنَّه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض، وتوفي عليها، وهي طوله ستون ذراعاً، ولم ينتقل أطواراً كذريته، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير "[1].

وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في الفتح بقوله: " وهذه الرواية[2] تؤيّد قول من قال: إنّ الضمير لآدم، والمعنى أن الله – تعالى – أوجده على الهيئة التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردّد في الأرحام أطواراً كذرّيّته؛ بل خلقه الله رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح، ثم عقب ذلك بقوله: "وطوله ستون ذراعاً"، فعاد الضمير أيضاً على آدم"[3].

والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره بقوله: "ثم إنّ خَلْق الإنسان الأوَّل وهو آدم – عليه السلام – من طين جاء من البداية على صورته التامّة الكاملة، فخلقه الله رجلاً مستوياً، فلم يكن مثلاً طفلاً ثمَّ كبر وجَرت عليه سنّة التطور لا، إنّما خلقه الله على صورته، أي: على صورة آدم " [4].

والألباني (ت 1420هـ) في صحيح الأدب المفرد بقوله في الهامش على تعليقه على حديث "خلق آدم – صلى الله عليه وسلم– على صورته": "أي: على صورة آدم – عليه السلام –، وقد جاء ذلك صراحة في حديث آخر لأبي هريرة بلفظ: "خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً " [5] متفق عليه " [6].

ويرى الباحث بعد سبر أقوال العلماء، وبيان أَدلَّتهم أنَّ الخلاف الناشئ في عَود الضمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "خلق الله آدم على صورته" يعود إلى أمرين:

أمَّا الأمر الأوَّل: أنَّهم اعتمدوا الحادثة، والقصَّة التي ورد فيها الحديث.

---

1 المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 17 / 178.

2 يعني رواية أبي هريرة "خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً"

3 فتح الباري لابن حجر 366/6.

4 تفسير الشعراوي – الخواطر 11804/19.

5 سبق تخريجه ص176، هامش رقم 11.

6 صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري 86/1، وانظر: الألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين بن الحاج نوح (ت 1420هـ)، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، دار باوزير، جدة – المملكة العربية السعودية، ط1 1424هـ، ج9، ص18، حديث رقم 6129، وموسوعة الألباني في العقيدة 784/7.

وأَمَّا الأمر الثاني: أَنَّهم اعتمدوا أَلفاظ الحديث.

لذلك فإنّ الفَيْصَل في هذه المسألة يعود إلى اللغة في حلِّ الإشكال بين العلماء في عَود الضَّمير ما لم يظهر دليل واضح، وصريح وصحيح يخالفها، عندها نسلّم للدليل ونأخذ به، فلا تأويل ولا تنازع.

أمّا بالنِّسبة للذين اعتمدوا الحادثة، والقصة فقالوا: لمَّا مَرَّ النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – برجل يضرب وجه أخيه، أو عبده نهاه النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن ذلك وقال: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإِنَّ الله خلق آدم على صورته" [1] أي على صورةِ المضروب[2]. وهذا القول له وجه في اللغة من حيث عود الضمير إلى ما يدلّ عليه حسّاً كقوله – تعالى –: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: 26] [3] فلما استغني عن المضروب لفظاً جاء ما يدلّ عليه حسّاً، وهو الضمير في (صورته)؛ لأَنَّه مناسبة الحديث إِذْ مِنْ أَجله قيل الحديث وورد النَّهي.

ولكن يُردّ على هؤلاء أَنَّ هناك روايات صحيحة متَّفق على صحتها وثبوتها وردت من غير ذكر للقصة، أو الحادثة السابقة.

منها حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: " خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً " [4]، دَلَّ ذلك على أَنَّ المفسِّر للضمير ليس المضروب؛ لأن الروايتين وردتا بلفظ واحد وهو: "خلق الله آدم على صورته "، إِلَّا أَنَّ الرواية الثانية وردت دون ذكر للمضروب أو القصة والحادثة، بلْ إنَّ الرواية الثانية وردت في حادثة مغايرة تماماً عن الأولى من حيث الزمان والمكان، فكانت في الملأ الأعلى عند خلق آدم، وبيان آداب الاستئذان، والتحيَّة، ولذلك أوردها العلماء تحت باب الاستئذان وردّ السلام والآداب[5].

---

[1] سبق تخريجه، انظر: ص171، هامش رقم (5).

[2] انظر: القرطبي، أبو الوليد مُحَمَّد بن أحمد بن رشد (ت 520هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل مستخرجة، تحقيق د.مُحَمَّد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط2 1408هـ، ج16، ص403، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص319.

[3] انظر تفصيل المسألة ص169–171.

[4] سبق تخريجه ص176، هامش11.

[5] انظر: تخريج الحديث ص166، هامش رقم1.

ويرى الباحث أَنَّ هذين القولين وهما عود الضمير إلى آدم – عليه السَّلام –، وعود الضمير إلى المضروب، لا تعارض بينهما؛ لأَنَّ كُلَّ فريق منهما اعتمد عود الضمير بناءً على الرواية التي عنده، لا سيَّما وأَنَّ الروايتين صحيحتان كما بيَّنا آنفاً ، فنجدهم يقولون بعود الضمير إلى المضروب في الرواية الأولى، وإلى آدم – عليه السلام – في الرواية الثانية ، ومنهم ابن خزيمة (ت 311هـ) في التوحيد[1]، والنووي (ت 676هـ) في المنهاج[2]، وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في الفتح[3].

وأما بالنسبة للذين اعتمدوا ألفاظ الحديث في عود الضمير في قوله – صلى الله عليه وسلم: "على صورته". فقد اختلفوا على قولين: فمنهم مَن قال: إنّ الضمير يعود إلى آدم – عليه السلام – ومنهم من قال: إنّ الضمير يعود إلى الله – سبحانه وتعالى –. على التفصيل الذي ذكرناه سابقاً.

ولعلّ سبب الاختلاف بين هذين الفريقين هو مدى صحة رواية ابن عمر – رضي الله عنهما– التي استند إليها القائلون: إنّ الضمير يعود إلى الله – عزَّ وجلَّ –.

فإنْ صحَّت رواية ابن عمر – رضي الله عنه – عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بذلك، فهو كما قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فلا تأويل، ولا تنازع فيه[4]. لأنّ أخبار المصطفى– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذا صحَّت من جهة النقل، لا تتضاد، ولا تتهاتر، ولا تنسخ القرآن، بل لكلِّ خبر معنى معلوم يُعلم، وفصل صحيح يُعقل، يَعقله العالِمون[5]. وإنْ لمْ تصحّ فإنَّ الفَيْصَل في المسألة لحلِّ الإشكال، والتنازع فيها، وبيان المُبهم هو اللغة في معرفة عود الضمير بناءً على القواعد اللُّغويَّة والنَّحْويَّة.

ولقد اختلف العلماء في صحَّة حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – فمن قائل بالصحة ومن قائل بالتضعيف.

قال أبو الوليد القرطبي (ت 520هـ) في البيان والتحصيل: "والحديث في قوله: "إنّ الله خلق آدم على صورته" يُروى على وجهين؛ أحدهما: "إنّ الله خلق آدم على صورته". والثاني: "إنّ الله خلق

---

1 انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة 101/1.

2 انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 178/17.

3 انظر: فتح الباري لابن حجر 366/6.

4 انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة 321/1، وعقيدة أهل الإيمان ص16.

5 صحيح الأنباء المسند من أحاديث الانبياء 23/1 (الهامش).

آدم على صورة الرحمن"، فأمّا الرواية: " إنّ الله خلق آدم على صورته"، فلا خلاف بين أهل النقل في صحَّتها؛ لاشتهار نقلها، وانتشاره من غير منكر لها، ولا طاعن فيها، وأمّا الرواية: "إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن" فمن مصحِّح لها، ومن طاعن عليها، وأكثر أهل النقل على إنكار ذلك، وعلى أنّه غلط وقع من طريق التأويل لبعض النّقَلة توهّم أنّ الهاء ترجع إلى الله – عزَّ وجلَّ –، فنقل الحديث على ما توهّم من معناه، فيحتمل أن يكون مالك[1] أشار في هذه الرواية بقوله وضعفه إلى هذه الرواية، ويحتمل أن يكون إنَّما ضَعَّفَ بعض ما تُؤُوِّلَ عليه الحديث من التأويلات[2]، وهي كثيرة"[3].

وقال ابن قتيبة (ت 276هـ) في تأويل مختلف الحديث: "ولما وقعت هذه التأويلات المستكْرَهة، وكَثُر التّنازعُ فيها حَمَلَ قوماً اللّجاجُ على أن زادوا في الحديث فقالوا: روى ابن عمر عن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقالوا: إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – خلق آدم على صورة الرحمن، يريدون أنْ تكون الهاء في صورته لله – جلَّ وعزَّ – وإنّ ذلك يتبيَّن بأنْ يجعلوا الرحمن مكان الهاء، كما تقول: إنّ الرحمن خلق آدم على صورته، فركبوا قبيحاً من الخطأ "[4].

وقال البيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات: "عن ابن عمر قال: قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "لا تُقَبِّحُوا الوجه؛ فإنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن"، ويُحتمل أنْ يكون لَفْظُ الخبر في الأصل كما رُوِّينَا في حديث أبي هريرة[5]، فأدّاه بعض الرواة على ما وقع في قلبه من معناه"[6].

وَضَعَّفَ الحديثَ ابنُ خزيمةَ (ت 311هـ) وأعلّه بعلل ثلاث بقوله: " وقد افتُتِنَ بهذه اللفظة التي في خبر عطاء عالَمٌ، ممّن لم يتحرّ العلم، وتوهّموا أنّ إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر من إضافة صفات الذات فغلطوا في هذا غلطاً بيِّناً، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لقولِ المشبِّهة –

---

[1] يعني الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المشهور.

[2] لأن مالك ابن أنس كره رواية هذه الاحاديث التي يقتضي ظاهرها التشبيه. إلا أنَّ الألباني لم يجوّز نسبة هذا الأمر للإمام مالك، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة 320/3.

[3] البيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 403/16. وانظر: ابن الحاج، أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 737هـ)، المدخل، دار التراث، (د. ت)، ج2، ص150.

[4] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص319.

[5] يعني حديث "خلق الله آدم على صورته" انظر: الأسماء والصفات حديث رقم 637 و 638 و 639، 62/2–63.

[6] الأسماء والصفات 64/2، حديث رقم 640.

أَعاذنا الله وكلَّ المسلمين من قولهم – فالذى عندي في تأويل هذا الخبر – إن صحّ من جهة النقل موصولاً – فإنّ في الخبر عللاً ثلاثاً:

إحداهُنَّ: أنّ الثوريَّ قد خالف الأعمشَ في إسناده، فأرسل الثوريُّ ولم يقلْ عن ابن عمر.

والثانية: أنّ الأعمش مُدلّس لم يذكر أنّه سمعه من حبيب بن أبي ثابت.

والثالثة: أنّ حبيب بن أبي ثابت أيضاً مُدلّس لم يُعلم أنّه سمعه من عطاء"[1].

وَضَعَّفَهُ المازريُّ (ت 536هـ) في المُعْلِم بقوله: " قال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه؛ فإنَّ الله خلق آدم على صورته "، هذا الحديث ثابت عند أهل النقل، وقد رواه بعضهم، "إنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن" ولا يثبت هذا عند أهل النقل، ولعلّه نَقْلٌ من راويه بالمعنى الذي توهّمه، وظنَّ أنَّ الضَّمير عائد على الله – سبحانه – فأظهره وقال: "على صورة الرحمن"[2].

وَضَعَّفَهُ الألبانيُّ (ت 1420هـ) وأَعلَّه بعلَّة رابعة زائدة على علل ابن خزيمة بقوله: "والعلّة الرابعة: هي جرير بن عبد الحميد؛ فإنّه وإنْ كان ثقة كما تقدَّم، فقد ذكر الذهبي في ترجمته من "الميزان" أنّ البيهقي ذكر في "سننه" في ثلاثين حديثاً لجرير بن عبد الحميد قال: " قد نُسِب في آخر عمره إلى سوء الحفظ" "[3].

---

[1] كتاب التوحيد لابن خزيمة 97/1. وانظر: صحيح الأنباء المسند من أحاديث الانبياء 40/1-41.

[2] المازري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن عمر التميمي (ت 536هـ)، المُعْلِم بفوائد مسلم، تحقيق فضيلة الشيخ مُحَمَّد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط2 1988م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م، ج3، ص299، حديث رقم 1196.

[3] سلسلة الأحاديث الضعيفة 317/3، وانظر: موسوعة الألباني في العقيدة 787/7، والهلالي، أبو أسامة سليم بن عيد، صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط1 1429هـ، ج1، ص41-45 (الهامش).

وأعلّه محقِّق[1]كتاب التوحيد علَّة خامسة[2]، وقد أعلَّ الإمام أحمد هذه الزيادة في رواية المروذي بقوله: "وأمّا الثوري فيوقفه يعني حديث ابن عمر"[3]، وقد صحّح الحديث جمعٌ من العلماء سبق ذكرهم[4].

وكما أَنَّ رواية "على صورة الرحمن" اختُلِفَ فيها من ناحية النقل، فإنّها أيضاً اختُلِفَ فيها من ناحية اللغة على قولين:

أمّا الأَوَّل: فقالوا لا يصحُّ من حيث اللغة، إذْ لا يستقيم اللسان بإعادة ذكر اسم ظاهر يعود إلى اسم ظاهر متقدِّم عليه؛ لأَنَّ الاسم الظاهر إذا تقدَّم فأُعيد ذكره كُنِيَ عنه بالهاء مِنْ غيرِ أنْ يُعادَ الاسم الظاهر الأَوَّل، إذْ إنَّنا نقول لزيد إذا أكرم غلامه: أكرم زيدٌ غلامَه، ولا نقول أكرم زيدٌ غلام زيدٍ؛ لأنّه يُفْهم من ذلك أنّ الإكرام إنّما حصل لغلام رجل آخر اسمه زيد، وإذا لم يكن سائغاً من جهة اللغة، لم يكن للاستعمال له وجه.

فتكون الرواية عند هؤلاء ضعيفة من حيث اللغة، فيجتمع فيها الضَّعف رواية ولغة.

وأمَّا القول الثاني: فقالوا يصحُّ ذلك في العربية، إذْ ورد في القرآن الكريم، وأشعار العرب ما يجوِّز ذلك، قال – تعالى –: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: 85]، ولم يَقُلْ – سبحانه– إلينا أو إليه، وقال – تعالى –: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ [النحل: 74]، ولم يَقُلْ إنّه يعلم، وقال – تعالى –: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ [لقمان: 25]، ولم يقل الحمد له.

وقال عدي بن زيد[5]:

---

[1] وهو الدكتور سمير الزهيري – حفظه الله –.

[2] انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة 95/1 (الهامش).

[3] انظر: الفرّاء، أبو يعلى مُحَمَّد بن الحسين (ت 458هـ)، إبطال التأويلات لأخبار الصفات، تحقيق أبي عبد الله مُحَمَّد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت – الجهراء،(د. ت)، ج1، ص90-91 و 95. وصحيح الأنباء المسند من أحاديث الانبياء ص28 (الهامش).

[4] انظر: عقيدة أهل الإيمان ص16-42.

[5] هو عدي بن زيد بن حمار بن زيد بن تميم، يكنى أبا عمر نصراني عِبادي، سكن الحيرة فلان لسانه وسهل منطقة، وكان أنبل أهل الحيرة وأجودهم منزلة، وكان كاتباً لكسرى هو وأخ له يقال له: عمير بن زيد، وكان يحب الصيد واللهو، انظر: المرزباني، الإمام أبو عبيد الله مُحَمَّد

لا أَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ[1]   نَغَّصَ المَوْتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرا[2].

فأعاد ذكر الموت بلفظه، ولم يُكَنِّ عنه بالهاء ولم يقُل لا أرى الموت يسبقه شيء.

وعليه فإنّ الرواية عند هؤلاء صحيحة من حيث اللغة، ويبقى ضعفها من حيث الرواية[3].

فيما يرى الباحث أنَّ الظاهر مِنَ الشواهد القرآنيَّة والشِّعريَّة أنَّ القول الراجح هو: القول الثاني، بمعنى أَنَّهُ يجوز في العربيَّة إعادة ذكر اسم ظاهر يعود إلى اسم ظاهر متقدِّم عليه، والسِّياق يبيِّنه.

وعليه فإنَّ الحديث ضعيف من حيث الرواية، ولا يصحّ للعلل التي أوردها أهلُ الصنعة الحديثيَّة قديماً، وحديثاً كما بيَّنَّاها آنفاً. ولكن يبقى الفَيْصَل في هذه المسألة لبيان عود الضمير هو اللغة.

فالأصل في اللغة: أنّ الضمير إذا سبقه مفسِّران أو أكثر فإنّه يعود إلى أحدهما بقرينة تدل عليه، فإنْ لم يكن هناك قرينة تدل على أحدهما فإنّه يعود إلى أقرب مذكور في الكلام.

وحديث النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " خلق الله آدم على صورته " فيه مفسِّران هما: لفظ الجلالة (الله)، وآدم – عليه السلام – والضمير في (صورته) يعود إلى أحدهما، ولمّا لم يَتعيّن المفسِّر الذي يعود إليه الضمير، ولا توجد قرينة تدل على أحدهما، كان لزاماً أَنْ يعود الضمير إلى أَقربِ مذكور، وأَقربُ مذكور إلى الضمير هو آدم – عليه السلام –.

وعليه فإنَّ الضَّميرَ في حديث النَّبِيّ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعود إلى آدم–عليه السلام–، بمعنى أنَّ الله – سبحانه – خلق آدم على صورة آدم – عليه السلام – التي خلقه عليها بيده[4].

= بن عمران (ت 384هـ)، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2 1402هـ، ص249–250.

[1] وردت في الديوان شيئاً والصواب ما أثبتناه.

[2] العِبادي، عدي بن زيد (ت 587م – 35 ق.هـ)، ديوان عدي بن زيد العِبادي، تحقيق وجمع مُحَمَّد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد (سلسلة كتب التراث)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع – بغداد، ط 1965م، ص65.

[3] انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات للفراء 92/1. والبيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 405/16. والأبّي، الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن خلفة الوشتاني (ت 827 أو 828هـ)، إكمال إكمال المُعلِم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج7، ص54.

[4] قال الله – تعالى – لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75]، وانظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة، باب ذكر إثبات اليد لله الخالق البارئ – جلّ وعلا –126/1، حديث رقم 62، والذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد =

ولذلك قال الخطّابي (ت 388هـ) فيما نقله عنه البيهقي (ت 458هـ) في الأسماء والصفات: "قوله: "خلق الله آدم على صورته" الهاء وقعت كناية بين اسمين ظاهرين، فلم تصلُح أنْ تُصرَف إلى الله – عزّ وجلّ –" [1].

وقال أبو الوليد القرطبي (ت 520هـ) في البيان والتحصيل: "ومنها أنّ الكناية في قوله على صورته راجعة إلى الله – عز وجل –، وهو أضعف التأويلات؛ لأنّ الأولى أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور، إلّا أن يدل دليل على رجوعه إلى الأبعد، ولا دليل على ذلك"[2].

وقال أبو العباس القرطبي (ت 656هـ) في المُفْهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم: "وقوله: "خلق الله آدم على صورته" هذا الضمير عائد إلى أَقرب مذكور، وهو آدم، وهو أَعمُّ، وهذا الأَصلُ في عود الضمائر" [3].

وقال العيني (ت 855هـ)[4] في عمدة القاري: " قوله: (على صورته) أي صورة آدم؛ لأنَّهُ أَقرب"[5] يعني أَقرب مذكور للضمير.

وتؤيّد قولَ القائلين بأنَّ الضمير يعود إلى آدم – عليه السلام – روايةُ " طوله ستّون ذراعاً"[6]، فتكون اللغة قد وافقت النقل في بيان عود الضمير، ورفع الإشكال، وإزاحة التشابه، كما بيّن ذلك

=(ت 748هـ)، مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، حققه واختصره مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط2 1412هـ، ص248.

[1] الأسماء والصفات للبيهقي 61/2، حديث رقم 635.

[2] البيان والتحصيل لأبي الوليد القرطبي 405/16.

[3] القرطبي، أبو عباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت 656هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محيي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، ط1 1417هـ، ج7، ص183.

[4] هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبو مُحَمَّد، بدر الدين العيني الحنفي: مؤرخ، علّامة، من كبار المحدِّثين. أصله من حلب ومولده في عينتاب (وإليها نسبته) أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس. وولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون، وتقرَّب من الملك المؤيَّد حتى عُدَّ من أخصَّائه. ولما ولي الأشرف سامره ولزمه، وكان يكرمه ويقدِّمه. ثم صرف عن وظائفه، وعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي بالقاهرة. من كتبه (عمدة القاري في شرح البخاري – ط) أحد عشر مجلدا، و (مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار – خ) مجلدان، في مصطلح الحديث ورجاله، و (العلم الهيب في شرح الكلم الطيب – خ) لابن تيمية، و (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – خ) كبير، انتهى فيه إلى سنة 850 هـ. انظر: الأعلام للزركلي 163/7.

[5] العيني، أبو مُحَمَّد محمود بن أحمد (ت 855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت،(د. ت)، ج22، ص229.

[6] انظر: التخريج ص176، هامش رقم11.

القاضي عياض (ت 544هـ) في إكمال المُعلِم بفوائد مسلم بقوله: " وقوله هنا: " طوله ستّون ذراعاً " يبيّن الإشكال، ويزيح التشابه، ويُوضّح أنّ الضمير راجع إلى آدم نفسه "[1].

وخلاصة القول:

فإنّ الباحث يرى أَنَّ الضَّمير في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "خلق الله آدم على صورته" يعود إلى آدم – عليه السلام – للأدلّة النقليَّة، واللغويَّة التي ذكرناها سابقاً، ويكون بذلك مؤيّداً لما ذهب إليه ابن بدران – رحمه الله تعالى – صاحب العلم الزاخر، والاطلاع الباهر في معرفته، ودرايته بعلوم الحديث واللغة.

فالمعنى أَنَّ الله – سبحانه وتعالى – أوجد آدم – عليه السلام – على هيئته التي خلقه عليها طوله ستون ذراعاً، إذْ إِنَّه لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردّد في الأرحام أطواراً، فلم يخلُقْه صغيراً فكبر، ولا ضعيفاً فقوي، بل خلقه رجلاً كاملاً سوياً قوياً، بخلاف السنّة التي جعلها الله – جلّ وعزّ – في ذريّته، أن يكونوا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يَصِيرُوا صُوَرَاً أَجِنَّةً في الأرحام إلى أن تتم مدّة الحمل، فيولدون وينشؤون صغاراً إلى أَنْ يكبروا، فيتمّ طول أجسادهم، فآدم – عليه السلام – لم يكن خلقه على هذه الصفة، ثم إنّ الله – عزّ وجلّ – خلقه يوم خلقه على الصورة التي كان عليها بالأرض، إذ إنّه – عليه السلام – لم يكن في الجنّة على صورة أخرى مغايرة، فصورته في الجنّة هي صورته في الأرض، فلم تختلف صفاته، ولا صورته، كما تختلف صفات، وصور الملائكة، والجنّ[2].

فصل:

ممَّا ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام، إثبات الصورة لله – عزّ وجلّ – من غير تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، فكما أَنَّنا نُؤْمن، ونثبت ما جاء في القرآن الكريم من صفات الله – سبحانه – من

---

[1] القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، إكمال المُعلِم بفوائد مسلم، تحقيق د.يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1 1419هـ، ج8، ص374.

[2] انظر: المفهم لما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي، 183/7–184. وشرح السنة للبغوي 255/12. وإكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 374/8.وعمدة القاري للعيني 229/22. والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنَّووي 178/17. وفتح الباري 366/6. وغريب الحديث للخطابي 158/2.

اليدين، والأصابع، والعين؛ فإننا نُثبِتُ ما جاء في السنّة النبويّة الصحيحة من صفات لله – سبحانه وتعالى –.

قال ابن قتيبة (ت 276هـ) في تأويل مختلف الحديث: "والذي عندي – والله أعلم –: "أنّ الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع، والعين، وإنّما وقع الإلْفُ لتلك؛ لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة لهذه؛ لأنّها لم تأتِ في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفيَّة ولا حدّ " [1].

فقد ثبت في أحاديث صحيحة صفة الصورة لله – تعالى – غير الحديث الذي كنَّا بصدده وبينَّا ضعفه وهو رواية " على صورة الرحمن ". فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة– رضي الله عنه – في الشفاعة مرفوعاً، وفيه " فيأتيهم الله – تعالى – في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتَّبعونه،... " الحديث [2].

وحديث اختصام الملأ الأعلى، وفيه " رأيت ربي في أحسن صورة " [3].

فنحن وإنْ كُنَّا اخترنا بعض أقوال السلف في تفسير قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "على صورته" على من يعود الضمير؛ إلّا أنّنا نتّفق معهم جميعاً في إثبات هذه الصفة لله[4].

---

[1] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص322.

[2] صحيح البخاري 128/9، حديث رقم 7437، باب وجوه قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة:22–23].

[3] ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضَّحَّاك (ت 287هـ)، الآحاد والمثاني، تحقيق د.باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية – الرياض، ط1 1411هـ، ج5، ص48، حديث رقم 2585. والبزّار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت 292هـ)، البحر الزخّار، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط1 1988–2009م، ج11، ص42، حديث رقم 4727. والتوحيد لابن خزيمة 191/1. والمعجم الكبير للطبراني 317/1، حديث رقم 938، والدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد (ت 385هـ)، رؤية الله، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد العلي وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، سنة النشر 1411هـ، ص323 و 326 و 347، حديث رقم 239 و 241 و 267. والدارمي، أبو مُحَمَّد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت 255هـ)، سنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1 1412هـ، ج2، ص1365، حديث رقم 2195، ومختصر العلو للعلي العظيم للذهبي 119/1. وموسوعة الألباني في العقيدة 113/6. والألباني، أبو عبد الرحمن مُحَمَّد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي (ت 1420هـ)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف – الرياض، ط1 1415هـ، ج1، ص12، و ط1 1422هـ، ج7، ص502 و 505، حديث رقم 3169.

[4] صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء ص28 (الهامش).

قال الذهبي (ت 748هـ) في ميزان الاعتدال: " أمّا معنى حديث الصورة فنردّ علمه إلى الله ورسوله، ونسكت كما سكت السلف مع الجزم بأنْ ليس كمثله شيء " [1].

ثمَّ إنَّ الذين صحَّحوا رواية " على صورة الرحمن " وقالوا بعود الضمير إلى الرحمن لم يقولوا بتشبيه الرّب وتمثيله، ولم يخرجوا عن عقيدة أهل السنّة، والجماعة في إمرار آيات الصفات، وأحاديثها على ظاهرها من غير تحريف، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، بل يثبتون أسماءه، وصفاته إثباتاً بلا تمثيل، وينزِّهونه – سبحانه – عن مشابهة خلقه تنزيهاً بلا تعطيل، خلافاً لأهل البدع من المعطّلة والمشبّهة [2].

وأختم القول بكلام نفيس للإمام الذَّهبي (ت 748هـ) – رحمه الله –: " إنَّنا نُؤْمِنُ بما صحَّ منها، وبما اتفق السلف على إمراره، و إقراره، فأَمَّا ما في إسناده مقال، أو اختلف العلماء في قبوله وتأويله، فإنّا لا نتعرّض له بتقرير، بل نرويه في الجملة، ونبيِّن حاله " [3].

---

[1] ميزان الاعتدال 420/2.

[2] انظر: صحيح الأنباء المسند عن أحاديث الأنبياء ص27 (الهامش). وانظر: ابن القيّم، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، مختصر الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة، اختصره ابن الموصلي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم (ت 774هـ)، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة – مصر، ط1 1422هـ، ص5390.

[3] مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي 92/1.

المسألة التاسعة:

أَثر دلالة زمن الفعل في بيان استمرار جرائم اليهود في قوله – تعالى –: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: 91].

قال ابن بدران – رحمه الله –: " وفي الإتيان بصيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة، ورمزٌ إلى أنَّهم لو قَدَروا الآن لَفَعلوا مثل فِعْل أسلافهم؛ لأنَّ التّقدير: وتصرُّون على قتلهم من بعد، وفيه إيماءٌ إلى حرصهم على قتل النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، تحذيراً منهم، ولقد صدّق هذا الإيماءَ الواقعُ، فقد عزم بنو النضير على أَنْ يُلقوا صخرةً على النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وسمَّه أَهل خيبر " [1].

اعتمد ابن بدران على قاعدة نحويّة في جواز الخطاب بالمستقبل لأمر قد مضى؛ لبيان مراد الله – عزّ وجلّ – في إخباره عن اليهود.

والإرادة بمثال المضارع الماضي مذهب سيبويه[2].

قال سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب: "وقد تقع (نفعل) في موضع (فعلنا) في بعض المواضع، ومثل ذلك قوله[3] لرجل من بني سلولٍ مُولَّدٍ:

ولقد أَمُرُّ على اللَّئيم يَسُبُّني فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ لا يَعْنيني

واعلم أنّ (أسير) بمنزلة (سرت) إذا أردت (بأسير) معنى (سرت) " [4].

---

[1] جواهر الأفكار ص262-263.

[2] انظر: التفسير البسيط للواحدي 3 / 185 و15 / 341.

[3] هو شمر بن عمرو الحنفيّ، جاهلي، انظر: الأصمعيّ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)، الأصمعيات اختيار الأصمعي، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر – عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف – مصر، ط7 1993م، ص126، وفيه: ولقد مررت على اللئيم....

[4] الكتاب لسيبويه 24/3.

وقد رجَّحَ مَذْهَبَ سيبويه جَمْهَرَةٌ من علماء اللغة والنَّحْو في جواز وضع المضارع موضع الماضي[1].

وقد اهتموا به أَيَّما اهتمام، فأفردوا له أبواباً في بطون كتبهم؛ لأهميته، وكثرة وروده في القرآن الكريم واستعمال العرب له في لغتهم وأشعارهم.

قال ابن فارس (ت 395هـ)[2] في كتابه الصاحبي في فقه اللغة: " باب الفعل يأتي بلفظ الماضي، وهو راهنٌ، أو مستقبِلٌ، و بلفظ المستقبَلِ وهو ماضٍ: قال الله – جلّ ثناؤه –: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾[آل عمران: 110] أي: أنتم. وقال – جلّ ثناؤه –: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: 1] أي: يأتي. ويجيء بلفظ المستقبَل، وهو في المعنى ماضٍ. قال الشاعر:

ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسبُّني　　　فَمَضيْتُ عنه[3] وقلتُ لا يعنيني [4]

فقال " أمُرُّ " ثم قال: " مضيتُ ". وقال [5]:

---

[1] انظر: الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت 666هـ)، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، تحقيق د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، ط1 1413هـ، ج1، ص236، والكشف والبيان للثعلبي 9/2، ومعالم التنزيل للبغوي 176/1، ومدارك التنزيل للنسفي 110/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1، وتفسير القرآن للسمعاني 109/1.

[2] هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن مُحَمَّد بن حبيب الرازي اللغوي؛ كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنَّه أتقنها، وألَّف كتابه " المجمل في اللغة "، وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً، وله كتاب " حلية الفقهاء "، وله " رسائل أنيقة "، و" مسائل في اللغة "، ويعايي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبة، وهي مئة مسألة. وكان مقيماً بهمذان، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات. توفي سنة تسعين وثلاثمئة – رحمه الله تعالى – بالري، ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجُرْجَانِيّ. وقيل: إنَّه توفي في صفر سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بالمُحَمَّدية، والأول أشهر. من تصانيفه (مقاييس اللغة)، و (المجمل)، و (الصاحبيّ) في علم العربية، ألَّفه لخزانة الصاحب ابن عباد، و (جامع التأويل) في تفسير القرآن، و (النيروز) في نوادر المخطوطات، و (الإتباع والمزاوجة) و (الحماسة المحدثة) و (الفصيح) و (تمام الفصيح) و (متخير الألفاظ) و (ذمّ الخطأ في الشعر) و (اللامات) و (أوجز السير لخير البشر)، و (كتاب الثلاثة) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة، وله شعر حسن. انظر: وفيات الأعيان 118/1–119، والأعلام للزركلي 193/1.

[3] هكذا في الأصل، وأظنها (ثُمّت)، انظر: ص188.

[4] انظر: ص188، هامش رقم3–4.

[5] انظر: أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1412هـ، ص107. وفيه: رأتني منكم في كُوَّفانِ. بلا عزو. وغريب الحديث للخطابي 189/2، بدون عزو. ولسان العرب 311/9، مادة " كَوَفَ " قال: وأَنشد ابن بَرّي، وفيه: وإني منكُم في كَوَّفانِ والكوّفان (بتشديد الواو): الاختلاط والشّدة والعناء.

وما أُضْحِي ولا أمسَيْتُ إلّا رأوْني منهمُ في كَوَّفانِ[1]

وفي كتاب الله – جلّ ثناؤه –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]
وقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ [البقرة: 102] أي ما تَلَتْ. وقال آخر[2]:

وَنَدْمَانٍ يَزِيدُ الكَأْسَ طِيباً سَقَيْتُ إِذَا تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ " [3].

وأيّده أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ)[4] في فقه اللغة وسرّ العربية [5].

وقال ابن هشام (ت 761هـ) في المغني: " القاعدة السادسة: أنهم يُعبِّرون عن الماضي والآتي، كما يُعبِّرون عن الشيء الحاضر؛ قصداً لإحضاره في الذّهن، حتى كأنّه مُشاهد حالة الإخبار "[6].

وجاء في المزهر للسيوطي(ت911هـ):"ومن سنن العرب أنْ تأتي بالفعل بلفظ الماضي، وهو حاضر، أو مستقبَل، أو بلفظ المستقبَل، وهو ماضٍ نحو قوله – تعالى–: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾[النحل:1]

---

1 في الأصل كرفان، والصواب (كَوَّفان)، انظر: هامش (4).

2 هو البرج بن مسهر بن جلاس بن الأرت الطائي: شاعر، من معمّري الجاهلية. كانت إقامته في ديار طيِّئ (بلاد شمر، اليوم) بنجد. اختار أبو تمام (في الحماسة) أبياتا من شعره. وله خبر مع سواد بن قارب الدوسيّ أيام كهانته قبل الإسلام(ت نحو 30 ق هـ). انظر: الأعلام للزركلي47/2، و الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد (ت 356هـ)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر – بيروت، ط2، ج14، ص14، وانظر مُغني اللبيب في شرح الشواهد 130/1.

3 ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الناشر مُحَمَّد علي بيضون، ط1 1418هـ، ص167.

4 هو أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري؛ قال ابن بسام صاحب " الذخيرة " في حقه: " كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنِّفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب، وتواليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع وأكثر راوٍ لها وجامع، من أن يستوفيها حد أو وصف، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف ، وله من التواليف (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها، وله أيضاً كتاب (فقه اللغة) و (سحر البلاغة وسر البراعة) و (من غاب عنهم المطرب) و (مؤنس الوحيد) وشيء كثير جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة اطلاعه. وله أشعار كثيرة. وكانت ولادته سنة خمسين وثلاثمئة وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة – رحمه الله تعالى –. والثعالبي: بفتح الثاء المثلثه والعين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وبعدها باء موحدة هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل له ذلك لأنَّه كان فراء. انظر: وفيات الأعيان 178/3–180.

5 انظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل (ت 429هـ)، فقه اللغة وسرُّ العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1 1422هـ، ص228.

6 مغنى اللبيب 905/1.

أي يأتي.﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: 110] أي أنتم. ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ [البقرة: 102] أي ما تَلَتْ " [1].

وجاء في معاني النَّحْو للسّامرّائي عند ذكر أزمنة الفعل المضارع، وبيان أَنَّه يدلُّ على أزمنة متعدّدة منها: دلالته على المُضيِّ، ويكون ذلك في مواضع منها: " حكاية الحال الماضية: والمقصود بحكاية الحال الماضية أنْ يُعبَّر عن الحدث الماضي بما يدلّ على الحاضر، استحضاراً لصورته في الذهن كأنّه مشاهد مرئي في وقت الإخبار... ومثله قوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]؛ فالقتل حصل فيما مضى، أَلا ترى إلى قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ولكنَّه عبَّر عنه بالفعل المضارع؛ استحضاراً لهذه الصورةِ الشنيعة مِن قتل أنبياء الله، فخلع على المشهد صورة الحياة، والحركة بجعله ماثلاً أمام عين الرّائي "[2].

ويرى الباحث بعد الاطّلاع على أقوال علماء اللّغة، والنَّحْو، والتفسير في قوله – تعالى –: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أنّهم يُجَوِّزون وضع المضارع موضع الماضي، والآية شاهد على ذلك. ولكنَّهم اختلفوا في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] على قولين[3]:

أَمَّا القول الأَوَّل: قالوا: إنَّ معنى الآية ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91]: فَلِمَ قَتَلتم أنبياء الله من قبل، وذهب إلى هذا القول بعض البصريين [4].

قال الأخفش (ت 215هـ) في معاني القرآن: " و (تَقْتُلُون) في معنى (قَتَلْتُم) كما قال الشاعر:

ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني فَمَضيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنيني

---

1 المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي 1 / 265.

2 معاني النَّحْو للسامرّائي 3/288–289.

3 انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 2/350–353.

4 انظر: المرجع السابق 2/350–351.

يريد " لقد مررت " بقوله " أمر " "[1].

وذهب جمع من المفسِّرين إلى هذا القول منهم:

مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ يقول: فلم قتلتم أنبياء الله من قبلُ؟ يعني آباءهم وقد جاءوا بالآيات، والقربان "[2].

والثعلبي (ت 427هـ)[3] في تفسيره بقوله: " وقد تضع العرب لفظ الاستقبال موضع المُضيّ كقوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أي قتلتم "[4].

والجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في تفسيره بقوله: " (تقتلون) مستقبل بمعنى الماضي بدلالة قوله: ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: 183] "[5].

والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: " وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي، كما قال الله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 91] أي فلم قتلتموهم "[6].

وأبو القاسم النيسابوري (ت 550هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾، والمُراد: لِمَ قَتَلْتُم؛ لأنّه كالصّفة اللّازمة لهم، كقولك للكاذب: لِمَ تكذب؟ بمعنى: لِمَ كذبت"[7].

---

[1] معاني القرآن للأخفش 144/1–145، وانظر: إعراب القرآن للباقولي 103/1، والتبيان في إعراب القرآن للعُكبري 93/1، والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 131/3، وشرف الدين، جعفر، الموسوعة القرآنية، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط1 1420، ج1، ص 216–217.

[2] تفسير مقاتل بن سليمان ص123.

[3] هو أبو إسحاق أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسِّر المشهور؛ كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير. وله كتاب "العرائس في قصص الأنبياء" – صلوات الله وسلامه عليهم – وغير ذلك. ذكره السمعاني وقال: يقال له: الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له وليس بنسب، قاله بعض العلماء. توفي سنة سبع وعشرين وأربعمئة، وقال غيره: توفي في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمئة. وقال غيره: توفي يوم الأربعاء لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمئة – رحمه الله تعالى – . والثعلبي بفتح الثاء المثلثة وسكون العين المهملة وبعد اللام المفتوحة باء موحدة. انظر: وفيات الأعيان 79/1–80.

[4] الكشف والبيان من تفسير القرآن 9/2، وانظر: تفسير القرآن للسمعاني 109/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1.

[5] درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 231/1.

[6] معالم التنزيل في تفسير القرآن 176/1.

[7] إيجاز البيان عن معاني القرآن للنَّيسابوري 114/1، وانظر: النكت والعيون للماوردي 159/1.

والنّسفي (ت 710هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾، أي: فلِمَ قَتَلْتم، فوضع المستقبَل موضع الماضي "[1].

وأبو حيّان (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " وجاء يقتلون بصورة المضارع، والمُراد الماضي، إذ المعنى: قل فلِمَ قَتَلْتم، وأوضح ذلك أنّ هؤلاء الذين بحضرة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يصدر منهم قتل الأنبياء، وأنّه قُيِّد بقوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾، فدلّ على تقدم القتل "[2].

أما القول الثاني: قال بعض نحويّي الكوفيّين: إنما قيل: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾، مخاطبهم بالمستقبَل من الفعل، ومعناه الماضي [3].

وقال الفرّاء (ت 207هـ) في معاني القرآن: " وقوله: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 91]، وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة، إنّما قَتَلَ الأنبياءَ أسلافُهم الذين مَضَوا فتولّوهم على ذلك، ورضوا به فنُسِبَ القتل إليهم "[4].

قال مساعد الطيَّار في كتابه " التفسير اللغوي للقرآن الكريم " تحت عنوان الأسلوب العربي في الخطاب القرآني إنَّ الفرّاء قد بيّن كثيراً من الأساليب العربية النَّحْوية واستشهد منها بأمثلة توضّحها، ثم نقل كلام الفرّاء في معاني القرآن[5] بتمامه وكماله تحت عنوان الخطاب بالمستقبل لأَمرٍ قد مضى: " بيَّن الفرّاء (ت 207هـ) في هذا النص أَنَّه جاز الحديث عن الماضي بفعل دالّ على الاستقبال؛ لأنَّ في الكلام دليلاً على إرادة الماضي... كما بيّن الفرّاء (ت 207هـ) أنّه جاز خطاب الحاضرين

---

[1] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي110/1. وانظر: الإشبيلي عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688هـ)، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، تحقيق علي بن سلطان الحكمي، الجامعة الإسلامية بالدينة المنورة، الطبعة: الأعداد 85 – 100 السنوات 22 – 25 المحرم 1410 هـ – ذو الحجة 1413 هـ، ج1، ص362، والموسوعة القرآنية خصائص السور 252/4.

[2] البحر المحيط 493/1.

[3] جامع البيان للطبري 352/2.

[4] معاني القرآن للفراء 61/1.

[5] انظر: المرجع السابق 60/1–61.

بما فعله الأسلاف منهم؛ لرضاهم بهذا العمل، حتى صاروا كأنهم فعلوه بأنفسهم، إذ الرّاضي كالفاعل، وما ذُكِر من نَسْبِ القتل إلى حاضري التنزيل أسلوب عربي عريق "[1].

وقال الزّجّاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه: " فإن قال قائل فَلِمَ قيل لهم: ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ ﴾، وهؤلاء لم يقتلوا نبيّاً قطّ؟ قيل له: قال أهل اللغة في هذا قولين: أحدهما إنّ الخطاب لمن شوهد مِن أهل مَكَّة ومن غاب خطاب واحد، فإذا قتل أسلافُهم الأنبياءَ وهم مُقيمون على ذلك المذهب، فقد شركوهم في قتلهم، وقيل أيضاً: لمَ رَضيتم بذلك الفعل؟ وهذا القول الثاني يرجع إلى معنى الأول. وإنّما جاز أن يُذكر هنا لفظ الاستقبال والمعنى المُضيّ لقوله﴿ مِن قَبۡلُ ﴾"[2].

وذهب إلى هذا القول الجَصّاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن بقوله: " ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٩١ ﴾ فأضاف القتل إليهم، وإنْ لم يباشروه، ولم يقتلوه إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين " [3].

والزركشي (ت 794هـ) في البرهان بقوله: " والمخاطبون على عهد النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لم يقتلوا الأنبياء إنّما باشره آباؤهم، لكنّ مذهبهم في ذلك واحد " [4].

وقال بهذا القول جمع من المفسرين منهم:

الواحدي (ت 468هـ) في تفسيره بقوله: " وأضاف القتل ها هنا إلى المخاطَبين، وإن كان آباؤهم قتلوا؛ لأنهم كانوا يتولون الذين قتلوا منهم على مذهبهم، وإذا كانوا على ذلك المذهب فهم

---

[1] الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1 1432هـ، ج1، ص294، وانظر: المرجع نفسه 292/1-293.

[2] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 175/1.

[3] أحكام القرآن للجصاص 319/2، وانظر المرجع نفسه 287/2 و 332 و 202/4.

[4] البرهان في علوم القرآن للزركشي 418/1.

شركوهم"[1]. ثم نقل كلام الأنباري (ت 328هـ) بقوله: " وقال ابن الأنباري: تأويله: فلم توليتم آباءكم القاتلين ورضيتم ما كانوا عليه، وصوّبتم أفعالهم "[2].

وابن عطيَّة (ت 542هـ) في تفسيره بقوله: "ألا ترى أَنَّ حاضري مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لمّا كانوا راضين بفعل أسلافهم، بقي لهم من قتل الأنبياء جزء "[3].

والقرطبي (ت 761هـ) في تفسيره بقوله: " فالخطاب لمن حضر مُحَمَّداً –صلى الله عليه وسلم– والمراد أسلافهم. وإنّما توجّه الخطاب لأبنائهم؛ لأنّهم كانوا يتولّون أولئك الذين قتلوا، كما قال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: 81] فإذا تولّوهم فهم بمنزلتهم. وقيل: لأنهم رضوا فعلهم فنُسب ذلك إليهم. وجاء " تقتلون " بلفظ الاستقبال، وهو بمعنى المُضيّ لمّا ارتفع الإشكال بقوله: " من قبل ". وإذا لم يُشكِل فجائز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضي، قال الحطيئة [4]:

شَهِدَ الحُطيئَة يوم يَلقى رَبَّهُ   أنّ الوليد أحقُّ بالعُذر [5]

شهد بمعنى يشهد " [6].

---

[1] التفسير البسيط للواحدي 156/3، وانظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 82/1، ومحاسن التأويل للقاسمي 352/1.

[2] التفسير البسيط للواحدي 156/3، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي 604/3، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 94/1، وزاد المسير في علم التفسير 88/1.

[3] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 179/1. انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 304/3. وتأويلات أهل السنة للماتريدي 510/1. وفتح القدير للشَّوكاني 132/1–133. ومجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر، 1423هـ، ص472. والبحر المحيط 493/1.

[4] هو جرول بن أوس، من بني قطيعة بن عبس، ولقِّب الحطيئة؛ لقصره وقربه من الأرض ويكنى أبا مليكة، وكان راوية زهير، وهو جاهلي إسلامي، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – وأسلم في عهد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة 310/1، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني 149/2، والحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس (ت 45هـ)، ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (ت 246هـ)، دراسة وتبويب د.مفيد مُحَمَّد قميمة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1413هـ، ص110.

[5] ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ص110، والأغاني 138/5 و 140.

[6] الجامع لأحكام القرآن 30/2، وانظر: عناية القاضي وكفاية الراضي (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي) 204/2، والتحرير والتنوير لابن عاشور 608/1.

والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدّر المصون بقوله: " و ﴿ تَقۡتُلُونَ ﴾ وإن كان بصيغة المضارع فهو في معنى الماضي لفهم المعنى، وأيضاً فمعه قوله ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾، وجاز إسناد القتل إليهم وإن لم يتعاطوه، لأنّهم لمّا كانوا راضين بفعل أسلافهم جُعِلوا كأنّهم فعلوا هم أنفسهم " [1].

ويرى الباحث بعد سرد أقوال الفريقين وبيان أدلَّتهم، أنَّ القول الرّاجح في هذه المسألة هو الجمع بين القولين؛ إذْ لَيْسَ ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَهُمَا؛ لأنَّ الإتيان بصيغة المضارع موضع الماضي يحتمل الأمرين، فالقتل الحقيقيّ والجريمة النّكراء، وسفك الدماء لأولياء الله – عزّ وجلّ – من الأنبياء الأصفياء، إنّما حصل من آبائهم، وأسلافهم، فلمّا أقرُّوا به، وَرَضُوهُ كانوا شركاءَهم فيما فعلوا وصنعوا.

ولأنَّ المعصية إذا فُعِلت في الأرض فمن كَرِهَها، وأنكرها برئ منها، ومَن رضيَها كان مِن أَهلها وإنْ لم يفعلها [2].

وهذا ما ذهب إليه ابن بدران – رحمه الله تعالى – بقوله: " ثمّ بيّن أنّ كفرهم بهذا القتل إنّما هو بطريقة الرّضاء بقتل أسلافهم، ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ "[3].

أي أنَّهم كفروا كما كفر آباؤهم، وأسلافُهم من قبل بجريمة القتل للأنبياء، حقيقة لمن سلف، والرضا لمن خلف.

ثمَّ لمَّا أَعْقَبَ الله – عزّ وجلّ – جريمة قتل الأنبياء بقوله: ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ دلّ ذلك أنّ ما حصل من قتل للأنبياء، إنّما كان قبل النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فهي دلالة على الماضي، وفيها إشارة إلى زيادة طمأنة قلب النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذْ إنَّه لم ولن يحدث معه ما حدث مع إخوانه من الأنبياء من قتل، وسفك للدماء. قال الله – تعالى – مخاطباً نبيّه:﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ

---

[1] الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون 517/1، وانظر تفسير اللباب لابن عادل 299/1.

[2] انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 260/1 وعزاها إلى ابن عباس – رضي الله عنهما –، بلفظ: "إذا عمل المعصية، فمن أنكرها فقد برئ منها، ومن رضيها كان كمن فعلها"، قال الباحث: ولم أجد له تخريجاً في كتب الحديث ولكن ذكره الخازن في تفسيره لباب التأويل 82/1 بدون عزو.

[3] جواهر الأفكار ص262.

مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: 67]، فأكدّ الله – جلَّ وعزَّ – أنَّ ما جرى للأنبياء من قبلك لن يجريَ معك؛ ليُثبِّت قلب نبيِّه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وينزع الخوف من قلوب المؤمنين الذين معه.

فكُفر اليهود بأنبيائهم أدى إلى قتلهم، وسفك دمائهم الزكيَّة، فلمَّا كفر اليهود بالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أراد الله – عزَّ وجلَّ – أنْ يطمئن نبيَّه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنّه وإنْ كفر بك هؤلاء اليهود فإنّهم لن يصلوا إليك ولن يؤذوك بشيء ، فأعقب الله – عزَّ وجلَّ – الآية بقوله: ﴿ مِن قَبۡلُ﴾ يعني أنّ ما حصل للأنبياء – صلوات الله عليهم جميعاً – من قَتلٍ قد انتهى.

وبذلك فإنّ الله – تعالى – يكون قد قطع آمال كل من تُسوِّل له نفسه – من اليهود وغيرهم – إيذاء النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أو قتله، وأنّهم لن يستطيعوا فعل آبائهم في قتل أنبيائهم والتخلّص من دعوتهم، رغم محاولاتهم التترا في ذلك، فقد همّوا بقتل النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مراراً [1]، فمرّة حاولوا إلقاء الصخرة عليه لمَّا خرج إلى بني النضير يستعينهم في دِيَةِ العَامِرِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلا عَمْرُو ابن أُميَّة الضَّمرِي [2]. ومرّة دسّوا له السُّمَّ في الشاة لمَّا فُتحت خيبر، فأمرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَجُمِعَ من كان من اليهود، فقال لهم: "هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ " قالوا: نعم[3].

ثمَّ إنَّ الإتيان بصيغة المضارع له فائدتان في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 91].

أمّا الأولى: فهي تصوير فظاعة، وشناعة ما اقترفه أسلافهم بأنبيائهم من قبل، وهم رُسُل الله، وصفوة خلقه، فإذا كان من العيب المشين، والجرم العظيم قتل رُسُل الملوك، فكيف برُسُل ملك الملوك – سبحانه –؟!.

---

[1] انظر: درّاز، مُحَمَّد عبد الله (ت 1377هـ)، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة – الدوحة، ط 1985م، ص124-125. وتفسير الشعراوي – خواطر 463/1 و 1376/3 و 5495/9 و 9416/15 و 11220/18.

[2] انظر: ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت 213هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2 1375هـ، ج1، ص563.

[3] انظر: صحيح البخاري، باب ما يذكر في سُمّ النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – 139/7، حديث رقم 5777. ومشكاة المصابيح 1669/3، حديث رقم 5935.

وقد أشار إلى ذلك ابن بدران – رحمه الله تعالى – بقوله: "وفي الإتيان بصيغة المضارع تصوير لشناعة هذا القتل بتلك الحال الفظيعة " [1].

وقال ابن عاشور (ت1393هـ) في التحرير والتنوير: " والإتيان بالمضارع في قوله: ﴿تَقۡتُلُونَ﴾ مع أنَّ القتل قد مضى؛ لقصد استحضار الحالة الفظيعة " [2].

وأمَّا الفائدة الثانية: فهي الاستمرار، والمداومة، والتجدّد. قال السامرّائي في معاني النَّحْو عند ذكر أزمنة المضارع: " الاستمرار التجدّدي: وذلك كقوله – تعالى –: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ [البقرة:245]، وكقوله:﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: 258] ... فهذه الأحداث تتكرر باستمرار "[3].

فَذِكْرُ المضارع بقوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة: 91]، يفيد الدَّيمومة، والاستمرار في قتل اليهود للأنبياء.

وأشار إلى ذلك ابن بدران بقوله: "ورَمْزٌ [4] إلى أَنَّهُم لو قدروا الآن لفعلوا مثل فعل أسلافهم؛ لأَنَّ التّقدير: وتُصِرُّونَ على قتلِهم مِنْ بعد، وفيه إيماءٌ إلى حرصهم على قتل النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تحذيراً منهم، ولقد صدّق هذا الإيماءَ الواقعُ، فقد عزم بنو النّضير على أنْ يلقوا صخرة على النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وسمَّه أهلُ خيبر" [5].

قال الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في تفسيره: " إنَّ عادة العرب إذا أَرادوا أنْ يخبروا عن تعاطي فعل مداوم عليه قرنوا لفظ الماضي بالمستقبل؛ تنبيهاً على المداومة عليه " [6].

---

[1] جواهر الأفكار ص262.
[2] التحرير والتنوير لابن عاشور 608/1.
[3] معاني النَّحْو للسامرّائي 291/3.
[4] يعني الإتيان بصيغة المضارع.
[5] جواهر الأفكار ص262–263.
[6] تفسير الراغب الأصفهاني 260/1.

وقال ابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره: " وفائدة سَوْق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأنّ الأمر مستمرٌّ " [1].

وقال السيوطي(ت911هـ) في الإتقان: " وعكسه[2]لإفادة الدوام، والاستمرار فكأنَّه وقع واستمر "[3].

واستمراريَّة جرائم اليهود لا تتوقف عند قتل أنبيائهم كما فعل أسلافهم، ومحاولتهم لقتل النَّبِيِّ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وفشلهم في ذلك لعصمةِ الله لنبيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[المائدة: 67]، بل تتعدّاه إلى قتل أتباع الأنبياء، ومَنْ يَدْعُون بدعوَتِهم والقرائن دالَّة على ذلك في تاريخهم، وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير من الآيات، والسُّور ومنها قوله – سبحانه وتعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 91]؛ فساقها الله بصيغة المضارع؛ لبيان استمرار قتلهم وجرائمهم، وعدائهم للأنبياء، وأتباعهم إلى يوم الدين؛ لأنَّهم يحسدونهم على ما عندهم من الحقّ

قال – تعالى – : ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ [البقرة: 109] فعداء اليهود للمسلمين عداء عقيدة، وَ وُجُود، لا عداء أرض وحدود.

لذلك فإنّ جرائمهم تترا إلى يومنا هذا، (بل إلى يوم القيامة) والواقع أدلّ دليل: وأكبر برهان على ذلك.

---

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 179/1، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 493/1، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 83/1.

[2] أي إطلاق المستقبل على الماضي لذكر قبل هذا السياق إطلاق الماضي على المستقبل ثم قال وعكسه.

[3] الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 131/3، وانظر: روح المعاني للألوسي 324/1.

فقد أخبر النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنَّهم أتباع الدَّجال في آخر الزَّمان، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنّ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: يتبع الدَّجَّال من يهود أَصْبَهان[1]، سبعون ألفاً عليهم الطيالسة[2] " [3].

وخلاصة القول:

إنَّ اللُّغة العربيَّة كان لها بالغ الأثر في الخروج من الخلاف بين العلماء في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ ﴾ [البقرة: 91]، إذْ إنَّها الفَيْصَلُ في الجمع بين أقوال العلماء، وبيان المعنى المُراد في الآية في إظهار جرائم اليهود بحقّ أنبياء الله، ورسله، ومن تبعهم إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها، وذلك من خلال سياق الآية الكريمة في الإتيان بصيغة المضارع في موضع الماضي؛ لبيان جرائم السلف، واستمراره، وديمومته لبيان جرائم الخلف.

---

[1] أصبهان أو أصفهان وهي إحدى مدن إيران وتبعد 340كم جنوب طهران، ويكثر فيها اليهود حالياً.

[2] الطيالسة: الواحد الطيلس أو الطيلسان، يعني خرقة وسخة ضمّنها النار حين اقتدح. والطيلس والطيلسان ضرب من الأكسية وهو فارسي مُعَرَّب، انظر: لسان العرب مادة (طلس)، 6 / 125.

[3] صحيح مسلم 207/8، حديث رقم 7502. والسلسلة الصحيحة للألباني 214/7، حديث رقم 3080. وصحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني 1328/2، حديث رقم 8016. وموسوعة الألباني في العقيدة 317/9.

المسألة العاشرة:

أَثر التعريف والتنكير في كلمة ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ في بيان استغراق تعلّق اليهود بالدنيا في قوله – تعالى–: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [البقرة: 96].

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " (أحرص الناس على حياة)، والحرص: طلب الاستغراق فيما يختص فيه الحظ، والتنكير في الـ ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ للإشارة إلى أنّهم يحرصون على مطلقها، على أي صفة كانت، وهم قاطعون بأنَّه لا يخلو يوم منها عن كدر؛ فإنّهم يعلمون أنّ الحياة، وإن كانت في غاية الكدر خير لهم ممَّا بعد الموت " [1].

ومفاد كلامه – رحمه الله تعالى – أنّ اليهود يحرصون على مطلق الحياة، سواء أكانت رفيعة أم وضيعة، عزيزة أم ذليلة، رغيدة أم فقيرة، فالأمر عندهم سواء، مع علمهم أنّ الحياة يشوبها الكدر والهمّ والغمّ، ومع ذلك فإنَّها بالنِّسبة إليهم أفضل من الموت وما بعده.

معتمداً بذلك على اللغة العربية في سبب تنكير كلمة ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ في الآية الكريمة، للوقوف على توجيه المعنى لها، ومعرفة مراد الله منها.

وقد اختلف العلماء في سبب تنكير كلمة ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ على قولين:

الأول: قالوا التنكير في ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ تنبيه على أنّه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة، أو أراد طول حياة.

الثاني: قالوا التنكير في ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ تنبيه على أنّه أراد مطلق حياة.

وللوقوف على القول الراجح في المسألة، وبيانها، ومعرفة مراد الله منها لا بُدَّ من الرُّجوع إلى باب التنكير لتعريفه، ومعرفة أسبابه، وأغراضه.

---

[1] جواهر الأفكار ص268–269.

و" لمَّا كان كثير من الأحكام الآتية تُبنى على التعريف والتنكير وكانا كثيري الدّوْر في أبواب العربية، صدَّر النُحاة كتب النَّحْو بذكرهما بعد الإعراب والبناء، وقد أكثر الناس حدودهما وليس منها حدّ سالم " [1].

وقد اهتمَّ به العلماء؛ لعظم شأنه، وجلال قدره في بيان المقصود من السياقات العربية شِعراً، ونثراً، كما أنَّ له الأَثَرَ الكَبِيرَ في توجيه المعنى في كثير من الآيات القرآنية.

تعريف النكرة:

فالنّكرة: ما لم تَخُصَّ الواحدَ من جنسه، نحو رجل وغلام [2].

وقال الهرمي (ت 702هـ)[3] في المحرّر: " كل اسم شائع في جنسه لا يختصّ به واحد دون آخر، كرجل وفرس "[4].

وقال ابن هشام (ت 761هـ) في شرح قطر النّدى: " الاسم ضربان: نكرة، وهو ما شاع في جنس موجود: كرجل، أو مقدّر: كشمس "[5].

وعلامة النّكرة:

1. أن تقبل دخول (رُبّ) عليها، نحو رجل وغلام، تقول "رُبّ رجل" و "رُبّ غلام".
2. أن تقبل دخول (ال) عليها، نحو كتاب ومهندس، تقول الكتاب، والمهندس[6].

وإذا أطلقت النّكرة دلّت على أحد أمرين:

---

[1] همع الهوامع في جمع الجوامع للسيوطي 218/1. وانظر: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للشاطبي 241/1.

[2] ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت 392هـ)، اللُّمع في العربية، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية – الكويت، ص98.

[3] هو عمر بن عيسى بن إسماعيل، الهرمي بلدا الأشعري نسبا، أبو الخطاب: نحوي، أديب. من الحنفية. من أهل اليمن. كان مقيما في صنعاء. له كتب، منها " المحرر – ط" في النَّحْو. انظر: الأعلام للزركلي 58/5.

[4] المحرر في النَّحْو للهرمي 213/1. وانظر: صالح، عبد علي حسن، النَّحْو العربي – منهج في التعليم الذاتي، دار الفكر، الأردن – عمان، ط1 2001م، ص46، وانظر: فتح رب البَرِيّة شرح نظم الآجرّوميّة ص438.

[5] شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ص93.

[6] انظر: اللمع في العربية ص98، و فتح رب البرية شرح نظم الآجرومية 442/1، والمحرر في النَّحْو للهرمي 216/1، وشرح شذور الذهب ص164، والمقاصد الشافية 242/1، والنَّحْو العربي ص46، والنَّحْو الوافي 1/ 209، ومغالسة، محمود حسني، النَّحْو الشافي الشامل، دار المسيرة، عمَّان، ط1 1427هـ، ص171.

1. إرادة الوحدة، نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسۡعَىٰ ﴾ [يس: 20].
2. إرادة الجنس، نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ ﴾ [البقرة: 221].

وقد تحتمل الجنس والوحدة معاً كقولك: (جاءني اليوم رجلٌ) فهذا يحتمل أنَّه جاءك رجلٌ واحدٌ، ويحتمل أنَّه جاءك رجل لا امرأة [1].

أغراض التَّنكير:

ومما ينبغي التنبيه إليه عند الحديث عن أغراض النّكرة ومعانيها: " أنّ النّكرة لم تُفدْها بطبيعتها، وإنّما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنّما المقام هو الذي يصف النّكرة، ويحدّد معناها، فكلمة حياة مثلاً تدلّ على معناه المجرّد، والمقام يَهَبُها معنى التحقير حيناً، والتعظيم حيناً آخر، والنوعيّة من موضع ثالث " [2].

ومن معاني وأغراض التَّنكير المستفادة من المقام:

1. الإفراد نحو قوله – تعالى –: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر: 29].
2. النَّوعيَّة نحو قوله – تعالى –: ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].
3. التَّعظيم نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: 6].
4. التَّهويل نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [البقرة: 48].
5. التَّكثير نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ [القلم: 3].
6. التَّقليل نحو قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: 44].

---

[1] معاني النَّحْو للسامرّائي 38/1.

[2] البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي (ت 1384هـ)، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، ط2005م، ص102.

7. التَّخصيص نحو قوله – تعالى –: ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾ [النساء: 47] ، والمراد بالوجوه ههنا وجوه الكفار، فالنّكرة عامّة والمراد بها التّخصيص.
8. التَّحقير نحو قوله – تعالى –: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ [البقرة: 96].
9. التَّجاهل والاستهزاء نحو قوله – تعالى –: ﴿ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ: 7]، كأنهم لا يعرفونه[1].

ومنهم مَنْ لم يفرِّق بين التَّعظيم، والتَّكثير، ولا بين التَّحقير، والتَّقليل كما بيَّن ذلك القزويني (ت 739هـ) في الإيضاح بقوله: "والسكَّاكي لم يفرِّق بين التَّعظيم، والتَّكثير، ولا بين التَّحقير، والتَّقليل... وفي كليهما نظر"[2].

وقال سيبويه (ت 180هـ) في الكتاب: " ويقول: أتاني اليومَ رجلٌ، أي في قوّته، ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضّعفاء"[3]، فيظهر من مثال سيبويه أنَّه ثمَّة فرق بين التَّعظيم، والتَّكثير إذ المقصود في المثال التَّعظيم لا التَّكثير.

من هنا نلحظ أن الخلاف بين العلماء في تأويل كلمة ﴿ حَيَوٰةٖ ﴾ في قوله – تعالى –: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ [البقرة: 96]، ناشئ من الغرض الحقيقي للتّنكير في كلمة حياة.

فالذين قالوا: حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة اعتمدوا في ذلك أنَّ الغرض من التّنكير هو النَّوعيَّة، أي نوع من الحياة مخصوص، وهو الحياة الزائدة، كأنَّه قيل " ولتجدنّهم أحرص الناس– وإنْ عاشوا ما عاشوا – على أنْ يزدادوا إلى حياتهم في الماضي، والحاضر حياة في المستقبل؛ فإنَّ

---

[1] انظر: الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر(ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط3، ج2، ص36. والهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط، وتدقيق، وتوثيق د.يوسف الصميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، ص121–122. والصعيدي، عبد المتعال (ت 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17 1426هـ، ج1، ص93–95. ومعاني النَّحْو للسامرّائي ص39–40. والبرهان في علوم القرآن للزركشي 90/4–93. والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 346/2–347، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 202/1–203. ومن بلاغة القرآن ص102–104.

[2] الإيضاح غي علوم البلاغة 38/2، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للصَّعيدي 95/1.

[3] الكتاب 55/1.

الإنسان لا يوصف بالحرص على شيء إلَّا إذا لم يكن ذلك الشيء موجوداً له حال وصفه بالحرص عليه " [1].

أَمَّا الذين قالوا حياة مطلقة أي مطلق حياة، اعتمدوا في ذلك أَنَّ الغرض من التَّنكير هو التَّحقير بمعنى أيّ حياة كانت، ولو كانت حقيرة مهينة[2].

وممّن قال بالقول الأوَّل: إنَّ الحياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة:

الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " فإن قلت: لم قال: عَلى حَياةٍ بالتّنكير؟ قلت: لأنّه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة؛ ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أُبيّ[3] (على الحياة)"[4].

وأَيَّده الرّازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله: "أي حياة كاملة تامة " [5]، والنسفي (ت 710هـ) في تفسيره [6]، وقال البيضاوي (ت 685هـ) في تفسيره: " وتنكير حياة؛ لأَنَّه أُريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة "[7]. وقال الزركشي (ت 794هـ) في البرهان: "ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة؛ لأنهم لم يحرصوا على أصل الحياة حتى تُعرف، بل على الازدياد من نوع، وإنْ كان الزائد أقلّ شيء ينطلق عليه اسم الحياة "[8].

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجيل 36/2، وانظر: دلائل الإعجاز للجرجاني 288/1-289.

[2] معاني النَّحْو للسامرّائي 40/1.

[3] انظر: معجم القراءات 1 / 156.

[4] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 168/1. وانظر: محاسن التأويل للقاسمي 355/1. وانظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط2 1418هـ، ج1، ص229. ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 61/1.

[5] مفاتيح الغيب 609/3 و 340/14، وانظر: اللباب في علوم الكتاب 269/9.

[6] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي112/1.

[7] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 95/1. وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 334/1. والمظهري، مُحَمَّد ثناء الله (ت 1225هـ)، التفسير المظهري، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرّشديّة – الباكستان، ط 1412هـ، ج1، ص101، وطنطاوي، مُحَمَّد سيد (ت 1431هـ)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار النهضة، مصر، الفجالة – القاهرة، ط1 1997م، ج1، ص211، وروح المعاني للألوسي 329/1.

[8] البرهان في علوم القرآن للزركشي 91/4، وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 346/2، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان 202/1.

وأَمَّا مَنْ قال بالقول الثاني: أَنَّهم أَحرصُ الناسِ على مطلقِ حياة.

أَبو حيَّان الأَندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " وهو أن يكون أحرص الناس على مطلق حياة؛ لأنّ من كان أحرص الناس على مطلق حياة، وهو تحقّقها بأدنى زمان، فَلأَنْ يكون أحرص على حياة طويلة أَوْلى، وكانوا قد ذُمُّوا بأنّهم أشدُّ الناس حرصاً على حياة، ولو ساعة واحدة"[1].

وأيّده بذلك السَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدُّرِّ المصون بقوله: " بل يكون المعنى: أَنَّهم أَحرصُ الناسِ على مطلق حياة، وإِنْ قلت: فكيف وإِنْ كَبُرَت؟ فيكون أبلَغَ في وصفهم بذلك "[2].

والشوكاني (ت 1250هـ) في تفسيره بقوله: " وتنكير حياة: للتّحقير؛ أَي أَنَّهم أَحرصُ الناسِ على أحقرِ حياة، وأقلِّ لُبْث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة ولُبْث متطاول "[3].

وقال مُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره: " ونكّر الحياة للتحقير، كأنّه يقول: إنّهم شديدو الحرص على الحياة، وإنْ كانت في بُؤس وشقاء " [4].

وقال سيد قطب (ت 1385هـ)[5] في ظلال القرآن: " خصلة يصوِّرها القرآن، صورة تفيض بالزّراية وتنضح بالتحقير والمهانة: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)... أيّة حياة، لا يهمّ أنْ تكون حياة كريمة، ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التّنكير، والتحقير! حياة ديدان، أو

---

1 البحر المحيط 502/1.

2 الدر المصون 11/2.

3 فتح القدير للشَّوكاني، 135/1، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن للقِنَّوجي 1/ 228.

4 تفسير المنار 323/1، وانظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 617/1.

5 هو سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة 1353 هـ وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) وعُيِّن مدرِّساً للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف. ثم (مراقبا فنيا) للوزراة. وأوفد في بعثة لدراسة (برامج التعليم) في أميركا (1948 – 51) ولمَّا عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية. وبنى على هذا استقالته (1953) في العام الثاني للثورة. وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (1953 – 54) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم. قال خالد محيي الدين (أحد أقطاب الثورة المصرية) فيما كُتب عنه: كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحاً، ومن العجيب أنه انقلب – بعد قيام الثورة – ناقماً متمرداً على كل ما يحدث حوله، لا يراه إلا جاهلية مظلمة. وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة، منها (النقد الأدبي، أصوله ومناهجه) و (العدالة الاجتماعية في الإسلام) و (التصوير الفني في القرآن) و (مشاهد القيامة في القرآن) و (كتب وشخصيات) و (أشواك) و (الإسلام ومشكلات الحضارة) و (السلام العالمي والإسلام) و (المستقبل لهذا الدين) و (في ظلال القرآن) و (معالم في الطريق) . الأعلام للزركلي 147/3–148.

حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلّا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبناً، وحرصاً على الحياة. أيّ حياة!"[1].

وقال العثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره: "ونكّر ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾؛ ليفيد أَنَّهم حريصون على أيِّ حياة كانت، وإنْ قَلَّت؛ حتى لو لم يأْتهم إلَّا لحظة فهم أَحرص الناس عليها " [2].

وقال أبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير: " وَنَكَّر – سبحانه وتعالى – ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾؛ لتعميم معاني الحياة، فهم يحرصون على حياة أيّاً كانت صورتها، سواء كانت حياة ذلّ أم كانت حياة عزّ، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرّيّة، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت تحكمها الرذيلة، إنّهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى وصفها سواء أكانت مقيتة في ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة، وإنّ هذا يدل على كمال الحرص " [3].

ويرى الباحث بعد سرد أقوال الفريقين، وبيان أدلّتهم، واستقراء المسألة، والنظر في سياق الآيات التي وردت فيها الآية الكريمة أنَّ الغرض من التَّنكير هو التَّحقير. وعليه فإنَّ المراد مِن كلمة ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ مطلق حياة؛ بمعنى أَنَّهم حريصون كُلّ الحرص على الحياة، مهما كانت حقيرة القدر ضئيلة القيمة. مؤيّداً بذلك قول الفريق الثاني الذين قالوا بهذا القول، وهذا هو قول ابن بدران – رحمه الله – كما بيّنّا ذلك في بداية المسألة [4].

---

[1] الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) في ظلال القرآن، دار الشروق – بيروت – القاهرة، ط17 1412هـ، ج1، ص92، وانظر: الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط17، ص222.

[2] تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 309/1، وانظر: الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5 1424هـ، ج1، ص85.

[3] زهرة التفاسير 324/1، وانظر: الراغب، عبد السلام أحمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط1 1422هـ، ص313، ومن بلاغة القرآن ص52، وتفسير الشعراوي – الخواطر 477/1.

[4] انظر: ص202.

ولعلّ هذا الرأي هو الأقرب للصواب، والأَبْيَن للحق والأوضح لمراد الله. وذلك للاعتبارات الآتية:

1. إنَّ مِنْ قواعد التفسيرِ تقليلَ المقدَّرِ مهما أَمْكن؛ ليقلّ مخالفة الأصل[1].

فإذا كان الأصل واضحاً بيِّناً غير مُشكل في معناه ولا توجد قرينة تدلّ على مقدّر محذوف؛ فإنّه لا يُلجأ عندها إلى التقدير. فلمّا كانت كلمة ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ واضحة الدلالة؛ فإنَّها تبقى على ظاهرها، دون اللجوء إلى مقدَّر محذوف يُبعدها عن معناها الظاهر. ولمَّا كان اعتماد الفريق الأَوَّل القائل إنّها بمعنى طول حياة، أو حياة متطاولة على تقدير محذوف: إمَّا مضاف نحو: طول حياة، أو صفة: نحو حياة متطاولة، قلنا لا داعيَ للتقدير؛ لأَنَّ المعنى واضحٌ جليٌّ.

قال أبو حيان (ت 745هـ) في البحر المحيط: " ﴿ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾: قَدَّروا فيه أَنَّه على حذف مضاف، أي على طول حياة، أو على حذف صفة، أي على حياة طويلة، ولو لم يُقدَّر حذف لصحَّ المعنى"[2].

وأَيَّده بذلك السَّمِينُ الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدُّرِّ المصون بقوله: "وقيل: إنّ ذلك على حذف مضاف تقديره: على طول حياة، والظاهر أَنَّه لا يحتاج إلى تقدير صفة و لا مضاف " [3].

2. إنَّ الغرض مِنَ التَّنكير إنَّما يُستفاد من السياق كما بيَّنَّا سابقاً[4]، فلمَّا كان سياق الآيات إنَّما هو على سبيل الذَّمِّ لليهودِ، وصنيعِهم، ناسب ذلك أنْ يكون التّنكير بمعنى التَّحقير.

3. إنَّ العامَّ[5] لا يُقيَّدُ إلَّا بمُقيِّدٍ، أو قرينةٍ تَدُلُّ عليه، ولمَّا لم يكنْ شيءٌ مِنْ ذلك بقيَ العامُّ على عمومه. فكلمة حياة عامّة مُطْلقة تبقى على إطلاقها، وعمومها لعدم وجود مقيِّد لها. وأَمَّا مَن قيَّدها بنوع مخصوص وهو طول الحياة فقط، فهذا ممَّا لا دليل عليه.

4. " يُورِدُ الكتاب المبين الألفاظ موارد حسّاسة، فلا تراها قاصرة على المعنى المتبادر منها للبال عادة، بل تتَّسع دلالتها حتى توحي لك بمعنى أجلّ وأدقّ. خذ كلمة " حياة " أنت تشعر بأَنَّ كلمة " حياة " قد عبَّرت بدقَّة مرهفة عن حرص أولئِك اليهود على أَدنى قدر ممكن من الحياة، ومهما

---

[1] السبت، خالد بن عثمان، مختصر في قواعد التفسير، دار ابن القيّم – دار ابن عفّان، ط1 1426هـ،ص12.

[2] البحر المحيط 502/1.

[3] الدر المصون 11/2.

[4] انظر: ص204-205.

[5] المراد العموم البدلي لا العموم الشمولي، وهو من أوصاف المطلق.

كان يسيراً خاوياً من أيَّةِ قيمة كريمة، فأَثار ورودها بالتَّنكير معنى التَّحقير، وأفادت بالتَّالي أَنَّ اليهود أَشدُّ حرصاً على الحياة المتطاولة من باب أَوْلى، فعبَّرت كلمة " حياة " في هذا المورد بآنٍ واحدٍ عن ضَآلةِ قيمة الحياة الدنيا، وشدَّة تكالب اليهود عليها " [1].

من هنا يتبيَّن لنا أهميَّة اللغة العربيَّة والقواعد النَّحْويَّة في توجيه المعنى للآيات القرآنيَّة ومراد الله – عزَّ وجلَّ – منها؛ إذْ لا يستطيع المفسِّر الغوص في غمارها، ومعرفة كُنهِها إلَّا مِنْ خلال امتلاك قواعد اللغة العربيَّة، ومعرفة أساسيَّاتها، ولعلَّ الآية التي نحن في صددها أَدَلُّ دليل، وأَكبر برهان على ذلك، كيف لا؟! واللغة العربيَّة هي التي أَجْلَت المعنى الحقيقي، والمراد من الآية الكريمة في بيان معنى ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ ، وكيف أَنَّها كشفتْ عن حقيقة يهود في مدى تمسُّكهم في هذه الحياة، وأَنَّها غالية عندهم كُلَّ الغَلَاءِ، بصرف النَّظر عن تلك الحياة رفيعة، أم وضيعة، عزيزة، أم حقيرة، مع علمهم علم اليقين ما يعتريهم من طول أعمارهم مِنْ كَدَرٍ، وهمٍّ وغمٍّ إلَّا أَنَّه بالنِّسبة إليهم خير لهم ممَّا ينتظرهم بعد الموت، لا سيَّما وأَنَّهم يؤمنون بالبعث والحساب.

---

[1] عتر، حسن ضياء الدين (ت 1432هـ)، بيّنات المعجزة الخالدة، دار النصر، حلب، ط1 1975م، ص253، وانظر: ياسوف، أحمد، جماليّات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، دمشق، ط2 1419هـ، ص246.

المبحث الثَّاني: أَثَر القواعد البلاغيَّة في الاختيارات التفسيرية عند ابن بدران في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية 189.

المسألة الأولى:

أَثَر الحقيقة والمجاز في مفهوم (المرض) في قوله – تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10] :

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " وَلِشِبْهِ هذا المعنى يرمي قول ابن "عباس": " في قلوبهم مرض"، المرض: النفاق، وقول جمع من الصحابة: في قلوبهم شك، وقد لاح لك ممَّا قدمناه، أنَّا حملنا المرض في الآية على حقيقته، وهو الموافق لبلاغة القرآن الكريم"[1].

يظهر من كلام ابن بدران أنَّه حمل المرض على معناه الحقيقي وهو الوجع، والألم، والضعف، والفتور.

وقد اختلف العلماء في حمل المرض في قوله– تعالى –:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقر: 10] هل هو على الحقيقة أم على المجاز؟! وللوقوف على القول الراجح في هذه المسألة، وبيان مراد الله من ذكر المرض في كتابه العزيز، لا بُدَّ من تعريف المرض، وذكر أنواعه، وحالات وروده في القرآن:

قال ابن فارس (ت 395هـ): "(مَرِضَ): الميم، والراء، والضاد، أصل صحيح؛ يَدُلّ على ما يخرج من الإنسان عن حدّ الصحة في أي شيء كان، منه العِلّة"[2].

---

[1] جواهر الأفكار ص72.

[2] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، 1399هـ، ج5، ص311، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 197/1.

وقال أبو هلال العسكري(ت نحو395هـ)[1]: "المرض أصله من الضعف، ومنه قيل:(امرأة مريضة الألحاظ، والنظر أي: ضعيفتها)، وسمِّي المرض مرضاً؛ لأنَّه يُضعِف الجسم، ومنه قيل: مرض في القول؛ إذا ضعف قوله، والتمريض: القيام على المريض"[2].

وقال الأصفهاني (ت 502هـ): "المرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان"[3].

وقال ابن منظور (ت 711هـ): وقال "ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، وهو بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين"[4].

وقال مرتضى الزبيدي(ت 1205هـ): "وقال ابن دريد: المرض: السقم، وهو نقيض الصحة، يكون للإنسان، و البعير، وهو اسم للجنس"[5].

وقال أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ): "المرض: مصدر مَرِضَ، ويطلق في اللغة على الضعف والفتور، ومنه قيل فلان يُمْرِضُ الحديث أي يُفسده ويُضعفه، وقال ابن عرفة: المرض في

---

[1] الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العَسْكَري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته الى (عسكر مُكرَم) من كور الأهواز. من كتبه (التلخيص) في اللغة، و (معجم) في اللغة، و (جمهرة الأمثال) و (الحث على طلب العلم) رسالة، و (كتاب الصناعيتن: النظم والنثر) و (شرح الحماسة) و (الأوائل) رسالة و (الفرق بين المعاني) و (العمدة) و (ديوان شعره) و (الفروق) في اللغة، و (ديوان المعاني). وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شئ غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمئة). انظر: الأعلام للزركلي 196/2.

[2] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، الوُجُوه والنَّظائر، تحقيق مُحَمَّد عثمان، مكتبة الثقافة الدينيَّة، القاهرة، ط1 1428هـ، ص448. وانظر معاني القرآن للنحاس 91/1.

[3] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية – دمشق بيروت، ط1 1412هـ، 765/1، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني 98/1، والفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب (ت 817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، سنة النشر (ج4 1412هـ – ج2 1416هـ)، ج4، ص492، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 45/1، وتفسير القرآن الكريم لابن القيّم 115/1.

[4] لسان العرب، مادة مرض 232/7، وتاج العروس، باب مرض 55/19.

[5] مرتضى الزبيدي، أبو الفيض مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق الحسيني (ت 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، حقق الجزء التاسع عشر عبد العليم الطحاوي، راجعه عبد الستار أحمد فرّاج، مطبعة حكومة الكويت 1400هـ، باب مرض، ج19، ص53. ولسان العرب مادة (مرض) 231/7.

القلب: الفتور عن الحق، وفي البدن: فتور الأعضاء، وفي العين: فتور النظر. وقيل: المرض: الفساد، وقال أهل اللغة: المرض، والألم، والوجع نظائر"[1].

وقال مُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ): "إنَّ المرض في أصل اللغة: خروج البدن عن اعتدال مِزاجه، وصحة أعضائه فيختلّ به بعض وظائفها، وأعمالها، وتعرض الآلام لها " [2].

ولا يَقتصر المرض على الأبدان فحسب؛ وإنَّما يكون في الدين كذلك؛ كما بيَّن ذلك الزجّاج (ت 311هـ) بقوله: "وقد يقال: السقم، والمرض في البَدَن، والدين جميعاً، كما يقال: الصحة في البدن، والدين جميعاً"[3].

والمرض نوعان:

الأوَّل: المرض الجسمي: وهو ما يّصيب أعضاء الجسم؛ فيضعفها، ويخلّ في أداء وظائفها، وهو المذكور في قوله – تعالى –: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور: 61]، وقوله – تعالى –: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: 91]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ [النساء: 43]، وقوله – تعالى –: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ [البقرة: 184].

الثَّاني: المرض النَّفسي: وهو ما يصيب القلب فيعمل على الإخلال بصفاته الخُلُقيّة: كالجهل والبخل، والجُبن، والحسد، وسائر الرذائل الخُلُقيّة، وهو المذكور في قوله – تعالى –:﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ

---

[1] البحر المحيط 87/1، وانظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش 31/1، وابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية، ج1، ص16. والتحرير والتنوير لابن عاشور 279/1، وفتح القدير للشوكاني 49/1، ومحاسن التأويل للقاسمي 250/1.

[2] تفسير المنار 130/1، وانظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم 38/1.

[3] معاني القرآن وإعرابه للزجاج 86/1، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري 278/1.

مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]، وقوله – تعالى –: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ [النور: 50]، وقوله– تعالى –:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾[التوبة: 125].[1]

فَذِكْرُ المرض في القرآن الكريم ورد على وجهين: مرض البدن، مرض القلب، وهما مذكوران في القرآن[2]، فالآيات التي جاء فيها ذكر مرض البدن إنَّما هي آيات الأحكام[3] للتخفيف على المريض ممَّا أصابه مِنَ الضعف، والوهن، كآية التيمّم في قوله – تعالى – : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، وآية الصّيام في قوله – تعالى – : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ [البقرة: 185]، وآية الجهاد في قوله – تعالى – : ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: 91].

وأمَّا الآيات التي ورد فيها مرض القلب، أو القلوب؛ فجاءت لبيان خروج ذاك القلب عن صحّته، واعتداله.

ومرض القلوب في القرآن على ضربين:

الأوَّل: مرض الشُّبُهات الباطلة: كالكفر، والنّفاق، والشَّكّوك، والبدع. في مثل قوله – تعالى –: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ [التوبة: 125]، وقوله – تعالى–: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ ﴾ [النور: 50].

[1] انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 98/1، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني 765/1، وابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد (ت 597هـ)، نزهة الأعين النَّواظر في علم الوجوه والنَّظائر، تحقيق مُحَمَّد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – لبنان، بيروت، ط1 1404هـ، ص544–546، ومحاسن التأويل للقاسمي 43/5.

[2] انظر: ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27 1415هـ، ج4، ص5.

[3] انظر: بنت الشاطئ، عائشة مُحَمَّد علي عبد الرحمن (ت 1419هـ)، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر– القاهرة، ط3، ص578.

الثَّاني: مرض الشهوات والغيّ: كالزِّنا، ومحبة الفواحش، والمعاصي، وفعلها في مثل قوله – تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32].[1]

ثمَّ إنَّ الآيات التي ورد فيها ذكر مرض القلب، أو القلوب قد انصرف عن أصل معناها الحقيقي في عجزها عن أداء واجبها نحو الجسم من تغذيته، بالدم وتنقيته من الشوائب[2] إلى الدّلالة المجازيَّة في الأعراض النفسانيَّة التي تُخلّ بكمال أفعالها مما يعرض عليها من شبهات، وشك، وشهوات، وغيّ، ممَّا لا تعلّق له بصحّة الأبدان[3].

نستنتج من ذلك أنَّ المرض في القرآن جاء على الحقيقة والمجاز.

أمَّا الحقيقة:

فهي كما عرّفها الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في أسرار البلاغة بقوله: " كلُّ كلمةٍ أُريدَ بها ما وقعَت له في وضعِ واضعٍ – وإن شئتَ قلتَ: في مواضعةٍ، وقوعًا لا تَستَنِدُ فيهِ إلى غيرِهِ فهي حقيقةٌ، وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول، وما تأخر عنه، كلغة تحدث في قبيلة من العرب، أو في جميع العرب، أو في جميع الناس مثلاً "[4].

---

[1] انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيِّم 5/4، وابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، الطب النبوي، دار الهلال – بيروت، ج1، ص15، والدّلْجي، شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله (ت 838هـ)، الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، 1322هـ، ص51. والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 599/6، ومحاسن التأويل للقاسمي 43/5، والسعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ)، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللّويحق، مؤسسة الرسالة، ط1 1420هـ، ص42، وأضواء البيان 290/5، والمنياوي، أبو المنذر مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى، الأساليب والإطلاقات العربية، المكتبة الشاملة – مصر، ط1 1432هـ، ص96.

[2] انظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم مُحَمَّد (ت 1429هـ)، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط1 1413هـ، ج2، ص310.

[3] انظر: الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطئ 578/1، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للمطعني 310/2، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم 38/1، والكشاف للزمخشري 59/1، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 45/1، والسِّراج المُنير للشربيني 23/1، وتفسير المنار 130/1، والتحرير والتنوير 279/1، والتفسير الوسيط للطنطاوي 56/1، وزهرة التفاسير 126/1، وفتح البيان 92/1، وغَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 164/1.

[4] الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد (ت 471هـ)، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط1 1412هـ، ص350.

وقال الخطيب القزويني (ت 739هـ)[1]: " الحقيقة: الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب، فقولنا: (المستعملة) احتراز عمّا لم يستعمل؛ فإنَّ الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة، وقولنا: (فيما وضعت له) احتراز عن شيئين: أحدهما: ما استُعمل في غير ما وضعت له غلطاً، كما إذا أردت أن تقول لصاحبك: خذ هذا الكتاب، مشيراً إلى كتاب بين يديك، فغلِطتَ فقلت: خُذْ هذا الفرس، والثاني... " [2].

وأمَّا المجاز:

فقد عرّفه الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) بقوله: " واعلم أنَّ المجاز على ضربين: مجازٍ من طريق اللغة، ومجازٍ من طريق المعنى والمعقول، فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المُفردة كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجازٌ في الإنسان، وكلِّ ما ليس بالسَّبُعِ المعروف، كان حُكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة؛ لأنَّا أردنا أنَّ المتكلم قد جاز باللفظةِ أصلَها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة، وأوقعها على غير ذلك: إمَّا تشبيهاً، وإمَّا لصلةٍ، وملابَسةٍ بين ما نقلها إليه، وما نقلها عنه. ومتى وصفنا بالمجاز الجملةَ من الكلام، كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة؛ وذلك لأنَّ الأوصاف اللَّاحقة للجُمل من حيث هي جُمَل، لا يصحُّ رَدُّها إلى اللغة، ولا وجهَ لنسبتها إلى واضعها؛ لأَنَّ التأليف: هو إسنادُ فعلٍ إلى اسم، واسم إلى اسم، وذلك شيءٌ يحصُلُ بقصد المتكلم"[3].

وقال – أيضاً –: "كلّ كلمة جُزتَ بها ما وَقَعَتْ به في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعاً؛ لملاحظة بين ما تُجوِّز بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعت له في وَضْعِ وَاضِعِها فهي مجاز"[4].

---

[1] هو مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعيّ، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجليّ: قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل. ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة 724 هـ فقضاء القضاة بمصر (سنة 727) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة 738 ثم ولاه القضاء بها، فاستمر الى أن توفي. من كتبه (تلخيص المفتاح) في المعاني والبيان، و (الإيضاح) في شرح التلخيص، و (السور المرجاني من شعر الأرجاني) . وكان حلو العبارة، أديبا بالعربية والتركية والفارسية، سمحا، كثير الفضائل. انظر: الأعلام للزركلي 192/6.

[2] الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1424هـ، ص202–203، وانظر: المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371هـ)، علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3 1414هـ، ص247.

[3] أسرار البلاغة للجرجاني ص408.

[4] المرجع السابق ص352.

وعرّفه السَّيِّد أحمد الهاشمي(ت1362هـ)[1]في جواهر البلاغة بقوله:"هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب؛ لعلاقةٍ مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، "[2].

والمجاز ضربان:

مرسل، واستعارة؛ لأنَّ العلاقة المصحّحة إنْ كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلّا فهو مرسل.[3]

فالاستعارة كما عرّفها الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) بقوله: " اعلم أنَّ الاستعارة في الجملة، أنْ يكون للَّفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اخْتُصَّ به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غيرَ لازمٍ، فيكون هناك كالعارِيَّة[4]"[5].

وعرَّفها الخطيب القزويني (ت 739هـ) بقوله: "فالاستعارة: ما تضمّن تشبيه معناه بما وضع له"[6].

وعرَّفها السَّيِّد أحمد الهاشمي (ت 1362هـ) في جواهر البلاغة بقوله:" الاستعارة لغة: من قولهم، استعار المال: إذا طلبه عارية. واصطلاحاً: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له؛ لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع (قرينة) صارفة عن إرادة المعنى الأصلي" [7].

---

[1] هو أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي: أديب معلم مصري، من أهل القاهرة، ووفاته بها. كان مديراً لثلاث مدارس أهلية، واحدة للذكور واثنتان للإناث، تتلمذ للشيخ مُحَمَّد عبده، وصنف كتباً منها (أسلوب الحكيم) مجموع مقالات، و (جواهر الأدب) و (جواهر البلاغة) و (ميزان الذهب) و (مختار الأحاديث النبويّة). انظر: الأعلام للزركلي 90/1.

[2] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ص251.

[3] الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص205.

[4] العاريّة بتشديد الياء، وجمعها "عواريّ" بتشديد الياء أيضاً فإنها منسوبة إلى "العار" ؛ لأن طلبها عارٌ وعيب، ويقال لها: "العارَة" أيضاً، وهو اسم من "الإعارة"، يقال: "أعرته الشيءَ إعارة وعارَة"، كما قالوا: أطعته إطاعة وطاعة، والذي في المخطوط "كالعارة"، وهما سواء، انظر أسرار البلاغة للجرجاني ص30 هامش رقم (1).

[5] أسرار البلاغة للجرجاني ص30.

[6] الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ص213.

[7] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ص258.

والمجاز أَعمُّ من الاستعارة [1]. وتوضيحه أنَّ كلَّ استعارة مجاز، وليس كلّ مجاز استعارة[2]، " والاستعارة: ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتُسْتَفْتَى فيه الأفهام، والأذهان، لا الأسماع، والآذان "[3].

ثمَّ إنَّ الاستعارة تُعدُّ مجازاً لغوياً لا عقلياً، وهذا ما ذهب إليه الجمهور، كما بيَّن ذلك المراغي (ت 1371هـ) بقوله: " يرى الجمهور أنَّ الاستعارة مجاز لغوي وأيَّده الإمام في " أسرار البلاغة "، وحجّتهم على ذلك أنَّا إذا أجرينا اسم الأسد على الرجل الشجاع؛ فإنَّنَا لا ندَّعي له صورة الأسد، وشكله، وعَبالَة [4]عنقه، ومخالبه، ونحو ذلك من الأوصاف الظاهرة التي تبدو للعيون، وتُشاهَد بالحواس، وإنّما ندّعي له ذلك من أجل اختصاصه بالشجاعة التي هي من أخصّ أوصاف الأسد وأمكنها " [5].

بمعنى أنَّ الاستعارة مجاز لغوي؛ لكونها موضوعة للمُشبّه به، لا للمُشبّه، ولا لأمر أعمّ منهما.[6]

" وليست الاستعارة مختصّة بالشعر، وإنَّما هي: ضرب من البديع يتسع في النثر كاتساعه في النظم، وقد كثر ذلك في القرآن، فمنه استعارة الجناح للذلِّ في قوله – تعالى – موصّياً للولد بوالديه –: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء: 24]، أراد: لِنْ لهما من مبالغتك فى الرحمة جانبك متذلّلا "[7] .

" فالاستعارة تتضمن من زيادة الفائدة ما لا تتضمنه الحقيقة، ولولا ذلك كان استعمال الحقيقة أولى"[8]. وأنواعها ثلاثة: تصريحية، ومكنية، وتخيّليّة.[9]

---

[1] أسرار البلاغة للجرجاني ص29، وانظر: أبو زهرة، مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، ص286.

[2] أسرار البلاغة للجرجاني ص398.

[3] المرجع السابق ص20.

[4] عبل: العَبْلُ: الضَّخْم مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ عَبُلَ، بِالضَّمِّ، عَبَالةً، انظر: لسان العرب – فصل العين المهملة 420/11.

[5] علوم البلاغة للمراغي ص263، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص216–218، وحَبَنَّكَة، عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي (ت 1425هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1 1416هـ،2 ج2، ص233–235، والصعيدي عبد المتعال (ت 1391هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17 1426هـ، ج3، ص484.

[6] انظر: الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ص216.

[7] أمالي ابن الشجري، 1 / 342 .

[8] المرجع السابق 344/1.

[9] جواهر البلاغة للهاشمي ص 261.

فالمُستقري لكلام العرب، وأشعارهم يجدهم قد أكثروا من استعمال المجاز، والاستعارات؛ لأنَّها أبلغ من الحقيقة، كما بين ذلك الطالبي (ت 745هـ) بقوله: " اعلم أنّ أرباب البلاغة وجهابذة أهل الصناعة مطبقون على أن المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة، وأنّه يلطِّف الكلام، ويُكسبه حلاوة، ويَكسوه رشاقة " [1]. وقال – أيضاً –: " اعلم أنَّ أرباب علوم البلاغة متفقون على أنَّ المجاز أبلغ من الحقيقة فى تأدية المعنى، وعلى أنَّ الاستعارة أقوى من التصريح، وأنَّ الكناية أدخل فى إفادة المعانى من تلك الصرائح الموضوعة " [2].

فهذه مقدمة وجيزة جعلتها بين يدي المسألة التي نحن بصددها؛ لبيان وجه الحقِّ فيها، والوقوف على مراد الله في قوله – تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]؛ ليتمكَّن الباحث من الترجيح فيها على بصيرة وليحيا من حيَّ على بيِّنة.

ولذلك؛ فإنَّ مِن الأهميَّة بمكان عرضَ أقوال العلماء في هذه المسألة، وبيانَ أدلتهم، وترجيحاتهم.

وللعلماء في هذه المسألة قولان:

الأوَّل: قالوا إنَّ مفهوم المرض في قوله – تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، يبقى على معناه الحقيقي: وهو الألم، والوجع، والضعف، والفتور.

وبيَّن هذا القول الألوسي (ت 1270هـ) – مع عدم تَبَنِّيه لهذا القول – في تفسيره بقوله: " ولا مانع عند بعضهم أنْ يُحْمَلَ المرضُ على حقيقته الذي هو الظلمة ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: 40]، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: 257]، وكذا على الألم؛ فإنَّ في قلوب أُولئِك أَلماً عظيماً بواسطة شوكة الإسلام وانتظام أُمورهم غاية الانتظام فالآية على هذا مُحتملة للمعنيين" [3].

وقد أَطَلْتُ النظر، والبحث في أقوال علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير ممَّن قال بهذا القول فلم أجد – على حسب اطِّلاعي – من يقول بهذا القول غير صاحب مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي(ت

---

[1] الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 6/2.

[2] المرجع السابق 156/1، وانظر: مفتاح العلوم للسكاكي 412/1، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة 555/3.

[3] روح المعاني 151/1.

606هـ)، وتبعه صاحب جواهر الأفكار ابن بدران (ت 1346هـ)[1]، وصاحب زهرة التفاسير مُحَمَّد ابن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت 1394هـ).

إذ يقول الرازي(ت 606هـ) في تفسيره – بعد أنْ ذكر وجوه تأويل المرض –: " الخامس: أنْ يُحْمَلَ المرض على أَلَم القلب؛ وذلك أنَّ الإنسان إذا صار مُبْتَلًى بالحسدِ، والنفاقِ، ومُشاهدةِ المَكْرُوه، فإذا دام به ذلك فرُبَّمَا صار ذلك سبباً لِغَيْرِ مِزاجِ القلبِ وتَأَلُّمِه، وحَمْلُ اللَّفْظِ على هذا الوجه حَمْلٌ له على حقيقته، فكان أولى من سائر الوُجوه"[2].

وقال أبو زهرة (ت 1394هـ) في تفسيره – عند تفسير قوله – تعالى –: "في قلوبهم مرض" –: "إطلاق كلمة مرض هنا، يصحُّ أنْ يكون مِن قبل الحقيقة [3]؛ لأنَّ المرض هو ما يؤذي النفس، ويلقي بها الضعف، وليس ذلك مقصوراً على المرض الذي يصيب الجسم؛ بل هو يشمل ما يصيبه في أعصابه: كالجنون الذي يستر العقل، وكالعَتَه الذي يمنع الإدراك، وكالسّفه الذي لا يدري النفع من الضرر، فهذه كلها أمراض، وتعدُّ فى اللغة أمراضاً. كذلك مرض النِّفاق الذي يصيب النفوس بالوهن، والحيرة، والحقد، والبغض لخير الناس، وأن يكون صاحب هذا المرض غير مستقر بل هو في بلبال مستمر، تزداد حاله كلما تمكَّن فيه هذا الداء، وهو ساكن في النفس لا تخرج مظاهره، وكلما استتر، واستكن ازداد قوة وإيغالاً في النفس حتى يصعب علاجه؛ فإذا كان الكذب المجرد قد يعالج، فالنفاق مرض لا عِلاجَ له"[4].

ومع أنَّهما – أي ابن بدران وأبو زهرة – تَبَنَّيَا هذا الرأي إلا أنَّهما جوّزا القول بالمجاز.

قال ابن بدران (ت 1346هـ) في تفسيره: "ولا مانع مِنْ أَنْ يُحْمَلَ المرض على معناه المجازي؛ فتجعله استعارة لبعض أمراض القلب: كسوء الاعتقاد، والغلِّ، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الجبن، والضعف، وغير ذلك مِمَّا هو فساد وآفة، شبّهه بالمرض، كما استعيرت الصِّحة، والسَّلامة في ضد هذه المذكورات"[5].

---

[1] انظر: ص211.

[2] مفاتيح الغيب 305/2.

[3] في الأصل الحقيق.

[4] زهرة التفاسير 125/1-126.

[5] جواهر الأفكار ص72.

وقال أبو زهرة (ت1393هـ) في المعجزة الكبرى القرآن: " ومن الاستعارة: التعبير عن النفاق بالمرض، وإنَّ ذلك كثير في القرآن، ومنه قوله – تعالى – في وصف المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾[البقرة:10]، وقوله – تعالى –:﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة:124-125]، وفي الآيتين الكريمتين نجده – سبحانه وتعالى – عَبَّرَ عن النِّفاقِ بالمرضِ؛ وذلك للمشابهةِ بين مرض الأجساد، والنفاق، فهو يفسد القلوب، والعقول، والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات، وقد يشلُّها، ومعه الوهن دائماً "[1].

وأراد أبو زهرة (ت 1493هـ) بالمجاز من باب تشبيه النفاق بالمرض الذي لا يُرجى بُرؤه، بقوله: "وكان يراد المجاز بتشبيه النفاق بالمرض الذي لا يَشفي، ومرض النفاق فساد القلب"[2].

وأمَّا القول الثَّاني: فقالوا: إنَّ مفهوم المرض في قوله– تعالى –:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10]، يُحْمَلُ على معناه المجازي فيما يُعرض على القلب من الشبهات الباطلة كالشَّكّ، والنفاق.

وقد بيَّن السَّمعاني (ت 489هـ) في تفسيره أنَّ هذا القول هو إجماع المفسرين، بقوله:" قوله– تعالى–: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10]، أراد بالمرض: الشَّكّ، والنفاق بإجماع المفسرين، ويوصف القلب، والدين بالمرض، والصحة كما يوصف البدن به"[3].

وسبقه في ذلك الواحدي (ت 468هـ) في تفسيره بقوله: " قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، قال ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وقتادة وجميع المفسرين: أي: شك ونفاق"[4].

وكأن من حكى الإجماع لم يعتدّ بقول من قال: إنَّ المقصود الزِّنا؛ فقد أورد ابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره رواية عن عكرمة في تأويل ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10] قال: الزّنا[5]

---

[1] المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة، ص279.

[2] زهرة التفاسير 126/1.

[3] تفسير القرآن 48/1.

[4] الوسيط في تفسير القرآن المجيد 87/1.

[5] انظر: تفسير القرآن العظيم 43/1.

قال الباحث: والظاهر أنَّه حصل وَهْمٌ في هذه الرواية؛ إمَّا مِن ابن أبي حاتم، أو النُّساخ عنه في معنى المرض في قوله – تعالى –: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، للاعتبارات الآتية:

1. وذلك لأنَّ ابن أبي حاتم ذكر أنَّ عكرمة ممَّن قالوا في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10] يعني الشَّكّ.

قال – رحمه الله – في تفسيره: " حدّثنا عصام بن روّاد بن الجراح العسقلاني، ثنا[1] آدم بن أبي إياس، ثنا أبو جعفرٍ الرازي، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية، يقول الله: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني الشَّكّ. قال أبو مُحَمَّد[2]: وكذا رُوي عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، والرّبيع بن أنسٍ، والسّدّيّ، وقتادة"[3]. وقال – أيضاً –: " حدّثنا مُحَمَّد بن يحيى أنبأنا أبو غسّان مُحَمَّد بن عمرٍو، ثنا سلمة، عن مُحَمَّد ابن إسحاق قال: فيما حدّثنا مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس: في قلوبهم مرضٌ: أي شكٌّ"[4].

2. روى الطبري (ت 311هـ) في تفسيره: "حدثنا مُحَمَّد بن حميد قال: حدثنا سلمة، عن مُحَمَّد بن إسحق، عن مُحَمَّد بن أبي محمود مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10]: أي شك" [5].

3. روى الطبري(ت311هـ) في تفسيره: "حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]، قال: قال عكرمة: شهوة الزّنا"[6].

---

[1] هي اختصار لكلمة (حَدَّثَنَا)، وهو مصطلح معروف لدى علماء الحديث.

[2] وهو عبد الرحمن مُحَمَّد بن أبي حاتم بن إدريس بن المنذر التّميمي الحنظلي الرازي، أبو مُحَمَّد: حافظ للحديث، من كبارهم، كان منزله في درب حنظلة بالري، وإليهما نسبته، ولد سنة 240هـ وتوفي سنة 327هـ، له تصانيف منها (الجرح والتعديل)، و(التفسير)، و(الردّ على الجهميّة)، و(علل الحديث والمسند)، وغيرها كثير. انظر: الأعلام للزركلي 324/3.

[3] تفسير القرآن العظيم 43/1.

[4] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 43/1.

[5] جامع البيان للطبري 280/1.

[6] المرجع السابق 258/20.

وروى ابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره عند تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]: "عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله: ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ قال: شهوة الزّنا"[1].

فيكون تأويل المرض عن عكرمة في قوله – تعالى –:﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:10]: الشَّكّ والنفاق، وفي قوله – تعالى –: ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32]، الزّنا؛ لذلك فإنَّ حَمْلَ المرض على الزِّنا في آية البقرة لا وجه له، ولا يثبت عن عكرمة.

ولا شك أنَّ سياق الآية ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]، يشهد لقول من حكى الإجماع، وكذلك الآية ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [التوبة: 125]، فالمقصود بالمرض فيها مرض النفاق الاعتقادي، المُخْرِج من الملَّة؛ ولذلك قال في آخرها: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:125].[2]

وبيّن الطبري (ت 310هـ) في تفسيره أنَّ هذا القول هو ظاهر قول المفسرين بقوله: " والمرضُ الذي ذكر الله – جلّ ثناؤه – أنّه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه: هو شكُّهم في أمرِ مُحَمَّد، وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه؛ فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله – عزَّ وجلَّ – مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما يقال: فلانٌ يُمَرِّضُ في هذا الأمر: أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّح الروِيَّة فيه. وبمثل الذي قلنا في تأويل ذلك، تَظاهر القول في تفسيره من المفسِّرين"[3].

ثمَّ إنَّ المتتبع لأقوال المفسرين الذين جاؤوا بعد من نقل الإجماع ممَّن ذكرنا آنفاً يجد أنَّهم لم يخالفوا قول إجماع السَّلف في تأويل الآية إلَّا من ذكرنا مِمَّن قال بالقول الأوَّل – حسب اطِّلاع الباحث–.

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 3130/9.

[2] انظر: ابن أبي العز، صدر الدين مُحَمَّد بن علاء الدين علي بن مُحَمَّد (ت 792هـ)، تفسير ابن أبي العزّ، جمع ودراسة شايع بن عبده بن شايع الأسمري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1 1423هـ، ج1، ص30، هامش رقم (8).

[3] جامع البيان في تفسير القرآن للطبري 279/1–280.

قال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ): " قال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [البقرة: 10] فمعناه: الشَّكّ والنفاق"[1].

وقال بذلك النَّحاس(ت338هـ) في معاني القرآن[2]، والأزهري(ت370هـ) في تهذيب اللغة[3]، وابن فارس(ت 395هـ) في معجم مقاييس اللغة بقوله: "والنِّفاق: مرض في قوله – تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ "[4]، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في المفردات في غريب القرآن[5]، وابن منظور(ت711هـ) في لسان العرب بقوله: "والمرْض والمرَض: الشَّكّ، ومنه قوله – تعالى–: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: أي شك ونفاق"[6]، والسيوطي (ت 911هـ) في المزهر في علوم اللغة وأنواعها[7]. وذهب إلى هذا القول أكثر اللغويين والبلاغيين[8].

وقال الألوسي (ت 1270هـ): "والمنقول عن ابن مسعود، وابن عبّاس، ومجاهد، وقتادة، وسائر السلف الصالح حَمْلُ المرض في الآية على المعنى المجازي"[9].

---

1 أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، الزاهر في معاني كلام الناس، تحقيق د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1412هـ، ج1، ص475.

2 انظر: معاني القرآن للنحاس 1/90–91.

3 انظر: تهذيب اللغة 26/12 أبواب الضاد والراء.

4 معجم مقاييس اللغة 311/5.

5 انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني 765/1.

6 لسان العرب 232/7 مادة مرض.

7 المزهر في علوم اللغة وأنواعها 352/1.

8 انظر: الشريف الرضيّ، مُحَمَّد بن الحسين بن موسى (ت 406هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق الدكتور علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان،ص29. والنكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للقصّاب 97/1، والجدول في إعراب القران لمحمود الصافي 51/1، والنورسي، بديع الزمان سعيد (ت 1379هـ)، إشارات الإعجاز في مظانِّ الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر – القاهرة، ط3 2002م، 1/93–96. والأساليب والإطلاقات العربية 96/1، والدامغاني، الحسين بن مُحَمَّد، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن، تحقيق عبد العزيز سيد الاهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط3 1980، ص433، والبلاغة العربية301/1، والأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن المرزوقي (ت 421هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1424هـ، ص168 و 243. والنويري، شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهَّاب بن مُحَمَّد (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط1 1423هـ، ج16، ص361.

9 روح المعاني 151/1.

قال الشربيني (ت 977هـ)[1]: "والآية تَحْتَمِل الحقيقة، والمجاز، وعلى المجاز اقتصر أكثر المفسّرين؛ لأنه أبلغ من الحقيقة"[2].

ومِمَّن قال بهذا القول من الصحابة والتابعين:

حَبْرُ الأُمَّة عبدالله بن عباس، وابن مسعود، وأكثر الصحابة، والحسن البصري، وقتادة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس.[3]

وتبعهم على هذا القول من المفسِّرين: مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: يعني الشَّكّ بالله، وبمُحَمَّد"[4].

والماتريدي (ت 333هـ) في تفسيره بقوله: "وقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، يقال: شك، ونفاق سَمَّى – عَزَّ وَجَلَّ – المنافقين مرضى؛ لاضطرابهم في الدِّين؛ لأَنَّهم كانوا يظهرون الموافقة للمؤمنين بالقول، ويضمرون الخلاف لهم بالقلب؛ فكان حالهم كحال المريض الذي هو مضطرب بين الموت والحياة؛ إذ المريض يشرف – ربما – على الموت، ويرجو الإقبال عليه منه ثانيًا؛ فهو مضطرب بين ذلك، فكذلك هم؛ لمَّا كانوا مضطربين في دينهم سمَّاهم: مرضى"[5].

والسَّمرقندي (ت 375هـ) في بحر العلوم بقوله: " قوله – تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يعني: شكاً، ونفاقاً، وظلمةً، وضعفاً"[6].

والثعلبي (ت 427هـ) في تفسيره بقوله: "في قلوبهم مرض؛ شك، ونفاق"[7].

والقشيري (ت 465هـ) في تفسيره بقوله: "في قلوب المنافقين مرض الشَّكّ"[8].

---

[1] هو مُحَمَّد بن أحمد الشربيني، شمس الدين: فقيه شافعيّ، مفسر. من أهل القاهرة. له تصانيف، منها (السِّراج المُنير للشَّرْبيني)، في تفسير القرآن، و (الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع)، و (شرح شواهد القطر) و (مغني المحتاج)، في شرح منهاج الطالبين للنووي، فقه، و (تقريرات على المطول) في البلاغة، و (مناسك الحج). الأعلام للزركلي 6/6.

[2] السِّراج المُنير للشَّرْبيني 23/1.

[3] انظر: جامع البيان للطبري 278/1-282، والتفسير الوسيط للواحدي 87/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 178/1-179، والدّر المنثور للسيوطي 75/1-76، والنكت والعيون للماوردي 73/1-74، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 43/1، وزاد المسير في علم التفسير للجوزي 32/1.

[4] تفسير مقاتل بن سليمان 89/1.

[5] تأويلات أهل السنة 383/1.

[6] تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم 95/1.

[7] الكشف والبيان عن تفسير القرآن 154/1.

[8] لطائف الإشارات 61/1.

والبغوي (ت 510هـ) في تفسيره بقوله: " في قلوبهم مرض؛ شك، ونفاق".

وأصل المرض الضعف، سُمِّي الشَّكّ في الدين مرضاً لأنَّه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن"[1]. وهذا الذي ذهب إليه أكثر المفسّرين[2]:

وذهب بعض المفسّرين إلى المعنى الأوسع لمرض القلوب، وعدم حصره في النفاق والشَّكِّ فحسب، بل هو أعمّ وأشمل في كلّ ما يمرض القلب من سوء اعتقادٍ، وغلٍّ، وحسدٍ، وغيرها؛ ممَّا يجعله متذبذباً بين الكفر، والإيمان فيما يعرض عليه من شبهات قد تخرجه من دائرة الإيمان إلى الكفر، والخلود في النار، مثل: الشَّكّ والنفاق، أو متذبذباً بين ازدياد الإيمان، ونقصانه فيما يعرض على القلب من شهوات، وميل إلى المعاصي.

قال الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف: "المجاز أن يُستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغلّ، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجبن، والضعف، وغير ذلك ممّا هو فساد، وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة، و السلامة في نقائض ذلك. والمراد به هنا: ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد، والكفر، أو من الغلّ، والحسد، والبغضاء"[3].

وقال ابن عطية (ت 542هـ) في تفسيره: "المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين؛ وذلك إمَّا أنْ يكون شكّاً، وإما جحداً؛ بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون، وبنحو هذا فسّر المتأوِّلون، وقال قوم: المرض غمّهم بظهور أمر رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[4].

---

[1] معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي 88/1.

[2] انظر: تفسير القرآن للعز بن عبد السلام 103/1، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي49/1، وتفسير القران الكريم لابن القيم 116/1، والسراج المير للشربيني 26/1، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد 78/1، وفتح القدير للشوكاني 49/1، ومحاسن التأويل للقاسمي 250/1، وتفسير المراغي 51/1، والحريملي، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل (ت 1376هـ)، توفيق الرحمن في دروس القرآن، حقَّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه عبد العزيز بن عبد الله آل مُحَمَّد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية– الرياض، دار العليان، القسيم – بريدة، ط1 1416هـ، ج1، ص102. و أضواء البيان للشنقيطي 290/5، وتفسير الشعراوي 152/1، وتفسير العثيمين 42/1 و 44، وتفسير الوسيط للطنطاوي 56/1، و فتح البيان لصديق خان 92/1، و لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 33/1، و أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري، 1 /24.

[3] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 59/1.

[4] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 92/1.

وتابعه بذلك القرطبي (ت 671هـ) في تفسيره[1]، والنيسابوري(ت 850هـ) في تفسيره[2]، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في تفسيره[3]، والألوسي (ت 1270هـ) في تفسيره[4].

ولم يرَ الباحث خلافاً لهذا القول – حسب اطلاعه – عند علماء اللغة والبلاغة.

قال أبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن: ""في قلوبهم مرض" أي شك ونفاق"[5].

وقال الزَّجَّاج (ت 311هـ) في معاني القرآن: "وقوله – عزَّ وجلَّ –: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10] معناه نفاق، وقد يقال: السُّقم والمرض في البدن، وفي الدِّين جميعاً كما يُقال: الصحة في البدن، والدين جميعاً"[6].

وممّا سبق يظهر لنا أنَّ القول بالمجاز هو قول أكثر علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير، وهذا الذي ذهب إليه الباحث ورجّحه، مخالفاً بذلك قول ابن بدران ومن قال بقوله وذلك للأمور الآتية:

1. إنَّ القول بالمجاز هو قول أعلم الناس بالتفسير، والتأويل وهم الصحابة والتابعون – رضي الله عنهم –.
2. إنَّ الكلمة تكاد تجتمع بين علماء اللغة، والبلاغة، والتفسير على حمل المرض على المجاز لا الحقيقة في قوله – تعالى –: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10].
3. إنَّ الاستعارة أبلغ من الحقيقة وتضفي على السّياق جمالاً، و رونقاً وفيها من الفوائد ما ليس في الحقيقة؛ وهذا ما يناسب بلاغة القرآن، وفصاحته، الذي تحدّى الله به العرب من جنس ما يشتهرون به ويُعرفون، وإلّا ما الذي دفع أحد العرب الأقحاح وهو الوليد بن المغيرة مع شدَّة عداوته للنَّبيِّ– صلى الله عليه وسلم – والقرآن الكريم. إلى أنْ يقول عند سماع آيات مِن القرآن: " والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وإنَّ أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر"[7]. فهذا اعتراف

---

1 انظر: الجامع لاحكام القرآن 197/1.

2 انظر: غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 164/1.

3 انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 188/1.

4 روح المعاني 151/1.

5 أبو عبيدة، معمر بن مثنى التيمي البصري (ت 209هـ)، مجاز القرآن، تحقيق مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1381هـ، ج1، ص32. وانظر تهذيب اللغة 27/12 أبواب الضاد والراء، ولسان العرب مادة مرض 232/7، ومعاني القرآن للزجاج 86/1.

6 معاني القرآن وإعرابه للزجاج 86/1.

7 البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458هـ)، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف أصحاب الحديث، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط1 1401هـ، ص268. قال البيهقي: "وروّينا عن عكرمة مرسلاً في قصة الوليد بن المغيرة أنه قال: وذكر كلامه".، وانظر: دلائل الإعجاز ص388، و البرهان في علوم القرآن للزركشي 104/2، و الإتقان

صريح يسجّله الوليد بن المغيرة بأنَّ بلاغة القرآن تفوق بلاغة العرب، وهم أرباب البيان، وأساطين القول[1].

4. إنَّ العرب كانت تستعمل لفظ المرض في معناه المجازي، وتستخدمه في أشعارها وحديثها؛ إذ لم يكن شيئاً جديداً عليها فكانوا يعرفون أنَّ المرض يأتي بمعنى النفاق وغيرها مما يطرأ على القلب من سوء الأخلاق، أو الرذائل الخُلقية.

قال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ): " سمعت أبا العباس يقول: يكون المرض عند العرب: الظلمة. وأنشدنا:

وليلةٍ مرِضَت من كلِّ ناحيةٍ　　　فما يُضيءُ لها نَجْمٌ ولا قَمَرُ [2]

ويقال – أيضا – في غير هذا المعنى: قد مرض قلب هذا الرجل: إذا شك ونافق. قال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: 10] فمعناه: الشَّكّ والنفاق. وقالت ليلى الأخيلية[3]:

إذا هَبَطَ الحجّاجُ أرضاً مريضةً　　　تَتَبَّعَ أقصى دائِها فشفاها [4]

تريد بالمريضة التي بها شك ونفاق"[5].

في علوم القرآن للسيوطي 16/4، و التفسير البسيط للواحدي 426/22، و لطائف الاشارات للقشيري 649/3، والكشاف 649/4، ومفاتيح الغيب 259/20، والبحر المحيط 18/1.

[1] انظر: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية ص62.

[2] النّميري، أبو حيّة الهيثم بن الرّبيع (ت 183هـ)، شعر أبي حيّة النّميري، جمعه وحقّقه الدّكتور يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975، ص148، وانظر: البحر المحيط 87/1.

[3] هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شدَّاد بن كعب، الأخيلية من بني عامر بن صعصعة: شاعرة فصيحة ذكيَّة جميلة. اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير. قال لها عبد الملك بن مروان: ما رأى منك توبة حتى عشقك؟ – وكانت امرأة مسنَّة – فقالت: ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة! ووفدت على " الحجاج " مرات، فكان يكرمها ويقربها. وطبقتها في الشعر تلي طبقة الخنساء. وكانت بينها وبين النابغة الجعديّ مهاجاة. وأبلغ شعرها قصيدتها في رثاء توبة، منها:" وتوبة أحيى من فتاة حيّية ... وأجرأ من ليث بخفان خادر". وسألت الحجاج وهو في الكوفة أن يكتب لها إلى عامله بالريّ، فكتب، ورحلت، فلما كانت في " ساوة " ماتت ودفنت هناك (نحو 80هـ)، وقام بجمع الباقي من شعرها خليل وجليل العطية، في " ديوان ليلى الأخيلية – ط ". انظر: الأعلام للزركلي 249/5.

[4] الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرّحال بن شداد (ت نحو 85هـ)، ديوان ليلى الأخيلية، عني بجمعه وتحقيقه خليل إبراهيم العطية وجليل العطية، وزارة الثقافة والإرشاد – بغداد، ص 121

[5] الزاهر في معاني كلمات الناس 475/1–476، وانظر: تفسير القرآن الكريم لابن القيم 116/1.

وسئل ابن عباس – رضي الله عنه – عن قوله – تعالى –: "في قلوبهم مرض" قال: النفاق، قال نافع بن الأزرق: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر[1]:

أجاملُ أقواماً حياءً وقد أرى صدورهم تَغلي عَلَيَّ مِراضُها[2]"[3].

وجاء في شرح ديوان الحماسة لأحمد الأصفهاني (ت 421هـ):"

وَذَوِي ضباب مظهرين عَدَاوَة قرحى الْقُلُوب معاودي الأفناد[4]

وذكر قرح القلب مثلاً في العداوة، كما يذكر مرضه مثلاً في النفاق،على ذلك قول الله تعالى –: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [البقرة: 10]"[5].

وجاء أيضاً: "

وما بَرِح التَّيْمُ يَعْتَزُون وَزُرْ قُ الخطِّ تشفي السَّقيمَ من سقمِهِ[6]

وقوله "السقيم" يجوز أنْ يكون كنايةً عن المنافق المداجي، كما في قوله – تعالى– لمَّا وصفهم:﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: 10]"[7].

وكانت العرب تكنِّي بداء القلب عن الحقد، والهوى[8]. وقال أبو المنذر المنياوي: "والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة: مرضاً؛ وذلك معروف في لغتهم"[9].

---

1 هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبيانيّ الغطفانيّ: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. وهو من طبقة لبيد والنابغة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقا. وكان أرجز الناس على البديهة. جمع بعض شعره في (ديوان – ط) شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة. قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. انظر: الأعلام للزركلي 175/3.

2 الذبياني، الشّمّاخ بن ضرار (ت 22هـ)، ديوان الشّمّاخ بن ضرار الذبياني، حقّقه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر – القاهرة، ص215.

3 انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 103/2.

4 أبو تمَّام، حبيب بن أوس الطائي (ت231هـ)، ديوان الحماسة، برواية أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (ت540هـ)، شرحه وعلَّق عليه أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1418هـ، ص41. الضَّباب: جمع ضب: وهوحيوان صحراوي، وقصد هنا الحقد الخفي، الإفناد: مصدر فند وهو الفحش، والخطأ في الرأي. وقوله: قوم ذوو ضباب أي: ذَوو أَحقاد.

5 شرح ديوان الحماسة 168/1.

6 ديوان الحماسة لأبي تمام ص63. والبيت: (ما بَرِح التَّيْمُ يَعْتَزُون وَسُمْ رُ الخطِّ تشفي السَّقيمَ من سَقْمِهِ). ويعتزون: ينتسبون. والخط: يعني الأسنة.

7 المرجع السابق 1 / 242–243.

8 انظر: الفراهي، عبد الحميد الهندي (ت 1349هـ)، مفردات القرآن – نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية – تحقيق د.مُحَمَّد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط1 2002م، ص376–378.

9 الأساليب والإطلاقات العربية 96/1.

وقال السيوطي (ت 911هـ) في الدّر المنثور: "وأخرج الطّستي عن ابن عباس – رضي الله عنهما–

أنَّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله "فيطمع الذي في قلبه مرض"[1] قال: الفجور والزّنا قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت الأعشى[2] وهو يقول:

حافظٌ للفرجِ راضٍ بالتُّقى　　　ليس ممّن قلبُهُ فيه مرض"[3].

5. إنَّ الآيات التي ذُكر فيها المرض على معناه الحقيقي إنَّما جاءت في سياق الرحمة، والتخفيف عن المؤمنين من الأحكام الشرعية التي فرضها الله عليهم؛ لأنه – سبحانه – لا يكلِّف نفساً إلا وسعها؛ فلمّا نزل بهم من قضاء الله، وقَدَره ما يحول بينهم، وبين الإتيان بشرائع الله المفروضة عليهم (على الوجه الذي يريده الله)؛ فيحصل بذلك عليهم من المشقَّة الزائدة جاء التخفيف من الله – سبحانه– رحمة، ورأفة لعباده المؤمنين في كثير من الأحكام منها: التيمّم في قوله – تعالى –: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، وإفطار الصائم في قوله – تعالى –: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184]، والجهاد في قوله – تعالى –: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: 91]، وغيرها.

أمَّا الآيات التي ذُكر فيها المرض على معناه المجازي فجاء المرض فيها مقروناً بالقلوب، ثم إنها جاءت في سياق الشدة، والغلظة، والتهديد، والوعيد من مثل قوله – تعالى –: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: 10]، وقوله – تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

---

[1] الأحزاب آية 32.

[2] بحثت عنه في ديوان الأعشى تحقيق د.مُحَمَّد مُحَمَّد حسين وديوان الأعشى تحقيق محمود الرضواني فلم أجده.

[3] الدر المنثور 599/6، وانظر: الإتقان في علوم القرآن 75/2، والسِّراج المُنير للشَّرْبيني 243/3، وأضواء البيان 290/5 و 245/6، والشنقيطي، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر (ت 1393هـ)، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تحقيق خالد بن عثمان السبت، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مَكَّة المكرمة، ط2 1426هـ، ج5، ص105.

[التوبة: 125]، وقوله – تعالى –: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴾[الحج:5]، وقوله – تعالى –: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: 50]، وقوله – تعالى –:﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾[مُحَمَّد:29]، وقوله– تعالى –: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر: 31]، وغيرها.

فلمَّا حوسب أصحاب القلوب المريضة على ما في قلوبهم من مرض دلّ ذلك على أنَّ هذا المرض هو من كسب أيديهم؛ وليس ممَّا رفعت فيه المؤاخذة عنهم، وممَّا يؤاخذ المرء عليه؛ الكفر والنِّفاق والشَّكّ ورذائل الأخلاق والأعمال التي محلها القلب فتمرضه.وأمَّا الإيمان، واليقين، وفضائل الأخلاق، والأعمال التي محلها القلب فإنَّها تصلحه.

ولمّا ذكر الله – سبحانه وتعالى – القلبَ المريضَ وما له من التهديد والوعيد ذَكَرَ القلبَ السليمَ وما له من الوعد، والنعيم، لأنَّ آياتِهِ – جلَّ وعزَّ – مثانٍ تذكر الشيء وضده، مثل: الجنَّة والنَّار، والنَّعيم والجحيم، والوعد والوعيد، والترغيب والتهديد، والقلب المريض والقلب السليم. قال – تعالى –: ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: 88–89]، وقول – تعالى –: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 84].

ويؤكد ذلك قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كُلُّه، ألا وهي القلب"[1].

6. إنَّ الآية: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ [البقرة: 10] جاءت في سياق الآيات التي تحدثت عن المنافقين، وأوصافهم، فدلَّ ذلك على أنَّ المنافقين قلوبهم مريضة، لما فيها من نفاق و شكٍّ بما جاء به مُحَمَّد – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

---

[1] صحيح البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه 20/1 حديث رقم 52. وصحيح مسلم، كتاب البيوع، باب الحلال بيّن والحرام بيّن 50/5 حديث رقم 4101.

وبيّن ذلك الطبري (ت 311هـ) في تفسيره بقوله: " حدثنا الحسين بن يحيى [1]، قال: أنبأنا عبد الرزاق، قال: أنبأنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ ﴾ [البقرة: ٨]، حتى بلغ: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: 16]، قال: هذه في المنافقين "[2] وذكر ذلك عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وابن جريج، والربيع ابن أنس[3].

قال مُحَمَّد المكّي الناصري (ت 1414هـ) في تفسيره: "ثم تطرَّق كتاب الله لوصف الطائفة الثالثة طائفة المنافقين، فأطال الحديث عنها، وخصص للكشف عن نفاقها ثلاث عشرة آية كاملة، ابتداء من قوله – تعالى –: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [ال بقرة:٨ – ١٠]، إلى قوله – تعالى –: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة: ٢٠]"[4].

7. إنَّ الذين خالفوا الإجماع، والجمهور قالوا بجواز حمل المرض على معناه المجازي في قوله– تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ [البقرة: 10] [5].

وخلاصة القول:

إنَّ مفهوم المرض في قوله – تعالى –: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ [البقرة: 10] يُحمل على معناه المجازي فيما يُعرض على القلب من الشبهات الباطلة: كالشَّكِّ والنِّفاق. فجاء مرض القلوب استعارة تصريحية، استعير عنه لما رانَ على قلوبهم من سوء عقيدة وحب للمعاصي.

---

[1] الصواب، الحسن بن يحيى، شيخ الطبري، انظر: جامع البيان 269/1 هامش (2).

[2] جامع البيان في تأويل القرآن 269/1.

[3] انظر: المرجع السابق 269/1-270.

[4] الناصري، مُحَمَّد المكّي (ت 1414هـ)، التَّيسير في أحاديث التَّفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1 1405هـ، ج1، ص25.

[5] انظر: ص218-219.

فصل:

ممَّا ينبغي التنبيه إليه أَنَّ ألفاظ القرآن لا تُحمل على المعنى المجازي إلَّا إذا دَلَّ السِّياق أو دَلَّت القرائن على ذلك؛ لأَنَّ الأصل في حَمْلِ مفهوم ألفاظ القرآن أن يكون على الحقيقة لا على المجاز، وعلى الظاهر لا على الباطن.

المسألة الثانية:

أثر الإسناد المجازي في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة:16].

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " فإن قلت: كيف أُسند عدم الربح إلى التجارة، وإنّما هو لأصحابها لا لها؟ قيل: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يُسند الفعل إلى شيء يُتلبّس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبّست التجارة بالمشترين، وذلك أنَّ الله – تعالى – خاطب عرباً فسلك في خطابه إيَّاهم وبيانه لهم مسلك خطاب بعضهم بعضاً، وبيانهم المستعمل بينهم، وأنت إذا تأمّلت الكتاب العزيز، وجدته سالكاً هذا الأسلوب البديع من التعبير بالحقيقة، حيث تكون البلاغة في جانبها، وبالمجاز حيث تكون البلاغة في جانبه، وبالأوصاف التي تعرفها العرب كما في أوصاف الجنّة من أنّ فيها: فاكهةً ونخلاً ورماناً، والنار من أنَّ فيها: سلاسل، وأغلالاً، وسعيراً، وإنْ كانت حقيقة ما فيهما وراء ذلك، وما هو إلا وصف للشيء بما يقاربه يقرّبه للعقول، وهذه القاعدة تنفع في كثير من تفسير الكتاب العزيز "[1].

يعتمد ابن بدران في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة: 16]، على قاعدة بلاغية، وكنز من كنوزها ألا وهو المجاز الحكمي، وقد تطرق إليه علماء البلاغة، وذكروه في بطون كتبهم؛ فهذا عالم العلماء وبليغ البلغاء عبد القاهر الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) يقول في كتابه دلائل الإعجاز: " اعلم أنّ طريق المجاز، والاتساع في الذي ذكرناه قبل[2] أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو رِدف له، أو شبيه فتجوّزت بذلك في ذات الكلمة، وفي اللّفظ نفسه وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أنَّ في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أنْ يكون التجوُّز في حكم يجري على الكلمة فقط، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية، ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: " نهارك صائم وليلك قائم " و " نام ليلي وتجلّى همّي "، وقوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة: 16]، وقول الفرزدق:

---

[1] جواهر الأفكار ص 81.

[2] يعني ما ذكرناه تحت باب الكناية والاستعارة والتمثيل بالاستعارة، فصل: في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، بيان في الكناية والمجاز والاستعارة. انظر: دلائل الإعجاز ص66-79.

سَقَتْها خُرُوقٌ في المَسامِعِ، لَمْ تَكُنْ عِلاطاً، ولا مَخْبوطَةً في المَلاغِمِ [1]

أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في ذوات الكَلِمِ وَأَنْفُسِ الألفاظ، ولكن في أحكام أُجريت عليها"[2].

وقال أيضاً: " أفلا ترى أنَّك لا ترى شيئاً منها إلّا وقد أُريد به معناه الذي وُضِع له على وجهه، وحقيقته فلم يُرِد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولا بـ (ربحت) غير الربح ولا بـ(سقت) غير السقي"[3].

ثم قال: " وهذا الضرب من المجاز على حدَّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفلِق، والكاتب البليغ في الإبداع، والإحسان، والاتّساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بَعيدَ المرام، قريباً من الأفهام " [4].

وقال السَّكَّاكي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم: " واعلم أنَّ المجاز الحكمي كثير الوقوع في كلام ربّ العزّة. قال – عزّ من قائل –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾... بإسناد الأفعال في هذه كلِّها على غير ما هي لها عند العقل كما ترى زائلاً الحكم العقلي فيها عن مكانه الأصلي، إذ مكانه الأَصلي إسناد الربح على أصحاب التجارة " [5].

وقد أشار إلى ذلك قديماً الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) في كتابه الجُمل في النَّحْو بقوله: " وكذلك يُلزمون الشيء الفعل، ولا فعل، وإنّما هذا على المجاز كقول الله – جلّ وعزّ – في البقرة ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ والتجارة لا تربح؛ فلمّا كان الربح فيها نُسِبَ الفعل إليها " [6].

---

[1] ليس في ديوان الفرزدق، وهو له في الكامل للمبرد 64/1، والضمير في سقتها للإبل و " العلاط " وسمٌ يكون في عنق البعير عرضاً، خطاً، أو خطين، أو خطوطاً في كل جانب. و "الخباط": سِمَة فوق الحدّ، والناقة. "مخبوطة" عليها هذه السمة. و "الملاغم"، ما حول الفم مما يبلغهُ اللّسان ويصل إليه، من اللغام، وهو زبد أفواه الإبل. ويقول: لم تكن هذه سمات إبله، بل سماتها خروق في آذانها، فلما رآها الذائدون على الحوض سقوها، وإنما يسقونها لعزة أصحابها. فكأن الخروق في المسامع هي التي أوردتها الماء وكفت الذائدين عنها. انظر: دلائل الإعجاز 293/1 هامش رقم (3).

[2] دلائل الإعجاز ص293-294.

[3] المرجع السابق ص294.

[4] المرجع السابق ص295.

[5] مفتاح العلوم للسَّكَّاكي ص 397.

[6] الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، الجمل في النَّحْو، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط5 1416هـ، ص72.

وسيبويه (ت 180هـ) في الكتاب بقوله: " من ذلك قول الخنساء (ت24هـ)[1]:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ، حتى إذا ادّكرَتْ فإنَّما هيَ إقبالٌ وَإدبارُ [2]

فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سَعَةِ الكلام، كقولك: نهارك صائم وليلك قائم " [3].

وفي العربية تتناوب أحياناً الصيغ الصرفيّة فيأتي اسم المفعول مثلاً بمعنى اسم الفاعل، نحو قوله – تعالى –: ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] بمعنى ساتراً، وفي النَّحْو يأتي المفعول بمعنى الفاعل، كما في قوله – تعالى–: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ فالتجارة لا تربح وإنَّما يربح التُّجَّار فيها، وهذا كلّه مجاز محتمل في كلام العرب [4].

وتعدّدت مسمّيات المجاز الحِكْمِي، فمنهم من يسمّيه: مجاز المُلابسة، ومنهم من يسمّيه: المجاز النسبيّ، ومنهم من يسمّيه: المجاز في الإثبات، ويسمّيه بعضهم: المجاز في الجملة، أو المجاز التركيبي، ومنهم من يسمّيه بالمجاز العقلي، ولعلّ الأخير هو أشهر أسمائه [5]، واختلاف المسمّيات لا يعني اختلاف المضمون؛ إذ المضمون واحد ولا مُشَاحَّةَ في الاصطلاح.

وقد عرَّف السكّاكي (ت 626هـ) المجاز العقلي بقوله: "هو الكلام المُفاد به خلاف ما عند المتكلِّم من الحِكَمِ فيه لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لا بوساطة وضع، كقولك: أَنْبَتَ الرَّبيعُ البقلَ، وشفى الطبيبُ المريضَ " [6].

---

[1] والخنساء: اسمها تماضر، بضم التاء المثناة من فوقها وفتح الميم وبعد الألف ضاد مكسورة معجمة وبعدها راء، وهي ابنة عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُّلَمية، من بني سُليم، من قيس عيلان، من مضر: أشهر شواعر العرب، وأشهرهن على الإطلاق. من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله – صلّى الله عليه وسلم – مع قومها بني سُليم، فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشد وهو يقول: هيه يا خنساء! أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلا في الجاهلية. لها (ديوان شعر – ط) فيه ما بقي محفوظا من شعرها. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (سنة 16 هـ فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعا فقالت: الحمد للّه الّذي شرفني بقتلهم! والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة، ولذلك قيل لها الخنساء؛ لأنها كانت على هذه الصفة. انظر: وفيات الأعيان 34/6، والأعلام للزركلي 86/2.

[2] الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي (ت نحو 50هـ)، ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2 1425هـ، ص46.

[3] الكتاب 337/1.

[4] انظر: ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 370هـ)، ليس في كلام العرب، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مَكَّة المكرمة، ط2 1399هـ، ص318.

[5] انظر: أبو موسى، مُحَمَّد مُحَمَّد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط7، ص115-116.

[6] مفتاح العلوم للسكّاكي ص 393، وانظر: الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ط دار الجيل 90/1، وخصائص التراكيب ص114، وبغية الإيضاح 57/1.

وعرّفه الهاشمي (ت 1362هـ) في جواهر البلاغة بقوله: " هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، من حال المتكلِّم؛ لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له " [1].

وقال الصعيدي (ت 1391هـ) في بُغية الإيضاح بقوله: " وأمّا المجاز فهو: إسناد الفعل، أو معناه، إلى مُلابس له، غير ما هو له بتأوّل " [2].

وتكاد تجتمع كلمة العلماء في قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]، على أنّها من باب الإسناد المجازي، أو الحكمي، أو العقلي بل زاد بعضهم في ربطها بما قبلها من قوله – تعالى –:﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: 16]، فجعلها استعارة موشَّحة، بمعنى أَنَّه لمَّا استعار لفظ الشراء عَقَّبَهُ بذكر لازمه، وحكمه، وهو الربح توشيحاً للاستعارة[3]، وسمّاها بعضهم استعارة مرشّحة، كما بيّن ذلك الحَمَوي (ت 837هـ)[4] في خِزانة الأَدَب وغاية الأَرَب بقوله: " والذي اتفق عليه علماء البديع، أنَّ الاستعارة المرشَّحة هي المقدَّمة في هذا الباب [5]، وليس فوق رتبتها في البديع رتبة، وأعلاها، وأغلاها قوله – تعالى –: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: 16] فإنَّ الاستعارة الأُولى، وهي لفظ الشراء، رشَّحت الثَّانية، وهي لفظ الرِّبح، والتجارة " [6].

---

[1] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص255.

[2] بغية الإيضاح 53/1، وانظر: فتح القدير للشَّوكاني 54/1.

[3] انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للطالبي 123/1.

[4] هو أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تقي الدين ابن حجة: إمام أهل الأدب في عصره. وكان شاعراً جيد الإنشاء. من أهل حماة (بسورية) ولد ونشأ ومات فيها. زار القاهرة والتقى بعلمائها واتصل بملوكها. وكان طويل النفس في النظم والنثر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شئ من الزهو والإعجاب. اتخذ عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، في صباه، فنسب إليها. مصنفاته كثيرة، منها (خزانة الأدب) في شرح بديعية له، و (ثمرات الأوراق) و (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) و (حديقة زهير) و (قهوة الإنشاء) ، جمع فيه ما أنشأه من التقاليد السلطانية والمناشير عن الملوك الذين عمل في دواوينهم، و (بلوغ المرام من سيرة ابن هشام)، و (بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد) ، و (الثمرات الشهية من الفواكه الحموية) نظم، و (تأهيل الغريب) وقبره في حماة معروف. انظر: الأعلام للزركلي 67/2.

[5] يعني ذكر الاستعارة انظر 109/1.

[6] ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت 837هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، دار البحار – بيروت، الطبعة الأخيرة 2004م، ج1، ص111، وانظر: الكشكول 113/2، وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع ص99، وجواهر البلاغة للهاشمي، ص272، وبغية الإيضاح 508/3–509، والكشاف 70/1، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 49/1، والتسهيل لعلوم التنزيل لجُزَيّ 72/1، والبحر المحيط لأبي حيّان 119/1، والدرّ المصون للسمين الحلبي 152/1–154،

مِنْ هنا نَلْحَظُ أَنَّ الله – جلَّ وعزَّ – أَسندَ الرِّبحَ إلى التجارة؛ لأنَّ الربح، والخسران إنَّما يكونان في التجارة كما بيّن ذلك الفرّاء (ت 207هـ) في معاني القرآن بقوله: "وقوله: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16]، رُبَّما قال القائل: كيف تربح التجارة؛ وإنَّما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بَيْعُك، وخسر بيعُك، فحَسُن القول بذلك؛ لأنَّ الربح والخسران إنَّما يكون في التجارة، فَعُلِمَ مَعناه. ومثله مِن كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله: ﴿ فَإِذَا عَـزَمَ ٱلْأَمْـرُ ﴾ [مُحَمَّد: 7] وإنّما العزيمة للرجال، ولا يجوز الضمير إلّا في مثل هذا " [1].

والأخفش (ت 215هـ) في معاني القرآن بقوله: " قوله ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ فهذا على قول العرب: " خاب سعيُك " وإنّما هو الذي خاب، وإنّما يريد " فما رَبحوا في تجارتهم " ومثله ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْـلِ وَٱلنَّهَـارِ ﴾ [سبأ: 33]، و﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 177] إنّما هو " ولكنّ البرَّ برُّ من آمنَ بالله "، وقال الشاعر[2]:

كيفَ تُواصِلُ من أصْبَحَتْ   خَلَالَتُه كأبي مَرْحَبِ[3]

وقال الشاعر:

وَشَرُّ المنايا مَيِّتٌ وَسْطَ أَهْلِهِ   كهُلْكِ الفتاةِ أسلَمَ الحَيّ حاضره [4]

إنّما يريد وشرُّ المنايا منيَّة ميِّت وسط أهله " [5].

= واللباب في علوم الكتاب لابن عادل 368/1–369، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 49/1، وروح البيان لأبي الفداء 64/1، والتحرير والتنوير لابن عاشور 300/1، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش 42/1.

[1] معاني القرآن للفراء 14/1–15، وانظر: معاني القرآن للنَّحَّاس 100/1–101، وجامع البيان للطبري 317/1.

[2] هو قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعديّ العامري، أبو ليلى: شاعر مفلق، صحابي: من المعمرين. اشتهر في الجاهلية. وسمي " النابغة " لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقوم الشعر ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، قبل ظهور الإسلام. ووفد على النَّبِيّ– صلى الله عليه وآله – فأسلم، وأدرك صفِّين، فشهدها مع علي. ثم سكن الكوفة، فسيَّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها وقد كفَّ بصره، وجاوز المئة. وأخباره كثيرة. انظر: الأعلام للزركلي 207/5، وسير أعلام النبلاء 177/3–178.

[3] النابغة الجعدي، أبو ليلى عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة (ت نحو 50هـ)، ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1 1998م، ص39. وانظر: الكتاب لسيبويه 215/1. والبيت: وكيف تواصل ... . الخلالة: الصداقة التي ليس فيها خلل. أبو مرحب: كنية تقال للرجل الحسن الوجه لا باطن له، وقيل: أبو مرحب: هو الذئب.

[4] هو للحطيئة، من أبيات ليست في ديوانه، بل في طبقات فحول الشعراء لابن سلّام 112/1، والكتاب لسيبويه 215/1، وجامع البيان 317/1.

[5] معاني القرآن للأخفش 52/1، وانظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 92/1–93.

وبناءً على ما سبق فإنّ تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة: 16] أنّ المنافقين لمّا اشتروا الضَّلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا؛ لأنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فضلّوا سبيلهم، وابتعدوا عن الطريق المستقيم؛ فاستحقّوا وعيد ربهم، وعذابه، وعقابه.

قال الطبري (ت 311هـ) في تفسيره – في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾: " وتأويل ذلك أنَّ المنافقين – بشرائهم الضلالة بالهدى – خسروا ولم يربحوا؛ لأنّ الرابح من التجار: المُستبدِل من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفس من سلعته المملوكة، أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به. فأمّا المُستبدِل من سلعته بدلاً دونها، ودون الثمن الذي ابتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك. فكذلك الكافر والمنافق؛ لأنّهما اختارا الحَيْرَةَ والعمى على الرشاد والهدى، والخوف والرعب على الحفظ والأمن، واستبدلا في العاجل: بالرشادِ الحَيْرَةِ، وبالهدى الضلالةَ، وبالحفظِ الخوفَ، وبالأمنِ الرعبَ، مع ما قد أُعِدَّ لهما في الآجل مِن أليم العقاب، وشديد العذاب، فخابا وخسرا، ذلك هو الخسران المبين [1]. وبنحو الذي قلنا في ذلك كان قتادة يقول "[2].

وإلى هذا المعنى ذهب جُلّ علماء التفسير ومن أشهرهم:

الماتريدي (ت 333هـ) في تفسيره[3]، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم[4]، والثعلبي (ت427هـ) في تفسيره [5]، والواحدي (ت 468هـ) في تفسيره [6]، وعبد القاهر الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في درج الدرر [7]، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير [8]، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره[9]،

---

[1] جامع البيان للطبري 315/1–316.

[2] انظر: المرجع السابق 316/1–317، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 50/1، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 186/1، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 80/1، وفتح القدير للشّوكاني 54/1.

[3] انظر: تأويلات أهل السنة 389/1.

[4] انظر: بحر العلوم للسمرقندي 98/1.

[5] انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 159/1.

[6] انظر: التفسير البسيط للواحدي 322/1.

[7] انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور 111/1.

[8] انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 122/1.

[9] انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن 90/1.

والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف[1]، وابن عطية (ت 542هـ) في المحرر الوجيز[2]، وأبو الفرج الجوزي (ت 597هـ) في تفسيره[3]، والرازي (ت 606هـ) في مفاتيح الغيب[4]، والقرطبي (ت671هـ) في تفسيره[5]، والبيضاوي (ت 685هـ) في أنوار التنزيل[6]، والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل[7]، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل[8]، وأبو حيّان (ت 745هـ) في البحر المحيط[9]، والشربيني (ت 977هـ) في السراج المنير[10].

وأبو السعود (ت 982هـ) في تفسيره بقوله: " والتجارةُ صناعة التُّجَّار وهو التصدي للبيع والشراءِ؛ لتحصيل الربح: وهو الفضلُ على رأس المال. يقال: ربِحَ فلان في تجارته؛ أي استشفَّ فيها، وأصاب الربح، وإسناد عدمِه الذي هو عبارة عن الخسران إليها، وهو لأربابها بناءً على التوسع المبني على ما بينهما من المُلابسة، وفائدتُه المبالغةُ في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخَسار، وعمومِه المستتبع لسرايته إلى ما يُلابِسُهم" [11]، وأبو الفداء الخلوتي (ت 1127هـ) في روح البيان[12]، وأبو العباس الأنجري (ت 1224هـ) في البحر المديد[13]، والشوكاني (ت 1250هـ) في فتح القدير[14]، ومُحَمَّد صديق خان (ت 1307هـ) في تفسيره[15]، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل[16].

---

[1] انظر: الكشاف 1/70-72.

[2] انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 1/98.

[3] انظر: زاد المسير في علم التفسير 1/36.

[4] انظر: مفاتيح الغيب 2/311.

[5] انظر: الجامع لأحكام القران للقرطبي 1/211.

[6] انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1/49.

[7] انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي1/54.

[8] انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 1/28.

[9] انظر: البحر المحيط 1/118-120.

[10] انظر: السِّراج المُنير للشَّرْبيني 1/27.

[11] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 1/49.

[12] انظر: روح البيان 1/64.

[13] انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 1/82.

[14] انظر: فتح القدير للشَّوكاني، 1/54.

[15] انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن للقِنَّوجي 1/97.

[16] انظر: محاسن التأويل للقاسمي 1/255.

ومُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره بقوله: "﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ ﴾ في الدنيا، إذ لم تُثمر لهم ثمرة حقيقيّة، بل خسروا وخابوا بإهمالهم الصحيح الذي لا تقوم المصالح، و لا تُحفظ المنافع إلّا به، وإسناد الربح إلى التجارة عربي في غاية الفصاحة؛ لأنّ الربح: هو النّماء في التّجر، وهذه المقاوضة هي التي من شأنها أن تثمر الربح، فإسناده إليها نفياً، أو إثباتاً إسناد صحيح لا يحتاج إلى التأويل كأنه قيل: فلم يكن نماء في تجارتهم، على أنّ ذلك التأويل – المعروف من أنّ إسناد الربح إلى التجارة؛ لأنّها سببه والوسيلة إليه، وأنّ العبارة من المجاز العقلي – تأويل يتفق مع البلاغة، ولا ينافيها، ولا زال المجاز العقلي من أفضل ما يُزيِّن البلغاء به كلامهم، ويبلّغون به ما يشاؤون من تفخيم معانيهم"[1]، ومُحَمَّد الطاهر عاشور(ت 1393هـ) في التحرير والتنوير[2]، والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره[3]، وابن العثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره[4].

من هنا بات واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، مدى اعتماد المفسرين على القواعد البلاغية في توجيه المعنى في الآيات القرآنيّة؛ لأنّ البلاغة هي التي تميّز بها لسان العرب الذي نزل به كتاب الله – جلّ وعزّ –؛ ليفهموا عن الله مراده وخطابه؛ بياناً لهم وحجّة عليهم، فعَمَدوا إلى تفسير كتابه– سبحانه – لفهم معانيه، واستنباط أحكامه، من خلال فهم علوم العربيّة، ودَرْسِها، وإتقانها كما بيَّن ذلك الخطيب البغدادي (ت 463هـ) فيما أسنده إلى أبي الدّرداء – رضي الله عنه – بقوله: " لا تَفْقَهُ كُلَّ الفِقْهِ، حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة "، ثُمَّ تَعَقَّبَهُ بِقَولِهِ: " فيحتاج النّاظر في علم القرآن، إلى حفظ الآثار، ودَرْس النَّحْو، وعلم العربيَّة واللُّغة، إذ كان الله – تعالى – إنّما أنزله بلسان العرب، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2] "[5].

لذلك لا بُدّ من فهم اللّغة العربيّة، ومعرفتها؛ فهي شرط في فهم القرآن، وتفسيره، إذ من المُحال فهمه وتفسيره لغير عارف العربية؛ لأنّه لا شكّ أنّه سيقع في الزّلل والخطأ، بل وسيُحرِّف الكَلِم عن مواضِعِهِ.

---

[1] تفسير المنار 140/1.

[2] انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 299/1–300.

[3] انظر: تفسير الشعراوي – الخواطر 163/1–164.

[4] انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 60/1–61.

[5] الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ)، الفقيه و المتفقه، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط2 1421هـ، ج1، ص198

وإنّ من الأهميّة بمكان، عناية المفسّرين بالبلاغة – التي هي جزء مهمّ من العربيّة – والبراعة فيها، لاسيّما في علميِ البيان والمعاني، وهذا ما أكّده الزمخشري (ت 538هـ) في الكشّاف بقوله: "واللّغوي وإن عَلَكَ اللّغات بقوَّةِ لَحْيَيهِ لا يتصدّى منهم أحدٌ لسلوكِ تلك الطرائق، ولا يغوصُ على شيءٍ من تلك الحقائق إلّا رجل قد بَرَعَ في علمَينِ مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان، وتَمَهَّلَ في ارتِيادِهما آونة، وتعِب في التنقير عنهما أزمنة " [1].

ويرى الباحث أنَّ ابن بدران – رحمه الله تعالى – لَحِق الركب في اعتماده للقواعد البلاغية في تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة: 16]، فنجده ينقل كلام الرازي[2] بتمامه وكماله في تأويل الآية [3] ثم يضيف بقوله: " استبدلوا الدّين القيّم الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها بالضلال، فكلّ مَنْ ضلَّ فهو مُستبدِل خلاف الفطرة " [4].

ثم بعد ذلك يعللُّ اعتماده هذا التأويل بناءً على القاعدة البلاغيّة بقوله: " فإنْ قلت: كيف أسند عدم الربح إلى التجارة، وإنّما هو لأصحابها لا لها؟ قيل: هو من الإسناد المجازي" [5]، كما بيَّنَّا ذلك.

ويؤيّد الباحث ابن بدران، وعلماء اللّغة، والتفسير الذين سبقوه بقوله، وسلكوا هذا المسلَك؛ لأنّ غاية التفسير هو معرفة مراد الله – جلَّ وعزَّ – في آياته، وإصابة وجه الحقّ فيها من خلال العربية التي لا تنفصل عن علوم الدين؛ لأنّها لغة التّنزيل، وكلام سيّد المرسلين.

تنبيه:

وهذا لا يعني أنَّ تفسير القرآن قائم فقط على علوم العربية، كما بيَّن ذلك ابن عباس بقوله: " التفسيرُ على أربعةِ أَوجهٍ: وجه تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله – تعالى ذكره – " [6].

---

[1] الكشاف 2/1.
[2] انظر: كلام الرازي 311/2.
[3] انظر: جواهر الأفكار ص80-81.
[4] المرجع السابق ص81.
[5] المرجع السابق ص81.
[6] جامع البيان في تأويل القرآن 75/1.

لذلك فإنَّ العلماء وضعوا ضوابط، وقواعد للتفسير القائم على اللغة، وهو ما يُعرف بالتفسير اللغوي. وقد بيَّنَّاها، وفصَّلناها سابقاً تحت عنوان: ضوابط التفسير باللُّغة[1].

وقد عرّفه مساعد الطيار بقوله: " هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب، أمّا الشّقّ الأول من التعريف، وهو بيان معاني القرآن: فإنّه عامٌّ يشملُ كلّ مصادر البيان في التفسير: كالقرآن والسنّة، وأسباب النزول، وغيرها. وأمَّا الشّقُّ الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب: فإنّه قيدٌ واصفٌ لنوع البيان الذي وقع لتفسير القرآن، وهو ما كان طريق بيانه عن لغة العرب....، والمرادُ بما وردَ في لغة العرب: ألفاظها، وأساليبها التي نزل بها القرآن " [2].

وخلاصة القول:

إنَّ تأويل قوله – تعالى –: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ قائم على القاعدة البلاغية: وهي الإسناد المجازي، أو المجاز الحكمي، أو العقلي، في بيان خسارة المنافقين في تجارتهم؛ بشرائهم الضلالة بالهدى، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وذلك هو الخسران المبين.

---

[1] انظر: ص43-47.

[2] التفسير اللغوي للقرآن الكريم لمساعد الطيّار ص38-39.

المسألة الثالثة:

أَثَرُ خُرُوجِ كَيْفَ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهَا فِي تَوْجِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ – تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾[البقرة: 28].

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: "فإن قيل: ما الحكمة في تصديره – تعالى– هذه الآية: بـ (كيف) التي معناها الاستفهام في غالب أحوالها؟ والاستفهام لا يكون إلّا ممّن خَفِيَ عنه حال المُستَفهم عنه، وهو مُحال عليه –تعالى– لأنّه علّام الغيوب. قلنا: ليس الاستفهام هنا على حقيقته كما أشرنا إليه سابقاً، لكنّه لمَّا كان الحالُ حالَ العلم بالصانع، الموجبة للصرف عن الكفر، وكان صدور الكفر ممن لهم صورة اختيار في الترك مع الصارف القوي مظنّة تعجّب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ، صار كأنّه قيل لهم: ما أعجب كفركم! "[1].

فيظهر من كلامه – رحمه الله تعالى– أنَّه عَدَلَ عن حقيقة الاستفهام إلى معنى من معانيه وهو: التعجّب، والإنكار، والتوبيخ، بما يتناسب وسياقَ الآية؛ لبيان كنهها، ومراد الله فيها؛ لأنّ الأخذ بظاهر الاستفهام، وحقيقته مُحال في حق الله – تعالى– علّام الغيوب، الذي لا يخفى عنه حال المستفهم عنه.

وللوقف على حقيقة المسألة، وبيان الحقِّ فيها، ودلائل إعجازها، ومراد الله منها، لا بُدَّ من معرفة حقيقة الاستفهام ودلالته وأغراضه.

عرّف العُكبري (ت 616هـ) الاستفهام بقوله: "الاستفهام: طلب الإفهام، والإفهام: تحصيل الفهم، والاستفهام، والاستعلام، والاستخبار بمعنى واحد"[2].

وعرّفه الهاشميّ (ت 1362هـ) بقوله: "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبلُ، وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيّان، وكيف، وأين، وأنّى، وكم، وأي"[3].

---

[1] جواهر الأفكار ص139–140.

[2] العُكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ)، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق د.عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط1 1416هـ، ج2، ص129.

[3] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص78.

وعرّفه الغلاييني (ت 1364هـ)[1] بقوله: "اسم الاستفهام: هو اسمٌ مُبهمٌ يُستعلمُ به عن شيءٍ، نحو "من جاء؟ كيف أنت؟""[2].

ومِن أسماء الاستفهام: كيف، قال ابن قتيبة: "كيف بمعنى: على أي حال، تقول: كيف أنت؟ تريد بأي حال أنت"[3]، وهي: "اسم يُستفهم به عن حالة الشيء، نحو "كيف أنت؟"، أي: على أيَّة حَالٍ أنت". "والغرض من الاستفهام بهذه الأسماء عموم السؤال المُقتضي للجواب بالمسؤول عنه، وهذا لا يحصل من الاستفهام بالحرف؛ لأنَّ المُستفهم عنهُ يختصُّ ببعض الجنس، كقولك أزيدٌ في الدّار؟ فيمكن المجيب أنْ يقول: لا، ولا يَلزمْهُ شيءٌ آخر بِمُقتضى هذا السؤال؛ فيحتاج أنْ يحدِّد سؤالاً آخر وربما تسلسل"[4].

وقد يخرج الاستفهام عنْ أصل دلالته إلى معانٍ أخرى كما بيَّن ذلك ابن الشجري (ت 542هـ) في أماليه[5]، وعبد الرحمن حَبَنَّكَة (ت 1425هـ) بقوله: " كثيراً ما يخرج الاستفهام عن إرادة طلب الإفْهامِ والإعلام إلى معانٍ أخرى أشار إليها به، ويُسْتَدَلُّ علَيْهَا مِنْ قرائِنِ الحال، أو قرائن المقال، إذْ يَسْتَغْنِي الْبُلَغاء بعبارات الاستفهام عن ذكر الألفاظ الدّالة دلالةً صَريحةً على مَا يُريدون التَّعْبيرَ عَنْهُ منَ المعَاني، وبلاغةُ الدّلالة على هذه المعاني بأسْلُوبِ الاسْتفهام آتيةٌ من التعبير عنها بصورة غير مباشرة، وهيَ دلالاتٌ تُتَصَيَّدُ بالذكاء. قال شمس الدين ابن الصائغ في كتابه (روض الأفْهام في أقسام الاستفهام): "وقد توسعت العرب؛ فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته

---

[1] هو مصطفى بن مُحَمَّد سليم الغلاييني: شاعر، من الكتاب الخطباء. من أعضاء المجمع العلمي العربيّ. مولده ووفاته ببيروت. تعلم بها وبمصر، وتتلمذ للشيخ مُحَمَّد عبده (سنة 1320 هـ ولما كان الدستور العثماني أصدر مجلة (النبراس) سنتين، ببيروت، ووظف فيها أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية أربع سنوات، وعين خطيبا للجيش الرابع (العثماني) في الحرب العالمية الأولى، فصحبه من دمشق مخترقاً الصحراء إلى ترعة السويس من جهة الإسماعيلية وحضر المعركة والهزيمة. وعاد إلى بيروت، مدرساً. وبعد الحرب أقام مدَّة في دمشق، وتطَّوع للعمل في جيشها العربيّ. وعاد إلى بيروت فاعتقل بتهمة الاشتراك في مقتل (أسعد بك) المعروف بمدير الداخلية (سنة 1922) وأفرج عنه فرحل إلى شرقي الأردن، فعهد إليه أميرها (الشريف عبد الله) بتعليم ابنيه، فمكث مدة وانصرف إلى بيروت، فنصب رئيساً للمجلس الإسلامي فيها، وقاضياً شرعياً إلى أن توفي. من كتبه (نظرات في اللغة والأدب – ط) و (عظة الناشئين – ط) و (لباب الخيار في سيرة النَّبِيّ المختار – ط) رسالة اختصرها من كتابه (خيار المقول في سيرة الرسول – خ) و (الإسلام روح المدنية – ط) في الرد على كرومر، و (نظرات في كتاب السفور والحجاب – ط) و (الثريا المضية في الدروس العروضية – ط) و (أريج الزهر – ط) مجموع مقالات له، و (رجال المعلقات العشر – ط) و (الدروس العربية – ط) مدرستي، و (ديوان الغلاييني – ط). انظر: الأعلام للزركلي 244/7–245.

[2] جامع الدروس العربية للغلاييني 139/1.

[3] انظر: الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص115، واللُّمَع في العربية ص228. والبلاغة العربية 266/1، واللُّمحة في شرح المُلحة لابن الصائغ 907/2، والمحرر في النَّحْو للهرمي 465/1، والنَّحْو الشافي ص160، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص730، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 330/4، وجامع الدروس العربية للغلاييني 143/1.

[4] اللباب في علل البناء والإعراب للعُكبري 131/2.

[5] انظر: أمالي ابن الشجري 402/1–410.

تلك المعاني ". وقد أحصى البلاغيّون معاني كثيرة خرج إليها الاستفهام عن حقيقته، إذْ تَنَبَّهُوا إليها لدى دراسة مُخْتَلِف النصوص، وهي ما يلي:1. الإنكار 2-التوبيخ 3-التقرير 4-التعجّب أو التعجيب 5-العتاب 6-التذكير 7-الافتخار، ..."[1]. وهذا ما أشار إليه القزويني (ت 739هـ) في كتابه الإيضاح بقوله: "الأغراض البلاغية التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام: ثم إنَّ هذه الألفاظ كثيراً ما تُستعمل في معانٍ غير الاستفهامِ بحسب ما يناسب المقام"[2]. ثم ذكرها مفصّلة.[3]

لذلك فإنَّ لكلِّ اسم من أسماء الاستفهام معنى خرج عن أصل دلالته الحقيقية فاسم الاستفهام (كيف) له عدّة وجوه بيّنها ابن فارس (ت 395هـ) بقوله: "وقال بعض أهل اللغة: لها ثلاثة أوجُه: أحدها: سؤال محض عن حال، تقول: كَيْفَ زيدُ؟. والوجه الآخر: حالٌ لا سؤال معه، كقولك: "لأكْرِمَنّك كيف كنتَ" أي: على أيّ حال كنت. والوجه الثالث: (كيف) بمعنى التعجيب، وعلى هذين الوجهين يُفَسَّر قوله:﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[المدثر:19] قالوا: معناها "على أيّ حال قَدَّر" وتعجيب أيضاً. ومن التعجيب قوله جلّ ثناؤه:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة: 28]. وقد يكون كيف بمعنى النفي. قال[4]:

كيف يَرْجونَ سِقاطِي بعدما　　　لاحَ في الرَّأس مَشِيبٌ وَصَلَعْ[5]

ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 7] و ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [آل عمران: 86]. وتكون توبيخاً، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 101]. فأمّا قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا

---

[1] البلاغة العربية لحَبَنَّكَة 269/1-270، وانظر: درج الدرر 37/2.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجيل 68/3.

[3] انظر: المرجع السابق 68/3-80.

[4] يعني: سويد بن أبي كاهل (غطيف، أو شبيب) ابن حارثة بن حسل، الذبيانيّ الكناني اليشكري، أبو سعد: شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. عدّه ابن سلام في طبقة عنترة. كان يسكن بادية العراق. وسجن بالكوفة، لمهاجاته أحد بني يشكر، فعمل بنو عبس وذبيان على إخراجه، لمديحه لهم، فأطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المهاجاة. أشهر شعره عينية كانت تسمى في الجاهلية (اليتيمة) وهي من أطول القصائد، حفظ الرواة منها نيفا ومئة بيت، مطلعها: (أرّق العين خيال لم يدع من سليمى ففؤادي منتزع) وجمع معاصرنا شاكر العاشور ما وجد من شعره في (ديوان – ط) بالبصرة. انظر: الأعلام 146/3.

[5] اليشكري، أبو سعد سويد بن أبي كاهل غطيف بن حارثة (ت نحو 60هـ)، ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق شاكر العاشور، مراجعة مُحَمَّد جبَّار المعيبد، دار الطباعة الحديثة، بصرة – عراق، ط1 1972م، ص32.

جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ ﴾ [النساء: 41] فهو توكيد لِمَا تقدَّم من خبر وتحقيق لِمَا بعده، على تأويل: إن الله لا يظلم مثقالَ ذَرَّة في الدنيا فكيف في الآخرة"[1].

وقال الزجاجي (ت 337هـ)[2] في كتابه حروف المعاني: "كيف لها ثلاثة مواضع تقع بمنزلة (كما) واستفهاماً عن حال، تقول: أعلمهُ كيف تشاء، كما تقول: أعلمهُ كما تشاء، وتقول في الاستفهام: كيف أبوك صانع إذا سألته عن صنيعه؟ فإذا سألته عن نفسه قلت: كيف زيد؟ فيقال صالح. فهي تسأل بها عن حال الشيء وهيئته. وتقع كيف بمعنى التعجب كقوله – تعالى –: ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ﴾ [البقرة: 28]"[3].

وقد تخرج كيف من الاستفهام الحقيقي إلى أغراض عدّة منها:

1. التعجب، نحو قوله – تعالى –: ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ﴾ [البقرة: 28][4]. فتكون صيغة التعجب هنا لما يدل عليه بالقرينة؛ لأنَّ صيغ التعجب لما يدل عليه الوضع صيغتان: ما أفعله نحو: ما أحسَنَ الصدقَ! وأَفْعِل به نحو أحْسِنْ به![5].

---

[1] الصاحبي في فقه اللغة العربية لابن فارس ص115–116، وبصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي 401/4.

[2] أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النَّحْوي البغدادي داراً ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً؛ كان إماماً في علم النَّحْو، وصنف فيه كتاب " الجمل الكبرى " وهو كتاب نافع لولا طوله بكثرة الأمثلة. أخذ النَّحْو عن مُحَمَّد بن العباس اليزيدي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأنباري، وصحب أبا إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج فنسب إليه وعرف به، وسكن دمشق وانتفع الناس به وتخرجوا عليه. وتوفي في رجب سنة سبع وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين وثلاثمئة، وقيل في شهر رمضان سنة أربعين، والأول أصح، بدمشق وقيل بطبرية –رحمه الله – وكان قد خرج من دمشق مع ابن الحارث عامل الضياع الإخشيديه فمات بطبرية. وكتابه (الجمل) من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به، ويقال إنه صنفه بمَكَّة – حرسها الله تعالى – وكان إذا فرغ من باب طاف اسبوعاً ودعا الله – تعالى – أن يغفر له وأن ينفع به قارئه. والزجاجي: بفتح الزاي وتشديد الجيم وبعد الألف جيم ثانية. انظر: وفيات الأعيان 136/3.

[3] الزجّاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق النهاوندي (ت 337هـ)، حروف المعاني والصفات، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1984م، ص35. وانظر: ص59.

[4] انظر: تأويل مشكل القرآن 278/1، واللمحة في شرح الملحة لابن الصائغ 907/2، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام 224/3، وشرح الأشمونى لألفية ابن مالك 262/2، وشرح التصريح على التوضيح 57/2، والحملاوي، أحمد بن مُحَمَّد (ت 1351هـ)، شذا العرف في فن الصرف، تحقيق نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد، الرياض،ص70، وجامع الدروس العربية للغلاييني ص65، والنَّحْو الوافي 340/3، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 224/4، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص115، وحروف المعاني والصفات للزجّاجي ص59، وبغية الإيضاح 266/2، والبلاغة العربية 169/1، ومفتاح العلوم للسكَّاكي ص314، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 344/2، ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج 107/1، والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 270/3.

[5] انظر: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 259/3، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام 225/3–227، وشرح الأشمونى لألفية ابن مالك 263/2، شرح التصريح على التوضيح 2 /57–59. شذا العرف في فن الصرف، ص70. وجامع الدروس العربية للغلاييني 65/1.

وعدّها بعضهم ثلاثاً فأضاف (فَعُل) مثل فَضُل زيد[1].

وصيغ التعجب إما سماعيّة وإما قياسيّة:

أَمَّا القياسيّة: فهي التي تدلّ بلفظها ومعناها على التعجب، فهي بلفظها مُعدَّة لذلك صرفيّاً، وهي بمعناها تدلّ على التعجب – وهكذا استعملتها العرب – وهما اثنتان: ما أفْعَلَ، وأفْعِلْ به، على التفصيل المذكور آنفاً.

وأَمَّا السماعيّة: فهي الأَساليب المستعملة في اللغة لغير التعجب؛ ولكنّها تدُلُّ عليه بالاستعمال المجازي، فمعاني ألفاظها لا يُفهم منها التعجب، إلّا بالقرائن عن طريق المجاز أو التنغيم. ومنه قوله– تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا ﴾ [البقرة: 28]، فكلمة (كيف) أصلها بلفظها ومعناها للاستفهام، ولكنّها دلّت على التعجب دلالة عارضة على سبيل المجاز، وقول القائل: سبحان الله! فسبحان الله: بلفظها ومعناها للدعاء والعبادة، ثم استخدمت في التعجب على غير الأصل[2]. وهكذا دواليك.

2. التوبيخ، نحو قوله – تعالى –: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: 36].[3]

3. النّفي، نحو قوله – تعالى –: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [آل عمران: 86]. والمعنى: لا يهدي الله قوماً كفروا.[4]

4. التّحذير، نحو قوله – تعالى –:﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:137][5].

5. الإنكار، نحو قوله – تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 28].[6]

إلى غير ذلك من المعاني.[7]

---

[1] انظر: شرح شذور الذهب للجوجري 2 / 731، والإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 259/3، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 321/1.

[2] انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي 401/2–402، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي ص69.

[3] انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ط دار الجيل 79/3، ومعاني النَّحْو للسامرّائي 224/4، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص116، وبغية الإيضاح 266/2، ومفتاح العلوم للسكّاكي ص314، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص730، و البرهان في علوم القرآن 331/4، و الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 110/7.

[4] معاني النَّحْو للسامرّائي 224/4، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص115، وبصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي 401/4، والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 110/7.

[5] معاني النَّحْو للسامرّائي 225/4، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 331/4.

[6] انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي 314/1، والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي 110/7، ودرج الدرر للجرجاني 37/2.

[7] انظر: معاني النَّحْو للسامرّائي 225/4، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 330/4–331.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة عن الاستفهام، ودلالته الحقيقية والمجازية يظهر لنا أنَّ خروج الاستفهام عن أصل حقيقته معلوم بالعربية، إذ إن المستقري لكلام العرب وأشعارهم يجده مليئاً فيه؛ ولذلك فإنَّ علماء اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلَاغَة قد اهتموا فيه أَيَّما اهتمام، حتى إنَّنَا نجدهم قد صنَّفوا فيه المصنَّفات، وأفردوا له أبواباً في بطون المؤلفات، دلالة على أهميته وضرورته في مقصود الكلام ومرماه، ولعلَّ كلامَ اللهِ وَآيَاتِهِ أَجَلُّ ما يُنظر إليه لبيان مراده وكنهه؛ لاستنباط أحكامه وشريعته. وقد أفاد علماء التفسير من كلام علماء النَّحْو والبلاغة في هذا الباب؛ ليُظهروا تأويل الآيات ويفسِّروها على الوجه الذي أراده الله – سبحانه وتعالى – لإصابة الحق ومعرفة الصحيح.

من هنا فإنَّ جُلَّ العلماء وجمهورَهُم قالوا في تأويل قول الله – تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 28]: إنَّ الاستفهام في هذه الآية خرج عن أصل حقيقته إلى دلالته المجازية، وهي التعجب، والتعجيب، والإنكار، والتوبيخ معتمدين قاعدة بلاغية من القواعد البلاغية المستقراة من كلام الله – جلَّ وعزَّ – ثمَّ مِن كلام العرب، وأشعارهم التي تدلُّ على الفصاحة، والبلاغة، والبيان.

وقد تنوَّعت ألفاظ العلماء في الدلالة على المعنى المجازي لاسم الاستفهام (كيف):

فمِن قائل بالتعجب والتوبيخ، ومنهم:

الفرَّاء (ت 207هـ) في معاني القرآن بقوله: "وقوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة: 28]، على وجه التعجب والتوبيخ، لا على الاستفهام المحض، أي: وَيْحَكُم كيف تكفرون! وهو كقوله: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: 26]"[1].

وقال بقوله الطبري (ت 311هـ) في تفسيره[2]، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم[3]، والماوردي (ت 450هـ) في تفسيره[4]، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير[5]، وابن عطية

---

[1] معاني القرآن للفراء 23/1، وانظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص730، والبرهان في علوم القرآن للزركشي 330/4، وبصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي 401/4، ومعترك الأقران للسيوطي 330/1، ومفتاح العلوم للسكَّاكي 314/1، والتفسير البسيط للواحدي 289/2.

[2] انظر: جامع البيان للطبري 427/1.

[3] انظر: بحر العلوم للسمرقندي 106/1.

[4] انظر: النكت والعيون 90/1.

[5] انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 129/1.

(ت 542 هـ) في تفسيره[1]، والجوزي (ت 597 هـ) في تفسيره[2]، والقرطبي (ت 671 هـ) في تفسيره[3]، والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدر المصون[4]، والنيسابوري (ت 850هـ) في تفسيره[5]، والألوسي (ت 1270هـ) في تفسيره[6]، والسعدي (ت 1376هـ) في تفسيره[7]، والزحيلي في تفسيره[8]، وأبو زهرة (ت 1394هـ) في تفسيره[9].

ومِنْ قائل بِالتَّبْكِيتِ والتَّعْنِيف، ومنهم:

الرازي (ت 606هـ) في مفاتيح الغيب بقوله: " واعْلم أنّ قوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وإنْ كان بصورة الاستخبار فالمراد به التبكيت والتعنيف؛ لأنَّ عِظَم النِّعمة يَقْتَضي عِظم معصية المُنْعم"[10].

ومنهم مَن قال بالتَّقرير والتَّوبيخ:

أبو حيَّان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " كيف: قد تقدّم أنّه اسم استفهام عن حال، وصَحِبَهُ معنى التقرير والتوبيخ، فخرج عن حقيقة الاستفهام" [11]، وقال بهذا أبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في تفسيره بقوله: " قوله – تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ هو تقرير وتوبيخ، أي: كيف تكفرون، ونعمه عليكم وقدرته هذه"[12].

ومنهم من عبَّر عن الاستفهام بمعنى الإنكار والتَّعَجُّب:

عبد القاهر الجُرْجَانِيّ (ت 471) في درج الدرر بقوله: " (كيف) استفهام بمعنى الإنكار، وفيه تبيينٌ أنَّه موضعٌ لتَعجّب المتعجّب حيث يكفرون بمن تولَّى إنشاءهم، وحفظهم، وإفناءهم وإعادتهم

---

[1] انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 114/1.

[2] انظر: زاد المسير في علم التفسير 48/1.

[3] انظر: الجامع لأحكام القرآن 249/1.

[4] انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 237/1.

[5] انظر: غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 208/1.

[6] انظر: روح المعاني 214/1.

[7] انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسّعدي 48/1.

[8] انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج 116/1.

[9] انظر: زهرة التفاسير 185/1.

[10] مفاتيح الغيب 375/2.

[11] البحر المحيط في التفسير 208/1.

[12] الجواهر الحسان في تفسير القرآن 203/1.

من النشأة الآخرة، ويخالفون قضيّة اللبّ، ويكابرون العقل"[1]، وقال بهذا الكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير[2]، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف[3]، والبيضاوي (ت 685هـ) في تفسيره بقوله: "كيف تكفرون بالله استخبار فيه إنكار، وتعجيب لكفرهم بإنكار المحال التي يقع على الطريق البرهاني"[4]، والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل[5]، وذكره أبو حيّان الأندلسي (ت 745هـ) في تفسيره بقوله: "وقيل[6]: صَحِبَهُ الإنكارُ والتعجُّبُ، أي إنّ من كان بهذه المَثَابة من القُدرة الباهرة والتَصّرف التامِّ، والمرجعُ إليهِ آخراً فيثيب ويعاقِب – لا يليقُ أن يُكفرَ به"[7]، والنيسابوري (ت 850هـ) في غرائب القرآن بقوله: " فصدور الفعل عمن له صورة اختيار في الترك مع الصارف القوي مَظَنَّةَ تعجّب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ فكأنه قيل: ما أعجب كفركم والحال أنكم عالمون بهذه القصّة!"[8]، والشوكاني (ت 1250هـ) في فتح القدير[9]، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل بقوله: "والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع، واستبعاده، والتعجّب منه؛ لأَنَّ معهم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان"[10]، ومُحَمَّد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) في التحرير والتنوير[11]، والعثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره[12]، والألوسي (ت 1270هـ) في روح المعاني بقوله: "وهي هنا للاستخبار مُنضَمّاً إليه الإنكار والتعجيب؛ لكفرهم إنكار الحال الذي له مزيد اختصاص بها، وهي العلم بالصانع والجهل به"[13]، ومحمود صافي (ت 1376هـ) في الجدول[14].

وممَّا سبق نلاحظ أنَّ كلمة العلماء تكاد تجتمع على خروج (كيف) عن أَصل دلالتها في قوله – تعالى –: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 28]، وإنِ تنوعت ألفاظهم في المعنى

---

1 درج الدرر في تفسير الآي والسور 127/1.

2 انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 129/1.

3 انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 121/1.

4 أنوار التنزيل وأسرار التأويل 65/1.

5 انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي76/1.

6 يعني الاستفهام.

7 البحر المحيط في التفسير 208/1.

8 غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 209/1.

9 انظر: فتح القدير للشَّوكاني، 70/1.

10 محاسن التأويل للقاسمي 281/1.

11 انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 374/1.

12 انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 105/1.

13 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 214/1.

14 انظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود صافي 240/3.

الذي أشارت إليه؛ فمن قائل: التعجّب والتوبيخ، ومن قائل: التبكيت والتعنيف، ومنهم من قال: التقرير والتوبيخ، ومنهم من قال: الإنكار والتعجّب، على التفصيل الذي ذكرنا آنفاً. والظاهر أَنَّه لا مُشَاحَّةَ في الاصْطِلاح، فَكُلُّها تصلُح إلى ما أشارت إليه (كيف)؛ لأَنَّ اسم الاستفهام قد يدلُّ على غير معنىً بحسب السياق الذي يرد فيه، وهذا ظاهر واضح في العربية والآيات القرآنية، ولعلّ الآية التي نحن بصددها أدلّ دليل على ذلك. وهذا ما دفع ابن بدران – رحمه الله تعالى – أنْ يَجْمَعَ هذه المعانيَ كلَّها في تأويل قوله – تعالى–: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ للوصول إلى المعنى الحق المراد في الآية، وكنهها، والوقوف على وجه الصواب فيها.

ولقد نقل ابن بدران – رحمه الله – كلام الرازي وهو: " لكن المراد به التبكيت والتعنيف "[1]، ثُمَّ قال: "مَظنّة تعجّب وتعجيب، وإنكار وتوبيخ"[2]، وهذا يدلّ على سعة اطِّلاعه، ومعرفته بالعربية وفنونها، وحذقه بالبلاغة وعلومها، وتفننه في توظيف القواعد البلاغية في تأويل الآيات القرآنية، ومعرفة مراد الله منها.

ويرى الباحث أنَّ ما ذهب إليه ابن بدران وجُلّ علماء العربية والتفسير – رحمهم الله جميعاً– هو الحقُّ والصواب؛ لتضافر الأدلة الدَّامغة، والقرائن الواضحة على ذلك.

إذ إنّه مُحال غير ذلك؛ لمخالفة العربيّة من ناحيةٍ، والقواعد التفسيريّة من ناحية أخرى؛ لأنّه من غير المُمكن القول بحقيقة الاستفهام الذي لا يكون إلّا ممَّن خَفِيَ عنه حال المُسْتَفْهَم عنه، وهذا مُحال عليه – سبحانه و تعالى –؛ لأَنَّه علَّامُ الغيوب.

وخلاصة القول:

إنَّ اسم الاستفهام (كيف) في قوله – تعالى –:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾[البقرة: 28] خرج عن أصل دلالته وحقيقته إلى معناه المجازي وهو: التعجّب، والتعجيب، والإنكار، والتوبيخ؛ بحسب ما يقتضيه السِّياق.

---

[1] انظر: جواهر الأفكار ص139، ومفاتيح الغيب للرازي 375/2.

[2] انظر: جواهر الأفكار ص139-140.

المسألة الرابعة:

أَثَرُ الكنايةِ في توجيهِ معنى كلمة ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ [البقرة: 187].

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى –: " ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ كناية عن الجماع في هذا الموضوع، يقال: هو ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ والرّفوث، وقد رُوي أنّها في قراءة عبد الله بن مسعود: " أحل لكم ليلة الصيام الرفوث إلى نسائكم "، وهو قول قتادة ومجاهد، وسالم بن عبد الله، والسدّي، وابن عباس، وقال: "﴿ٱلرَّفَثُ ﴾ الجماع، ولكنَّ الله كريم يكنّي" ، و ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ في غير هذا الموضع: الإفحاش في المنطق، كما قال العجاج[1]:

عن اللَّغَا ورفث التكلُّم [2]

وَعُدّي الرّفث بـ (إلى)، مع أنّه يتعدّى بالباء؛ لتضمُّنه معنى الإفضاء، قال تعالى: ﴿ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ [النساء: 21]، كأنَّه قيل: أحل لكم الإفضاء إلى نسائكم بالرفث "[3].

ثمّ قال – رحمه الله –: " وقد تضمَّنت هذه الآية ثلاثة أنواع من البيان:

الطباق المعنوي بقوله:﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ ﴾ ... .

والكناية بقوله: ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ الذي هو كناية عن الجماع. والاستعارة البديعة في قوله:﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ ﴾ ..." [4].

---

[1] أبو مُحَمَّد رؤبة بن العجاج، والعجاج لقب واسمه: أبو الشعثاء عبد الله – ابن رؤبة البصري التميمي السعدي؛ وهو وأبوه راجزان مشهوران، كل منهما له ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان بصيراً باللغة بحوشيها وغريبها. توفي سنة خمس وأربعين ومئة وكان قد أسن – رحمه الله تعالى – . ورُؤبة – بضم الراء وسكون الهمزة وفتح الباء الموحدة وبعدها هاء ساكنة وهي في الأصل اسم لقطعة من الخشب يشعب بها الإناء، وجمعها رئاب، وباسمها سمي الراجز المذكور. انظر: وفيات الأعيان 2/303–305.

[2] العجّاج، عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر (ت نحو 90هـ)، ديوان العجّاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه)، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السَّلطي، مكتبة الدكتور مروان العطيّة، المطبعة التعاونيَّة بدمشق 1971، ج1، ص456.

والبيت تمامه: ورُبَّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ عن اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ.

[3] جواهر الأفكار ص514.

[4] المرجع السابق ص515

يبيّن ابن بدران أنَّ في الآية نوعاً من أنواع البيان وهو الكناية، وأنّ الله – عزَّ وجلَّ – كريم يُكنِّي، فذكر – سبحانه – ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾كناية عن الجماع، والرّفث في غير هذا الموضع يعني الإفحاش في المنطق.

ولبيان المسألة والوقوف على وجه الحقّ والصّواب فيها، ومعرفة مراد الله منها، لا بُدّ من تعريف الكناية، وبيان أقسامها وأثرها في توجيه معنى ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: 187].

لقد اعتنى العلماء بالكناية واهتمُّوا بها؛ لأنَّ العرب تكثر من استخدامها في كلامهم وأشعارهم، فأفردوا لها أبواباً خاصّة في كتبهم بيّنوا من خلالها تعريفها، وأبوابها، وأقسامها، وشواهدها.

قال الطالبي (ت 745هـ) في الطّراز لأسرار البلاغة: " اعلم أنّ الكناية وادٍ من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز، وتختصّ بدقّة وغموض "[1].

وقال أيضاً: " والكناية في عرف اللغة مقولة على ما يتكلّم به الإنسان، ويريد به غيره، وأنشد الجوهرى لأبي زياد:

وإِني لأَكْنُو عَنْ قَذُورٍ[2] بِغَيْرِهَا   وأُعْرِبُ أَحياناً بِهَا، فأُصارِحُ[3]

والكناية بالضّم والكسر في فائها واحدة الكنى، واشتقاقها من الستر، يقال: كنيت الشىء، إذا سترته، وإنّما أُجري هذا الاسم على هذا النوع من الكلام، لأنَّه يستر معنى ويظهر غيره، فلا جرم سميت كناية، فالعرف متناول للعبارة كما ترى "[4].

---

[1] الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 185/1.

[2] قذر: القَذَرُ: ضِدُّ النَّظَافَةِ؛ وَشَيْءٌ قَذِرٌ بَيِّنُ القَذارةِ. قَذِرَ الشيءُ قَذَراً وقَذَر وقَذُرَ يقْذُرُ قَذارةً، فَهُوَ قَذِرٌ وقَذُرٌ وقَذَرٌ وقَذْرٌ. والقَذُورُ مِنَ النِّسَاءِ: الَّتِي تَتَنَزَّهُ عَنِ الأَقْذار. وَرَجُلٌ مَقْذَرٌ: تَجْتَنِبُهُ النَّاسُ، وَهُوَ فِي شِعْرِ الْهُذَلِيِّ. وَرَجُلٌ قَذُورٌ وقاذُورٌ وقاذُورَةٌ: لَا يُخَالِطُ النَّاسَ. انظر: لسان العرب 80/5–81، فصل القاف ، مادة قَذَرَ.

[3] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)،الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4 1407هـ، ج6 / ص2477، ولسان العرب 589/1، وانظر: الحميري، نشوان بن سعيد (ت 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الأرياني ود. يوسف مُحَمَّد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، ط1 1420هـ، ج9، ص5912، وبطّال، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن سليمان (ت 633هـ)، النظم المُسْتَعْذَب في تفسير غريب ألفاظ المهذَّب، تحقيق د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مَكَّة المكرمة، ط1988م–1991م، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس 139/5، ولسان العرب، فصل الصّاد 511/2، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 421/39.

[4] الطراز لأسرار البلاغة 186/1، وانظر: الصّاحبي في فقه اللغة لابن فارس 200/1، واللباب في قواعد اللغة ص177، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 2477/6، والتعريفات 187/1، وابن أبي الحديد، عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد هبة الله بن مُحَمَّد (ت 656هـ)، الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة، ج4، ص292. وأبو حبيب، =

وقال المراغي (ت 1371هـ) في علوم البلاغة: " الكناية فنٌّ مِنَ التَّعبير توخَّاه العرب؛ استكثاراً للألفاظ التي تؤدِّي ما يُقْصَدُ مِنَ المعاني، وبها يتنوَّفون في الأساليب، ويُزَيِّنون ضروب التَّعبير، ويكثرون من وجوه الدَّلالة، انظر إلى امرئ القيس[1] تجده كَنَّى عن المرأة ببيضة الخدر في قوله:

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا   تمتَّعتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ "[2] "[3].

وقال السّرّاج في اللباب: " هي من أبلغ أنواع الكلام، وأرفعه شأناً، وأدقه فكرة، لا يدرك مَرَامِيَها إلّا كلّ فَطِنٍ فَهِمٍ لما تحويه من دِقّة الإشارة وبعد الاستعارة "[4].

أمّا الكناية في عرف البلاغيّين وعلماء البيان:

فقد عرّفها الجُرْجَانِيّ(ت471هـ) بقوله: " والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلّمُ إثباتَ معنىً من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللُّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وَرِدْفهُ في الوجود، فيومئ إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد "، يريدون طويل القامة "[5].

وعرَّفها السَّكَّاكي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم بقوله: " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذُكر ما يلزمه؛ لينتقل من المذكور على المتروك كما نقول: فلان طويل النجاد لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة "[6].

= سعدي، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، دار الفكر، دمشق – سورية، ط2 1408هـ، ص325. وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 421/39، والتعريفات 187/1، والرازي، زين الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر (ت 666هـ)، مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط5 1420هـ، ص274.

[1] هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل. مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن. اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل حندج وقيل مليكة وقيل عديّ. وكان أبوه ملك أسد وغطفان. وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى (دمّون) بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته. ويعرف امرؤ القيس بالملك الضّليل (لاضطراب أمره طول حياته) وذي القروح (لما أصابه في مرض موته) وكتب الأدب مشحونة بأخباره. انظر: الأعلام للزركلي 11/2-12

[2] امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر بن حجر (ت نحو 544م – 80ق.هـ)، ديوان امرئ القيس، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، ط5، القسم الأول رواية الأصمعي من نسخة الأعلم ص13.

[3] علوم البلاغة للمراغي ص308.

[4] السّراج، مُحَمَّد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النَّحْو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة خير الدين شمسي باشا، دار الفكر – دمشق، ط1 1403هـ، ص176.

[5] دلائل الإعجاز ص66، وانظر: الطراز لأسرار البلاغة 186/1، وخزانة الأدب وغاية الأرب 263/2.

[6] مفتاح العلوم للسكّاكي ص402، وانظر: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح للصَّعيدي 538/3.

وعرّفها الشريف الجُرْجَانِيّ (ت 816هـ) في التعريفات بقوله: " كلام استُتِرَ المراد منه بالاستعمال، وإنْ كان معناه ظاهراً في اللغة، سواء كان المراد به الحقيقة أو المجاز "[1].

وقال السيوطي (ت 911) في الإتقان: " الكناية أبلغ من التصريح وعرّفها أهل البيان بأنّها لفظ أريد به لازم معناه "[2].

وعرّفها حَبَنَّكة (ت 1425هـ) في البلاغة العربية بقوله: " هي اللّفظ المستعمل فيما وضِع له في اصطلاح التخاطب؛ للدّلالة به على معنىً آخر لازمٍ له، أو مصاحبٍ له، أو يُشار به عادةً إليه؛ لما بينهما من الملابسة بوجهٍ من الوجوه "[3].

أمّا أقسامها: فقد قسّمها علماء البلاغة والبيان إلى ثلاثة أقسام:

1. كناية عن صفة: أي طلب نفس الصّفة، نحو قوله: " طويل النجاد " كناية عن طول القامة.
2. كناية عن موصوف: أي طلب نفس الموصوف، نحو قوله: " جاء قابض يده " كناية عن بخله.
3. كناية عن نسبة حكميَّة بين المسند والمسند إليه: أي تخصيص الصفة بالموصوف، نحو قول الشاعر[4]:

إنَّ السَّماحَةَ والمُروءَةَ والنَّدى   في قبةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحَشْرَجِ[5]

فخصَّ هذه الأشياء الثلاثة في ابن الحشرج من غير تصريح، بل كناية بجعلها في قبة ضربت له [6].

---

[1] التعريفات 187/1، وانظر: القاموس الفقهي ص325، والكليّات ص761، والفلك الدائر على المثل السائر 292/4.

[2] الإتقان 159/3.

[3] البلاغة العربية 127/2.

[4] هو زياد بن سليمان – أو سليم – الأعجم، أبو أمامة العبديّ، مولى بني عبد القيس: من شعراء الدولة الأموية. جزل الشعر، فصيح الألفاظ، كانت في لسانه عجمة فلقّب بالأعجم. وهو من فحول الشعراء. ولد ونشأ في أصفهان، وانتقل إلى خراسان، فسكنها وطال عمره، ومات فيها. عاصر المهلب بن أبي صفرة، وله فيه مدائح ومراث. وكان هجاءاً، يداريه المهلب ويخشى نقمته. وأكثر شعره في مدح أمراء عصره وهجاء بخلائهم. وكان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفا منه، ويقول: ليس إلى هجاء هؤلاء من سبيل ما عاش هذا العبد. ويقال: إنه شهد فتح إصطخر مع أبي موسى الأشعري. وله وفادة على هشام بن عبد الملك. وامتدح عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. خرّج له: أبو داود، والترمذي، وابن ماجه – والله أعلم –. انظر: سير أعلام النبلاء 597/4، والأعلام للزركلي 54/3.

[5] الأعجم، أبو أمامة زياد بن جابر بن عمرو بن عامر(ت نحو125هـ)، شعر زياد الأعجم، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف حسين بكّار، دار المسيرة، ط1 1403هـ، ص49.

[6] انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي ص403–407، واللباب في قواعد اللغة ص177، والكليّات للكفوي ص761، وعلوم البلاغة للمراغي ص302–303، والمنهاج الواضح للبلاغة 150/1، وجواهر البلاغة للهاشمي ص288، وبغية الإيضاح 539/3، والبلاغة العربية 136/2.

وأمَّا ضروبها:

فقد بيَّنها المبرِّد (ت285هـ) في الكامل بقوله: " والكناية تقع على ثلاثة أضرب:

" **أحدها:** التَّعمية والتَّغطية، كقول النابغة الجعديّ:

أُكنِّي بغير اسمها وقد علم الـــــــــــلَّهُ خفياتِ كلِّ مُكتَتَمِ[1] "

ثمّ قال:

والضرب الثاني: "ويكنِّي من الكناية – وذاك أحسنها – الرّغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال تعالى – وله المثل الأعلى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187]، وقال: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: 43].

ثمّ قال:

" **والضَّرب الثالث من الكناية:** التفخيم والتعظيم، ومنه اشتُقَّت الكنية وهو: أنْ يُعظَّم الرّجل أنْ يدعى باسمه " [2].

وأمّا أسبابها:

فقد بيَّنها السيوطي (ت 911هـ) في الإتقان بقوله: " وللكناية أسباب:

أحدها: التّنبيه على عِظَم القُدْرةِ نحو: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأعراف: 189]، كناية عن آدم.

ثانيها: تَرْكُ اللّفظ إلى ما هو أجمل، نحو: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص: 23]، فكنى بالنّعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك؛ لأنّ ترك التصريح بذكر النساء أجمل منه ...[3] .

---

[1] ديوان النابغة الجعدي ص157.

[2] انظر: المبرد، أبو العباس مُحَمَّد بن يزيد (ت 285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3 1417هـ، ج2، ص215–216، وابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (ت 463هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5 1401هـ، ج1، ص313، وابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الجزري (ت 637هـ)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375هـ، ص164–166.

[3] هذا على قول من قال: إنَّ المقصود بالنِّعاج في الآية النِّساء، وهذا قول باطل على أصحّ أقوال المفسّرين، انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي 3 / 149–151.

ثالثها: أن يكون التصريح ممّا يُسْتَقبح ذكره: ككناية الله عن الجماع بالملامسة، والمباشرة، والإفضاء، والرّفث، والدّخول، والسّرّ في قوله ﴿ لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقرة: 235]، والغشيان في قوله ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ [الأعراف: 189] "[1].

والكناية عمّا يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه هي من سنن العرب [2]، ومثله في القرآن، وفي كلام الفصحاء كثير[3]، وعدّها المبرّد أحسن ضروب الكناية [4]؛ لما فيها من حُسن التّلطّف في اطِّراح الألفاظ المستهجنة [5]؛ للتعبير عنها ببعض مصاحبات الشيء للدلالة بها عليه، مثل: الكناية عن الجماع بالملامسة، أو المباشرة، أو الإفضاء، أو الدخول، أو الغشيان، أو نحو ذلك [6]، فتكون الكناية أوقع من الإفصاح [7].

بل إنَّ الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) أكّدَ الإجماع على ذلك في كتابه دلائل الإعجاز بقوله: " قد أجمع الجميع على أنّ " الكناية " أبلغ من الإفصاح "[8].

وقد نظم السيوطي (ت 911هـ) في كتابه " عُقُودُ الْجُمَانِ " تعريف الكناية، وأنواعها، وأقسامها، وهو نظم لكتاب " تلخيص المفتاح " للخطيب القزويني (ت 739هـ).

فقال:

لَفْظٌ أُرِيدَ لازِمُ مَعْنَاهُ مَعْ ... جَوَازِ أَنْ يُقْصَدَ مَعْنَاهُ تَبَعْ

وَمِنْ هُنَا تُخَالِفُ الْمَجَازَا ... أَقْسَامُهَا ثَلاثَةٌ مَا انْحَازَا

إلى آخر الأبيات ... [9].

فهذه مقدّمة وجيزة جعلها الباحث بين يديِ المسألة للوقوف على الحقّ والصّواب فيها في توجيه معنى (الرّفث) في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: 187].

---

[1] الإتقان 159/3-160.

[2] انظر: فقه اللغة وسرّ العربية ص276.

[3] انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه 313/1.

[4] انظر: الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد 215/2.

[5] انظر: علوم البلاغة للمراغي ص309، والجامع الكبير ص166.

[6] انظر: البلاغة العربية 139/2.

[7] انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي ص413.

[8] دلائل الإعجاز ص70، وانظر: المنهاج الواضح للبلاغة 158/1، والإتقان 159/3.

[9] انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، عُقُودُ الْجُمَانِ في علم المعاني والبيان، تحقيق وضبط عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم، القاهرة، ط1 1433هـ، ص92-94.

وقد ذهب عامّة علماء اللغة والبلاغة إلى أنّ الرّفث يُكَنَّى به عن الجماع.

قال الجصاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن: " والرّفث للذكور: هو الجماع لا خلاف بين أهل العلم فيه، واسم الرّفث يقع على الجماع، وعلى الكلام الفاحش، ويُكنى به عن الجماع "[1].

ومن أشهر العلماء الذين قالوا بهذا القول:

الفراهيدي (ت 170هـ) في العين بقوله: " رفث: الرَّفَثُ: الجِماعُ، رَفَثَ إليها وتَرَفَّثَ، وهذه كنايةٌ. وفلانٌ يرفُثُ، أي يقول: الفُحْش، وقال ابن عبّاس: الرَّفَث ما قيل عند النّساءِ، وقوله- عزَّ وجلَّ-: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ [البقرة: 197]، إنّما نهى عن قول الفُحش "[2].

وابن فارس (ت 395هـ) في مقاييس اللغة بقوله: " (رفث) الراء، والفاء، والثاء، أصلٌ واحدٌ، وهو كلُّ كلام يُستَحْيا من إظهاره. وأصلُه الرَّفَثُ، وهو النِّكاح. قال الله – جلّ ثناؤه –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. والرّفَث: (الفُحْش) في الكلام. يقال: أَرْفَثَ وَرَفَثَ"[3].

والزمخشري (ت 538هـ) في أساس البلاغة بقوله: " رفث في كلامه، وأرفث، وترفّثَ : أفحش، وأفصح بما يجب أنْ يُكَنَّى عنه من ذكر النكاح . وقد ترافث الرجلان، ورافث صاحبه مرافثة. وتقول: ما هذه منافثة، إنّما هي مرافثة . وإياك والرفث، ومالك ترفث... ورفث إلى امرأته: أفضى إليها﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[البقرة:187] وقيل الرفث بالفرج : الجماع، وباللسان: المواعدة للجماع، وبالعين الغمز للجماع "[4].

وابن منظور (ت 711هـ) في لسان العرب بقوله: " رفث: الرّفث: الجماعُ، وغيره ممَّا يكون بين الرجل وامرأَته، يعني التقبيل والمغازلة ونَحْوَهُمَا، ممّا يكون في حالة الجماع، وأصله: قول الفُحش. والرّفث أيضاً: الفُحش من القول، وكلام النساء في الجماع، تقول منه: رَفَثَ الرَّجُلُ وأَرْفَثَ، قال العجّاج:

---

[1] أحكام القرآن للجصاص، ص281.

[2] العين 220/8، باب الثاء، والراء، والفاء، معهما ر ف ث، ف ر ث، ث ف ر مستعملات، وانظر: تهذيب اللغة 58/15، أبواب الثاء والراء، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 284/1، والمخصص لابن سيده 1 / 499.

[3] معجم مقاييس اللغة لابن فارس 421/2، وانظر: وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم 4 / 2568 و 2578/4-2579، القاموس المحيط 170/1.

[4] أساس البلاغة 367/1.

ورُبِّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ   عن اللَّغا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ "[1] [2].

والفراء (ت 207هـ) في معاني القرآن[3]، وأبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن[4]، والأخفش (ت 215هـ) في معاني القرآن[5]، والزجاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه بقوله: " " الرّفث " كلمة جامعة لكلّ ما يريد الرّجل من المرأة، والمعنى ههُنا: كناية عن الجماع: أي أحلّ لكم ليلة الصّيام الجماع " [6]، والنحاس (ت 338هـ) في علوم القرآن [7]، وأبو جعفر الطحاوي (ت 321هـ) في أحكام القرآن الكريم [8]، وابن العربي (ت 543هـ) في أحكام القرآن بقوله: " يُقال: رَفَثَ يَرْفُثُ بكسر الفاء وضمّها، وقد يُطلق على الفعل من الجماع والمباشرة، قال الله تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187] "[9]، والزركشي (ت 794هـ) في البرهان[10]، والفيروز أبادي (ت 817هـ) في بصائر ذوي التمييز[11]، والسيوطي (ت 911هـ) في الإكليل[12]، ومحمود صافي (ت 1376هـ) في الجدول[13]، والصابوني في روائع البيان[14]، ومساعد الطيار في مفهوم التفسير[15]،ومُحَمَّد نديم فاضل في التضمين النَّحْوي بقوله: " أقول: الرّفث:

---

[1] انظر: ص253، هامش رقم 2.

[2] لسان العرب 153/2–154، وتاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي 263/5–264.

[3] انظر: معاني القرآن للفراء ص114.

[4] مجاز القرآن لأبي عبيدة 67/1، وانظر: التفسير البسيط للواحدي 598/3.

[5] انظر: معاني القرآن للأخفش 139/1.

[6] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 255/1، وانظر: معالم التنزيل للبغوي 228/1، والتفسير البسيط للواحدي 597/3، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 315/2، وانظر: تهذيب اللغة 58/15، أبواب الثاء والراء.

[7] انظر: معاني القرآن للنَّحَّاس ص132.

[8] الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة (ت 321هـ)، أحكام القرآن الكريم، تحقيق الدكتور سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامي، ط1، (م1 1416هـ، م2 1418هـ)، ج2، ص31.

[9] ابن العربي، القاضي مُحَمَّد بن عبد الله أبو بكر (ت 543هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3 1424هـ، ج1، ص188.

[10] البرهان في علوم القرآن للزركشي 61/4.

[11] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي 177/1.

[12] الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص41. وانظر: درج الدرر في التفسير بالمأثور للسيوطي 476/1.

[13] الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود صافي 383/2.

[14] الصابوني، مُحَمَّد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، مكتبة الغزالي – دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، ط3 1400هـ، ج1، ص190. وانظر: الصابوني، مُحَمَّد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني – القاهرة، ط1 1417هـ، ص109.

[15] الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط2 1427هـ، ص162.

الإفحاش. وهو بالفرج: الجماع وباللسان: المواعدة للجماع، فتضمَّن الرّفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفضاء "[1].

وذهب – أيضاً – أهل التأويل إلى أنّ ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ في هذا الموضع كناية عن الجماع.

قال الطبري (ت 311هـ) في تفسيره: " فأمّا "الرّفث" فإنَّه: كناية عن الجماع في هذا الموضع، يُقال " هو الرّفثُ والرُّفوث ". وبمثل الذي قلنا في تأويل "الرّفث" قال أهل التأويل "[2].

وأشهر من قال بهذا القول:

حَبْرُ الأمّة وترجمان القرآن ابن عباس – رضي الله عنه – بقوله: " الرّفث، الجماع، ولكنّ الله يَكني"[3]. وقال أيضاً: " الرّفث النكاح "[4].

وعلي بن أبي طالب، ومعاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنهم – وقتادة، ومجاهد، وسالم بن عبد الله، والسّدّي [5].

وقال ابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره: " عن ابن عباس قال: الرّفث: الجماع. ورُوِيَ عن عطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، والحسن، والضّحّاك، وإبراهيم النخعي، وسالم بن عبد الله، والسّدي، وعمر بن دينار، وقتادة، والزهري، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني، نحو ذلك"[6].

وقال ابن المنذر (ت 319هـ)[7] في تفسيره: " قال ابن عباس: " الدخول، والتغشّي، والإفضاءُ، والمباشرةُ، والرّفث، واللّمس هو: الجماع غير أنّ الله حييّ كريمٌ يَكني بما يشاء عن مَنْ يشاء"[8].

---

[1] فاضل، مُحَمَّد نديم، التضمين النَّحْوي في القرآن الكريم (أصل الكتاب: أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم)، دار الزمان، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، ط1 1426هـ، ج1، ص367.

[2] جامع البيان للطبري 487/3.

[3] جامع البيان للطبري 487/3، وانظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس 26/1.

[4] جامع البيان للطبري 488/3.

[5] المرجع السابق 488/3.

[6] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 315/1.

[7] الإمام، الحافظ، العلامة، شيخ الإسلام، أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مَكَّة، وصاحب التصانيف كـ (الإشراف في اختلاف العلماء) ، وكتاب (الإجماع) ، وكتاب (المبسوط) ، وغير ذلك. ولد: في حدود موت أحمد بن حنبل. ولابن المنذر (تفسير) كبير في بضعة عشر مجلدا، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضا. انظر سير أعلام النبلاء 490/14-492.

[8] ابن المنذر، أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 319هـ)، كتاب تفسير القرآن، قدم له الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حققه وعلق عليه الدكتور سعد بن مُحَمَّد السعد، دار المآثر – المدينة النبويَّة، ط1 1423هـ، ج2، ص630. وانظر: معالم التنزيل للبغوي 228/1، ومفاتيح الغيب 89/10، وابن عطية 256/1-257، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 315/2.

ومقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره[1]، والماتريدي (ت 333هـ) في تأويلات أهل السنة[2]، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم[3]، والماوردي (ت 450هـ) في النكت والعيون[4]، والواحدي (ت 468هـ) في تفسيره [5]،وقال الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في درج الدّرر: " والرّفث هو الجماع "[6]، والسمعاني (ت 489هـ) في تفسيره بقوله: " والرّفث: كلّ ما يريده الرّجل من امرأته، وهو بمعنى الوَطْءُ هَاهُنا. قال ابن عباس: " إنّ الله حييّ كريم، يَكني بالحسن عن القبيح " " [7]، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في تفسيره[8]، والزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف[9]، والرازي (ت 606هـ) في تفسيره بقوله – بعد ذكره لرواية ابن عباس لمّا أنشد وهو مُحْرِمٌ فقيل له: أترفث؟ فقال: إنّما الرّفث ما كان عند النّساء –: " فثبت أنّ الأصل في الرّفث: هو قول الفُحش، ثمَّ جُعِلَ ذلك اسماً لما يُتَكَلَّمُ به عند النّساء من مَعَاني الإفضاء، ثمّ جعل كنايةً عن الجماع وعن كلّ ما يَتْبَعُهُ "[10]، والقرطبي (ت 671هـ) في الجامع لأحكام القرآن[11]، والبيضاوي (ت 685هـ) في أنوار التنزيل[12]،والنّسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل[13]، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل[14]، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط[15]، والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدّر المصون[16]، وابن كثير(ت 774هـ) في تفسيره[17]، وأبو السعود (ت 982هـ) في تفسيره[18]، والشوكاني(ت 1250هـ)

---

[1] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان 164/1.

[2] تأويلات أهل السنة 49/2.

[3] انظر: بحر العلوم للسمرقندي 185/1.

[4] النكت والعيون 244/1.

[5] انظر: التفسير البسيط للواحدي 598/3.

[6] درج الدرر في تفسير الآي والسور 366/1.

[7] تفسير القرآن للسمعاني 186/1.

[8] تفسير الراغب الأصفهاني 397/1.

[9] الكشاف 229/1–230.

[10] مفاتيح الغيب 269/5.

[11] الجامع لأحكام القرآن 315/2–316.

[12] أنوار التنزيل وأسرار التأويل 126/1.

[13] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي161/1.

[14] لباب التأويل في معاني التنزيل 116/1.

[15] البحر المحيط 211/2.

[16] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 294/2.

[17] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 511/1.

[18] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 201/1.

في فتح القدير [1]، والألوسي (ت 1270هـ) في روح المعاني[2]، والقاسمي (ت 1332هـ) في محاسن التأويل[3]، ومُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسيره[4]، والشنقيطي (ت 1393هـ) في أضواء البيان[5]، وأبو زهرة (ت 1394هـ) في زهرة التفاسير [6]، والشعراوي (ت 1418هـ) في تفسيره[7]، والعثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره[8]، وأبو بكر الجزائري في تفسيره[9].

ويرى الباحث بعد عرض أقوال علماء اللُّغة، والبلاغة، والتفسير، أنَّ كلمتهم مُطبقةٌ على تأويل ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ بالجماع في قوله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[البقرة:187] كما بيّن ذلك الطبري (ت311هـ) في تفسيره[10]،والجصَّاص (ت370هـ) في أحكام القرآن [11].

وبعد تتبّع أقوال العلماء، وسبر تأويلاتهم، وترجيحاتهم، فإنَّ الباحث يرى أنَّ الإجماع ما زال قائماً حتى عصرنا الحاضر على أنَّ كلمة الرّفث كناية عن الجماع في قوله – تعالى–: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: 187]. وهذا ما ذهب إليه ابن بدران في تفسيره بقوله: " ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ كناية عن الجماع في هذا الموضع "[12]، فيكون بذلك قد وافق أقوال العلماء من ناحية، والقاعدة البلاغية من ناحية أخرى، في أنْ يُكنى عمّا يُستقبح ذكره، و" كَوْن المُكَنَّى عنه ممّا يَحْسُن سترُهُ، ويقبُحُ في الأدب الرفيع التّصريح به، إذ هو من العورات، أو من المستقذرات، أو من المستقبحات"[13].

---

[1] فتح القدير للشَّوكاني، 214/1.

[2] روح المعاني 461/1.

[3] محاسن التأويل للقاسمي 41/2.

[4] تفسير المنار 141/2.

[5] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 13/5.

[6] زهرة التفاسير 565/2.

[7] تفسير الشعراوي – الخواطر 791/2.

[8] تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 346/2.

[9] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري 166/1.

[10] جامع البيان في تأويل القرآن.

[11] أحكام القرآن للجصاص ص281.

[12] جواهر الأفكار ص514.

[13] البلاغة العربية 144/2.

ويُؤيد الباحثُ ابنَ بدران وإجماع العلماء فيما ذهبوا إليه مِن أنَّ ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ كناية عن الجماع في قوله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وذلك للاعتبارات الآتية:

1. إنَّ هذا القول هو قول الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – وهو ممّا أجمعت الأمة عليه، ومعلوم أنّ هذه الأمة لا تجتمع على ضلال، لقول النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " لا تجتمع أمّتي على ضلال "[1].

2. إنَّ الكناية عمّا يُستقبح ذكره معلوم في العربيَّة، ومعروف لدى أصحابها في كلامهم وأشعارهم.

3. إنَّ سياق الآيات يدلُّ على أنّ الرّفث كناية عن الجماع لاسيّما أنَّ الآية نزلت في حقّ بعض الصحابة ممّن أصاب امرأته بعد العشاء، أو بعد نومها؛ لأنّه كان يحرم عليه ذلك كما بيّن ذلك ابن عباس – رضي الله عنه – بقوله: " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183] فكان الناس على عهد النَّبِيّ –صلى الله عليه وسلم– إذا صَلَّوْا العَتَمَةَ، حَرُمَ عليهم الطعام، والشراب، والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاخْتَانَ رجل نفسه، فجامع امرأته، وقد صلى العشاء ولم يُفْطِر، فأراد الله أنْ يجعل ذلك يُسراً لمن بقي، ورُخْصَة ومنفعة، فقال سبحانه:﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:187]، وكان هذا ممّا نفع الله به الناس، ورَخَّصَ لهم ويَسَّر "[2].

4. إنَّ الأصل في الرّفث التعدية بالباء (رفث بها) ولكن لمّا عُدّي بحرف الجر (إلى) تضمّن معنى الإفضاء الذي هو: الجماع كما في قوله – تعالى –: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: 21]. قال ابن الشجري (ت 542هـ) في أماليه: " فمنها تعدية الرفث بإلى في قوله – تعالى جدّه –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187]. وأنت لا تقول: رفثت إلى النساء، ولكنّه جِيء به محمولاً على الإفضاء الذي يراد به الملابسة في مثل قوله: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: 21] "[3].

---

[1] انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني م 13/4، وآداب الزفاف للألباني ص240.

[2] صحيح أبي داود – الأم للألباني 81/7، باب مبدأ فرض الصيام، وسنن البيهقي الكبرى 201/4.

[3] أمالي ابن الشجري 223/1، وانظر: المخصص لابن سيدة 1 / 484.

وخلاصة القول:

إنّ تأويل ﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ في قوله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ [البقرة: 187]، كناية عن الجماع، فتكون الكناية قد عملت على توجيه معنى ﴿ٱلرَّفَثُ ﴾ في الآية الكريمة لبيان مُراد الله – عزّ وجلّ –.

قال السيوطي (ت 911) في الإتقان: " الفرائدُ: هو مُختصٌّ بالفصاحة دون البلاغة ؛ لأنّه الإتيان بلفظة تتنزَّلُ منزلة الفريدَةِ من العقد – وهي الجوهرة التي لا نظير لها – تَدُلُّ على عِظَمِ فصاحة هذا الكلام، وقُوّةِ عَارِضَتِهِ، وجزالةِ منطقه، وأصالَة عربيَّته، بحيثُ لو أُسْقِطَت من الكلام عزّت على الفصحاء " غرابَتُها ". ومنه لَفْظُ (حَصْحَصَ) في قوله: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [يوسف: 51]، و(الرّفث) في قوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ [البقرة: 187] "[1].

---

[1] الإتقان 319/3.

المسألة الخامسة:

أَثَرُ الحَقِيقَةِ وَالمَجَازِ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187].

قال ابن بدران – رحمه الله تعالى – في تأويل هذه الآية: " ﴿ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ ﴾، هو: أوّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، فالخيط الممدود ﴿ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ما يمتد معه من غبش الليل، شَبَّهَهُما بخيطين أبيض وأسود، وتشبيههما بالخيط معروف في كلام العرب. قال أبو دُؤاد[1]:

فلمَّا أضَاءَتْ لنَا سُدْفَةٌ ولاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيطٌ أَنَارَا [2]

وعليه فيكون المعنى: وكلوا بالليل في شهر صومكم واشربوا، وباشروا نساءكم مبتغين ما كتب الله لكم من الولد، من أوّل الليل إلى أن يقع لكم ضوء النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده"[3].

والظّاهر من كلام ابن بدران أنَّه اعتمد المعنى المجازي في تأويل الآية، إذ يبيّن – رحمه الله – أنّ بياض أوّل النهار مع ما يُخالِطُهُ من سواد الليل، شُبِّها بخيطين أبيض وأسود، مستنبطاً من ذلك حُكماً شرعياً في ابتداء صيام الصّائم ودخول نهاره الشّرعيّ. وقد بيّنّا سابقاً تعريف الحقيقة والمجاز[4].

ولا شكّ أنّ ذِكر الخيط في الآية له دلالة عظيمة في توضيح المعنى وبيان المقصود، وإظهار التّشبيه، إذ يظهر ذلك جلياً من خلال تعريف الخيط وبيانه.

---

[1] هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد ابن سلام بن مالك بن عبد هند بن لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن برجان بن دوس ابن الديل بن أمية بن حذافة بن زهر بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان الإيادي القاضي؛ كان معروفاً بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة، ذكره أبو عبيد الله المرزباني في كتاب المرشد في أخبار المتكلمين فقال: قيل: إن أصلهم من قرية بقنسرين، واتجر أبوه إلى الشام، وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام، حتى بلغ ما بلغ، وصحب هياج بن العلاء السلمي، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال. ومات الواثق راضيا عنه. وتولى المتوكل، ففلج ابن أَبي دُوَاد في أول خلافته سنة 233 هـ وتوفي مفلوجاً ببغداد انظر: وفيات الأعيان 81/1، والأعلام للزركلي 124/1.

[2] انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 1125/3، وتهذيب اللغة 209/7، ولسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 281/19، ويعقوب، إميل بديع، المعجم المُفصَّل في شواهد العربيَّة، دار الكتب العلميَّة، ط1 1417هـ، ج3، ص86.

[3] جواهر الأفكار ص516–517.

[4] انظر: المسألة الأولى في أثر القواعد البلاغية في الاختيارات التفسيرية ص215–218.

فقد عرَّفه ابن المرزبان (ت 347هـ)[1] في تصحيح الفصيح وشرحه بقوله: " والخَيط من الخيوط، بفتح الخاء، وخِيط من النّعام للقطعة منها، يعني بكسر الخاء؛ فإنَّ الخَيط بالفتح معروف، وهو السِّلكُ الذي يُخاط به، وكلّ ما دقّ وطال، جاز أن يُسمّى خيطاً، على التشبيه به "[2].

وقال الجوهري (ت 393هـ)[3] في الصحاح: " الخيطُ السِّلْكُ، وجمعه خيوط وخيوطة "[4].

ولمّا كان ضوء الفجر في أوّل تولّده يَمْتَدُّ ويطول في الأفق شُبِّه بالخيط الدقيق الطويل في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]".

قال ابن المرزبان (ت 347هـ) في تصحيح الفصيح: " يعني ما امتدّ وطال من بياض الفجر في سواد الليل، وليس يعني أنْ ينظر إلى الخيط الأبيض والخيط الأسود في وقت الفجر، حتى يُعرفا"[5].

وقال أبو بكر الأنباري (ت 328هـ) في إيضاح الوقف والابتداء: " قال نافع بن الأزرق: يا ابن عباس إنِّي أريد أن أسألك عن أشياء فأخبرني بها، قال: سَلْ عمّا شِئْت، قال: أخبرني عن قول الله – تعالى–:﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:187]

---

[1] هو أبو الحسن علي بن أحمد بن المرزبان البغدادي الفقيه الشافعي؛ كان فقيها ورعاً من جلة العلماء، أخذ الفقه عن أبي الحسين ابن القطان، وعنه أخذ الشيخ أبو حامد الإسفرايني أول قدومه بغداد. وحكي عنه أنه قال: ما أعلم أن لأحد عليّ مظلمة، وقد كان فقيهاً يعلم أن الغيبة من المظالم، وكان مدرّساً ببغداد وله وجه في مذهب الشافعي. وتوفي في رجب سنة ست وستين وثلاثمئة – رحمه الله تعالى –.
والمرزبان: بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاي وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون، وهو لفظ فارسي معناه صاحب الحد، ومرز هو الحد، وبان صاحب، وهو في الأصل اسم لمن كان دون الملك. انظر: وفيات الأعيان 281/3.

[2] ابن المرزبان، أبو مُحَمَّد عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد بن دُرُسْتَوَيْه (ت 347هـ)، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق د. مُحَمَّد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، 1419هـ، ص316. وانظر: البحر المحيط 216/2.

[3] هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي، الأتراري – وأترار: هي مدينة فاراب – مصنف كتاب (الصحاح) ، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، وفي الخط المنسوب، يعد مع ابن مقلة وابن البواب ومهلهل والبريدي. وكان يحب الأسفار والتغرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة، وينسخ المصاحف. وانفرد أهل مصر برواية (الصحاح) عن ابن القطاع، فيقال: ركب له إسناداً. وفي (الصحاح) أوهام قد عمل عليها حواش. استولت السوداء على أبي نصر حتى شد له دفين كجناحين، وقال: أريد أن أطير، فضحكوا، ثم طفر وطار، فتطحن. وقد أخذ العربية عن: أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي، وخاله صاحب (ديوان الأدب) أبي إبراهيم الفارابي. وللجوهري نظم حسن، ومقدمة في النَّحْو. قال جمال الدين علي بن يوسف القفطي: مات الجوهري متردياً من سطح داره بنيسابور، في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة. ثم قال: وقيل: مات في حدود سنة أربع مئة – رحمه الله –. انظر: سير أعلام النبلاء 80/17–82، والأعلام للزركلي 313/1.

[4] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 3 / 1125، باب خيط، وانظر: مختار الصحاح ص99، ولسان العرب مادة (خيط) 298/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي، باب خ ي ط 277/19.

[5] تصحيح الفصيح وشرحه لابن المرزبان ص316.

قال: الخيط الأبيض: ضوء النهار، والخيط الأسود: سواد الليل، قال: فهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أنْ ينزل القرآن قال: نعم، قال أمية بن أبي الصَّلْت[1]:

الخَيْطُ الابْيَضُ ضَوْء الصُّبْحِ مُنْفَلِقٌ والخَيْطُ الاسْودُ لَوْنُ[2] الليلِ مَكْمُوْمُ.[3]

قال أبو بكر النّصب في منفلق أجود على الحال "[4].

وقال الأزهري (ت 370هـ) في تهذيب اللغة: " والعرب تُشَبِّه النُّور بالحبل والخيط قال الله: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] فالخيط الأبيض: هو نورُ الصّبح إذا تبيَّن للأبْصَار وانفلق، والخيط الأسود دونه في الإنارة لِغَلَبة سواد الليل عليه؛ ولذلك نُعِت بالأسود، ونُعِت الآخر بالأبيض "[5].

ثمَّ قال أبو إسحاق: هما فجران، أحدهما يبدو أسود معترضاً وهو الخيط الأسود، والآخر يبدو طالعاً مستطيلاً يملأ الأفق فهو الخيط الأبيض، وحقيقته حتى يتبيَّن لكم الليل من النهار، وقول أبي دُوَاد: أضَاءَتْ لنَا سُدْفَةٌ، هي ها هنا: الظلمة. ولاحَ مِنَ الصُّبْحِ أي بدا وظهر.[6]

وقال الجوهري (ت 393هـ) في الصحاح: " والخيط الأسود: الفجر المستطيل، ويُقال: سواد الليل، والخيط الأبيض: الفجر المعترض، قال أبو دُؤاد الإيادي:

---

[1] هو أمية بن عبد الله أبي الصَّلْت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف. قدم دمشق قبل الإسلام. وكان مطلعاً على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبداً. وهو ممَّن حرَّموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية. ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام، وعاد إلى الطائف، فسأل عن خبر مُحَمَّد بن عبد الله – صلّى الله عليه وسلم – فقيل له: يزعم أنه نبي. فخرج حتى قدم عليه بمَكَّة وسمع منه آيات من القرآن، وانصرف عنه، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه، فقال: أشهد أنَّه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ فقال: حتى انظر في أمره. وخرج إلى الشام. وهاجر رسول الله إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام، يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع. وأقام في الطائف إلى أن مات. أخباره كثيرة، وشعره من الطبقة الأولى، وعلماء اللغة لا يحتجون به لورود ألفاظ فيه لا تعرفها العرب. وهو أول من جعل في أول الكتب: باسمك اللهم. فكتبتها قريش. قال الأصمعي: ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر ابن أَبي ربيعة بعامة ذكر الشباب. انظر: الأعلام 23/2.

[2] في الديوان ضَوْءُ.

[3] ابن أبي الصَّلت، أميّة بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة (ت نحو 8هـ)، ديوان أميّة بن أبي الصَّلت، جمعه وحققه وشرحه الدكتور سجيع جميل الجبيلي، دار صادر بيروت – لبنان، ط1 1998، ص119، وانظر: لسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي 281/19، والمعجم المُفصَّل في شواهد العربية 219/7، والإتقان للسيوطي 92/2-93.

[4] أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، إيضاح الوقف والابتداء، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1390هـ، ج1، ص78. وانظر: ابن الأزرق، أبو راشد نافع بن الأزرق الحنظلي التميمي (ت 65هـ)، مسائل نافع بن الأزرق عن عبد الله ابن عباس، (من طريقين، رواية أبي بكر الخُتَّلي (ت 365هـ)، ورواية أبي طاهر (ت 442هـ))، تحقيق الدكتور مُحَمَّد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط1 1413هـ، ص132-133.

[5] تهذيب اللغة 52/5.

[6] تهذيب اللغة 209/7، وانظر: لسان العرب 299/7، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي، باب خ ي ط 281/19.

فلمَّا أضَاءَتْ لنَا سُدْفَةٌ ولاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيطٌ أَنَارَا.[1] " [2].

وقال ابن منظور (ت 711هـ) في اللسان: " وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ؛ يعني بياض الصبح، وسواد الليل، وهو على التّشبيه بالخيط لدقَّتِه "[3].

وقال التيفاشي (ت 651هـ)[4] في سرور النَّفس: " وفي التنزيل العزيز: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ والعرب تُشَبِّهُ رِقَّة البياض البادي من الفجر أولاً ورِقَّة السواد الحافّ به بخيطين أبيض وأسود على جهة الاستعارة والتمثيل "[5].

وممّا سبق يظهر لنا أنَّ الخيط الأبيض، والخيط الأسود معلوم لدى العرب، ومعروف في كلامهم وأشعارهم، وإن خَفِيَ عن بعض أصحاب النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ولكنَّ بعضهم زال الإشكال والخفاء عنده لمَّا نزل قول الله – تعالى –: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، وبعضهم الآخر بيّن له النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – المُراد من ذلك.

عن سهل بن سعد، قال: " أُنزلت: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187]، ولم يَنزل ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، فكان رجال إذا

---

[1] سبق عزوه، انظر: ص266، هامش 2.

[2] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 1125/3.

[3] لسان العرب مادة (خيط) 299/7.

[4] هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر ابن حمدون، شرف الدين القيسي التيفاشي: عالم بالحجارة الكريمة غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش (من قرى قفصة، بإفريقية) ولد بها، وتعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. من كتبه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار)، و (الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء) و (خواصّ الأحجار ومنافعها) و (فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) موسوعة كبيرة، اختصرها ابن منظور – صاحب لسان العرب – وسمى الجزء الأول منها (نثار الأزهار، في الليل والنهار) و (نزهة الألباب، فيما لا يوجد في كتاب)، أدب ومجون. و (متعة الأسماع في علم السماع). انظر: الأعلام للزركلي 273/1–274.

[5] التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، هذَّبه ابن منظور مُحَمَّد بن جلال الدين المكرم (ت 711هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1 1980م، ص82.

أرادوا الصَّوم ربط أحدُهُم في رجله الخيط الأبيض، والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبيَّن له رُؤْيَتُهُما فأنزل الله بَعْدُ ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ [البقرة: 187] فعلموا أَنَّه إنَّما يعني الليل والنهار "[1].

فزال الإشكال وارتفع الاشتباه[2] عندهم وعرفوا مراد الله – جلَّ وعزَّ – ببيان الله – سبحانه– لمراده بقوله ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ فكانت بياناً، وشرحاً للمراد من كلمة الخيط الأبيض التي قبلها وتعني بزوغ الفجر الصادق.[3]

وقال الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في درج الدُّرر: " وقوله ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ للتفسير "[4].

ولكنّ بعضهم مِن مثل عدي بن حاتم – رضي الله عنه – ظلَّ عنده الإشكال، وفهم الخيط الأبيض والخيط الأسود على معناه الحقيقي. حتى بيّن له النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – المعنى المُراد.

عن عدي بن حاتم – رضي الله عنه –، قال: لمَّا نزلت ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ [البقرة: 187] عَمَدْتُ إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فَغَدَوْتُ على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فذكرت له ذلك فقال: " إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار "[5] فبيَّن النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لعدي ومن معه – رضوان الله عليهم – المراد من الآية فزال الإشكال والإبهام.

---

[1] صحيح البخاري، باب قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ [البقرة: 187]، 28/3 حديث رقم 1917، وصحيح مسلم، باب ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ 128/3 حديث رقم 2501، وانظر: سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ص82.

[2] انظر: بحر العلوم للسمرقندي 186/1.

[3] انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزُّرقاني2 / 12، ومدارك التنزيل للنَّسفي 162/1، وتفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 348/2.

[4] درج الدرر في تفسير الآي والسور 352/1.

[5] ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1 1421 هـ، ج32، ص113، حديث رقم 19370، وصحيح البخاري باب قول الله – تعالى–: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾[البقرة: 187] 28/3 حديث رقم 1916، وصحيح مسلم، باب وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود 128/3 حديث رقم 2500.

فكان قول الله – عزَّ وجلَّ – ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ وقول النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " إنَّما ذلك سواد الليل وبياض النهار " الفَيْصَل في أنّ المُراد من الآية إنَّما هو المعنى المجازي لا المعنى الحقيقي.

ثمّ إنَّ في قوله – تعالى –: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] لَفْتَةً بلاغيّةً أشار إليها الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف بقوله: " فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التّشبيه؟ قلت: قوله: (من الفجر) أخرج من باب الاستعارة كما أنَّ قولك: رأيت أسداً، مجاز. فإذا زِدْتَ " من فلان " رجع تشبيهاً. فإنْ قلت: فَلِمَ زِيْدَ (من الفجر) حتى كان تشبيهاً وهلّا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التّشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأنَّ مِن شرط المُسْتَعار أنْ يَدُلّ عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر (من الفجر) لم يُعْلَمْ أنَّ الخيطين مُستعاران، فزِيْدَ (من الفجر) فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة "[1].وتابعه في ذلك الزركشيُّ (ت 794هـ) في البرهان [2].

قال الباحث: إنّ ما جاء به الزمخشري في اللَّفتة البلاغيَّة في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] يدلّ على علوِّ كَعْبِه وتَفَنُّنِه في هذا الباب، وقد أشار إلى ذلك الجُرْجَانِيّ (ت 471هـ) في أسرار البلاغة[3]، ولكن ثمّة أمر لا بدَّ من التنبيه إليه وهو قول الزمخشري: " ولو لم يذكر (من الفجر) لم يُعْلَمْ أنَّ الخيطين مستعاران ". ففي قوله – رحمه الله – نظر؛ لأنّ الخيطين معلومان لدى العرب ومعروفان في كلامهم وأشعارهم. على التفصيل الذي بيّنّاه سابقاً.

وكما قال التيفاشي (ت 651هـ) في سرور النّفس: " والكتاب العزيز نزل على ما تفهمه العرب في لغتها وتألفه في عُرفها "[4].

ثمَّ إنَّ الصّحابة – رضوان الله عليهم – علموا مراد الله من الآية إلّا فئة قليلة منهم استُشْكِل عليهم الأمر، فبيَّنهُ الله – تعالى – لهم، بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] وهذا ظاهرُ حديث

---

[1] الكشاف 231/1، وانظر: البحر المحيط 215/2–216، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل 314/3، وغَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 514/1.

[2] البرهان في علوم القرآن للزركشي 419/3–420، وانظر: فتح القدير للشَّوكاني 214/1، والتفسير المنير للزحيلي 147/2، والمنهاج الواضح للبلاغة 95/3–96، والبلاغة العربية 232/2.

[3] انظر: أسرار البلاغة ص320–323.

[4] سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ص82، وانظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، نثار الأزهار في الليل والنهار، مطبعة الجوائب، قسطنطينيَّة، ط1 1298هـ، ص66.

سهل بن سعد – رضي الله عنه – " فكان رجال إذا أرادوا الصّوم "[1] لا كما علَّقَ الزمخشري – رحمه الله– الذكر – أي قوله من الفجر – بعدم العلم بالكليّة؛ لأنَّ الخيط الأبيض والخيط الأسود قد يكونان معلومين وسائغين في لغة قريش دون غيرها من لغات العرب؛ لا سيّما أنّ الآية مدنيّة وقد أسلم من العرب من غير قريش الكثير، فأُشكِل الأمر وأُبهِم على بعض هؤلاء، ومنهم: عدي بن حاتم الطّائي الذي قال له النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار "[2]. فأنزل الله– عزّ وجلّ –: ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ [البقرة: 187] بياناً وتفسيراً لما قبلها.[3]

وقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي (ت 504هـ)[4] في أحكام القرآن بقوله: " ويجوز أنْ يكون التَّجوز بالخيط الأبيض عن الفجر سائغاً في لغة قريش دون غيرها من اللغات، فأُشكل على قوم آخرين، حتى تبيَّن لهم بقوله من الفجر، ولا يجب أن يكون البيان بلغة يشترك في معرفتها جميع الناس قبل أن يتبيَّن لهم بلغة من كان بياناً في لغتهم "[5].

وقال مُحَمَّد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) في التحرير والتنوير: " وأيَّاً ما كان فليس في هذا شيء من تأخير البيان؛ لأنّ معنى الخيط في الآية ظاهر للعرب، فالتّعبير به من قبيل الظّاهر لا من قبيل المُجْمَل، وعدم فهم بعضهم المراد منه لا يقدح في ظهور الظاهر، فالذين اشْتُبِهَ عليهم معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود، فَهِمُوا أشهر معاني الخيط وظنّوا أنّ قوله: من الفجر مُتَعلِّق بفعل يتبيَّن على أن تكون (من) تعليليّة؛ أي: يكون تَبَيُّنُه بسبب ضوء الفجر، فصنعوا ما صنعوا "[6].

---

[1] انظر: تخريج الحديث ص270، هامش1.

[2] سبق تخريج الحديث انظر: ص270، هامش5.

[3] انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور للجرجاني 352/1، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزُّرقاني 12/2.

[4] هو أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الفقيه الشافعي؛ كان من أهل طبرستان، وخرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني مدة إلى أن برع، وكان حسن الوجه جهوري الصوت فصيح العبارة حلو الكلام، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق وتولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي. وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في " سياق تاريخ نيسابور " فقال: كان من رؤوس معيدي إمام الحرمين في الدرس. كانت ولادة الكيا في ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة. وتوفي يوم الخميس وقت العصر مستهل المحرم سنة أربع وخمسمئة ببغداد، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي – رحمه الله تعالى –، واتهم بمذهب الباطنية فرُجم، وأراد السلطان قتله فحماه المستظهر، وشهد له.وفي اللغة العجمية الكيا هو الكبير القدر المقدم بين الناس، وهو بكسر الكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها ألف. من كتبه " أحكام القرآن ". انظر: وفيات الأعيان 286/3–290، والأعلام للزركلي 329/4.

[5] أبو الحسن الطّبري، علي بن مُحَمَّد بن علي، الملقّب بعماد الدين (ت 504هـ)، أحكام القرآن، تحقيق موسى مُحَمَّد علي وعزة عبد عطيّة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1405هـ، ص73.

[6] التحرير والتنوير لابن عاشور 185/2.

وأشار إلى هذه اللفتة البلاغيَّة – أيضاً – السَّكَّاكي (ت 626هـ) في مفتاح العلوم بقوله: " فالخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله – عزّ وجلّ –: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ يُعدَّان من باب التّشبيه حيث بُيِّنا بقوله : ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ولولا ذلك لكانا من باب الاستعارة"[1].

والنسفي (ت 710هـ) في مدارك التنزيل بقوله: " وقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أخرجه من باب الاستعارة وصيّره تشبيهاً بليغاً، كما أنَّ قولك: رأيتُ أَسداً مجاز، فإذا أَزَدْتَ من فلان رجع تشبيهاً "[2].

وقال الشّريف الرّضي (ت 406هـ)[3] في تلخيص البيان في مجازات القرآن: " وقوله – سبحانه –:﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187]، وهذه استعارة عجيبة، والمراد بها على أحد التأويلات: حتى يتبيَّن بياض الصّبح من سواد الليل، والخيطان ها هنا مجاز، وإنّما شبّها بذلك؛ لأنَّ خيط الصّبح يكون في أوّل طلوعه مُسْتدِقّاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضياً مُوَلِّياً، فهما جميعاً ضعيفان، إلَّا أَنَّ هذا يزداد انتشاراً، وهذا يزداد استسراراً[4]"[5].

بلْ إنَّ السَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) جعله من أحسن التّشبيهات بقوله: " وهذا من أحسن التّشبيهات حيث شبَّه بياض النهار بخيط أبيض، وسواد الليل بخيط أسود "[6].

---

[1] مفتاح العلوم للسكَّاكي 355/1.

[2] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي162/1، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 202/1.

[3] هو أبو الحسن مُحَمَّدبن طاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن مُحَمَّد ابن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم – المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر؛ ذكره الثعالبي في كتاب اليتيمة فقال في ترجمته: ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبدع أنشأ الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى مع محتدة الشريف ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم الملفقين. خلع عليه بالسواد، وجدد له التقليد سنة 403 هـ له (ديوان شعر)، وكتب منها (الحَسَن من شعر الحسين)، وهو مختارات من شعر ابن الحجاج، و (المجازات النبويّة) و (مجاز القرآن) باسم (تلخيص البيان عن مجاز القرآن) و (مختار شعر الصابئ) و (مجموعة ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابئ من الرسائل) طبعت باسم (رسائل الصابي والشريف الرضي) و (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) و (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) و (رسائل) نشر بعضها. وشعره من الطبقة الأولى رصفا وبيانا وإبداعاً. انظر: وفيات الأعيان 414/4–420، والأعلام للزركلي 99/6.

[4] وَالِاسْمُ السَّرَرُ، والسِّرارُ مَصْدَرُ سارَرْتُ الرجلَ سِراراً. واستَسَرَّ الهلالُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ: خَفِيَ؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: لَا يَلْفِظُ بِهِ إِلَّا مَزِيدًا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُمُ: اسْتَحْجَرَ الطِّينَ. والسَّرَرُ والسِّرَرُ والسَّرارُ والسِّرارُ، كُلُّهُ: اللَّيْلَةُ الَّتِي يَستَسِرُّ فِيهَا القمرُ. انظر: لسان العرب 357/4، فصل السِّين المهملة، مادة سَرَرَ.

[5] تلخيص البيان في مجازات القرآن للشّريف الرضي، ص37–38.

[6] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 297/2، وانظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل 313/3.

وبناءً على ذلك فإنَّ تأويل قوله – تعالى –: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة: 187]، إنَّما هو بياض النهار من سواد الليل.

وبهذا قال عامَّةُ أهل اللغة ومن أشهرهم:

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) في العين بقوله: " الخيط الأبيض من الخيط الأسود يعني الصّبح "[1].

وأبو عبيدة (ت 209هـ) في مجاز القرآن بقوله: " الخيط الأبيض هو: الصُّبح المصدّق، والخيط الأسود هو: الليل، والخيط هو: اللَّون "[2].

والفراء (ت 207 هـ) في معاني القرآن[3]، وابن قتيبة (ت 276 هـ) في غريب القرآن[4].

والزجاج (ت 311هـ) في معاني القرآن وإعرابه بقوله: " وقوله – عزَّ وجلَّ –: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة: 187]، هما فجران:أحدهما يبدو أسود معترضاً وهو الخيط الأسود، والأبيض يطلع ساطعاً يملأ الأفق، وحقيقته: حتى يتبيّن لكم الليل من النهار "[5]، والسجستاني (ت 330هـ)[6] في غريب القرآن[7]، والرّاغب الأصفهاني (ت 502هـ) في المفردات في غريب القرآن[8]، والفيروز أبادي (ت 817هـ) في بصائر ذوي التمييز[9]، والسّيوطي (ت 911هـ) في الإتقان[10].

---

[1] كتاب العين 293/4، باب الخاء والطاء.

[2] مجاز القرآن لأبي عبيدة 1 / 68.

[3] معاني القرآن للفراء ص115.

[4] غريب القرآن ص74.

[5] معاني القرآن وإعرابه للزجّاج 257/1، وانظر: المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن (ت 421هـ)، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1417هـ، ص510، وتفسير القرآن للسمعاني 188/1–189، والبحر المحيط لأبي حيّان 216/2.

[6] هو الإمام مُحَمَّد بن عُزيز السجستاني، أبو بكر العُزيزي: مفسِّر، كان رجلاً فاضلاً خيِّراً اشتهر بكتابه (غريب القرآن – ط) على حروف المعجم، صنفه في 15 سنة وحرره، وراجع فيه أبا بكر بن الأنباري، وغيره. رواه عنه: أبو عبد الله بن بطة، وعثمان بن أحمد بن سمعان، وعبد الله بن الحسين السامري المقرئ، وكان مقيما ببغداد، لم يذكر له ابن النجار وفاة. وقيل: اسم أبيه (عزير) بالراء. وهو الصحيح ، قال أبو زكريا التبريزي: رأيت بخط ابن عزير، وعليه علامة الراء غير المعجمة . وبقي ابن عزير إلى حدود الثلاثين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء 216/15–217، والأعلام للزركلي 268/6.

[7] انظر: السجستاني، أبو بكر مُحَمَّد بن عُزيز (ت 330هـ)، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، تحقيق مُحَمَّد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة – سوريا، ط1 1416هـ، ص205.

[8] انظر: المفردات في غريب القرآن ص302.

[9] انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي 575/2.

[10] انظر: الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي 92/2.

وقال بهذا التأويل – أيضاً – عامّة أهل التفسير، قاله الواحدي (ت 468هـ) في تفسيره[1]، وقال ابن عطيّة (ت 542هـ) في تفسيره: " والمراد فيما قال جميع العلماء: بياض النهار وسواد الليل "[2].

وأشهر من قال بهذا القول من علماء التفسير:

مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: 187] حتّى يتبيّن لكم وجه الصبح؛ يعني بياض النهار من سواد الليل من الفجر "[3]، والطبري (ت 311هـ) في تفسيره[4]، وابن أبي حاتم (ت 327هـ) في تفسيره[5]، والسمرقندي (ت 373هـ) في بحر العلوم[6]، وابن أبي زمنين (ت 399هـ) في تفسيره[7]، والثّعلبي (ت 427هـ) في الكشف والبيان[8]، والماوردي (ت 450هـ) في النكت والعيون[9]، والسّمعاني (ت 489هـ) في تفسيره[10]، والراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في تفسيره[11]، والكرماني (ت 505هـ) في غرائب التفسير وعجائب التأويل[12]، والبغوي (ت 516هـ) في تفسيره بقوله: " يعني: بياض النهار من سواد الليل، سُمِّيا خيطين؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما يبدو في الابتداء مُمْتَدّاً كالخيط "[13]، والزمخشري(ت538هـ) في الكشاف[14]، وابن عطيّة (ت 542هـ) في تفسيره[15]، والرازي (ت 606هـ) في مفاتيح الغيب[16]، والقرطبي (ت 671هـ) في الجامع لأحكام القرآن[17]، والبيضاوي (ت 685هـ)

---

1 انظر: التفسير البسيط للواحدي 605/3.

2 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 258/1، وانظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 393/1.

3 تفسير مقاتل بن سليمان 164/1.

4 انظر: جامع البيان 538/3.

5 انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم 318/1.

6 انظر: بحر العلوم للسمرقندي 186/1.

7 تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين 202/1-203.

8 انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 80/2.

9 انظر: النكت والعيون 244/1-246.

10 انظر: تفسير القرآن للسمعاني 188/1-189.

11 انظر: تفسير الراغب الأصفهاني 399/1.

12 انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني 501/1.

13 معالم التنزيل في تفسير القرآن 229/1.

14 انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل 231/1.

15 انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية 258/1.

16 انظر: مفاتيح الغيب 273/5.

17 الجامع لأحكام القرآن 318/2-320.

في أنوار التنزيل[1]، والنسفي (ت 710هـ) في تفسيره بقوله: " ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ ﴾ هو أوَّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، ﴿ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ وهو ما يمتدّ من سواد الليل شُبِّهَا بخيطين أبيض وأسود؛ لامتدادهما ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ بيان أن الخيط الأبيض من الفجر لا من غيره. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأنّ بيان أحدهما بيان للآخر، أو مِنْ للتبعيض؛ لأنّه بعض الفجر وأوّله "[2]، والخازن (ت 741هـ) في لباب التأويل[3]، وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) في البحر المحيط بقوله: " ... ألا ترى أنَّ الصَّحابة عملت به، أعني بإجراء اللَّفظ على ظاهره إلى أنْ نزلت: من الفجر، فنسخ حمل الخيط الأبيض، والخيط الأسود على ظاهرهما، وصارا بذلك مَجَازَيْن[4]، شبّه بالخيط الأبيض ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وبالأسود ما يمتد معه من غبش الليل، شُبِّها بخيطين أبيض وأسود "[5]، والسَّمِين الحَلَبِيّ (ت 756هـ) في الدّر المصون[6]، وابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره[7]، وابن عادل (ت 775هـ) في اللباب[8]، والنيسابوري (ت 850هـ) في غرائب القرآن[9]، وأبو زيد الثعالبي (ت 875هـ) في الجواهر الحسان[10]، والسيوطي (ت 911هـ) في الدّر المنثور[11]، وأبو السعود (ت 982هـ) في إرشاد العقل السليم[12]، والشوكاني (ت 1250هـ) في تفسيره[13]، ومُحَمَّد رشيد رضا (ت 1354هـ) في تفسير المنار[14]، وابن العثيمين (ت 1421هـ) في تفسيره[15].

---

[1] انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 126/1.
[2] مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنَّسفي162/1.
[3] انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 117/1.
[4] وهذا الكلام فيه نظر، انظر: تعليق الباحث على الزمخشري ص269-270.
[5] البحر المحيط 216/2.
[6] انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 296/2-297.
[7] انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 512/1-513.
[8] انظر: اللباب في علوم الكتاب 313/3-314.
[9] انظر: غَرَائِبُ القُرْآنِ وَرَغَائِبُ الفُرْقَانِ للنَيْسَابُورِي 514/1.
[10] انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن 393/1-394.
[11] انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور 481/1-482.
[12] انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود 202/1.
[13] انظر: فتح القدير للشَّوكاني، 214/1-216.
[14] انظر: تفسير المنار 145/2-146.
[15] انظر: تفسير الفاتحة والبقرة للعثيمين 348/2.

ويرى الباحث ممّا سبق عرضه وبيانه أنَّ الكلمة تكاد تكون مجتمعة على أنَّ معنى الخيط الأبيض، والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187] " خرج عن المعنى المعهود والظاهر إلى معناه المجازي الذي بيَّنه النَّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بقوله:" إنّما ذلك سواد الليل وبياض النهار "[1]، وأنّ قوله – تعالى: " من الفجر " بيانٌ وتفسيرٌ لما قبلها، من باب التّشبيه البليغ، إذ إنّه شبَّه الفجر بالخيط الأبيض، والليل بالخيط الأسود بطريق المقابلة، فجاء بالمشبّه صريحاً في الأوّل وضمنياً في الثّاني، فيكون معنى قوله – تعالى – في الآية كلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم بياض النهار من سواد الليل.

وهذا ما يوافق سماحة الشَّريعة، ويسرها في رفع المشقة، والحرج عن المكلَّفين؛ إذ التَّكليف مرهون بسعة المكلَّف واستطاعته، قال – تعالى –:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وقال – تعالى–:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: 7]، وقال النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " [2]. ولا يخفى على عاقل ما في إثبات وقت الصيام بإحضار خيطين أبيض وأسود في كل ليلة وتتبّعها من مشقَّة وحرج والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر قال – سبحانه وتعالى –: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:185].

وهذا ما ذهب إليه ابن بدران – رحمه الله تعالى – معتمداً بذلك أوّلاً: على حديث النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وثانياً: على اللغة العربية من خلال القاعدة البلاغيَّة التي أخرجت المعنى عن حقيقته وظاهره إلى معناه المجازي؛ لتبيِّن مراد الله – جلَّ شأنه – من الآية، واستنباط الحكم الشَّرعي في بداية صيام النهار، ونهايته.

وبما أنَّ في المسألة إجماعاً مِنْ أهل التأويل، واللغة، فلا مناص للباحث من التسليم لمَا قرَّرُوه، والاتباع لمَا سلكوه، والله الموفِّق، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

---

[1] سبق تخريجه انظر: ص270، هامش 5.

[2] مسند أحمد، باب: مسند أبي هريرة – رضي الله عنه – 325/12، حديث رقم 7367، وصحيح البخاري، باب: الاقتداء بسنن رسول الله– صلى الله عليه وسلم – 94/9، حديث رقم 7288، وصحيح مسلم، باب: فرض الحجِّ مرَّة في العمر 975/2، حديث رقم 1337، وانظر: إرواء الغليل للألباني 183/1، حديث رقم 155.

وخلاصة القول:

إنّ تأويل قوله – تعالى –: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: 187] اعْتَمَدَ على القاعدة البلاغيّة في خروج المعنى عن ظاهره الحقيقي إلى معناه المجازي، في أَنَّ الخيط الأبيض والخيط الأسود، إنَّما أُريد بهما بياض النَّهار وسواد الليل.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة مِن النتائج والتوصيات، أجملها في الآتي:

أولاً: النَّتَائِج:

قام الباحث بتقرّي القواعد النَّحْوية والبلاغية في تفسير جواهر الأفكار فوجده زاخراً بها، وقد اعتمدها ابن بدران في توجيه المعنى للآيات القرآنية، وقد قام الباحث بدراستها دراسة تطبيقية خَلُصَ من خلالها إلى مجموعة من النتائج ضَمَّنَهَا في النقاط الآتية:

1. إنَّ تفسير القرآن الكريم لا ينفك عن علوم العربية، إذ إنّ من رام الولوج في التفسير لا بدّ أن يمتلك علوم العربية، لاسيّما النَّحْو والبلاغة.
2. إنَّ ثمّة علاقة قوية بين علوم اللغة وأخصُّها النَّحْو والبلاغة وعلم التفسير؛ إذ هما الفَيْصَل في كثير من الأحايين في توجيه معنى الآية، ومعرفة مراد الله منها؛ للخروج من الخلاف بين العلماء.
3. عَمَدَ ابن بدران إلى تفسير كتاب الله – عزَّ وجلَّ – ولكنَّ المنيَّة وافته قبل إتمامه حيث انتهى إلى تفسير الآية 189 من سورة البقرة.
4. إنَّ منهج ابن بدران في التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن، ثمَّ التفسير بصحيح السُّنَّة المبيِّنة للقرآن، ثمَّ بأقوال الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – ثمَّ بأقوال التّابعين، وجمهور العلماء مع تحرِّي الدِّقَّة في صحَّة الخبر والأثر.
5. اعتمد ابن بدران في تفسيره على اللغة العربية في توجيه معنى الآيات القرآنية؛ إذْ بها يتمُّ الكشف، والإيضاح، والإفهام، والتّبيين؛ لمعرفة مراد الله – سبحانه وتعالى – في الآية القرآنية.
6. إنَّ القواعد النَّحْويَّة والبلاغيَّة كان لها كبير الأثر في اختيارات ابن بدران التفسيرية، فيجعلها حجّة للردِّ على من خالفه من العلماء، فهي الفَيْصَل في الخروج من الخلاف.
7. عَمَدَ ابن بدران إلى الأخذ بصحيح السُّنَّة وإنْ خالفت الأشهر في لغة العرب؛ لأنَّ تأويل الوَحْيَيْنِ مقدَّم عنده على ما سواهما.
8. استقلالية ابن بدران في رأيه، وعدم تقَيُّدِه بمذهب معيَّن ولزومه قول مفسّر من المفسرين، فقد يؤيِّده في رأي، ويخالفه في رأي آخر، غير آبه بكثرة مخالفيه، وإنْ كان الجمهور.

9. إنَّ ابن بدران كثيراً ما يستشهد بأقوال العرب، وأشعارهم؛ لبيان صحَّة رأيه، أو إقامة الحجَّة على غيره.
10. إنَّه – رحمه الله – كثيراً ما يستشهد بالقاعدة النَّحْوية أوالبلاغية؛ لإثبات صحة تأويله، وإظهار مراد الله من الآية القرآنيَّة، مستأنساً بأقوال أهل الصنعة، التفسير.
11. إنَّه كثيراً ما ينقل أقوال العلماء والمفسِّرين بتمامه، وكماله؛ لبيان رأيه من خلاله، مظهراً سبب تبنّيه هذا الرأي.

ثانياً: التَّوْصِيَات:

يُعدُّ تفسير ابن بدران من التَّفاسير النَّفيسة العزيزة غير المتداولة والمعروفة بين طلاب العلم. بالرّغم من دقة تأويله، وقوة حجَّته في الرَّدِّ على من يخالفه في الرأي، وعرضه لكثير من أقوال العلماء، وتوظيفه لعلوم الحياة المستجدّة في تأويله للآيات القرآنية من غيرِ أَنْ يخرجَ عن الجادَّة بما يخالف قواعد التفسير والتأويل.

وبناءً على ذلك فإِنَّ الباحث يوصي بالأُمور الآتية:

1. إنَّ تفسيره غير مخدوم، وبحاجة إلى تحقيق، وتخريج، وتعليق، ومزيد دراسة، وبحث.
2. إنَّ تفسيره قائم على منهج السّلف في التفسير بالمأثور، والاعتماد على اللغة، وهو بحاجة إلى إتمام على منهج مؤلفه؛ إذ وافته المنيَّة بعد إتمامه لتفسير الآية التاسعة والثمانين بعد المئة من سورة البقرة.

قائمة المراجع والمصادر

- **القرآن الكريم.**

- أبابطين، عبد الله بن عبد الرَّحْمَن (ت 1282هـ)، **رسائل وفتاوى عبد الله بن عبد الرَّحْمَن أبابطين** (مطبوع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجديّة الجزء الثاني)، دار العاصمة، الرِّياض– المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1، بمصر 1349هـ، النشرة الثالثة 1412هـ.

- الأبّي، الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن خلفة الوشتاني (ت 827 أو 828هـ)، **إكمال إكمال المُعلِم،** دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، (د. ت).

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدِّين نصر الدِّين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم السيباني الجزري (ت 637هـ)، **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور**، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375هـ.

- الآجُرِّيّ، أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين (ت 360هـ)، **الشريعة**، تحقيق د. عبد الله بن عمر الدميجي، دار الوطن – الرِّياض – السُّعُودِيَّة، ط2 1420هـ.

- الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرّحال بن شداد (ت نحو 85هـ)، **ديوان ليلى الأخيلية**، عني بجمعه وتحقيقه خليل إبراهيم العطية، وجليل العطية، وزارة الثقافة والإرشاد – بغداد، (د. ت).

- الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير (ت 150هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط1 1423هـ.

- ابن الأزرق، أبو راشد نافع بن الأزرق الحنظلي التميمي (ت 65هـ)، **مسائل نافع بن الأزرق عن عبد الله ابن عباس،** (من طريقين، رواية أبي بكر الخُتَّلي (ت 365هـ)، ورواية أبي طاهر (ت 442هـ))، تحقيق الدكتور مُحَمَّد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط1 1413هـ.

- الأزهري، أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت 370هـ)، **تهذيب اللغة**، تحقيق مُحَمَّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 2001م.

- ابن أَبي أُسامة، أَبو مُحَمَّد الحارث بن مُحَمَّد بن داهر التميمي (ت 282هـ)، **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، المنتقي: أبو الحسن نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق د.حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السُّنَّة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط1 1413هـ.

- الإشبيلي عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله، ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688هـ)، **تفسير الكتاب العزيز وإعرابه**، تحقيق علي بن سلطان الحكمي، الجامعة الإسلامية بالدينة المنورة، الطبعة: الأعداد 85 – 100 السنوات 22 – 25 المحرم 1410 هـ – ذو الحجة 1413 هـ.
- الأشموني، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن عيسى(ت 900هـ)، **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1419هـ.
- الأصبهاني، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن جعفر (ت 369هـ)، **العظمة**، تحقيق رضاء الله بن مُحَمَّد إدريس المباركافوري، دار العاصمة – الرِّياض، ط1 1408هـ.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت 430هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، السعادة– مصر، 1394هـ، دار الكتب العلميَّة، ط1409.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن مُحَمَّد (ت 356هـ)، **الأغاني**، تحقيق سمير جابر، دار الفكر – بيروت، ط2، (د. ت).
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت502هـ)، **تفسير الرّاغب الأصفهاني**، تحقيق د. مُحَمَّد عبد العزيز بسيوني، كليّة الآداب – جامعة طنطا، ط1 1420هـ.
- الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن المرزوقي (ت 421هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1424هـ.
- الأصمعيّ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)، **الأصمعيات اختيار الأصمعي**، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر – عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار المعارف، مصر، ط7 1993م.
- الأعجم، أبو أمامة زياد بن جابر بن عمرو بن عامر(ت نحو125هـ)، **شعر زياد الأعجم**، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف حسين بكّار، دار المسيرة، ط1 1403هـ.
- الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد (ت1417هـ)، **من تاريخ النَّحْو العربي**، مكتبة الفلاح، (د. ت).
- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر**، صَنَعَهُ شادي بن مُحَمَّد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث، صنعاء– اليمن، ط1 1431هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي(ت 1420هـ)، **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه**، دار باوزير، جدة – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1424هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، مكتبة المعارف – الرِّياض، ط1 1415هـ، ط1 1422هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة**، دار المعارف، الرِّياض – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1412هـ.

- الألباني، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت1420هـ) **صحيح أبي داود– الأم**، مؤسّسة غراس للنّشر والتّوزيع – الكويت، ط1، 1423هـ.

- الألباني، أبو عبدالرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت 1420هـ)، **آداب الزفاف في السُّنَّة المطهرة**، دار السلام، الطبعة الشرعية الوحيدة 1423هـ.

- الألباني، أبو عبدالرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت1420هـ)، **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي، ط3 1408هـ.

- الألباني، أبو عبدالرَّحْمَن مُحَمَّد ناصر الدِّين بن الحاج نوح نجاتي (ت1420هـ)، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط2 1405هـ.

- الألوسي، شهاب الدِّين محمود بن عبدالله الحسيني (ت1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط1 1415هـ.

- البارودي، فخري بن محمود (ت1386هـ)، **مذكرات البارودي**، مطابع دار الحياة، لبنان، بيروت، 1951م.

- الباقولي، أبو الحسن نور الدِّين علي بن الحسين بن علي (ت نحو543 هـ)، **إعراب القرآن المنسوب للزجَّاج**، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، ودار الكتب الُّلبنانيَّة – بيروت – القاهرة / بيروت، ط4 1420هـ.

- البخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه**، تحقيق مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1 1422هـ.
- البخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 256هـ)، **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**، حقق أحاديثه، وعلَّق عليه مُحَمَّد ناصر الدِّين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط4 1418هـ.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، **الكواكب الدّرّيّة في تاريخ عبد الرَّحْمَن اليوسف**، صدر سوريا، مطبعة الفيحاء، دمشق، 1339هـ.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت 1346هـ)، **جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار**، تحقيق زهير الشّاويش، المكتب الإسلامي – لبنان – بيروت، ط1 1999م.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، **ديوان الإمام عبد القادر بن بدران المسمّى ب(تسلية اللّبيب عن ذكرى الحبيب)**، اعتنى به نور الدِّين طالب، دار النّوادر، ط1 1428هـ.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، تحقيق زهير شاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط2، 1985م.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد (ت1346هـ)، **نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة النَّاظِر وجُنَّة المُنَاظِر**، دار الحديث بيروت مكتبة الهدى – الإمارات، ط1، 1412هـ.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم (ت 1346هـ)، **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2 1401هـ.
- البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي (ت 1384هـ)، **من بلاغة القرآن**، نهضة مصر، القاهرة، ط2005م.
- أبو البركات الأنباري، كمال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبيد الله (ت 577 هـ)، **البيان في غريب إعراب القرآن**، تحقيق د. طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1400 هـ.

- أبو البركات الأنباري، كمال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبيد الله (ت 577هـ)، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحْويين: البصريين والكوفيين**، المكتبة العصريَّة، ط1 1424هـ.
- أبو البركات الأنباري، كمال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن عبيد الله (ت 577هـ)، **أسرار العَرَبِيَّة**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1 1420هـ.
- البزّار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت 292هـ)، **البحر الزَّخَّار**، تحقيق عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط1 1988 – 2009م.
- ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك (ت 449هـ)، **شرح صحيح البخاري لابن بطّال**، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السُّعُودِيَّة، الرِّياض، ط2 1423هـ.
- بطَّال، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن سليمان (ت 633هـ)، **النَّظم المُسْتَعْذَب في تفسير غريب ألفاظ المهذَّب**، تحقيق د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، المكتبة التجارية، مَكَّة المُكَرَّمَة1988م–1991م.
- ابن بطَّة، أبو عبد الله عبيد الله بن مُحَمَّد (ت 387هـ)، **الإبانة الكبرى لابن بطة**، تحقيق الوليد بن مُحَمَّد نبيه بن سيف النصر وآخرين، دار الراية – الرِّياض، ط1 1418هـ.
- البغوي، محيي السُّنَّة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد (ت 516هـ)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1420هـ.
- البغوي، محيي السُّنَّة أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود (ت 516هـ)، **شرح السُّنَّة**، تحقيق شعيب الأرنؤوط – مُحَمَّد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط2 1403هـ.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن (ت 885هـ)، **نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د. ت).
- أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن البشار (ت 328هـ)، **الزاهر في معاني كلمات الناس**، تحقيق د. حاتم صال الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1412هـ.
- أبو بكر الأنباري، مُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد بن بشار (ت 328هـ)، **إيضاح الوقف والابتداء**، تحقيق محيي الدِّين عبد الرَّحْمَن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العَرَبِيَّة بدمشق، 1390هـ.

- البكري: أبو منذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة (ت نحو50 ق.هـ)، **ديوان الحارث بن عباد،** جمعه وحققه أنس عبد الهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث " المجمع الثقافي "، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1 1429هـ.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ)، **جمل من أنساب الأشراف،** تحقيق إحسان عباس، بيروت، جمعية المستشرقين الألمانية، 1400هـ.

- ابن بَلْبَان، محمد بن بدر الدين الدمشقي الحنبلي (ت1006هـ)، **أَخصَر المختَصَرات في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل،** ومعه حاشية نفيسة للإمام عبد القادر بن أحمد بن بدران (ت1346هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه محمد بن باصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1 1416هـ.

- بلعيد، صالح، **التراكيب النَّحْوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجُرْجَانِيّ،** ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، 1994م.

- بنت الشاطئ، عائشة مُحَمَّد علي عبد الرَّحْمَن (ت 1419هـ)، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق،** دار المعارف، مصر – القاهرة، ط3، (د. ت).

- البيضاوي، ناصر الدِّين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي (ت685هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل،** تحقيق مُحَمَّد عبدالرَّحْمَن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1418هـ.

- البيطار، عبدالرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (ت 1335هـ)، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر،** حقَّقه، ونسَّقه، وعلَّق عليه حفيده مُحَمَّد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط2 1413هـ.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، **الأسماء والصفات للبيهقي،** حقَّقه وخرَّج أَحاديثه عبد الله بن مُحَمَّد الحاشدي، قدَّم له مقبل الوادعي، مكتبة السوادي، جدة – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1413هـ.

- البيهقي، أبو بكر مُحَمَّد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458هـ)، **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف أصحاب الحديث،** تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط1 1401هـ.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ)، **شعب الإيمان**، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد – الرِّياض، ط1 1423هـ.

- التبريزي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الخطيب العمري (ت 741هـ)، **مشكاة المصابيح**، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط3 1985م.

- التِّرمذي، مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرة (ت 279هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395هـ.

- أبو تمَّام، حبيب بن أَوس الطائِي (ت231هـ)، **ديوان الحماسة**، برواية أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (ت540هـ)، شرحه وعلَّق عليه أَحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1418هـ.

- التويجري، حمود بن عبد الله بن حمود (ت 1413هـ)، **عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرَّحْمَن**، دار اللواء، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة – الرِّياض، ط2 1409هـ.

- التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت 651هـ)، **سرور النفس بمدارك الحواس الخمس**، هذَّبه ابن منظور مُحَمَّد بن جلال الدِّين المكرم (ت 711هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العَرَبِيَّة للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1 1980.

- ابن تيمية، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ)، **بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلامية**، تحقيق مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة الصحف – المدينة المنورة، ط1 1426هـ.

- ابن تيمية، تقي الدِّين ابو العباس أحمد بن عبدالحليم (ت728هـ)، **مقدمة في أصول التفسير**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1980م.

- ابن تيمية، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم (ت 728هـ)، **مجموع الفتاوى**، تحقيق عبدالرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، 1995م.

- ابن تيمية، تقيّ الدِّين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم(ت 728هـ) **اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت – لبنان، ط7، 1419هـ.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل (ت 429هـ)، **فقه اللغة وسرُّ العَرَبِيَّة**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1 1422هـ.
- الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف (ت 875هـ)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق الشيخ مُحَمَّد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1418هـ.
- الثعلبي، أبو اسحق احمد بن مُحَمَّد (ت427هـ)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1 1422هـ.
- الثوري، أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق (ت 161هـ)، **تفسير الثوري**، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1403هـ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ)، **البيان والتبيين**، دار ومكتبة الهلال – بيروت، 1423هـ.
- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب (ت255هـ)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت 255هـ)، **الرسائل الأدبية**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2 1423هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد (ت 471هـ)، **أسرار البلاغة**، قرأه وعلّق عليه محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط1 1412هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرَّحْمَن (ت 471هـ)، **دَرْجُ الدُّرَرِ فِي تَفْسِيرِ الآيِ وَالسُّوَرِ**، تحقيق القسم الأول: طلعت صلاح فرحان، والقسم الثاني: مُحَمَّد أديب شكور أمرير، دار الفكر – عمان – الأردن، ط1 1430هـ.
- الجُرْجَانِيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرَّحْمَن (ت471هـ)، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط3 1413هـ.
- الجُرْجَانِيّ، علي بن مُحَمَّد بن علي (ت 816هـ)، **التعريفات**، دار الكتب العلميَّة – لبنان، ط1 1403هـ.

- الجرجاوي، زين الدِّين خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد المعروف بالوقَّاد (ت905هـ)، **شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النَّحْو**، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان ط1 1421هـ.

- الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط5 1424هـ.

- ابن الجزري، شمس الدِّين ابو الخير مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن يوسف (ت 833هـ)، **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**، دار الكتب العلميَّة، ط1 1420هـ.

- ابن جُزَيّ، أبو القاسم مُحَمَّد بن أحمد الكلبي (ت741هـ)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط1 1416هـ.

- الجصّاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي (ت 370هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق مُحَمَّد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1405هـ.

- الجندي، أدهم، **أعلام الأدب والفن**، مطبعة مجلّة صوت سوريا، ط1، 1954م.

- الجندي، مُحَمَّد سليم (ت 1375هـ)، **تاريخ معرة النعمان**، حقّقه وعلّق عليه عمر رضا كحّالة، إصدارات وزارة الثقافة بسوريا، ط1 1962م.

- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت 392هـ)، **اللُّمَع في العَرَبِيَّة**، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية – الكويت، (د. ت).

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت392هـ)، **الخصائص**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، (د. ت).

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت392هـ)، **سِرُّ صناعة الإعراب**، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1421هـ.

- الجهني، علي بن مناور بن ردة (2007م)، **أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير " دراسة نظرية تطبيقية على سورتي آل عمران والنساء ".** رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مَكَّة المكرمة.

- الجَوجَري، شمس الدِّين مُحَمَّد بن عبد المنعم بن مُحَمَّد (ت 889هـ)، **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، تحقيق نواف بن جزاء الحارثي، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة (أصل الكتاب رسالة ماجستير للمحقق)، ط1 1423هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحْمَن بن علي (ت597هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1 1422هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحْمَن بن علي بن مُحَمَّد (ت 597هـ)، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق مُحَمَّد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – لبنان، بيروت، ط1 1404هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدِّين أبو الفرج عبدالرَّحْمَن بن علي (ت597هـ)، **صيد الخاطر**، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم – دمشق، ط1 1425هـ.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العَرَبِيَّة**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4 1407هـ.
- ابن أبي حاتم، أبو مُحَمَّد عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن إدريس (ت 327هـ)، **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، تحقيق أسعد مُحَمَّد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط3 1419هـ..
- ابن الحاج، أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 737هـ)، **المدخل**، دار التراث، (د. ت).
- ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدِّين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، **الكافية في علم النَّحْو**، تحقيق د. صالح عبد العظيم الشاعر، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1 2010 م.
- ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدِّين عثمان بن عمر بن أبي بكر (ت 646هـ)، **أمالي ابن الحاجب**، تحقيق د. فخر صالح سليمان قرارة، دار عمار – الأردن، دار الجيل – بيروت، ط1 1409هـ.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت1067هـ)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى – بغداد، 1941م.
- الحافظ، مُحَمَّد مطيع، ونزار أباظة، **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، تقديم الدكتور شكري فيصل، دمشق، دار الفكر، ط1 1986.

- حَبَنَّكَة، عبد الرحمن بن حسن الميداني الدمشقي (ت 1425هـ)، **البلاغة العربية**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1 1416هـ.

- أبو حبيب، سعدي، **القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً**، دار الفكر، دمشق – سورية، ط2 1408هـ.

- ابن حجة الحموي، تقي الدِّين أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت 837هـ)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، دار البحار – بيروت، الطبعة الأخيرة 2004م.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت 852هـ)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقَّم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدِّين الخطيب، وعليه تعليقات العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة– بيروت، ط 1379هـ.

- وابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ) **الإصابة في تمييز الصّحابة**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت852 هـ)، **الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، مراقبة مُحَمَّد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر أباد /الهند، ط2 1392هـ.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد (ت 852هـ)، **لسان الميزان**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1 2002م.

- ابن أبي الحديد، عزّ الدِّين أبو حامد عبد الحميد هبة الله بن مُحَمَّد (ت 656هـ)، **الفلك الدائر على المثل السائر**، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة، (د. ت).

- الحربي، مُحَمَّد رمضان، **ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية**، مكتبة الآداب – القاهرة، ط1، 2010م.

- الحريملي، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل (ت 1376هـ)، **توفيق الرَّحْمَن في دروس القرآن**، حقّقه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبد العزيز بن عبد الله آل مُحَمَّد، دار العاصمة، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة – الرِّياض، دار العليان، القسيم – بريدة، ط1 1416هـ.

- ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ)، **المحلى بالآثار**، دار الفكر – بيروت، (د. ت).

- أبو الحسن الطّبري، علي بن مُحَمَّد بن علي، الملقّب بعماد الدِّين (ت 504هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق موسى مُحَمَّد وعزة عبد عطيّة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط2 1405هـ.

- الحصني، مُحَمَّد أديب آل تقيّ الدِّين، **منتخبات التّواريخ لدمشق** – دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م.

- الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس (ت 45هـ)، **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت (ت 246هـ)**، دراسة وتبويب د. مفيد مُحَمَّد قميمة، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1413هـ.

- الحملاوي، أحمد بن مُحَمَّد (ت 1351هـ)، **شذا العرف في فن الصرف**، تحقيق نصر الله عبد الرَّحْمَن نصر الله، مكتبة الرشد، الرِّياض، (د. ت).

- حمودة، عبد العزيز، **المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية**، سلسلة عالم المعرفة رقم 272، مطابع الوطن – الكويت، 1422هـ.

- الحمويّ، شهاب الدِّين أبو عبدالله ياقوت ابن عبد الله الرّوميّ (ت626هـ)، **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)** تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1414هـ.

- الحميري، نشوان بن سعيد (ت 573هـ)، **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الأرياني – د. يوسف مُحَمَّد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، ط1 1420هـ.

- ابن حنبل، أبو عبد الرَّحْمَن عبد الله أحمد (ت 290هـ)، **السُّنَّة**، تحقيق د. مُحَمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم – الدمام، ط1 1406هـ.

- ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، دار الحديث – القاهرة، ط1 1416هـ.

- ابن حنبل، ابو عبدالله احمد بن مُحَمَّد الشيباني (ت 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد وآخرين، إشراف د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1 1421هـ .

- أبو حيان الأندلسي، مُحَمَّد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر، بيروت ط 1420هـ.
- الخازن، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم (ت741هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1415 هـ.
- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، **القرآن ونقض مطاعن الرهبان**، دار القلم، دمشق، ط1 1428هـ.
- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 370هـ)، **ليس في كلام العرب**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مَكَّة المُكَرَّمَة، ط2 1399هـ.
- الخثران، عبدالله بن حمد، **مراحل تطور الدرس النَّحْوي**، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ط1413.
- ابن خزيمة، أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق (ت 311هـ)، **كتاب التوحيد**، حقّقه وخرّج أحاديثه د. سمير بن أمين الزهيري، دار المغني، السُّعُودِيَّة – الرِّياض، (د. ت).
- الخطّابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت388هـ)، **معالم السُّنن**، المطبعة العلميَّة – حلب، ط1 1351هـ، ط2 1401هـ.
- الخطّابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 388هـ)، **غريب الحديث**، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرَّج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النَّبِيّ، دار الفكر، ط 1402هـ.
- الخطيب، عبد اللطيف مُحَمَّد، **معجم القراءات**، دار سعد الدِّين، مصر – القاهرة، ط2 1430هـ.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ)، **تاريخ بغداد**، تحقيق الدُّكتور بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط1 2002م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ)، **الفقيه و المتفقه**، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط2 1421هـ.
- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدِّين مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر (ت 739هـ)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق مُحَمَّد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، (د. ت).

- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدِّين مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر (ت 739هـ)، **الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع**، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدِّين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلميَّة – لبنان، ط1 1424هـ.
- الخفاجي، شهاب الدِّين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر (ت1069هـ)، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسمَاة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي**، دار صادر – بيروت، (د. ت).
- ابن خلدون، عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد، (ت808هـ)، **مقدّمة ابن خلدون**، حقّق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبدالله بن الدرويش، دار يعرُب – دمشق، ط1 1425هـ.
- ابن خلِّكان، أبو العباس شمس الدِّين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 681هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت ط1 1994.
- الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي (ت نحو 50هـ)، **ديوان الخنساء**، اعتنى به، وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2 1425هـ.
- الخولي، كامل، **صور من تطور البيان العربي**، دار الأنوار للطباعة والنشر، 1962م.
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد (ت 385هـ)، **رؤية الله**، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد العلي وأحمد فخري الرفاعي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، سنة النشر 1411هـ.
- الدّارمي، أبو مُحَمَّد عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن الفضل (ت 255هـ)، **سنن الدارمي**، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1412هـ.
- داماد أفندي، عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد بن سليمان (ت 1078هـ)، **مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر**، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- الدّاوودي، مُحَمَّد بن علي بن أحمد (ت945هـ)، **طبقات المفسِّرين للداوودي**، دار الكتب العلميَّة– بيروت،(د. ت).
- الدجني، فتحي عبد الفتاح، **أبو الأسود الدّؤلي ونشأة النَّحْو**، وكالة المطبوعات – الكويت، ط1، 1974م.
- درّاز، مُحَمَّد عبدالله (ت 1377هـ)، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، دار الثقافة – الدوحة، ط 1985م.

- درويش، محيي الدِّين بن أحمد مصطفى (ت1403هـ)، **إعراب القرآن وبيانه**، دار الإرشاد للشؤون الجامعية – حمص – سوريا، ط4 1415 هـ.

- الدّلجي، شهاب الدِّين أحمد بن علي بن عبد الله (ت 838هـ)، **الفلاكة والمفلوكون**، مطبعة الشعب، مصر، 1322هـ.

- الذبياني، الشماخ بن ضرار (ت 22هـ)، **ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني**، حقَّقه، وشرحه صلاح الدِّين الهادي، دار المعارف بمصر – القاهرة، (د. ت).

- الذهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ)، **مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي**، حققه واختصره مُحَمَّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، ط2 1412هـ.

- الذهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ)، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي مُحَمَّد البجّاوي، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط1 1382هـ.

- الذهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1 2003م.

- الذهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3 1405هـ.

- الذّهبي، شمس الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ)، **معرفة القرّاء الكبار على الطّبقات والأعصار**، دار الكتب العلميَّة، ط1، 1417هـ.

- الذهبي، مُحَمَّد السيد حسين (ت 1398هـ)، **التفسير والمفسرون**، مكتبة وهبة، القاهرة، (د. ت).

- الرَّازي ، فخر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر (ت 606هـ)، **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 1420هـ.

- الرَّازي، زين الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر (ت 666هـ)، **مختار الصحاح**، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصريَّة– الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط5 1420هـ.

- الرَّازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت322 هـ)، **كتاب الزِّينة في الكلمات الإسلاميَّة العربيَّة**، عارضه بأصوله، وعلَّق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدِّراسات والبحوث اليمنيّ، ط1 1415هـ.

- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت 666هـ)، **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل**، تحقيق د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، ط1 1413هـ.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد (ت 502هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية – دمشق بيروت، ط1 1412هـ.
- الراغب، عبد السلام أحمد، **وظيفة الصورة الفنية في القرآن**، فصّلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط1 1422هـ.
- الرّافعي، مصطفى صادق بن عبد الرّزّاق(ت1356هـ)، **تحت راية القرآن**، المكتبة العصريّة – صيدا– بيروت، ط1 1423هـ.
- الرافعي، مصطفى صادق(ت 1356هـ)، **تاريخ آداب العرب**، دار الكتاب العربي، (د. ت).
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (ت 463هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5 1401هـ.
- رضا، مُحَمَّد رشيد بن علي (ت1354هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- الرومي، فهد بن عبدالرَّحْمَن بن سليمان، **دراسات في علوم القرآن الكريم**، ط2 1424هـ.
- الرومي، فهد بن عبدالرَّحْمَن بن سليمان، **بحوث في أصول التفسير ومناهجه**، مكتبة التوبة، (د. ت).
- زبن، عماد أحمد سليمان (2006 م)، **أبو السعود ومنهجه في النَّحْو من خلال تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم نموذجًا "**. رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية.
- الزبيري، أبو عبد مصعب بن عبد الله (ت 236هـ)، **نسب قريش**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د. ت).
- الزّجّاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت 311هـ)، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط1 1408هـ.

- الزّجّاجي، أبو القاسم عبد الرَّحْمَن بن إسحق النهاوندي (ت 337هـ)، **حروف المعاني والصفات**، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1984م.

- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر– دمشق، ط2 1418هـ.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس (ت 1396هـ)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

- الزُّرْقاني، مُحَمَّد عبد العظيم (ت 1367هـ)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 3، (د. ت).

- الزركشي، أبو عبدالله بدر الدِّين مُحَمَّد بن عبدالله بن بهادر (ت 794هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العَرَبِيَّة، ط1 1376هـ.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، **المفصَّل في صنعة الإعراب**، تحقيق د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط1 1993م.

- ابن أبي زمنين، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن عيسى (ت 399هـ)، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق أبي عبدالله حسين بن عكاشة ومُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة – مصر – القاهرة، ط1 1423هـ.

- أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي، (د. ت).

- أبو زهرة، مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت 1394هـ)، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، (د. ت).

- الزيات، أحمد حسن وآخرون، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استنبول – تركيا، ط2 1392.

- السامرّائي، فاضل صالح، **معاني النَّحْو**، دار الفكر، الأردن – عمان، ط5 1432هـ.

- السبت، خالد بن عثمان، **مختصر في قواعد التفسير**، دار ابن القيّم – دار ابن عفّان، ط1 1426هـ.

- السُّبكي، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقيّ الدِّين (ت 771هـ)، **معيد النِّعم ومبيد النِّقم**، تحقيق مُحَمَّد النجار، وأبي زيد شلبي، ومُحَمَّد أبو العيون، طبع بدار الكتاب العربي بمصر – القاهرة، ط1 1948م.
- السُّبكي، تاج الدِّين عبد الوهاب بن تقي الدِّين (ت 771هـ)، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلميَّة، ط1 1411هـ.
- السجستاني، أبو بكر مُحَمَّد بن عُزيز (ت 330هـ)، **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**، تحقيق مُحَمَّد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة – سوريا، ط1 1416هـ.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق (ت275هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، (د. ت).
- السّراج، مُحَمَّد علي، **اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النَّحْو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل**، مراجعة خير الدِّين شمسي باشا، دار الفكر – دمشق، ط1 1403هـ.
- السعدي، عبد الرَّحْمَن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ)، **تيسير الكريم الرَّحْمَن في تفسير كلام المنان**، تحقيق عبد الرَّحْمَن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1 1420هـ.
- أبو السعود، العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (ت982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د. ت).
- السَّكَّاكي، يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد (ت 626هـ)، **مفتاح العلوم**، ضبطه، وكتب هوامشه، وعلَّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط2 1407هـ.
- ابن سلّام، أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي، (ت 232هـ)، **طبقات فحول الشّعراء**، تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني – جدة، (د. ت).
- السّلمي، أبو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى الأزدي (ت412هـ)، **تفسير السُّلمي وهو حقائق التّفسير**، تحقيق سيّد عمران ، دار الكتب العلميَّة، لبنان – بيروت، 1421هـ.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن أحمد بن إبراهيم (ت 375هـ)، **تفسير السمرقندي المسمَّى (بحر العلوم)**، تحقيق، وتعليق علي مُحَمَّد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النُّوتي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1413هـ.

- السَّمعاني، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار(ت 489هـ)، **تفسير القرآن**، تحقيق ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرِّياض – السُّعُودِيَّة، ط1 1418هـ.
- السَّمِين الحَلَبِيّ، أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بن يوسف بن عبد الدَّائم (ت756هـ)، **الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق الدكتور أحمد مُحَمَّد الخرَّاط، دار القلم – دمشق، (د. ت).
- السُّنيكي، زين الدِّين أبو يحيى زكريَّا بن مُحَمَّد بن أحمد بن زكريَّا (ت 926هـ)، **فتح الرَّحْمَن بكشف ما يلتبس في القرآن**، تحقيق مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، ط1 1403هـ.
- سيبويْه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت 180هـ)، **الكتاب**، تحقيق عبدالسلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3 1408هـ.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت 458هـ)، **المُخصَّص**، تحقيق خليل إبراهيم جفّال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1 1417هـ.
- السِّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت 368هـ)، **أخبار النَّحْويِّين البصريِّين**، تحقيق طه الزِّيني، ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، النَّاشر مصطفى الحلبي، ط1 1373هـ.
- السّيوطي، جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، **المزهر في علوم اللّغة وأنواعها**، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط1 1418هـ..
- السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، **الإكليل في استنباط التنزيل**، تحقيق سيف الدِّين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلميَّة – بيروت، 1401هـ.
- السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، **عُقُودُ الْجُمَانِ في علم المعاني والبيان**، تحقيق وضبط عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم، القاهرة، ط1 1433هـ.
- السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن ابن أبي بكر (ت911هـ)، **سبب وضع علم العَرَبِيَّة**، تحقيق مروان العطية، دار الهجرة، بيروت – دمشق، ط1 1409هـ.
- السُّيوطي، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر(ت911هـ) **تاريخ الخلفاء**، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1 1425هـ.
- السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (ت 911هـ)، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر،(د.ت).

- السّيوطي، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر(ت911هـ)، **طبقات المفسِّرين العشرين**، تحقيق علي مُحَمَّد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، ط1 1396هـ.

- السُّيوطي، عبدالرَّحْمَن بن أبي بكر (ت911هـ)، **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السُّيوطي على تفسير البيضاوي)**، جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدِّين – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، 1424هـ.

- السُّيوطي، جلال الدِّين عبدالرَّحْمَن بن أبي بكر (ت911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1394هـ.

- الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ) **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، ط17، (د. ت).

- الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين (ت 1385هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق – بيروت – القاهرة، ط17 1412هـ.

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد اللخمي الغرناطي (ت 790هـ)، **الموافقات**، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفَّان، ط1 1417هـ.

- الشَّاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، **المقاصد الشَّافية في شرح الخلاصة الكافية**، تحقيق مجموعة من المحقِّقين، معهد البحوث العلميَّة إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى – مَكَّة المُكَّرَّمَة، ط1 1428هـ.

- الشّافعي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس(ت204هـ)، **الرّسالة**، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي – مصر، ط1 1358هـ.

- الشَّبلي، أبو عبد الله، بدر الدِّين ابن تقي الدِّين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 769هـ)، **آكام المرجان في أحكام الجان**، تحقيق إبراهيم مُحَمَّد الجمل، مكتبة القرآن، مصر – القاهرة، (د. ت).

- ابن الشَّجري، ضياء الدِّين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت 542هـ)، **أمالي ابن الشَّجري**، تحقيق د. محمود مُحَمَّد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1 1413هـ.

- الشَّدِّي، عادل بن علي بن أحمد، **مدخل إلى دراسة تفسير ابن بدران جواهر الأفكار ومعادن الأسرار**، دار الوطن للنّشر والتّوزيع – السُّعُودِيَّة – الرِّياض، ط1، (د. ت).

- الشربيني، شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ)، **السِّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ط 1285هـ.
- وشرف الدين، جعفر، **الموسوعة القرآنية**، تحقيق عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط1 1420هـ.
- الشريف الرضيّ، مُحَمَّد بن الحسين بن موسى (ت 406هـ)، **تلخيص البيان في مجازات القرآن**، تحقيق الدكتور علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان،(د. ت).
- الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت 1418هـ)، **تفسير الشعراوي – خواطر**، مطابع أخبار اليوم، 1997.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني (ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، 1415هـ.
- الشَّنقيطي، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر (ت 1393هـ)، **العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ**، تحقيق خالد بن عثمان السبت، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مَكَّة المُكَرَّمَة، ط2 1426هـ.
- شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام (ت1426هـ)، **المدارس النَّحْويَّة**، دار المعارف،(د. ت).
- الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله(ت1250هـ)، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط1 1414هـ.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 235هـ)، **المصنّف في الحديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرّشد، الرِّياض، ط1 1409هـ.
- الصابوني، مُحَمَّد علي، **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، مكتبة الغزالي – دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، ط3 1400هـ.
- الصَّاعدي، عبد الرَّزاق بن فراج، **أصول علم العَرَبِيَّة في المدينة**، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط28، العددان 105-106، 1417هـ - 1418هـ.
- صافي، محمود بن عبدالرحيم (ت1376هـ)، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، دار الرشيد، دمشق- مؤسسة الإيمان، بيروت، ط4 1418هـ.

- صالح، عبد علي حسن، **النَّحْو العربي – منهج في التعليم الذاتي**، دار الفكر، الأردن – عمان، ط1 2001م.

- ابن الصائغ، مُحَمَّد بن حسن بن سباع (ت 720هـ)، **اللّمحة في شرح الملحة**، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1424هـ.

- الصبّان، أبو العرفان مُحَمَّد بن علي (ت 1206هـ)، **حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفيّة ابن مالك**، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1 1417هـ.

- الصعيدي، عبد المتعال (ت 1391هـ)، **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، مكتبة الآداب، ط17 1426هـ.

- الصَّعيدي، عبد المتعال، **البلاغة العالية (علم المعاني)**، قدَّم له، وراجعه عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ومطبعتها، ط2 1991م.

- الصَّفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت764هـ)، **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق د. علي أبي زيد، وآخرون، قدَّم له مازن عبد القادر المبارك دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط1 1418هـ.

- ابن أبي الصَّلت، أميّة بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة (ت نحو 8هـ)، **ديوان أميّة بن أبي الصَّلت**، جمعه وحققه وشرحه الدكتور سجيع جميل الجبيلي، دار صادر بيروت – لبنان، ط1 1998.

- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني (ت 211هـ)، **تفسير عبد الرزاق**، دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1419هـ.

- الطالبي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الملقب بالمؤيد باللَّه (ت 745هـ)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، المكتبة العنصرية – بيروت، ط1 1423 هـ.

- طبانة، بدوي، **دراسات في نقد الأدب العربي**، المطبعة الفنية الحديثة، ط5، 1969م.

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360هـ)، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، (د. ت).

- الطبري، أو جعفر مُحَمَّد بن جرير بن يزيد (ت310هـ)، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1 1420هـ.

- الطبطبائي، عبد المحسن أحمد (2001م)، **تعدد التوجيه النَّحْوي عند الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن.** رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، القاهرة.

- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة (ت 321هـ)، **أحكام القرآن الكريم**، تحقيق الدكتور سعد الدِّين أونال، مركز البحوث الإسلامي، ط1 (م1 1416هـ، م2 1418هـ).

- طنطاوي، مُحَمَّد سيد (ت 1431هـ)، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، دار النهضة، مصر – الفجالة– القاهرة، ط1 1997م.

- الطّنطاوي، مُحَمَّد كُبَيْشة (ت 1379هـ)، **نشأة النَّحْو وتاريخ أشهر النّحاة**، تحقيق أبي مُحَمَّد عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، ط1 1426هـ.

- الطيار، مساعد بن سليمان، **فصول في أصول التّفسير**، تقديم د. مُحَمَّد بن صالح الفوزان دار ابن الجوزي، ط3 1420هـ.

- الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**، دار ابن الجوزي، ط1 1432هـ.

- الطيار، مساعد بن سليمان بن ناصر، **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**، دار ابن الجوزي، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط2 1427هـ.

- أبو الطيب، عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت 351هـ)، **مراتب النَّحْويين**، حقَّقه، وعلَّق عليه مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة – القاهرة،(د. ت).

- ابن عابدين، مُحَمَّد أمين بن عمر (ت 1252هـ)، **ردّ المحتار على الدر المختار**، دار الفكر – بيروت، ط2 1412هـ.

- ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت 775هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان، ط1 1419 هـ.

- ابن عاشور، مُحَمَّد الطّاهر بن مُحَمَّد(ت1393هـ)، **التّحرير والتّنوير(تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، الدّار التّونسيّة للنّشر – تونس، 1984م.

- ابن عاشور، مُحَمَّد الفاضل بن مُحَمَّد الطاهر (ت1390هـ)، **التفسير ورجاله**، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، السَّنة الثانية – الكتاب الثالث عشر، سنة 1390هـ.
- ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضَّحَّاك(ت287هـ)، **الآحاد والمثاني**، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية – الرِّياض، ط1 1411هـ.
- ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت 287هـ)، **السُّنَّة**، تحقيق مُحَمَّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط1 1400هـ.
- العايد، سليمان بن إبراهيم بن مُحَمَّد، **عناية المسلمين باللّغة العَرَبِيَّة خدمة للقرآن الكريم**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د. ت).
- العِبادي، عدي بن زيد (ت 587م – 35 ق.هـ)، **ديوان عدي بن زيد العِبادي**، تحقيق وجمع مُحَمَّد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد (سلسلة كتب التراث)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع– بغداد، ط 1965م.
- ابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت 68هـ)، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، جمعه مجد الدِّين أبو الطاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ)، دار الكتب العلميَّة – لبنان، (د. ت).
- عبد الحميد، مُحَمَّد محيي الدِّين (ت1392هـ)، **التّحفة السّنيّة بشرح المقدّمة الآجرومية**، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، 1416هـ.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التَّيمي البصري (ت 209هـ)، **مجاز القرآن**، تحقيق مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط 1381هـ.
- العتَّابي، هاني كنهر عبد زيد (2013م)، **ابن مالك النَّحْوي في تفاسير القرآن الكريم**. رسالة ماجستير، جامعة واسط.
- عتر، حسن ضياء الدِّين (ت 1432هـ)، **بيّنات المعجزة الخالدة**، دار النصر، حلب، ط1 1975م.
- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، **تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)**، دار ابن الجوزي – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1423هـ.
- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، **تفسير القرآن الكريم الكهف**، دار ابن الجوزي، المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1423هـ.

- العثيمين، مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد (ت 1421هـ)، **مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ مُحَمَّد ابن صالح العثيمين**، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن – دار الثريا، ط الأخيرة 1413هـ.
- العجّاج، عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر (ت نحو 90هـ)، **ديوان العجّاج (رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه)**، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السلطي، مكتبة الدكتور مروان العطيّة، المطبعة التعاونية بدمشق 1971.
- العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، **علَّامة الشام عبدالقادر بن بدران الدمشقي حياته وآثاره**، دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان، ط1 1417هـ.
- العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، **علّامة الكويت الشّيخ عبد الله الخلف الدّحيان حياته ومراسلاته العلمية وآثاره**، مركز البحوث والدّراسات الكويتيّة ، الكويت، 1415هـ.
- ابن العربي، القاضي مُحَمَّد بن عبد الله أبو بكر (ت 543هـ)، **أحكام القرآن**، راجع أصوله، وخرَّج أحاديثه، وعلَّق عليه مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط3 1424هـ.
- ابن أبي العز، صدر الدين مُحَمَّد بن علاء الدين علي بن مُحَمَّد (ت 792هـ)، **تفسير ابن أبي العزّ**، جمع ودراسة شايع بن عبده بن شايع الأسمري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1 1423هـ.
- ابن عطيَّة، أبو مُحَمَّد عبدالحق بن غالب بن عبدالرَّحْمَن (ت542هـ)، **المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط1 1422هـ.
- ابن عقيل، عبدالله بن عبد الرَّحْمَن (ت 769هـ)، **شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك**، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، ط20 1400 هـ.
- العُكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ)، **اللباب في علل البناء والإعراب**، تحقيق د. عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط1 1416هـ.
- العُكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله (ت616هـ)، **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق علي بن مُحَمَّد البجّاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د. ت).
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت 1424هـ)، بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، ط1 1429هـ.

- أبو عمر القرطبي، يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد (ت 463هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي مُحَمَّد البجَّاوي، دار الجيل، بيروت، ط1 1412هـ.
- العيني، أبو مُحَمَّد محمود بن أحمد (ت 855هـ)، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د. ت).
- الغزنوي، أبو القاسم مُحَمَّد بن أبي الحسين علي بن الحسين النيسابوري (ت 553هـ)، **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن**، تحقيق سعاد بنت صالح، جامعة أم القرى – مَكَّة المُكَرَّمَة، 1419هـ.
- الغلاييني، مصطفى بن مُحَمَّد سليم (ت 1364هـ)، **جامع الدروس العَرَبِيَّة**، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، ط28 1414هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، **الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، الناشر مُحَمَّد علي بيضون، ط1 1418هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، **مجمل اللغة لابن فارس**، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2 1406هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، 1399هـ.
- فاضل، مُحَمَّد نديم، **التَّضمين النَّحْوي في القرآن الكريم**، (أصل الكتاب: أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم)، دار الزمان، المدينة المنورة – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة، ط1 1426هـ.
- الفرّاء، أبو يعلى مُحَمَّد بن الحسين (ت 458هـ)، **إبطال التأويلات لأخبار الصفات**، تحقيق أبي عبد الله مُحَمَّد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت – الجهراء، (د. ت).
- الفراهي، عبد الحميد الهندي (ت 1349هـ)، **مفردات القرآن** – نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، تحقيق د. مُحَمَّد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط1 2002م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، **الجمل في النَّحْو**، تحقيق د. فخر الدِّين قباوة، ط5 1416هـ.
- الفراهيدي، أبو عبد الرَّحْمَن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، **كتاب العين**، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د. ت).

- الفيروز أبادى، مجد الدِّين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب (ت 817هـ)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (ج4 1412هـ، ج2 1416).

- القاسمي، مُحَمَّد جمال الدِّين بن مُحَمَّد سعيد (ت1332هـ)، **محاسن التأويل**، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط1 1418هـ.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين أبو بكر بن أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الأسدي (ت 851هـ)، **طبقات الشافعية**، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب – بيروت، ط1 1407هـ.

- القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى (ت 544هـ)، **إكمال المُعلِم بفوائد مسلم**، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1 1419هـ.

- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، **تأويل مختلف الحديث**، المكتب الإسلامي – مؤسسة الإشراق، ط2 1419هـ.

- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، **غريب القرآن**، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلميَّة، 1398هـ.

- ابن قتيبة، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، **عُيُونُ الأَخْبَارِ**، شرحه وضبطه د. يوسف الطويل، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان ط3 1424هـ.

- القرافي، أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بن إدريس (ت 684هـ)، **الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)**، الناشر عالم الكتب، (د. ت).

- القرضاوي، يوسف، **دَور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، مكتبة وهبة – القاهرة، ط1 1415هـ.

- القرطبي، أبو الوليد مُحَمَّد بن أحمد بن رشد (ت 520هـ)، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل مستخرجة**، تحقيق د. مُحَمَّد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط2 1408هـ.

- القرطبي، أبو عباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت 656هـ)، **المفهم لما أُشكل من تلخيص كتاب مسلم**، تحقيق محيي الدِّين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، ط1 1417هـ.

- القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2 1384هـ
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت465هـ)، **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب – مصر، ط3، (د. ت).
- القصّاب، أحمد مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الكَرَجي (ت نحو 360هـ)، **النُّكت الدَّالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**، تحقيق إبراهيم بن منصور الجنيدل، دار القيم – دار ابن عفَّان، ط1 1424هـ.
- القطَّان، مناع بن خليل (ت1420هـ)، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3 1421هـ.
- القِنَّوجي، أبو الطيب مُحَمَّد صدّيق خان بن حسن بن علي (ت1307هـ)، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، عناية عبدالله بن إبراهيم، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت 1412هـ.
- ابن القيِّم، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر ابن أيوب(ت751هـ)، **بدائع الفوائد**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).
- ابن القيم، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **مختصر الصواعق المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة**، اختصره ابن الموصلي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن الموصلي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم (ت 774هـ)، تحقيق سيِّد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة – مصر، ط1 1422هـ.
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرِّياض – المملكة العَرَبِيَّة السُّعُودِيَّة،(د. ت).
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **الطب النبوي**، دار الهلال – بيروت، (د. ت).
- ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27 1415هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، **طبقات الشافعيين**، تحقيق د. أحمد عمر هاشم، د. مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عزب، مكتبة الثقافة الدِّينية، 1413هـ.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي ابن مُحَمَّد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، ط2 1420هـ.

- الكرماني، أبو القاسم برهان الدِّين محمود بن حمزة بن نصر (ت نحو 505هـ)، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، (د. ت).

- الكفوي، أيوب بن موسى (ت1094هـ)، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق عدنان درويش ومُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، (د. ت).

– اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة – المجموعة الاولى، والثانية، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويّش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الإدارة العامة للطبع – الرياض، (د. ت).

- الماتريدي، أبو منصور مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن محمود (ت 333هـ)، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السُّنَّة)**، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلميَّة – بيروت، لبنان، ط1 1426هـ.

- المازري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن عمر التميمي (ت 536هـ)، **المُعْلِم بفوائد مسلم**، تحقيق فضيلة الشيخ مُحَمَّد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط2 1988م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م.

- ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدِّين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، **ألفيّة ابن مالك**، دار التعاون، (د. ت).

- ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدِّين مُحَمَّد بن عبد الله (ت 672هـ)، **شرح تسهيل الفوائد**، تحقيق د. عبد الرَّحْمَن السيد، د. مُحَمَّد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ط1 1410هـ.

- ابن مالك، مُحَمَّد بن عبدالله (ت672هـ)، **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، تحقيق مُحَمَّد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1387هـ.

- المبرِّد، أبو العبَّاس مُحَمَّد بن يزيد (ت 285هـ)، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3 1417هـ.

- المبرِّد، أبو العبّاس مُحَمَّد بن يزيد (ت285هـ)، **الفاضل**، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط3 1421هـ.

- محمود، منيع بن عبد الحليم (ت 1430هـ). **مناهج المفسرين**، دار الكتاب المصري _ القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، 2000م.

- مراد، وليد مُحَمَّد، **نظرية النظم وقيمتها العالية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجُرْجَانِيّ**، دار الفكر، ط1، 1983م.

- المرادي، أبو مُحَمَّد بدر الدِّين حسن بن قاسم (ت749هـ)، **الجنى الدّاني في حروف المعاني**، تحقيق فخر الدِّين قباوة والأستاذ مُحَمَّد نديم فاضل، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 1413هـ.

- المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371هـ)، **علوم البلاغة (البيان، المعاني البديع)**، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط3 1414هـ.

- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر بن حجر (ت نحو 544م – 80ق. هـ)، **ديوان امرئ القيس**، تحقيق مُحَمَّد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، ط5، القسم الأول رواية الأصمعي من نسخة الأعلم، (د. ت).

- مرتضى الزبيدي، أبو الفيض مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق الحسيني (ت 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت 1400هـ.

- ابن المرزبان، أبو مُحَمَّد عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد بن دُرُسْتَوَيْه (ت 347هـ)، **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق د. مُحَمَّد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، 1419هـ.

- المرزباني، الإمام أبو عبيد الله مُحَمَّد بن عمران (ت 384هـ)، **معجم الشعراء**، تصحيح وتعليق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط2 1402هـ.

- المرزوقي الأصفهاني، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن (ت 421هـ)، **الأزمنة والأمكنة**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1 1417هـ.

- مطرجي، عرفان، **الجامع لفنون اللغة العَرَبِيَّة والعروض**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، ط1 1407هـ.

- المطعني، عبد العظيم إبراهيم مُحَمَّد (ت 1429هـ)، **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، مكتبة وهبة، ط1 1413هـ.

- المظهري، مُحَمَّد ثناء الله (ت 1225هـ)، **التفسير المظهري**، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرَّشديَّة، الباكستان، ط 1412هـ.

- مغالسة، محمود حسني، **النَّحْو الشافي الشامل**، دار المسيرة، عمَّان، ط1 1427هـ.

- مكِّي، أبو مُحَمَّد مكِّي بن أبي طالب حَموّش بن مُحَمَّد (ت437 هـ)، **مُشْكِل إعراب القرآن**، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2 1405هـ.
- ابن المُنذر، أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم (ت 319هـ)، **كتاب تفسير القرآن**، قدم له الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حقَّقه، وعلَّق عليه الدكتور سعد بن مُحَمَّد السعد، دار المآثر – المدينة النبويّة، ط1 1423هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر– بيروت، ط3 1414 هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن علي (ت 711هـ)، **نثار الأزهار في الليل والنهار**، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1 1298هـ.
- ابن المنير، ناصر الدين أحمد بن مُحَمَّد الإسكندري (ت683هـ)، الانتصاف فيما تضمَّنه الكشاف، وهو مذيل في الحاشية من كتاب **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ.
- المنيراوي، هديل مُحَمَّد عطية (2009م). **أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن " دراسة تطبيقية في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء "**. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة.
- أبو موسى، مُحَمَّد مُحَمَّد، **خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، مكتبة وهبة،ط7، (د. ت).
- النابغة الجعدي، أبو ليلى عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة (ت نحو 50هـ)، **ديوان النابغة الجعدي**، جمعه، وحقَّقه، وشرحه د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1 1998م.
- النابغة الذبياني، أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب (ت نحو 18ق هـ)، **ديوان النابغة الذبياني**، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3 1416.
- الناصري، مُحَمَّد المكِّي (ت 1414هـ)، **التَّيسير في أحاديث التَّفسير**، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1 1405هـ.
- ابن النَّاظم، أبو عبد الله بدر الدِّين مُحَمَّد ابن الإمام جمال الدِّين مُحَمَّد بن مالك (ت686هـ)، **شرح ابن النَّاظم على ألفيَّة ابن مالك**، تحقيق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان ط1 1420 هـ.

- النَّجار، مُحَمَّد عبد العزيز، **ضياء السَّالك إلى أوضح المسالك**، مؤسسة الرسالة، ط1 1422هـ.
- النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد (ت338هـ)، **معاني القرآن**، تحقيق مُحَمَّد علي الصَّابوني، جامعة أم القرى – مَكَّة المُكَرَّمَة، ط1 1409هـ.
- النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن إسماعيل (ت338 هـ)، **إعراب القرآن**، علَّق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميَّة – بيروت، ط1 1421هـ.
- ابن النديم، أبو الفرج مُحَمَّد بن إسحق بن مُحَمَّد الورَّاق، (ت 438هـ)، **الفهرست**، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط2 1417هـ.
- النسائي، أبو عبدالرَّحْمَن أحمد بن شعيب بن علي (ت303هـ) **المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنَّسائي)**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط2 1406هـ.
- والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (ت 710هـ)، **تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، حققه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1 1419 هـ.
- النَّملة، عبد الكريم بن علي بن مُحَمَّد، **المُهَذَّبُ فِي عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ المُقَارَنِ**، مكتبة الرُّشد – الرِّياض، ط1 1420هـ.
- النُّميري، أبو حيَّة الهيثم بن الرَّبيع (ت 183هـ)، **شعر أبي حيَّة النُّميري**، جمعه وحقَّقه الدكتور يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد (ت 1379هـ)، **إشارات الإعجاز في مظانِّ الإيجاز**، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر – القاهرة، ط3 2002م.
- النَّووي، أبو زكريَّا محيي الدِّين يحيى بن شرف (ت676هـ)، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط2 1392هـ.
- النُّويري، شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهَّاب بن مُحَمَّد (ت 733هـ)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القوميَّة، القاهرة، ط1 1423هـ.
- والنيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحقيق مجموعة من المحققين، دار الجيل– بيروت، الطبعة : مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة 1334 هـ.

- النَّيسابوري، نجم الدِّين أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (ت نحو 550هـ)، **إيجاز البيان عن معاني القرآن**، تحقيق د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الأسلامي – بيروت، ط1 1415هـ.
- النيسابوري، نظام الدين الحسين بن مُحَمَّد الحسين القمي (ت850 هـ)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 1416 هـ.
- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (ت 1362هـ)، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ضبط، وتدقيق، وتوثيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصريَّة، بيروت، (د. ت).
- الهَرَمِيّ، عمر بن عيسى بن إسماعيل (ت 702هـ)، **المحرَّر في النَّحْو**، تحقيق أ. د. منصور علي مُحَمَّد عبد السميع، دار السلام، مصر – القاهرة – الإسكندرية، ط2 1429هـ.
- ابن هشام، ابو مُحَمَّد جمال الدِّين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت761هـ)، **أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك**، تحقيق يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، دار الفكر، (د. ت).
- ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، **شرح قطر النَّدى وبلّ الصَّدى**، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، دار الطَّلائع للنشر والتوزيع – القاهرة، ط11 1383هـ.
- ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبدالله بن يوسف بن أحمد (ت 761هـ)، **مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق مُحَمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، ط 1424هـ.
- ابن هشام، أبو مُحَمَّد جمال الدِّين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت 213هـ)، **السِّيرة النبويَّة لابن هشام**، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2 1375هـ.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، **الوُجُوه والنَّظائر**، تحقيق مُحَمَّد عثمان، مكتبة الثقافة الدِّينية، القاهرة، ط1 1428هـ.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت نحو 395هـ)، **الصناعتين**، تحقيق علي مُحَمَّد البجَّاوي ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصريَّة، بيروت 1419هـ.
- والهلالي، أبو أسامة سليم بن عيد، **صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء**، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط1 1429هـ.

- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد (ت468هـ)، **التَّفسير البسيط**، عمادة البحث العلمي– جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط1 1430هـ.

- ياسوف، أحمد، **جماليّات المفردة القرآنيّة**، دار المكتبي، دمشق، ط2 1419هـ.

- اليشكري، أبو سعد سويد بن أبي كاهل غطيف بن حارثة (ت نحو 60هـ)، **ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري**، جمع وتحقيق شاكر العاشور، مراجعة مُحَمَّد جبَّار المعيبد، دار الطباعة الحديثة، بصرة – عراق، ط1 1972م.

- يعقوب، إميل بديع، **المُعجم المُفَصَّل في شواهد العَرَبِيَّة**، دار الكتب العلميَّة، ط1 1417هـ.

- اليعقوب، عبد الله بن يوسف بن عيسى، **المِنْهَاجُ المُخْتَصَر في عِلْمَي النَّحْو والصَّرف**، مؤسَّسة الريّان، بيروت – لبنان، ط3 1428هـ.

- ابن أبي يعلى، أبو الحسين مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت 526هـ)، **طبقات الحنابلة**، تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت، (د. ت).

- ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدِّين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السّرايا (ت643هـ)، **شرح المُفَصَّل للزَّمخشري**، قدَّم له د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط1، 1422.

- اليمانيّ، عبد الرَّحْمَن بن يحيى المعلِّميّ (ت1386هـ)، **مجموع رسائل التَّفسير**، تحقيق مُحَمَّد أجمل الإصلاحي، دار علم الفوائد، ط1 1434هـ.

- ابن يونس، أبو سعيد عبد الرَّحْمَن بن أحمد بن يونس الصَّدفي (ت 347 هـ)، **تاريخ ابن يونس المصري**، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1 1421 هـ.